
رواية
@ketab_n
آليس ووكر
معبد تابعتي
FIFA WORLD CUP
Qatar2022
12.12.2022
ترجمة: وائل أحمد بحري

آليس ووكر

معبد تابعتي

ترجمة : وائل أحمد بحري

مراجعة : زياد عبد الله



معبد تابعتي



Author: **Alice Walker** | اسم المؤلف: آليس ووكر

Title: **The Temple of My Familiar** | عنوان الكتاب: معبد تابعتي

Translation: **Wael Ahmed Bahri** | ترجمة: وائل أحمد بحري

Review: **Ziad Abdullah** | مراجعة: زياد عبد الله

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy** | تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **2020** | الطبعة الأولى: 2020



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

إشادة برواية معبد تابعتي

«بوصفها تتمة لرواية *اللون أرجواني*، تعتبر *معبد تابعتي* إنجازاً كبيراً».

• شيكاغو تريبيون.

«كتبت آليس ووكر بشكل رائع عن الأحلام، وقوة الحكايات – وعن قوة تاريخنا اللافتة للنظر»

• واشنطن بوست، عالم الكتاب

«تحيك السيدة ووكر حياة شخصياتها بأسلوب ثري... قوي... تنسج السيدة ووكر حياة شخصيتها... وتصوغها بمنتهى البراعة في قالب فني يضاهي جماله جمال وأثر أحد أردية شخصياتها المزدانة بريش الطواويس»

•أتلانتا جورنال كونستيتيوشن

«*معبد تابعتي* عمل جريء لكاتبة تمتلك موهبة مذهلة»

• نيوزداي

«قطعة مطرزة مفعمة بالعواطف الإنسانية حيكت شعراً وشغفاً... عندما نتحدث عن الجمال المطلق للكلمة المكتوبة، تعتبر هذه الرواية هي الأرقى»

• سان دييغو يونيون – تريبيون

«عمل رائع... في أحد جوانبه رواية، وفي جانب آخر تاريخ متبصر،

وفي جانب ثالث تعتبر مساراً ثورياً، بالمقابل، سوف يسعد هذا الكتاب ويصدم ويحبط ويلهم جمهور ووكر»

• يو إس أي توداي.

«عمل أدبي مؤثر... احتفاء بالحياة العادية وبمشاعر الحياة اليومية»

• لوس أنجلس تايمز

«قطعة مطرزة ساحرة تحكي عن التجربة والعاطفة الإنسانية... سوف يسعد القراء بقراءتها»

• سان فرانسيسكو examiner-chronicle

«أليس ووكر كاتبة تتمتع بموهبة زاخرة»

• نيويورك تايمز بوك ريفيو

الإهداء

إلى روبرت
الذي يشع منه نور الآلهة

إن كانوا قد كذبوا بشأني،
فقد كذبوا في كل شيء.

• ليزي ليليس

الفصل الأول

في بلد غابر من بلدان أمريكا الجنوبية، كانت زيدي، جدة كارلوتا خياطة، خياطة ساحرة بحق. تبتكر الملابس، خاصة تلك المشالح التقليدية المزينة بالريش، التي كان يرتديها الراقصون والموسيقيون والكهنة في مهرجانات القرية التقليدية، وظلّت تُلبس لأجيال متعاقبة. حين كانت صغيرة، أرسلتها والدتها كارلوتا، وتدعى أيضاً زيدي، لجمع ريش الطواويس لتصاميمها. وقفت زيدي الصغيرة منتظرة، ومالكة الطواويس البدينة المستحمة بعرقها تمسك بتلك الطيور بيدين خشنتين مُخمّشتين، وتنتزع الريش الزاهي واحدة تلو الأخرى. حينها فقط عرفت زيدي معنى عويل الطواويس الحزين. لقد حيرها في البدء سبب إطلاق طائر بهذا الجمال - وإن عُرِف بساقيه القبيحتين - صوتاً أشبه بصوت روح تتعذب. زارت مربي الببغاوات ذات الأعراف، فتتكرر نتف الريش المؤلم، وعرّجت بعدئذٍ على العجوز أخصائية «تلقّط الريش» والتي رغم أن فقرها أشدّ من الآخرين غير أنها احتكمت على وجه أكثر وداعة. اعتقدت هذه العجوز أن كل ريشة تعثر عليها هي نعمة من الآلهة، وكان ريشها الذي لا مثيل له - المغروس في عمائم الكهنة المدهشة - يضفي دائماً لمسة مباركة تتطلبها الشعائر.

ارتادت زيدي الصغيرة المدرسة كل صباح وهي ترتدي بزة أنيقة من الزي الموحد بلونيه الأبيض والأزرق، وجديلتاها الطويلتان تنسدلان بدفء على ظهرها الصغير. عند دخولها المدرسة الثانوية، قصّوا لها

شعرها ليغدو قصيراً إلى ما دون أذنيها، وباتت تحركه بنفاد صبرٍ بينما تتذمر أمها من النوعية الرديئة للريش الجديد. «لا يُترك للريش في هذه الأيام أن ينمو كما يجب»، وعزت ذلك إلى نتفه وهو غضيض، ولذلك فإن كل قدرتها على التعبير عن إبداعها في منتوجاتها قد ضاع الآن.

تألف سكنهم من قسمين صغيرين، أحدهما للنوم، والآخر للطبخ - والذي لم يسبق لوالد زيدي أو أخوتها الذكور أن دخلوه قط - وكانت أشجار الأفوكادو والمانغو وجوز الهند تملأ المكان، وبمقدورهم رؤية النهر من الفناء الأمامي للمنزل، حيث تتهادى عبره مراكب «البراهوس» الصغيرة المستعملة من صيادي الأسماك، وكأنها أسراب عائمة من قرون الفانيلا الجافة، كما درجت أمها على وصفها دائماً.

كانت الحياة هانئة لدرجة أن زيدي لم تلحظ فقرهم، لقد اكتشفته عندما ألمّ المرض بوالدها العامل في مزرعة الموز، تلك المزرعة المتاحة رؤيتها من بيتهم. وقد تصادف مرضه مع حظر مهرجانات القرية التقليدية. لم تكن زيدي أكيدة ممن كان المسؤول عن حظرها، أو «تحريمها» كما قال والدها. أمسى الكهنة بشكل خاص، عاطلين عن العمل، وأصبح الراقصون والموسيقيون يؤدون رقصاتهم ويعزفون موسيقاهم ويسكرون في الخمارات، وهام الكهنة على وجوههم يجوبون القرية مطأطئي الرؤوس، وظهروا فجأة على حقيقتهم فما كانوا سوى عجائز بأجساد مهلهلة.

كانت زيدي تدرس بجد ومثابرة في جامعة في العاصمة بعيداً عن عائلتها، بفضل منحة دراسية نالتها، حين توفي والدها المتعب الهزيل ببشرته البنية وشعره الأسود وقد تخلله الشيب. سوف تعتاش والدتها بَعده من بيع بضائعها الرائعة المريّشة لتلك الغرينغو[1] الشقراء الصغيرة والباردة صاحبة المتجر الواقع في الطابق الأرضي من الفندق الجديد

1- تعبير يستعمله الناطقون بالإسبانية للإشارة إلى الأنجلوساكسون، ومفردها غرينغا - المترجم.

الكبير الذي ظهر بين عشيةٍ وضحاها قرب قريتهم. كانت والدتها تقف أحياناً في الشارع قرب الفندق، تراقب الأمريكيات اللواتي يشترين صنيعها من أقراط وقلائد وأوشحة الريش - وحتى العمائم الشبيهة بعمامات الكهنة - يرتدينها وهن يذرعن الشارع الضيق المغبر جيئة وذهاباً. لم يرمقنها ولا أحست بأنها مرئية بالنسبة إليهن، ورغم ذلك بدا لها صنيعها رائعاً، لائقاً عليهن، إلا أن من يرتدينه كن شديدات الغرابة بالنسبة إليها.

امتدت أعمال الشغب طيلة سنة زيدي الدراسية الأخيرة في الجامعة، والتي تمرّنت خلالها أن تكون معلمة. من حينٍ لآخر، وأثناء ذهابها إلى الصف، كان عليها تفادي الحجارة وقطع الآجر والقوارير وشتى أصناف العربات المسرعة بتهور. بالكاد كانت تلاحظ المشاركين في أعمال الشغب. بعضهم كانوا مزارعين، البعض تلامذة مثلها، والبعض الآخر كانوا رجال شرطة. امتلكت زيدي مثل أمها، عقلاً تكاد لا تُصدق أحاديثه؛ فكما لم يكن لشيء أن يشتت انتباه زيدي العجوز الدقيق عن تفاصيل حرفتها، ولم تعط جدتها أي أهمية لتغير السوق وتحول الآخرين نحو الأواني الفخارية المثقوبة والمنسوجات الرديئة مقابل أموال السياح الجهلة، كانت زيدي تسير بتثاقل على طول طريق المدرسة متجاهلةً كل ما من شأنه تأخيرها.

لم تكن حتى واعية لخطر إغلاق المدرسة الذي ظنت أنه حصل دون مقدمات. فرغم إغلاقها في أحد الأيام، بلا سابق إنذار أو حتى ملصق صغير على الباب - هكذا ببساطة أُقفِلت الأبواب - ظلّت تجلس على الدرج المؤدي إلى الصفوف على مدى يومين. علمت بعدها أن بعضاً من زملائها في الصف قد أودعوا السجن بينما أصيب آخرون بالعيارات النارية.

ولكونها قد أنهت تدريبها وأمست مؤهلة للتدريس، فقد وافقت عندما طُلِب منها تعليم صفٍّ في التلال، صفٍّ من دون جدران وتلامذة

بلا لباس موحد. علّمتهم مبادئ النظافة الشخصية والقراءة والكتابة والأرقام على مدى ستة أشهر قبل اعتقالها بتهمة الشيوعية.

لم تسأل أمها يوماً عن الأعوام التي أمضتها في السجن، رغم أنه مكان ولادة كارلوتا. لم يكن سجناً كباقي السجون، بل أشبه بقرية هندية مصادرة تقع في الغابات الخلفية للبلاد التي كانت هندية فيما مضى. تم «ترحيل» الهنود منها، وزُرِعت كل ممتلكاتهم من الأراضي الخصبة المترامية بأشجار «البابايا». جيء بالسجناء إلى القرية للعمل في زراعة ورعاية واستثمار هذه الأشجار بغرض تصدير منتجاتها.

لا علم لكارلوتا على وجه الدقة بكيفية فرار والدتها من السجن. لعل والدها كان أحد حراسه الأميين المفتونين بها، رغم امتعاضهم من قدرة امرأة شابة وجميلة كزيدي على القراءة والكتابة. بعد أعوام طويلة عندما كانت والدة كارلوتا تصف المراكب المدببة الصغيرة تنساب مبعثرةً عابرةً النهر كقطعان عائمةٍ من قرون الفانيلا، تهيأ لكارلوتا بأنهما ربما فرّتا على متن أحدها عبر قناة بنما، وظنهما خفر السواحل الأمريكيين بالخطأ رزمةً من الأعشاب البحرية، وصولاً إلى أمريكا الشمالية ومن ثم إلى داخل خليج سان فرانسيسكو.

تشكلت ذاكرة كارلوتا في سان فرانسيسكو فقط. كانت طفلةً كئيبةً وجديّة بعينينِ لوزيتين وشعرٍ أسود لامع. سوف تتحدث في غضون سنوات إنجليزية لا تشوبها لكنة أجنبية، لغةٌ بدت عسيرة على فهم والدتها في البداية، حتى عندما تحادثها بها. لكنها سوف تتقنها بعد عدة سنوات إتقاناً ممتازاً، إنما بنبرةٍ ثقيلة بدت معها وكأنها ما تزال تتحدث الإسبانية، ولهذا لم يسمح لزيدي بمزاولة التعليم في مدارس كاليفورنيا الحكومية، وكانت تتهيب المحاولة بسبب خجلها.

أقامتا في شقة رثة وسيئة الإنارة فوق بقالية تايلندية في بقعة من المدينة يقطنها منبوذو المجتمع. بعضهم لم يكن لديه حتى سقف يؤويه، رغم هطول المطر معظم الوقت، فينامون في مداخل البيوت أو السيارات

المهجورة. وجدت والدتها عملاً في معمل استغلالي قريب، وما كان من رجل في حياتها. هما الاثنتان ولا أحد سواهما. تولت والدتها مهمة تأمين الطعام والكساء، فيما كان عمل كارلوتا الطبخ والتنظيف، وبالطبع، الذهاب إلى المدرسة.

عرفت أوقاتاً بائسة في المدرسة لكنها لم تخبر والدتها بالأمر، شأن الكثير من الأمور السيئة التي جرت معها. لم تكن زيدي قد تجاوزت الخامسة والثلاثين وكانت محدودبة والكآبة تغمر محياها، امرأة متجهمة هزيلة، تتهيب الصخب والآخرين، وتتجنب الاستعراضات. في عيد الهالوين والمثليون يسيرون في الاستعراض بأزيائهم المميزة، جاءت واختطفت كارلوتا من مكانها قرب النافذة ثم أسدلت الستارة، لكن ليس قبل أن ترى كارلوتا إحدى قبعات الريش الكبيرة التي حاكتها والدتها في المنزل خفية، والمصنوعة من ريش الطواويس والببغاوات العادية وذات الأعراف، فبدت مبعثاً لبهجة غامرة في مدينة غارقة في الضباب والكآبة. رجل نحيل وشاحب يرتدي الرداء ذو القبعة، بدا أنه عار تقريباً إلا منه حاملاً صولجانه من الكريستال ويحتسي البيرة.

ميزت كارلوتا من خلال هذه النظرة الخاطفة على استعراض الهالوين بداية عمل والدتها الجديد. عملت نهاراً في المصنع الاستغلالي، في تفصيل سراويل الجينز والقمصان من طراز رعاة البقر أو المزارعين إضافة لربطات العنق. تألف طعامهما الأساسي من الرز والفاصولياء. واشتريتا بالمال الذي تدبرت أمها ادخاره الريش من أحد مخازن الاستيراد الكبيرة، والذي عملت كارلوتا لاحقاً في أحدها ويدعى «ورلد إمبورت». عملت في بادئ الأمر عاملة تنظيفات في المستودع، وسط البضائع المكدسة زهيدة الثمن، المفعمة بالألوان وفائقة الجمال، وقد استوردت من بلدانٍ كبلاد والدتها (لم تكن تعتبر أمريكا الجنوبية قارّتها)، ثم عملت بعد ذلك في ترتيب البضائع على الأرضية، وفي النهاية تولت أمانة صندوق.

دخلت الجامعة في تلك الفترة ولم يعد بمقدورها العمل سوى في الصيف أو في الفترة المسائية. في مرحلة لاحقة من حياتها، سمعت بحكاية الرجل الذي كان يعمل في مصنع المعدات الزراعية ويمر بشكل يومي بالحراس دافعاً عربة أمامه. راح الحراس المرتابون يفتشون العربة تفتيشاً دقيقاً ليتأكدوا من خلوها، وكانت كذلك على الدوام. بعد عشرين عاماً، عندما أمسى الرجل ثرياً، أخبرهم بأن ما كان يسرقه هو العربات. ينطبق هذا على كارلوتا؛ لم تسرق سوى الريش، الذي تحمله في يدها باستمرار كأنها تهم بنفض الغبار عن شيء ما. ريش الطواويس تحديداً، حزم عديدة منه على مدى سنوات، إذ اكتشفت والدتها ميل نجوم «الروك» في الستينيات لارتدائها وأنها، لقاء رداءٍ واحدٍ مذهلٍ من ريش الطاووس، تستطيع إطعام نفسها وكارلوتا وتأمين الملابس لهما لمدة سنة كاملة.

خلال سنتها الأخيرة في الكلية، أوصلت كارلوتا أحد هذه الأردية لواحد من نجوم «الروك» هؤلاء، وكان معروفاً لدرجة أنها سمعت به - رجلٌ ذو بشرةٍ ضاربةٍ إلى البني الداكن معصوب الرأس، وبدا لها أنه يشبهها بمعنى من المعاني، كما خيل لها. رأت فيه هنديته، وليس سواد بشرته. اتضح لها هذا من طريقة نظرته إليها بشكل مباشر، رآها بالفعل. بتركيز ساحر القرية الهادئ والمحايد. لاحظ وجودها على الرغم من أنه كان مخدراً. أوصلت العديد من الأردية والأوشحة والفساتين، وعصابات الرأس المطرزة بالريش، والصنادل والسراويل والجينز لنجوم الروك ومن لفّ لفهم، غير أنهم لم يروها بتاتاً في غمرة حماسهم لقياس ما جلبته لهم. لم يتساءلوا مطلقاً عن الأسلوب الساحر الذي شُغِلت به هذه الملابس المزركشة بالريش، ولا عن وخزات أصابع والدتها وارتعاشات الألم في وجهها وعينيها. لم تنتظر منهم أن يفعلوا؛ فهم في نظرها مجرد شخوص شيطانية. كانت تنفر من مظاهرهم، شديدو الشحوب وباردون ومبللون. تمقت مخدراتهم البادية للعيان بمنتهى الصفاقة.

أصبحت الغلايين والسلطانيات المزدانة بالريش من المشغولات المطلوبة باستمرار - لم تكن متيقنة ما إذا كانت والدتها تعلم أو تكترث حتى بماهية استعمالها. تعلمت كارلوتا التواري والانتظار بصمت، «كامرأة هندية»، إلى أن يتوقف الشاري/ة - كلمة والدتها الوحيدة لوصفهم - عن الإعجاب بانعكاسه/ا في المرآة ويتراجع بهدوء باحثاً عن دفتر الشيكات الذي يصعب إيجاده على الدوام. غالباً ما كانوا يحثونها على تخفيض أسعارها، فتلجأ في بعض الأحيان لمخاطبتهم بإسبانية والدتها المبهمة زاعمةً عجزها عن فهم اللغة التي يتحدثونها. بين الفينة والأخرى، كان أحد الزبائن المغتبطين وهو في طريقه إلى حفلٍ راقصٍ أو استعراض، يعطيها إكرامية، أو يلاحظ جمالها.

لعلها جميلة، غير أنها ليست بجذابة. عيناها قلقتان ويقظتان - لعل مراكب قرون الفانيليا ما زالت تطفو - متعبة الوجه ويصعب تصور فمها باسماً ما لم تتبسم. ومع هذا فقد كانت تنضح بمزيج استوائي أشبه بالعطر، تذكّر الرجال بالإعلانات التجارية عن أماكن قصية في المحيط الهادي، وحين يرونها بحق - وهذا نادر الحدوث - يشرد بهم مظهرها نحو تلك المساحات القاحلة المجدبة قرب مسقط رأسهم؛ تدفعهم للتفكير بالمطر.

لعل مردّ ذلك شعرها الذي يبدو مبللاً من شدة سواده. أو قد تكون أهدابها التي تمتص الضوء وتلفظه هي السبب. وذلك الزغب النامي على وجهها وصدغيها مشكلاً فتلات ناعمة كالتي تتشكل في الشعر الأملس بعد الاستحمام.

لقد أبصر نجم الروك أرفيدا كل ما فيها، علاوة على رؤيته للمشلح. ارتداه، وزها بوابل من الألوان القزحية وعيون الطواويس العمياء، وراح يتبختر أمام مقلتيها المتحفزتين. كان هو من تفوه بما لم يكن ليتبادر حتى إلى ذهنه.

نازعاً المشلح عن كتفيه، ثم وضعه على كتفيها وأدارها نحو المرآة.

«لا شك أنه مصنوع لأجلك أنت فقط». قال.

نظرتْ إلى كليهما في المرآة. إلى اسمراره الوافر؛ لهما الأنف نفسه، والعينان نفسهما (عدا أن عينيه لعوبتان وماكرتان)، شعره الأجعد، وشفتاه المتناسقتان، ويداه الصغيرتان، ووركاه المثيران، المشدودان والمتناسقان داخل سرواله الجينز بشكل ملائم. حتى حذاؤه كان مزداناً بالريش. نظرت إلى نفسها - تكاد تكون توأماً له. بشرتها أفتح من بشرته، وشعرها أكثر استرسالاً من شعره، وعيناها كمراكب قرون الفانيلا - لكن...

«أتعني أنه صُنع لأمثالي؟»، قالت وبدت كأنها تصغي لصوتها مستمتعة باللكنة، إلا أنها لم تكن كذلك، بل بدت على هذا النحو جراء التبدل الذي طرأ على محياها.

أطلق ضحكة وعانقها.

«أمثالنا».

دفع خمسة آلاف دولار مقابل المشلح، حملتها كارلوتا وأقدامها تكاد لا تلامس الأرض.

كان هذا المبلغ هو أعلى سعر تلقته يَدي على الإطلاق. أدركت كارلوتا بأن هذا المبلغ سوف يمكنهما هي وأمها من اقتناء سيارة.

المشلح التالي الذي نقلته إلى أرفيدا، زاعماً أنه لشقيقته، كان من أجلها. مع أنه كان يرتديه أحياناً على الخشبة - إذ بدا رائعاً ظهوره فيه على المسرح، ويدفع الجمهور لهياج هستيري - المناسبة الوحيدة التي تمكنا فيها من ارتداء المشالح على الملأ سوية هي في الاستعراضات.

يظهران كطائرين وهما يرتديان المشالح السحرية التي تبدعها والدتها. نصحها قائلاً، «ما تتناولينه من طعام يحدث فرقاً في صحتك»، تنبهت أنها لا تأكل سوى الكعك المحلّى - فطائر كريم الشوكولا المنتفخة أو التويكنز - والرز والبقوليات التي لا غنى عنها. لم تكن السَّلطة ضمن حساباتها وكانت تعتقد بأنها تكره الفاكهة.

«أنت الآن شابة والطبيعة تسايرك وتساند ملامحك الجميلة، لكن التعب سينال منك ذات يوم نتيجة عاداتك الغذائية الشنيعة، وستكفُّ عن مسايرتك. عندها أين ستكونين؟»

تذكرت كارلوتا والدتها. كم بدت طاعنة في السن. كم هي بشرتها متعبة؛ شعرها يفتقر إلى الحيوية والبريق، ولا تستطيع مضغ العلكة على أضراسها الخلفية.

اضطجع أرفيدا على جنبه في سرير طافح بالوسائد الحريرية. عبقت الروائح في أرجاء الغرفة مع نفحة خفيفة لطعام هندي. كانت مفعمة بظلال دخانية، أزيحت ستارة واحدة فقط لتتيح دخول الضوء من المتنزه.

«أنت ثري»، قالت. «يمكنك أن تأكل ما يحلو لك». تابعت كلامها وقد ناقضت نفسها «الحمية - باعتقادي لا علاقة للحمية بالملامح. كل شيء عائد للجينات. بعض من مدقعي الفقر» - لم تعد تحسب نفسها من الفقراء - «يظلون على جمالهم الفائق رغم تقدمهم في السن».

«حين يشيخ الفقراء يكشفون عن أحلى ما لديهم». دمدم أرفيدا، «لأن بلوغ هذه المرحلة من العمر هو معجزة على أية حال»، تابع مداعباً وجهها، وخصلة الشعر التي تلتف على نفسها أمام أذنها، «فعلاً، جانب منه وراثي جيني» قال معبراً عن إعجابه بجسده الممشوق أمام المرآة المسجّاة على طول الجدار المحاذي للسرير. حاول أن يتخيل جسد والده الذي لم يره بتاتاً. «لكن الطعام الجيد يتكفل بالباقي».

حين زارته، قدم لها العصائر الطبيعية الطازجة، ووضع أمامها أطباق عارمة من ثمار البابايا، والجوافة والشيريمويا[1]، القادمة من المكسيك. ما كان يستلذ بالفاكهة الآتية من هاييتي، «إنها بلاد البؤس، كما تعلمين».

أخذت تغير من عاداتها وتشذبها شيئاً فشيئاً، تأكل مما يأكل. لا

1- Cherimoya: فاكهة تنمو في أميركا اللاتينية والمناطق الاستوائية، ثمارها خضراء اللون على شكل قلب ذات عروق تشبه الجداول. (المترجم)

تتناول طعاماً دسماً في الصباح أبداً. تواظب على تناول الفاكهة على مدار الساعة، حتى في منتصف الليل.

قال لها إن الفطائر المنتفخة بالكريمة واللحم تصبغ البشر بنوازع إجرامية.

درج على الركض.

ركضت معه عبر «غولدن غات بارك»، شاهدت وجوهاً كوجهيهما، الأمر الذي أثار تساؤلها حول وجود أقرباء لها في منطقة الخليج. تعرفت في طفولتها وصباها على مجموعات عرقية «غرائبية»[1]. لقد راقها من بينها خاصة، لسبب لا تعرفه، شعب الهمونغ، الذين بدوا لها تحديداً أشداء وقدماء، حاملين أطفالهم الهزيلين على ظهورهم ويرتدون ملابس مزدانة بألوان متعددة تتخللها المرايا والأجراس والأصداف والخرز. حرضت الكرة المزخرفة (كيف تراها صنعت؟) في أعلى قبعاتهم توقها لمد يدها ولمسها. كانت الأمهات برفقة أطفالهن، بلكنتهن الأشد غرابة من لكنة زيدي، يتسوقن بهدوء في المخازن المحلية. يشرن إلى هذا المنتج الأمريكي أو ذاك. يتمتمن في حيرة من أمرهن. يقدمن النقود بثقة للباعة في المخازن، والذين كانوا على الدوام صبورين وفضوليين ومحترمين. لقد تسربت ثقافتهم إلى صناعة ملابس الأطفال بشكل واضح لأن أحداً، باستثناء الهنود (يلقبون «هنوداً»، كما درست، لأن مكتشفاً إيطالياً اعتبرهم *هنوداً* أول ما وقعت عليهم عيناه، سحقاً)، لم يعش في الأمريكيتين فترة تؤهله لإرساء ثقافة تحتكم على جماليات دامغة ومتواترة. ترمق طفل «همونغ»[2] فيعتريها الأسى لأنه سينتهي ولا بد في تينديرلوين[3] في أحد شوارع المدينة الأقل ثقافة

1- Exotic

2- يتحدر شعب الهمونغ (مياو) من مناطق النهر الأصفر في الصين. وثمة أدلة لغوية تشير إلى أنهم عاشوا في جنوب الصين منذ ألفي سنة. (المترجم)

3- من أحياء سان فرانسيسكو.

وتلوناً. أحبت كارلوتا أيضاً نساء «الساموان»[1]، أعجبت بوزن أجسادهن المميز وأحناكهن المربعة. بطيبتهن البادية ورباطة جأشهن. كن ملكات بالفطرة. كانت على الدوام تميز رجال «البالينز»[2]؛ بسبب مسحة الهلع على وجوههم وهم ينظرون متلفتين حولهم إلى زجاج أبنية المدينة وبيتونها. يستحيل إغواؤهم تماماً.

«إن كانت التمارين الرياضية للجسد فما هي رياضة العقل»، قال أرفيدا وهو يلهث.

كانت تركض بسهولة ويسر، هي التي لم تمارس التمارين الرياضية قط، ما خلا حراكها الدائم لتأدية مهمات والدتها... تتنفس وتجري دون أن تفكر أبداً بالعقل والجسد كعضوين منفصلين. تجاوزته بلا عناء، أخذت ساقاها الممشوقتان تنطلقان بسرعة. سوف يستحمان بعد ذلك في منزله ويضطجعان في سريره تحت الشمس.

***

انحدر من منطقة «تيري هوت» في إنديانا، والدته إحدى ثلاث نسوة من السود أسسن فيها كنيسة خاصة بهن: كنيسة «بيربيتشوال إنفولفمينت». كانت أمه، واسمها كاثرين ديغوس، من أكثر الناس تطفلاً؛ لا تعترف بالحدود، الجسدية منها أو الذهنية. كانت عاجزة عن النأي بنفسها عن شؤون الآخرين؛ كل الشؤون شأنها هي، وجاءت الكنيسة تكريساً لهذا النزوع، والتي بالمقابل جلبت لها الكثير من المشاكل. امرأة تتمتع بطاقة عالية ودائمة الحركة حول نفسها، وفي المرة الأولى التي سمع فيها أرفيدا بتعبير «دوامة الدراويش» ظن أنه توصيف خاص بأمه.

1- ساموا أو دولة ساموا المستقلة، وعُرِفت سابقاً باسم ساموا الغربية أو ساموا الألمانية، وهي دولة تضم القسم الغربي من جزر ساموا في جنوبي المحيط الهادئ. نالت استقلالها عن نيوزيلندا عام 1962.

2- باليون وهم العرقية الأصلية لجزيرة بالي في إندونيسيا.

وفي ذات يوم، حين كان في العاشرة، وفي غمرة إحدى دواماتها، بعد أن كانت قد فضت عدداً لا يحصى من المنازعات، وولّدت عدداً لا يحصى من الأطفال، وخبزت وتبرعت بعدد لا يحصى من الكعكات ووجبات عشاء ديك الحبش - لأن «العمل» في سبيل الآخرين كان سبيلها للتدخل في شؤونهم - توقفت بكل بساطة. تهالكت وجلست محدّقة من خلال النافذة الخلفية لثلاث سنوات. حُلّت الكنيسة. نستها النسوة اللواتي أنجبن على يديها. نظر الجياع إلى جسدها حسن التغذية بسخرية. لم تكترث. أخذت تلعب بتبرجها، ترسم ملامح وجهها، وتصبغ شعرها، وتشذب أظافرها كأنها تبدع عملاً فنياً بجسدها، أما في عقلها فقد بدت وكأنها تطوف في مساحات شاسعة من العدم.

أحجمت عن مسعاها تحسين العالم، وعوضاً عن هذا، أبت الانتباه إلى وجوده حتى. لم يكن يشعر بارتباط قوي بها في مراهقته. كان يبلي بلاءً حسناً ضمن الفرقة الموسيقية، وفاشلاً تماماً في أي أمر آخر. لم يكن ليبالي. جميع قاطني حيهم أشادوا بموسيقاه. يغني ويعزف على الغيتار والفلوت. أما هي فلم تمتدحه قط. كانت تنظر نحوه كأنه غير موجود، وفي أحد الأيام اختفت صورة والده، تلك الصورة المحفوظة على مرّ الأيام في إطار فضي على منضدة الليل قرب سريره.

«لا شيء، لا شيء يمكنه أن يحل محل الحب»، هذا ما أوصت بكتابته على شاهدة قبرها، إلا أن إحدى شقيقاتها، خالته فرودير، التي عهد إليها بهذه الوصية، اعتبرت أنها عبارة تفتقر إلى الحشمة. بدلاً عن تلك الكلمات، دفنت أمه تحت شاهدة رمادية باهتة لا تحمل سوى اسمها، وقد خلت حتى من العام الذي ولدت فيه. فكر بمقولتها كمفتاح يفتح مغاليق تلك المرأة التي هي والدته؟ وما قدّر له أن يعرفها.

أخبرها أرفيدا بشذرات غريبة من حياته وهو مضطجع مع كارلوتا في سريره الرحب، وتحت ساقيهما لحاف الساتان الأزرق الناعم والبارد. عن هيئة الأب التي اكتشفها في صباه، حين كانت أمه تحدق بنظرة فارغة

من النافذة. سيمون إسحاق. أو العم إسحاق. ليس لأنه لم يكن ليجرؤ نهائياً على مناداة السيد إسحاق «بالعم» في وجهه، أو في سره؛ بل لأنه لا يجدر به أن يدعو أياً كان «بالعم» ما عدا شخص أسود آخر.

كان السيد إسحاق بائع الخضار في الحي الذي يقطنه أرفيدا ووالدته، طويل القامة وذا عظام كبيرة، وعَينَين بنيَّتَين ساكنتَين، وعلى رأسه أجمة من الشعر الأحمر السلكي، يجلس على عتبة محله ويعزف على الكمان.

يتحلق جميع أطفال الحي حوله، قابضين على «الديمات والنكلات» في أيديهم ناسين وإن مؤقتاً أمر الحلوى التي جاؤوا لشرائها. كان يسحرهم ويستحوذ على أفئدتهم بعزفه الخلاب والمحبب - لم يكن أي منهم قد رأى الكمان من قبل. أما أرفيدا فكان أشدهم ذهولاً وانجذاباً لموسيقاه، فكانت أصابعه تتسلل من تلقاء نفسها لتستقر على صندوق الكمان. «الكمنجة» هي الكلمة المستعملة للإشارة إلى الكمان والتي سمعها أرفيدا يوماً تتردد في المنزل. تقدم منه أكثر، ليتسنى له أن يشعر بعذوبة الاهتزازات في أعماق كيانه، ويعيش نشوة متصاعدة من حقويه. بدا أمراً مفروغاً منه حصوله على غيتار رخيص وفلوت، وأن يجلس على صندوق «الكوكا كولا» قرب كرسي السيد إسحاق المستقيم ويعزف. وأمر مفروغ منه أيضاً تشجيع السيد إسحاق له على جهوده بومضات فرح سريعة من عينيه اللتين أصبحتا فجأة أليفتين؛ غالباً ما ينسى وجود أرفيدا أثناء عزفهما بسلاسة تصاعدية، بحيث صار لا ينظر إليه إلا مع نهاية المقطوعة - شاب أسمر، جالس على صندوق «الكوكا كولا» - وبابتسامة معوجة، يكشكش له شعره الأشعث الخشن.

«وماذا حدث؟»، سألته كارلوتا، وهي تتخيل بائع الخضار إسحاق يعزف على كمانه ناسياً عمله.

«جاء من فلسطين»، قال أرفيدا. كل من لم يقتل أو يُصَب بمرض أقعده عن الحركة من أبناء قريته جاء إلى أمريكا. كان يروي لي باستمرار تفاصيل رحلتهم على متن الباخرة وصولاً إلى هنا. باخرة مكتظة

بالمسافرين، والجميع يخشون إصابتهم بالأمراض، أو الأوبئة، أو بنوع من أنواع الطاعون. حشروا جميعاً كالقطعان، وفاحت منهم روائح نتنة بسبب الخوف، حسب قوله. بعيد وصولهم إلى ميناء أيليس إيلاند، اكتشف وجود دملة في أذنه اليسرى في اليوم الأول - دملة كبيرة منتفخة بالسائل، كأنها كرة بيسبول تنتأ من أذنه، هكذا وصفها لي. أو مثل كيس بيض العنكبوت، إن رضي بالتنازل في وصفها. أيقن أنه قد ابتلي به. وبعد أن عاينه الأطباء ذوو السترات البيضاء - ردد ذلك على الدوام - وفتحوا الدملة بتوتر شديد خشية احتمال وجود العدوى، منع من مغادرة القارب لأسبوعين، بينما ناقش صناع القرار ضرورة إعادته مباشرة إلى فلسطين. نقلوه بعدها إلى الحجر الصحي، ويوماً بعد يوم كنت أتحلل شيئاً فشيئاً هناك، كما كان يروق له أن يصف حالته. بدأت أذنه بالتعافي إلا أن سائر جسده ما كان على أحسن ما يرام.

إليس آيلاند؟ استفهمت كارلوتا.

أخذ أرفيدا يشرح لها الشبه الكبير بينها وبين أنجل آيلاند، عدا أنها على الساحل الشرقي.

يحتجز في أنجل آيلاند معظم المهاجرين الآسيويين، ومنهم من أمضى سنوات عديدة، قبل أن يسمح لهم بدخول البلاد، وهي مكان نجحت كارلوتا ووالدتها في النجاة منه، بفضل الأصدقاء الأمريكان الأثرياء، كما ذكرت زيدي ذات مرة عرضاً على نحو ملتبس.

هناك، في إليس آيلاند، تابع أرفيدا، التقى إسحاق بأول رجل ملون أصلي. شاهده يدفع مكنسة. هذا لا يعني أنه لم ير سمراً في السابق؛ فعرب فلسطين سمر أيضاً، كما أخبرني يوماً، غير أن سمرتهم تبدو متماهية مع بشرتهم، بينما هذا الرجل الذي راقبه وهو يدفع المكنسة، ويتقافز قليلاً في سيره فيما يدندن الأغاني ويطنطن بحبس أنفاسه، فقد بدا له ملوناً بشحمه ولحمه حتى العظم. كانت هذه أول فكرة صاغها عن الملونين؛ من خلال تقافز ذلك الرجل أثناء التكنيس، حيث بدا أنه يغني

من رأسه، الأمر الذي أزعج البيض وليس لون بشرته فقط. في الواقع، لم يكن يستوعب اعتراض أي كان على هذا. من الصعب تخيل كائن يحمل كل تلك السمرة النقية. ولو كنت من محبي القفازات المصنوعة من جلد العجول، قال العم إسحاق، حتى ولو كنت من هواة الأحذية الجميلة بلون دم الثيران! ومغرم بشوكولا هيرشي! ويضحك بعد ذلك.

كان هذا الرجل، كما تبين لاحقاً، قال أرفيدا، عازفاً، ويعمل عتالاً في إليس آيلاند كي يعيل نفسه وأسرته.

سرعان ما أُعلن عن تعافي جميع من في الحجر الصحي من المرض وأخلي سبيلهم، ولم يبق سواهما. تحادثا عن الموسيقى، باستعمال الأيدي والعيون والصرخات والقفزات. كان الرجل الملون يدعى أوليس، لم يره أو يسمع إسحاق عنه شيئاً بعد رحيله عن إليس آيلاند، بيد أنه كثيراً ما يستذكر يومه الأخير في ذلك المكان، حين ظن أنه فقد صوابه جراء العزلة والملل. كان أوليس هو من أنبأه بخبر إطلاق سراحه الوشيك، قبل وقت طويل جداً من أي استدعاء رسمي له، وأتاه بمجلات مليئة بصور العالم الذي يوشك على دخوله، والخالية من أي وجه كوجه أوليس. قال العم إسحاق إنه تفحص جميع الصور بدقة، فاستوطن صدره هلع بارد؛ أي صنف من العالم هذا الذي لا يظهر فيه صديقه الحالي؟ ثم أخرج أوليس بعد ذلك من جيب معطفه البني الفضفاض، المهترئ عند كوعيه، تفاحة حمراء لامعة وقدمها إليه. هذه العطية كانت مصافحة وداع أوليس له وعناقه. ترك هذا الموقف السيد إسحاق متعطشاً، إذ لم يكن مسموحاً له عناق شخص ملون - حذره أوليس من أن هذا الفعل يعاقب عليه القانون - فماذا كان في يده؟ لا شيء حينها.

لاعبت كارلوتا الشعر النامي على أذن أرفيدا. قبّلت عينيه. ما من حاجز يحول بينها وبينه، فكرت بسعادة. أبداً. أبداً. لا شيء. لا شيء. جعلتها هذه الفكرة تشعر بأنها حرة على نحو غامر، فتمددت بجسدها فوق جسده الدافئ الجميل، بدا لمعان بشرته وكأنه يضفي وميضاً على

بشرتها. لقد آوت فوق كل هذه *الطيبة*، ما جعلها تشعر أنها جسد الأرض الحقيقي. ما أشد حماقة البشر، وما أدهى إثارتهم للشفقة، فكرت، ذلك أنهم عاجزون عن تلمس ما يوفر لهم الانتقال إلى ما هو أحسن.

إنها تفاحة سحرية قال أرفيدا، وهو يتبسم في ثنايا شعرها. كان هذا قبل التفاحات المسمومة المتخمة بالمخدرات. الموسيقيون لا يحملون سوى الطعام الصحي. ضحك. مرت مرحلة لم يكن العازفون فيها يتعاطون الحشيش. رغم أنهم لم ينقطعوا يوماً عن شرب النبيذ.

شاركته كارلوتا الضحك.

لا بل مرت مراحل – ألقى أرفيدا نظرة ماكرة على وجهها – أعلم أنك لن تصدقي هذا، كانت الموسيقا تعزف فيها بعذوبة، لكي تُسمع. وحدهم الأموات من يحتاجون إلى موسيقا صاخبة، كما تعلمين. لقد وصفتُ الروك الصاخب بـموسيقا دراكولا لأنها تصور لك حين تتأملين فيها جميع أولئك الزومبي الأموات والطرشان وعديمي الروح يتقافزون أمام ناظريك ببلاهة. حتى الملونين هم من الزومبي هذه الأيام، ليس عليهم سوى أن يعقصوا شعرهم القصير.

بدأت حديثك عن الفاكهة، قالت كارلوتا، مقهقهة.

هذا ما أتحدث عنه، قال أرفيدا. وهكذا قضم العم إسحاق التفاحة متفكراً بمستقبله. في فلسطين كان ذلك الرجل التقي ذو الشعر الكثيف يبيع فاكهة بستانه وخضرواته برفقة والده البائع المتجول. جرّب هذا هنا في أميركا. كبرت سلته وأصبحت عربة، وكبرت العربة فأصبحت بسطة والتي كبرت بدورها فأمست دكاناً. أصاب نجاحاً. لكنه لم يعرف السعادة، حتى بعد أن تدارك طموح شبابه بالدراسة في الجامعة وتعلم العزف على الكمان. افتقد الحر والخوخ والعرب. شكّل العرب كل محيطه في فلسطين، تماماً كما الملونين في تيري هوت. العديد من أصدقائه القتلى الذين خلّفهم وراءه، كانوا من العرب.

حين علم بقيام دولة يهودية فيها، قبل بذلك كذريعة للعودة. لكنه فعلياً

رغب بالعودة إلى ضياء الشمس، والنخيل، واللوز، والبرتقال، وكروم العنب وإيقاع اللغة العربية الساكنة رأسه مذ كان صبياً، هو الذي لم ينطق بها سوى بضع عبارات تعلمها من الشارع. سوف يعود ليساعدهم جميعاً على البناء، كما قال. وفي ذات يوم أغلق دكانه وغادر.

كانت أول من قفز إلى ذهن أرفيدا حين التقى بزيدي للمرة الأولى، تلك المرأة الضئيلة الحزينة صاحبة المظهر الهندي الفخورة بأصولها الإسبانية، حسبما أخبر كارلوتا.

جلست زيدي وسط غرفة معيشة مبهرجة الأثاث، أرائكها ملونة بزرقة السماء ولها شراشيب في أسفلها، ومصابيحها مزينة بإسبانيات العهد الكولونيالي يدرن باستمرار حول قاعدتها. لقد درجت على شبك ريش الطاووس مع بعضها بعضاً لصنع المشالح، واستعمال المكسور والمعطوب منها كزينة لحقائب الكتف. راحت تتفحصه بارتياب، وسلطت عليه نظراتها كنظرات طائر يرمقه من علٍ مخضعة إياه لمراقبة مشددة. لاحظت تأثيره فيها. بشرة سمراء، وشعر أشعث، وجسد جميل وابتسامة حاضرة. نظرت إليه بحسرة، كما لو أنها تتذكره، واعتقد أنها شهقت من أنفها، كأنها مصابة بنزلة برد أو على وشك البكاء.

عندما جاء أرفيدا لمقابلة والدة كارلوتا، لم يكن لديه فكرة عما ينتظره. بشرة زيدي أشد صفرة من بشرة كارلوتا، وشعرها كستنائي يتخلله البياض، مجعد ومرفوع بما يضفي عليها الوقار. أذهله أن يرى مدى شبابها. هذه المرأة التي عرفت، خلال مسيرة حياتها، السحر والكهنوت، في بلاد لم يكن التلفزيون معروفاً فيها ولا سيارات البيك أب – حتى وقت قريب، حسب ظنه – امرأة اعتقلت بتهمة الشيوعية، أمضت سنوات في السجن – ثلاث سنوات على الأقل، على ما تظن كارلوتا – وبعدها وصلت إلى أمريكا الشمالية بطريقة أو أخرى. انحنى فوق يدها ليقبلها، فسحبت زيدي يدها باستحياء، وأخفتها في جيب سترتها.

كانت ترتدي ثوباً باهتاً أخضر اللون يشوبه السواد، ومن تحت عش شعرها المجعد البني، توقدت عيناها المنحرفتان، المحمرتان خلواً من الحياة.

كيف حالك؟ سألته على طريقة تلاميذ الدروس المسائية الخجولة في سان فرانسيسكو.

جيد. كيف حالك أنت؟ أجابها بالأسلوب ذاته. ثم أردف، لأن صغره وحياءه كانا يحركانه، أعتقد أنني على ما يرام.

كانت تعيش هي وكارلوتا في بحبوحة مكنتهما من السكن في شقة فسيحة يغمرها الضوء في شارع كليمينت، تحيط بها المطاعم، استقدمت زيدي من إحداها وجبة العشاء، ومضت توزعها بشرود في الصحون، بينما كانت كارلوتا تريه باقي الشقة.

وحيداً كما ترعرع، وكما هو الآن، آلمت أرفيدا فداحة عزلتهما. شاهد صوراً مؤثرة لغروب الشمس والأشجار، ولأطفال بيض سعداء يتعقبون البالونات، لكن أياً من هؤلاء الأقارب أو البشر لم يشابه زيدي أو كارلوتا بشيء. على الطاولة في غرفة نوم زيدي، ثمة صورة لها مع كارلوتا لا بد وأنها التقطت لهما بُعيد وصولهما إلى سان فرانسيسكو مباشرة. بدا وجه زيدي شاحباً ومذعوراً، حتى في الصورة المظللة في جزء منها. أما وجه كارلوتا فأشبه بضوء القمر، وسلسلة من الخرز تحيط برسغها الدقيق، تتمايل بين ذراعي أمها كأنها تواقة لمعانقة هذه الأرض الجديدة. رأى في وجهيهما التوتر الناتج عن الاضطهاد والترحال والهرب.

لسوف يعرفهما لزمن طويل، هذا ما أحسّ به لحظة جلس لتناول وجبة فيتنامية لذيذة، ويوزع ابتساماته عليهما، كرجل نال حظاً رائعاً بالمصادفة.

* * *

كما لو أنكِ خرجت وعدت بوالدك إلى البيت. آه...آه، قالت والدة كارلوتا وهي تجهش بالبكاء بعد ذلك اللقاء الأول. ولتواصل بكاءها وهي

تضرب يافوخها براحة يدها تعبيراً عن ألم ما صادفته كارلوتا قط، والذي سرعان ما صار يغوي بتكراره. كان أبوك هندياً، وشعره خشناً قالت.

أما الآن وقد مرّ على زواج كارلوتا وأرفيدا ثلاث سنوات. وأمسى لديهما ولدان تعشقهما زيدي، فها هي تقول لها أرفيدا يحبك، عليك أن تؤمني بهذا ولتردف لكننا أنا وهو نحب بعضنا الآخر أيضاً ومنذ اللحظة الأولى.

* * *

كان أرفيدا ثرياً. يمتلك من المال، كما كان يتبادر إلى ذهن كارلوتا أحياناً، أكثر من حكومة بلاد أمها. ذات مرة، ولكي يبرهن لها بأنها لن تعرف الفاقة طيلة حياتها، سحب آلاف وآلاف الدولارات من المصرف ووجّه عليها المروحة بما جعلها تتطاير في أرجاء غرفة نومها. بعدها استلقيا على الأوراق النقدية، كما لو أنها أوراق أشجار، ثم مارسا الحب.

فقدت كارلوتا كل أمواله الآن. أنهت دراستها لأدب المرأة في الجامعة، وكان هذا ما رغبت بتدريسه. إبعاد ولديها عن أرفيدا وزيدي، كان سبيلها الوحيد لإلحاق الأذى بهما بما يليق بمعاناتها، وما عرفت آنذاك كم كانت تؤذي نفسها بذلك.

قاومت على مدى أشهر فتح رسائلهما التي يرسلانها وهما مسافران عبر المكسيك وأميركا الجنوبية والوسطى، مفضلة اعتبارهما في عداد الأموات، وإن كانا أسرتها الوحيدة.

في الواقع، والدتها فقط من كتبت لها رسائلَ قصيرة وحزينة ومعطرة تعيد إلى زيدي حيويتها ويناعتها.

تبدأ جميعاً بـ ابنتي، يا قلبي، ومن خلال حروفها يتناهى بكاء زيدي. لكن طالما واصلت الرسائل ورودها، أحست كارلوتا أثناء قراءتها لها من خلال دموعها المتبخرة التي كانت تخلف دوائر متغضنة على الأوراق، بانتعاش في روح والدتها لم تشعر به قبلاً.

ارتحل أرفيدا وزيدي عبر بلاد مفعمة بخضرة طبيعية تفوق الخيال.

لم تر زيدي أنهاراً كهذه قط، أسماكاً كهذه... ثمة سمكة تتزاوج بقرين واحد مدى الحياة، كتبت؛ عندما اصطادا إحداها من على متن القارب وحضّراها للطعام، ظل رفيقها يسبح بشراسة ويدور حول القارب وتبعه على مدى أميال بالفعل... لم تقع عينها على مثل تلك الأشجار، والفواكه، والطيور والسماء.

راحت كارلوتا تتخيل والدتها واقفة على درابزين القارب، متكئة على جسد أرفيدا، والشمس تلتمع ببروق بيض على شعرها الذي استعاد من جديد سواده واسترساله.

كل كسرة من الطعام لها لذة خاصة[1] كتبت لها. تذكرت كارلوتا السلطعون المقلي بالبصل والفلفل الذي تستسيغه والدتها وكيف شكّلت تلك الوجبة مكافأتهما الشهرية بعد أن بدأت والدتها ببيع منتجات الريش. فكرت بها الآن تتناول الطعام الذي تحبه طوال الوقت، ازدادت اكتنازاً وربما مع قليل من السمنة، واختفت التغضنات حول عينيها وعلى جبهتها. زال عن بشرتها شحوبها وأمست نضرة ونابضة بالحياة. أدركت أنها لم تعرف زيدي أبداً في حالة طمأنينة. كانت على الدوام قلقة ومهمومة، ومتأهبة لتلبية متطلبات حياة كليهما.

قبل أن يطلعا كارلوتا على علاقتهما، نام أرفيدا وزيدي معاً لمرة واحدة فقط.

يوم أخذ أرفيدا الطفلين إلى زيدي لتعتني بهما في عطلة نهاية الأسبوع كعادتها. كان جسداهما الصغيران الأسمران الدافئان يمنحانها مشاعر سحرية، تأخذهما بين ذراعيها، يتلويان ويتملصان أو ينعسان ثم يجنحان إلى الاستكانة، بدا اهتمامها بهما اهتماماً رائعاً. في ذلك اليوم كانوا يلهون في سرير زيدي الضخم، الطفلان في الوسط، هي وأرفيدا على طرفي السرير. كان نهاراً ممطراً غائماً، وغرفة نومها تضج بلون قرنفلي بالكامل. ينبعث صوت موسيقا عذبة، موسيقا من تأليف سيدني بيكيت

1- Muydelicioso وردت بالإسبانية – المترجم.

الذي تهواه. جنح الأطفال إلى النوم. عندما حمل أرفيدا جسديهما المرتخيين إلى الغرفة الأخرى، كان هو أيضاً يغالب النعاس، أو هكذا خيل لها، محاولة كما فعلت مراراً وتكراراً إخفاء شهوة عميقة تجاهه. لكنه رجل في غاية الشباب، فكرت. صهري. هنا ضحكت، إذ غالباً ما كانت تخلط بين كلمتي ابن وشمس[1]. نظر أرفيدا إليها وبين ذراعيه ولده النائم وقد أرخى ذراعه المكتنزة على مداها في طمأنينة. الشهوة بالنسبة إليه، كالنوتة الموسيقية، من السهل قراءتها. لقد أحس بها.

لدى عودته، جلس على الأرض قرب السرير. ارتجف صوته قائلاً، لا يمكننا أن نفعل أي شيء حيال هذا، أليس كذلك؟

لا، قالت وصوتها يرتعش أيضاً. حاولت الضحك. إنني جدة. هذه هي الحقيقة. كانت تقصد، هذا كل شيء.

مع ذلك فأنا أحبك، قال. ليس كجدة... ربما كأم إلى حد ما. اعتذر منها بابتسامة شابت صوته، وهو مشيح بوجهه عنها. لا، قال، كامرأة. زيدي. أنا أحب كارلوتا؛ لا آبه. وأنا أحبك أيضاً.

تساءلت عن عمر هذا الشعور الذي نشأ بينهما. منذ اليوم الأول، منذ ذلك اللقاء. يوم اشتمت عطر شعره فيما كان ينحني ليقبل يدها. رائحة التوابل المنبعثة منه، وعبير زهور قريتها. سحبت يدها المتقدة وأخفتها. فهو في النهاية من نصيب كارلوتا. كارلوتا هي من عثرت عليه.

لا شيء يمكننا القيام به، أجل قالت بنبرة حازمة. إنما بنقطة نور محتدمة حارة، تتمدد وتتوهج في قلبها، وترطب فجأة ما بين ساقيها.

ارتعشت يدها لحظة لمست شعره وانتشر عطره في أنفها - عطر طمأنينة النوم لأطفال جيدي التغذية - كانت في شعره توهجات من الشيب، ومضات حمراء وبنية اللون.

شعر غريب ومتين، وخشن على نحو هادئ، كملمس الحرير الخام

1- المقصود sun وson - المترجم.

تماماً. شعر متفرد في هذا العالم - ***شعر أسود***[1] - جفلت وتراجعت وهي تمرر أصابعها خلاله، محاولةً أن تمسه مساً خفيفاً وادعاً، محاولةً أن تكون أماً[2]، أن يتعاملا ***كأصدقاء***. تشنج رحمها بشدة وكانت على وشك الصراخ.

صلّت لئلا يلتفت أرفيدا وينظر إليها. لكنه فعل، وكانت عيناه وأسنانه البيضاء ولحيته وشاربه على بعد بوصة منها، وقد بدا لون عينيه البني أغمق، وأنفاسه الشهية شبيهة برائحة جوز الهند. ابتسمت لدى تذكرها لجوز الهند في أنفاسه؛ كما لو أنها فلاحة[3]. مال نحوها يقبل شفاهها الباسمة. فتراجعت.

وأنت يا زيدي؟ سألها. هل أنا مجرد صهرك؟ أعلم أننا غير قادرين على الإتيان بأي شيء البتة... لكنني أرغب في أن أعرف.

آه، أنا، قالت، وهي تحاول استجرار ضحكة صغيرة تنفي حرارة قلبها والنور الذي يتوهج في رحمها، والرطوبة التي أوشكت أن تنساح على فخذيها. استحال الضحك، المزيف والعاجز عن تمثيل كل الخداع المطلوب منه، إلى دموع. أحاط أرفيدا بيديه وجهها. لقد ازدادت صبا مذ عرفها. ما عادت أنظارها تتقافز بسرعة على ما حولها كعيني الطائر، اختفت تلك الانتفاضة من عينيها. لم يبق فيهما سوى الحزن الناشئ عن حرمان الحب. سوف يقبلها قبلة في الهواء.

لم تكن زيدي قد مارست الحب في حياتها السابقة سوى مرتين. لم تفكر بالجنس حتى التقت أرفيدا؛ وهي في حالة انشغال دائم وتعيش مع ذكرياتها المؤلمة. مع أنها عرفت الجنس، لكن لفترة وجيزة، وما ابنتها إلا برهانها الوحيد على أن رجلاً قد طارحها الغرام. كأنها امتلكت الآن جسداً جديداً، وراح أرفيدا يقبلها في كل موضع فيه، بالطريقة التي تمنت

1- pelo negro: وردت بالإسبانية - المترجم.

2- lamodre: وردت بالإسبانية - المترجم.

3- campesina: وردت بالإسبانية - المترجم.

أن يقبلها أحد فيها أثناء ***حملها***[1] وأحست تحت قبلاته بتفتح رحمها الذابل وأعاد لسانه جنسها المنسي إلى الحياة. انتصب شعر جسدها كالأشجار وبدا النور الذي شع به رحمها وقلبها الآن وكأنه ينتشر في سائر جسدها؛ شعرت بذاتها تذوب في النور.

مستلقية في السرير في وقت لاحق، منهكة من الرعشات التي هزت صميمها، أخذت زيدي ترسم دوائر متتالية حول الشامة السوداء على الجهة اليمنى من صدر أرفيدا. كانا في حالة من الاسترخاء والهياج.

لن يحدث هذا ثانية، قالت. لا يجوز هذا.

راحت شفتاها ترسمان الشامة وتقبلها غير مدركة ما هي فاعلة.

لا، قال أرفيدا. أنا آسف. إنها غلطتي. ووجهه ضائع في شعرها. بدأ قضيبه ينتصب مجدداً على فخذيها، وعاودتها الرطوبة مجدداً.

جدتي، أبي، صاح صوت سيدريكو، الولد الأكبر، وهو يناديهما ويوقظهما.

ظلا يتجنبان بعضهما البعض على مدى أشهر، لكن موسيقاه أصبحت الأثيرة لديها مواظبة على سماعها طيلة الوقت، إذن فقد كانت تخاتل نفسها. لم يبتعد عنها لحظة واحدة، رغم تقديمه حفلات موسيقية في مدن وبلدان بعيدة. تستمع إلى الموسيقا وتبكي أحياناً وهي مستلقية على السرير القرنفلي ويدها بين ساقيها. في آخر ألبوم له، تحديداً، استمعت إلى مقطوعة جعلتها تخر على ركبتيها. أيقنت بأنه قام بتأليفها أثناء تفكيره بها، وربما كانت تصل إلى الرعشة لمجرد الاستماع إليها.

تنقل أرفيدا مرتدياً الملابس التي حاكتها لأجله، واكتسب أخيراً اسماً مستعاراً هو *الطائر*، أو كما يحلو له ترجمته، الطائر تشارلي باركر. يلف نفسه بمشلح الريش، وينتعل أحذية مجنحة، مرسلاً روحه الطائرة نحو زيدي بينما يحمل جسده وفكره وانتباهه إلى كارلوتا، التي لم يتوقف عن

1- Embarazada وردت بالإسبانية - المترجم.

حبها. الآن فقط، بدأ يعي أن المرأة التي أحبها في كارلوتا هي زيدي، وحين أمعن النظر في وجه كارلوتا عثر على ملامح زيدي، فأمطرها قبلاً مبجلة.

كيف تخبر امرأة ما بأنك واقع في غرام أمها؟ بعيداً عن كونها علاقة غير شرعية. فكر أرفيدا وأطال التفكير بهذه المشكلة، وتحولت موسيقاه الشجية ذات الإيقاع المبهج، إلى موسيقا معذبة وصاخبة وحادة، وأمسى في البروفات والحفلات يعزف على غيتاره كما لو أنه في غيبوبة.

كانت موسيقا أرفيدا في غاية الإحساس والجمال، ساقاه ممشوقتان داخل سروال الجينز الطري، وحذاؤه المصنوع من جلد الغزال المزدان بالريش يلمع تحت أضواء المسرح، وقد كشف عن صدره البرونزي الضيق؛ واكتسى وجهه بتعابير تنمّ عن عمق روحي سواء عزف على الغيتار أو الفلوت. لم يكن ثراؤه وشهرته آتيان عن عبث: عرف الناس أن موسيقا أرفيدا تفعل فيهم فعل العلاج الشافي، من خلال مشاهدته أو سماعه. يتقاطرون إليه كما كانوا يفعلون فيما مضى مع الكهنة، من دون أن يخيب آمالهم يوماً. في كل مرة يعزف فيها، فبفؤاده وروحه. يؤدي الموسيقا، رغم إرهاقه الشديد، بمنتهى الجدية والخشوع دائماً، حتى وإن كانت معزوفة عن النيك – إذ كان يحب النيك وكثير من معزوفاته موضوعها النيك – الذي يفعله بنا هذا الكون وبذات المتعة، ما أوصل هذا الشعور إلى الجمهور لدرجة التندر بالحديث عن عدد الأطفال الذين لقّح بهم أرفيدا النساء في حفلات الليالي المقمرة.

عزف لذكرى والدته المتوفية ووالده الذي بالكاد عرفه؛ مستخلصاً حنينه إليهما من الغيتار كنواح وتنهدات عميقة، وحين يغلبه الشوق إليهما تحمل موسيقاه مدى أزرق كئيباً. لون كارولتا المفضل هو الأصفر. اللون المهاجر المفعم بالأمل والشباب، لون التوازن وأوراق الخريف، ولون نصف أزهار الكوكب، ومعها الجلد والثبات والتفاؤل. أما هو فالأخضر لونه، الأخضر المسكّن، أكثر الألوان راحة للعين والقلب. أما لون زيدي

فقد كان لون الخوخ أو القرنفل أو المرجان. لون الرحم، ألوان الأنثى، حين يعزف مستحضراً إياها، يغمض عينيه ويداعبها ويلج جسدها، متخيلاً إياه شفافاً أشبه بمحارة، لا بل يمضي في خيالاته وهو يرى نفسه يمارس الحب معها وقد أمسى نوراً داخل محارة قرنفلية شفيفة، فتنهمر دموعه وهو يعزف.

لم تتمكن كارلوتا من الاقتناع بجمالية الموسيقى الجديدة، ذات الأنغام المتنافرة أحياناً، والمليئة بالنواح. تجلس وسط الجمهور تراقبه وهو يعزف فيبدو لها، مع أنها تعيش معه، كما لو أنه شخص غريب، ناء عنها، وبعيد كل البعد عن جميع الأماكن. لو أنها أفلحت في إقناع زيدي بحضور الحفل، لكانت التفتت إليها بانفعالها عند كل نغمة جديدة. من المؤكد أن زيدي سوف تبقي رأسها مطرقاً. لم تتمكن كارلوتا أبداً فيما بعد أن تتذكر كيف علمت بالأمر للمرة الأولى.

مرت أشهر ولم يلتق أرفيدا وزيدي إلا لماماً. علمت كارلوتا بعلاقتهما في تلك الفترة. كان أرفيدا مسافراً، برفقة كارلوتا كالعادة، بينما تلازم زيدي بيتها لتعتني بالولدين. أثناء سفرهما، كانت كارلوتا تتصل للاطمئنان كل ليلة. هل يأكل سيدريكو بشكل جيد؟ هل تبلل أنجيليتا السرير؟ هل يشعرون بالاشتياق لهما هي وأرفيدا؟ وزيدي تجيب على أسئلتها بحيوية وحماس. أجل، سيدريكو يشتاقهما، لكنه *ولد كبير*[1]. بالتأكيد، أنجليتا بللت السرير، لكن ثمة فأل خير في هذا (خرافة ما تحملها من بلادها القديمة، هكذا افترضت كارلوتا، ولم تشرح لها زيدي الأمر)، وكلاهما يأكلان كالمجانين. وما إلى ذلك. في ختام سردها لتفاصيل نشاطاتها في كل بلدة ينزلان فيها، وبعد أن تفضي زيدي بما لديها من تفاصيل صغيرة، كان يسود صمت محرج.

ألا تريدين أن تعرفي شيئاً عن أرفيدا؟ تسألها.

أوه، نعم، بالتأكيد، سوف تجيبها والدتها. وعندها يكون لدى كارلوتا

1- un ninomuygrande وردت بالإسبانية – المترجم.

انطباع لا لبس فيه بأن والدتها لا تنصت إليها. لم تكن تعلم بأن كل كلمة تقال عن أرفيدا تشكل خنجراً يطعنها.

في الليل تسرد لأرفيدا تقريراً عن أولادهما. لم يسألها مطلقاً عن زيدي. ألا تريد معرفة أي شيء عن أمي؟ سوف تسأله في إحدى المرات غاضبة، آخذة عليه لا مبالاته حيال التضحية التي تقدمها والدتها برعايتها للطفلين.

بالتأكيد أريد، بالتأكيد أريد، سوف يغمغم شارد الذهن، وبعدها ينظر نحو الباب في حيرة ونظراته مشتتة كئيبة.

ظنت في البداية أنه كره. ولكن كيف يمكن أن يكرها بعضهما؟ وهما أقرب أصدقائها، واللذان، كما اعتقدت، أحب أحدهما الآخر من أول نظرة.

عندما حملا الطفلين، بعد غياب دام أسابيع، بالكاد تكبد أرفيدا عناء تقديم الشكر لزيدي. بالكاد نظر إليها. بدت زيدي، بالنسبة لشخص يحمل سمرة بشرتها، شاحبة إلى أقصى حد.

ذات مساء على العشاء في أحد المطاعم جاهرت كارولتا أخيراً بالكلام. تسمَّرا جالسين مثل عصوين طوال الوجبة.

ما الذي اقترفته لأستحق منكما هذا التعذيب المريع الذي توقعانه أنتما الاثنان بي؟ قالت بنبرة أملت أن تكون مازحة.

ماذا تقصدين؟ ردت والدتها بسرعة.

نظرت كارلوتا إلى أرفيدا.

ما عدتما تتحدثان أو تتبادلان النظرات. هذا هو الجحيم بالنسبة لي. ما الأمر؟ هيا. لينظر كل منكما إلى الآخر على الأقل.

اعتقدت أنها لمحت رعباً في عيني والدتها، لكن زيدي رفعت رأسها ونظرت إلى أرفيدا. نهض أرفيدا، لينجي نفسه ربما، عن الطاولة متجهماً وغادر.

راقبت معاناتهما إلى أن أعياها الأمر هي أيضاً، فاستنطقت والدتها

التي أخبرتها الحكاية بأكملها وقد بدت ضئيلة الحجم بشكل صادم، وضعيفة، وعديمة الخبرة، وفزعة، وشاحبة كالرماد.

عندما واجهت أرفيدا الضجر، المتقاعس عن مجرد التفكير في تأليف أي عمل جديد أو البحث عنه، وقد كانت كارلوتا تحسبه قد ابتلي بالمخدرات، لم يتلفظ سوى ببضع كلمات قائلاً: وحدهم الإغريق يعرفون كيفية التعامل مع هكذا حالة، أما أنا فلا. أنا وزيدي ارتكبنا خطيئة الوقوع في الحب.

لكنها أمي، قالت بصوت كالفحيح.

حقاً! لا بد أن تخبريني أنها أمك، قال.

هي أكبر منك سناً!

حقاً! قال باستهزاء.

ولكنها جدة، قالت كارلوتا.

وفنانة أيضاً، قال أرفيدا.

كيف لك أن تحبها؟ أخذت تصرخ.

ألا تحبينها أنت؟ سألها.

ما لم يكونا قد مارسا الحب فإنّ بالإمكان تجاوز الأمر، فكرتْ. لكن إجابته جاءت مباشرة حين سألته.

مارسنا الحب لمرة واحدة، قال. وليس لدينا النية أن نفعلها ثانية. صمت قليلاً. إن الطلب منك التفهم أو الصفح سيبدو ميلودراما مجسدة.

وماذا عن كرامتها؟

جاءت زيدي للقائها، لفت ذراعيها حول ساقي كارلوتا، وضغطت وجهها على ركبتيها، ودموعها تنهمر مدرارة حتى بللت تنورة كارلوتا.

حددت الموعد الآن. أعدك سأتزوج حالاً ممن أحب. سوف نمضي بعيداً. إلى المكسيك ربما. سأحاول الخروج من حياتك.

كان قلب كارلوتا يتكسر. شعرت به يتورم بالدموع ثم يتمزق. ما الذي

يعرفه أي كان عن أي شيء؟ فكرت. لقد أفرغها المشهد مع والدتها من أي معرفة. شعرت أنها مرة أخرى، كما في طفولتها، جاهلة بكل شيء. لن يدهشها إذا ما استحال الكرسي الذي تجلس عليه فجأة زورقاً يطفو ويخرج من النافذة محمولاً على نهر من دموع زيدي.

* * *

أبرز ملامح وجه سويلو، هما حاجباه؛ هلالان كبيران فوق عينين سوداوين جسورتين وخطهما الشيب في وقت سابق لأوانه ما جعل وجهه أشبه بوجه البومة أحياناً. كانت له هذه الهيئة الآن جالساً بجوار نافذة القطار في طريقه إلى بالتيمور، أحنى جسده الطويل والسمين نوعاً ما ليستغل آخر قبس من ضوء ما بعد الظهيرة المتسرب من فوق كتفه. أثناء محاولته قراءة الرواية الجديدة التي كتبها أحد معارفه السابقين، عض دون قصد على شفته السفلى الممتلئة بشدة:

وهو يرجع رأس جاكي إلى الخلف قسراً... أقحم... في... المشتاق... بعد نصف ساعة كان يعتليها، جاعلاً إياها تئن من المتعة، فيما كان يرمح بجياده سريعاً إلى النهاية المهيجة.

أخذ يقلب الصفحات على عجل باحثاً عن المزيد من حكايات جاكي، عن كلمة معينة في سياق تطور هذه العلاقة غير اللائقة، بيد أنه لم يجد شيئاً. ظهرت في موقع آخر من الرواية تتبادل النمائم مع صديقتها أثناء ارتدائها لملابسها، ثم تخرج للتبضع من البقالية. مع أنها كانت موضوع الحب الرئيس في الكتاب، إلا أنها لم تمارس الحب ثانية أبداً، لعل هذا يريحها أكثر، هكذا فكر سويلو فيما كان يجري مسحاً لمشهد الإغواء المرعب للبطل مع تلميذة تصغره بثلاثة أمثال، والتي كانت آثار المخدرات بادية عليها بوضوح.

لقد خذل الرجال من جيله النساء - وكذا خذلوا أنفسهم - تأمّل مفكراً، وهو ينزع نظارته بإطارها ذي ألوان درع السلحفاة وينقر على

أرنبة أنفه العريض واللامع. رغم نضالهم الكبير والتطور السياسي خلال حقبة الستينيات، واكتمال وعيهم حول الاضطهاد، بقي المنزلُ المكانَ الأمثل للمرأة بالنسبة لمعظم الرجال، والاستلقاء وضعية المرأة المثالية، مهما علا شأنها.

رمى الكتاب جانباً؛ ثم عاد إليه مجدداً عندما راح يتساءل عن مضمون الكتاب الحقيقي. يروي حكاية عن اللصوصية ومحاكمة رجل متهم، هو البطل، ثم تجريمه وإعدامه (إذ إنه قام بتصفية كافة الشهود على الجريمة)، واكتشاف البلدة بعدئذٍ براءة الرجل الذي أعدم.

إلا أنه لم يكن بريئاً تماماً، فكر سويلو؛ لقد اعتدى على جاكي، مع أنه، كما يرى سويلو الآن، في الصفحة الأخيرة ثمة ملاحظة أرسلها البطل إلى جاكي الحزينة يذكرها فيها باللحظات الجميلة التي أمضياها معاً ومدى سعادته بكونها امرأته.

تثاءب سويلو. ثم ابتسم ابتسامة ساخرة حين فكر بمحاولاته الفاشلة في أن يحظى بـ امرأته سواء كانت فاني أم كارلوتا.

لدى وصول سويلو إلى المنزل، كانت جثة عمه الكبير رافي قد أحرقت للتو. أقيمت له جنازة وجيزة وهادئة للتذكير بحضور رافي في مجتمعه وعونه له، فهو رجل سلام. فوجئ سويلو وهو يجيل نظره في أرجاء الغرفة الصغيرة، أن أغلب الحضور كن من النساء، عجائز محنيات الظهور وشاحبات مسحوقات، العشرات منهن أو نحو ذلك، وليس هناك سوى رجلين، يرتديان سترتين بلون الطحلب الأخضر ولون السعوط، ملابس تبدو غريبة على رجال ملونين عجائز، متكئَين على عكازيهما كأن بهما يتساءلان إن كان دورهما هو التالي.

قدّموا له رماد عمه الكبير في مرطبان عطارين زائف التعتيق وبدا له مألوفاً؛ فكر بأنه ربما شاهد المرطبان الأصلي في أحد المتاحف. بعد مغادرة الأصدقاء، بقي سويلو وحيداً في البيت الذي تركه له العم رافي. بيت صغير ملاصق لبقية البيوت، على طراز منازل بالتيمور القديمة، يقع

على شارع جرى تحسينه بلا هوادة على مدى السنوات الأخيرة. أما مسكن العم فقد جرى تحسين مظهره الخارجي وحسب، وبهدف استرضاء الجيران المترفين الجدد على الأرجح، بينما كان في الداخل على حاله منذ أن كان سويلو صبياً. سقفه مرتفع، وخشبه كامد اللون، والصالونات يملؤها القذى، أثاثه ثقيل وقديم تضم طاولة طعام ضخمة مخدشة لها قوائم على شكل خف الأسد. هناك مصعد داخلي لا يزال يعمل لرفع الأطعمة، استعمله العم لرفع الفحم من القبو على مدى سنوات.

أثناء تجواله في أرجاء المنزل لاحظ أنه قد نُظف تنظيفاً دقيقاً، تلألأ غطاء ظهر الكرسي الأبيض ومفارش المائدة ستراتشي بجمالية خاصة تحت الضوء الهادئ المنبعث من الثريات العتيقة. أدرك سويلو عندها بأنه لم يعد صغيراً. صعد الدرج قاصداً استكشاف طوابقه الثلاثة. الدرابزين تم تزييته مؤخراً؛ كان يبرق تحت يده. صور منتشرة في كل مكان، وجد نفسه يتوقف عند الوجوه النابضة بالحياة كما يفعل أمام وجوه الغرباء في الشارع. تعرف فيها على أقارب آخرين: جده، عمه الكبير الآخر، وعماته. صورة لابنة عمه رينا برفقة زوجها موس. والدته، وقد جلست على أرجوحة فوق العشب بنظرتها المتهيبة خائبة الأمل، وإلى جانبها وقف والده. فقد والده ذراعه في الحرب العالمية الثانية. كمه كان مطوياً في الصورة وقبعته مائلة ميلان الغرور، كان لا يزال فخوراً بما جرى له، لكنه لن يبقى كذلك لوقت طويل. تنهد سويلو بعمق وضجر وهو يقرأ ما قد كتب تحتها: إلى أونك، مع الحب، لويس ومارسيا. ومرَّ متنهداً، على نظرة والده الهشة ومسحة العجز المكبوت على محيا والدته، ثم تابع صعود الأدراج. لم يكن قادراً، ولا راغباً بالتفكير فيهما؛ أراد أن يكون سعيداً. امتلاك بيت أمر يبعث على الغرابة والسرور، مع أنه كان يعتزم بيعه على الفور. علاوة على أن المال الذي تركه له العم رافي لن ينفد قبل مرور سنة، وهي فترة كافية بالنسبة له، إضافة إلى المال الذي يوفره بيعه للبيت والوقت الذي يمنحه إياه، ليرتب شؤونه.

رغم هذا الفراغ الشديد، الذي كان يبدو شاسعاً جداً بحق، إذ كان هادئاً وخالياً تماماً من الحياة، سُرَّ سويلو حين اكتشف أن العم رافي كان قد اختار لنفسه أصغر غرفة نوم في البيت، لا تتعدى حجرة صغيرة تقع بين غرفة النوم والمقصورة، في نهاية الممر المؤدي إلى غرفة النوم الرئيسة، والتي تفوقها حجماً بأربع مرات، وسرير العم المفرد يملؤها برمتها تقريباً. هذه الحجرة أيضاً مرتبة ومنظفة بعناية، رغم أنها بدت متواضعة وعارية، فقد جرى ترتيبها على نحو وسواسي. جرى صقل خشب السرير الرخيص حتى التمع، وتلألأت النوافذ وقد عُدّلت الظلال بدقة متناهية. غطاء الفراش المطاطي مغسول ومطوي عند أقدام السرير بطريقة لا تفعلها سوى ممرضة أو عسكري.

افترض أن الممرضة هي التي قامت بتنظيف كل شيء. تساءل. تكدست بشكل مرتب إلى جانب سرير عمه عدة أعداد من مجلة *ناشيونال جيوغرافيك*. صحف، مجلة *لايف*، *وأيبوني*، عدة نسخ من *جيت*، التي، حسبما يتذكر سويلو، كان لعمه ولع خاص بها. كتاب مهترئ، حمله بين يديه وراح يتصفحه، يتحدث عن *استعباد البشر*. هذا أبقاه معه أثناء تطوافه في بقية أرجاء البيت.

في آخر المطاف استقر في غرفة النوم الرئيسة. أثناء وقوفه أمام نافذة جانبية ناظراً عبرها نحو الفناء في الأسفل، شاهد امرأة سوداء - ضئيلة القد نوعاً ما وأنيقة، لعلها في ثلاثينيات عمرها، تقوم بقلع الأعشاب من حديقة منزلها. خلال مراقبته لها، خرج رجل آسيوي شديد الوسامة وعلى محياه ابتسامة، ثم عانقها. بعد ثوان عدة خرج طفلان في سن المدرسة يهرولان. من الواضح أن كلاماً مضحكاً قد قيل، فقد تضاحكوا جميعاً، وأخذ الصبي، لعله في السادسة أو السابعة من العمر، يكوّم الفضلات التي أشارت إليها الأم ويزيلها.

في الطرف الآخر، زوجان من البيض يقيمان حفلة، افترض أنهما ولا بد في مكان ما وسط المجموعة. حوالي عشرة أشخاص، يتبادلون

الأحاديث ويستمعون إلى الموسيقا، ويشربون بحماسة بالغة، مصدرين صخباً كبيراً، مع انعدام ما هو مقلق بهذا الخصوص.

على كلا جانبي بيت عمه - حتى اللحظة لم يكن يعتبره بيته - كانت أفنية المنازل تشي بأن هيكلتها قد أعيدت بعناية، رُفعت أحواض الخضار والأزهار، على سبيل المثال، كي تتماشى مع المنازل المعدلة حديثاً. أما فناء بيت عمه فكان مختلفاً. حديقة عادية ليس إلا، متواضعة ومنبسطة، تكسوها طبقة رقيقة من العشب، مشذبة بإتقان، وفيها شجرة بلوط تمد جذوعها إلى أطراف الفناءات الثلاثة الأخرى معاً. ثمة إسطبل معدني زائف وقبيح تحت هذه الشجرة، لا بد وأن عمه كان يستعمله مخزناً لعدة الورشة.

سقف الغرفة التي دخلها مرتفع، لها ثلاث نوافذ واسعة مطلة على الشارع، وتحتوي على موقد، وأثاث ضخم من خشب البلوط حاضر بقوة (كما لو أن رجالاً سوداً ضخاماً يشغلون الغرفة)، وسرير عملاق قيض له أن يكون القطعة الأكثر ترحيباً التي رآها طوال تجواله في البيت. جلس عليه سئماً، متعجباً من وفرة الخشب فيه، والحفر المتقن بطرازه العتيق، ومدى ارتفاعه عن الأرض. إنه أشبه بسرير ملك أو ملكة. البياضات والبطانيات الخفيفة واللحاف عاجية اللون جميعها في منتهى النظافة، وغطاء السرير ذو نمط موغل في القدم، بحياكة يدوية من الخيوط مسجى بنعومة وبراعة فائقتين لدرجة أنه تردد للحظة قبل أن يقذف به رافعاً إياه عن السرير، أما الوسائد فمن نمط وسائد الشمس وأطرافها من الدانتيل.

كان قد خطط للبقاء لأسبوع، الفترة الكافية لعرض البيت في سوق العقارات، وتصفية حسابات عمه المالية، وجمع الأموال التي سيتلقاها. مضى أسبوعان من دون أن يشعر بالزمن. اتصل بفاني كل ليلة. وكل ليلة كان صوتها على حاله: بارداً، نائياً، ولا ينم عن أي اكتراث به. يسألها عن نومها جراء معرفته بابتلائها منذ مدة طويلة بالكوابيس. ترى في

نومها أحياناً الأمير تشارلز يبتسم لها ابتسامته العريضة، إنما بأسنان إفريقية. سألها إن كانت تأكل بشكل كاف. ردت على جميع الأسئلة بتمتمة مجردة لا بأس، لا بأس. أثار غياب صوتها حنقه. في الليالي التي جافاه فيها النوم كان يغرق نفسه في تنظيف بيت عمه تنظيفاً إضافياً. فتح بداية جميع صناديق الخردوات في القبو فعثر على الكثير من صناديق الملابس القديمة، ووجد في أحدها أزراراً من اللؤلؤ وفستان زفاف قديم لإحداهن، متعفن وقد أكله العث. عثر على صناديق وأقفاص ملأى بالمجلات والكتب. مئات الروايات، إضافة إلى كتب لتعلم الإنجليزية، كتب عن زراعة النباتات وتعلم الإبحار. استأجر بحلول الأسبوع الثالث شاحنة وتخلص من النفايات.

راح يتقدم في عمله بالبيت ببطء. قليلة هي الأغراض التي وجدها في المطبخ التي يستوجب التخلص منها. لم يثر دهشته تلقيه الطعام منذ أول يوم له في البيت، كما كان الحال مع عمه، على يدي عجوزين ضئيلتين كانتا موجودتين في المراسم التي تلت حرق الجثة. عجوزان وتتحركان ببطء، إلا أنهما لم تفقدا أياً من مهاراتهما الكبيرة في الطهي رغم سنهما. لم يتناول سويلو طعاماً ألذ من طعامهما في حياته: ثلاث وجبات كبيرة يومياً، تصل إلى الباب في موعد ثابت كشروق الشمس الذي لا يحيد عن ميعاده. لم تثرثرا ولو قليلاً. يقرع جرس الباب، فيذهب ليرى من بالباب. وإذ بامرأتين محنيتين تتقدم إحداهما الأخرى متجهتان نحو سيارة أو في طريقهما نحو الشارع. تلتفتان أحياناً وتلوحان له بالتحية. كان أحياناً يهرع إلى الشرفة مسرعاً كي يبادلهما التحية.

يجلس مساء أمام جهاز تلفزيون معمّر يتناول عشاءه الريان من الدجاج المطبوخ أو السمك المقلي، ولتبدو له حياته، للمرة الأولى مذ كان طفلاً، حياة يحرسها ملاك ومتماسكة مادياً، وآمنة روحياً. كان يشعر بما يشبه السعادة.

في بيت العم رافي، بدا سويلو دائماً لنفسه وكأنه في حالة من التبلد

الذهني إلى حد ما. توقفت حياته، على الأقل تلك الحياة التي يظن أنه بناها مع فاني، وتوقف هو. أحس أحياناً كما لو أن قدميه لا تلامسان الأرض بكل ما في الكلمة من معنى. حالة من الدعة. وأخذ يفكر في الوقت ذاته أيضاً ببساطة، بفكرة مؤداها أن المال الكافي لتعتاش منه لبعض الوقت دون أن ينتابك القلق، هو الذي يتيح لك أن تعيش على هذا النحو. إحدى الميزات الكثيرة للأغنياء، إنما فقط إذا امتلكوا ذكاء كافياً يقيهم تدمير هذا الزمن المتبطل بالتفكير في أموالهم.

كان سويلو هذه الأثناء قد ضمن حياته. راح يتفقد كتيب الجيب بشكل متكرر بغية التأكد من حقيقة وجود هذا المال: 26.867.03 دولاراً هو المبلغ الذي بحوزته. إضافة إلى بيت قديم يقع في بلدة اكتسبت أهمية خاصة مؤخراً. صار البيت يغويه رويداً رويداً. لم يكن السقف فقط، المرتفع لدرجة أن العصافير تطير داخلة إليه عبر النوافذ المفتوحة وتحلق في أرجائه لبضع دقائق قبل أن تغادر خارجة من جديد، ولا الأثاث المريح القديم الذي يغرق فيه ويكاد يتوارى عن الأنظار، ولا أطباق الطعام الشهي التي كانت تظهر على الباب بلا انقطاع، بل غرفة النوم والسرير في الحقيقة هما اللذان أثارا تأمله.

مستلقياً على نعومته الملساء، وشراشيبه منسدلة على كتفيه، والوسائد المخرمة تصدر صوتاً كالقرمشة حين يرخي بظهره فوقها، غمر الوسن عينيه جراء وهج نار الفحم في الموقد وكأس النبيذ الأبيض الذي كان يجيزه لنفسه كل مساء. عرف سويلو شعوراً من الرفاهية، كانت مفاجأته صاعقة. في الواقع، لو تسنى لأحد أن يراه، وعيناه الشبيهتان بعيني البومة شاخصتان في النار وفمه متهدل وجسده مسترخ، لقال عنه إنه يبدو مَصعوقاً، كأنه تلقى ضربة قوية على رأسه وها هو يبذل جهده ليسترد عافيته منها.

بدأ ينتبه في تبطله هذا إلى ولع عمه رافي الكبير بالخربشة. الكتابة على أغلفة الكتب وفي الهوامش، وعلى أوراق المفكرات، وحتى على بعض

نشرات عبوات الأدوية الخاصة به. تخيله سويلو - إذ لم يكن قد لقيه منذ سني دراسته الجامعية قبل عشرين عاماً - عجوزاً خرفاً أبله يغمغم، عازباً يقرأ عن عالم يخسر موقعه فيه شيئاً فشيئاً، ويتحدث من خلال كتابة ملاحظاته الصغيرة.

ليس عملاً جيداً. موتور ومبتذل. يمكنني أن أؤلف أفضل منه. خربش واصفاً كتاباً من تأليف أرنست همنغواي. هذا الرجل متبجح كبير، كتبها كتتمة على الجانب الخلفي.

خصيان الرئيس. ألا يمكنهم رؤية أحد سواه؟ تنتخبون رجلاً معتوهاً. ما الذي تحصلون عليه؟ أهو الجنون؟ خربش هذا على صحيفة قديمة، صورة آيزنهاور على صفحتها الأولى، وقد اصفرت وتمزقت إلى قسمين.

بين المطرقة والسندان، ناخب ملون. حزبان إنما عرق واحد يديرهما كلاهما. عرق البيض. هذه كتبها على غلاف مجلة لايف.

استمتع سويلو في البدء بهذه الرسائل الصغيرة من عمه. ومع أنه هو نفسه يكاد يقترب من منتصف العمر، فقد تبنى وجهة النظر الشائعة بين الشباب ومفادها أن كبار السن لا يقتربون من الواقع إلا بمقدار قرب الكاريكاتور منه.

اتصلت ليزي بي اليوم باكية، لقد جرح بعض المتبجحين مشاعرها. كانت الحافلة مكتظة بالبيض العائدين إلى منازلهم بعد حضورهم للمباراة. أرغموها على النزول والسير على الأقدام. وهي ترتدي فستانها الأبيض المخرم وحسب. فتلوث بالوحل. كتبت هذه العبارة على عجل، وعلى نحو يثير الاستغراب، على علبة أحذية في خزانة غرفة النوم الرئيسة. علبة أحذية بداخلها خف نسائي أبيض اللون من الموضة القديمة، قياس ستة وقد علاه الغبار والبقع.

نهايتي على يد ليزي. ينبغي عليها التحلي بالقوة، اللعنة، وهذه مكتوبة، بشكل لا يصدق، على منديل طاولة كتاني مستعمل ومدسوس في جيب سروال أسود قديم وأنيق.

يجب أن أخبر ليزي ألا تأبه بخصوص... العبارة هذه بلا تتمة، كما لو أن أمراً قاطع عمه وهو يخربش ملاحظته على خلفية مظروف.

لكن من تكون ليزي هذه؟

بدأ، بشكل لا واع تقريباً، يمعن النظر والتدقيق في الصور المعلقة على الجدران من جديد. صور للعم رافي في شبابه، بعد وصوله من الجزيرة مباشرة، لا بد أنها التقطت في يومه الأول من توظيفه عتالاً لعربة قطار النوم في خطوط بالتيمور ليميتد للسكك الحديدية، تلك العربة التي كانت تنهك سكة الحديد الواصلة بين بالتيمور ونيويورك، والتي كان العم رافي يتحدث عنها كما لو أنها إحدى قريباته. كان يبتسم ابتسامة عريضة وبمرح وهو يتلاعب بقبعة العتالين ذات اللونين الأحمر والأزرق التي يعتمرها. يروق له الحديث عن الكمية التي كانت تأكلها، وعن زمجرتها عندما يعلو غضبها. كيف أنها تطارد قضبان السكة الحديدية، وكيف تعجز بقية القطارات عن حمل الشمعة لها. (ماذا يعني، سوف يتساءل متعجباً، أن تحمل شمعة لشيء ما، خاصة قطار. كيف تسرب هذا التعبير إلى اللغة للمرة الأولى؟) اعتاد عقل سويلو أن يتساءل، حتى عندما يتصاعد حماس العم رافي نتيجة اتقاد ذكرياته، وتشرق عيناه البنيتان الغامقتان الكئيبتان. روى إحدى المرات أمراً عن بقشيش تافه أنقده إياه مليونير أبيض بخيل، وضحك ضحكة مجلجلة، انتفخ معها صدغاه، وارتمى رأسه إلى الوراء، فغر فمه، فظهرت أسنانه الملتوية إنما المتينة والناصعة البيضاء.

عمل عتالاً لخمسين عاماً. يحمل حقائب البيض بشكل أساسي. أحياناً، في عطلته تراه يتسلل خلف جميلة ما ذات بشرة سمراء وملامح كأنها في التاسعة والتسعين من عمرها، وهي في طريقها إلى سيارة جيم كرو المسخمة، فيصر عليها لحمل حقيبتها. مثل هذه اللحظة هي التي جعلته يصبر على عمله، وتعلم كيف يخلق مثل هكذا لقاءات عابرة، لحظات صغيرة من المرح يقتنصها لنفسه، حين ينطلق القطار مسرعاً على السكك. يرتاح مع الصغار (ينادونه على الفور بـ العم) بصحبة

حيواناتهم الأليفة. شغفت به شابات يسافرن وحيدات. كان معيناً، ومتواضعاً، وسريعاً، ومن الواضح أنه كان يعرف مقامه - أمكنهم قراءة هذا بسهولة من خلال سلوكه - فقد كان، شأنه شأن معظم الملونين، يؤثر فن تنفيذ الأمور الأشد خصوصية للبيض ولصالحهم من دون أن يظهر عليه ولو لمرة واحدة أنه ينظر إليهم. مهارة لا تقدر بثمن.

في ختام هرولته بحاجياتهم، كان أصدقاؤه الجدد ينقدونه النكلات والديمات وأحياناً أرباع الدولارات ويلقونها في راحة يده. حصل في حالات نادرة على نصف دولار. لسوف يضحك، وهو يتحدث إلى سويلو وبقية الأقارب المتجمعين حوله (وحول تلال الطعام الشهي التي كانت موجودة على الدوام في منزل العم رافي) عن الطريقة التي كان يعطي فيها طعام القطار الفاخر، الذي كان يتناول قليلاً منه، للمشردين من النافذة وكيف كبر كرشه خلال جولة واحدة من جولات الكساد، حيث حمل خلالها كميات كبيرة من لحم الخنزير المقدد والمشوي كي يطعم العائلات التي بلا معيل في الشارع.

الزنوج لصوص. أجل هذه حقيقة! سوف يقول، ثم يضحك كأنه ممسوس.

تخيل سويلو عمه كما رآه البيض الذين عمل لحسابهم. رجل طويل القامة ومكتنز، مع أنه ليس سميناً أبداً، له حضور متجهم إلى حد ما؛ كائن بعينين خاليتين من التعابير شبيهتين بعيون دمية زجاجيتين (فكر سويلو بالشبه بين عينيه الجريئتين، ولكن غير المدهشتين أبداً، وعيني عمه). رجل على هيئة دب بشري أسمر وضخم، طوال خمسين عاماً ينحني للبيض ويتولى خدمتهم. عطر شعرهم ينفذ في أنفه على الدوام، مطالبهم ورغباتهم القليلة خلال رحلتهم من بالتيمور إلى نيويورك هي القوة الدافعة لمعظم نشاطه، كلمات من قبيل أيها العتال أو هيا أيها الصبي هي الإشارة لانطلاقه للقيام بفعل مبهج بشكل صادق، أو على الأقل، فعل ينم عن الاهتمام. يا له من كابوس، فكر سويلو، كابوس شيطاني. وكم هو

مؤثر على نحو متناقض أن العم رافي كان يهوى تناول الطعام والشراب والرقص (كان يرقص رقصاً رائعاً بالرغم من كبر سنه) في بيته - الخنادق المرتبة والفسيحة لعازب صلب، أو هكذا اعتقد سويلو - بصحبة العائلة والأصدقاء، وكان يستطيع أن يجلس ويسرد تفاصيل أيامه في خط سكة الحديد غير مكتفٍ فقط بالضحك على نفسه، بل ويضحك البقية أيضاً.

ضحك عميق! يخرج من أغوار الذات كأنه يكشط باطن الأقدام. لم يضحك أحد ضحكاً كهذا بعد ذلك أبداً. إذ لم يبد أن ثمة ما يستدعي الضحك بما يكفي. في نهاية نوبة ضحك عمه وضيوفه، كانوا يبدون أكثر خفة، ومودة، لا بل ويؤدون أعمالهم بيسر أكبر. كما لو أن الضحك قد أفرغهم، فوضع تقاسم الضحك هذا ما هو مدعاة للضحك ولا يطاق في إطاره الصحيح.

ليته يستطيع الآن الضحك هكذا من الورطة التي أحدثها في حياته مع فاني، والجبن الذي أبداه في علاقته مع كارلوتا. يروق لفاني أن تضحك، وهي تتباهى بالفجوة التي لا تقاوم بين أسنانها الأمامية، كأنها ما زالت تحيا في إفريقيا، حيث أن ذلك من أمارات الجمال؛ فجوة تقرص لسانه أحياناً. لم يفلح في تخيل نفسه مشاركاً في هذا الضحك الآن، إذ سيجد نفسه مكان ذاك البخيل الأبيض، الشخص الذي استغله؛ أو من الأطفال وأمهاتهن الممتنأت، اللواتي لا يظهر عليهن أنهن ينتبهن. تخيل فاني وكارلوتا تضحكان سوية - منه.

ذات صباح، قرع رجل عجوز الباب، تعرف إليه سويلو بوصفه أحد الرجلين اللذين كانا حاضرين في مراسم ما بعد حرق جثة عمه رافي. وقف على الباب في قميص عمل، وسروال وحذاء مهلهلين، وهو على أهبة الارتعاش. بعد مجاملات مقتضبة من قبيل - نهار جميل. سوف ترتفع الحرارة بعد قليل. كيف حالك؟ - أعلن أنه قد جاء لجز عشب الفناء.

من دون التفوه بكلمة، قاد سويلو الرجل عبر البيت ليخرجا من الباب الخلفي. حين وصلا الفناء راح سويلو يتابع هذا الرفيق العجوز فيما كان

يفتح قفل العلية ويخرج منها آلة جزّ العشب العتيقة عتق كل شيء في أرجاء هذا البيت. مضى بها وأخذ يدفعها إلى الأمام والخلف فوق المرج الصغير قاصّاً رؤوس أنصال العشب في مزاج رائق ومتسام. تأثر سويلو بما شاهده.

اسمي سويلو، قال عندما انتهى الرجل، وأبعد الآلة ثم قام بتكويم العشب وأعاد الأدوات إلى العلية. وقف سويلو جواره حين كان يمرر يديه تحت الماء المنهمر من صنبور في الخارج ويمسح العرق عن وجهه بمنشفة مصفرة كبيرة.

أعرفك، قال العجوز. عرفت والدك ووالدتك. عرفتك وأنت صبي، قبل أن تغير اسمك. لويس جونيور، هكذا كنا ندعوك. أو لويس الصغير. تنهد. لن تتذكرني. اسمي جينكينز. هارول دي؛ أي من دانفنبورت، واختصاراً هول. هنا ابتسم. يلقبني الأطفال دائماً بالعم ها!، سرني لقاؤك. مد له يده المبللة، صافحه سويلو متعجباً من نعومتها وهشاشتها - يد رجل لا يعمل الآن سوى ساعة أو ساعتين كحد أقصى في الشهر.

قدم سويلو فنجاناً من القهوة للسيد هول، فرحب به. جلس السيد هول مرتاحاً إلى طاولة المطبخ، كأنما كان يألف هذه الجلسة هنا. في الواقع، عندما تحرك في كرسيه وشعر بعدم توازن الكرسي، أصدر نوعاً من نخرة غاضبة يصدرها المرء عندما تكون إحدى قطع الأثاث قد درجت على إزعاجه بشكل متواصل لسنوات.

هل لي بتغييره؟ طلب، وقد نهض حالاً عن الكرسي المزعج. ذلك...

هل دامت معرفتك بعمي زمناً طويلاً؟، سأله سويلو.

طوال حياته تقريباً. كنا صبيين معاً في الجزيرة. كلانا ينحدر من قوم يعملون بتصنيع الأثاث. مضينا معاً إلى الحرب العالمية الثانية، الحرب الكبرى. تزوجنا...، هنا توقف عن الكلام. أحنى رأسه ونظر إلى حذائه.

كان رجلاً ضئيل الجسد إلى حد ما. رأسه طولاني الشكل؛ تظهر في شعره القصير تلك المسحة الغريبة من الشيب فيبدو أبيض ومن ثم يعود

فيسود مجدداً. شاربه مشذب بعناية فوق شفتيه. بشرته سفعتها الشمس وناعمة بنعومة تجدها عموماً لدى العجائز والأطفال. لديه عينان جميلتان كبيرتان على نحو غير عادي، فكر سويلو، عينان جميلتان. وكان يقصد بجميلتين أن فيهما قدراً من الصبر فقد تعلم متى يتكلم ومتى يصمت. شأنهما شأن الكثير من عيون العجائز، يغشاهما غشاء مزرق، والحدقة الداكنة مفتوحة على اتساعها.

كنت أفتش في أغراض عمي، قال سويلو.

ثمة الكثير من الحاجيات للتفتيش فيها، قال السيد هول. لم يكن يطيق أن يفوته أي شيء. لقد احتفظ بأصغر وأتفه شيء حصل عليه يوماً.

قال هذا الكلام بنبرة تشي حقيقة بالقول إنني لا أحسدك.

أوه، أنا أستمتع بهذا، قال سويلو. أشعر أنني أتعرف إليه للمرة الأولى. مع ذلك أتمنى لو كانت الصور المعلقة هنا وهناك تحمل أسماء. الوجوه معبرة جداً. جميعها تبدو كأنها ستنطق، لكنني لن أتمكن من سماعها دون أن يكون لها أسماء.

أغلب صور النساء هي لليزي، قال السيد هول. أما الرجال فمتنوعون. صور لوالدك، أبناء عمك وأعمامك وجدتيك. لعل إحداها تعود لعمتك أو لأنثى أخرى، لكنني لا أتذكر.

ثمة الكثير من صور النساء، قال سويلو.

ليزي هي الكثير من النساء.

صراحة، يسعدني أنك ذكرتها لي، قال سويلو، لقد شاهدت اسمها مكتوباً مرات كثيرة في جميع الأنحاء.

دقق السيد هول في سويلو، كما لو أن عينيه تتحريانه من رأسه إلى أَخمص قدميه. شعر سويلو أن هذه النظرة تغسله، تقيّمه تقييماً صارماً.

هل قابلتها، هل التقيتها يوماً؟

لا. لا أعتقد ذلك، قال سويلو.

هي إحدى اللتين تأتيان لك بالطعام.

حقاً، قال مخيباً. فكر بالعجوزين وهما تتوكأ إحداهما على الأخرى، أو تلتفتان للتلويح له فيما هما تستقلان السيارة. لقد راقته فكرة أنهما تطهوان الطعام لأجله، وكان فعلياً مستغرباً تماماً من عملهما هذا، لكنه فكر أنهما أكبر سناً من أن تقودا سيارة.

لم أكن عجوزاً دائماً، قال السيد هول، لا أحد كان كذلك.

أدرك سويلو بلحظة خاطفة أنه في حياته الواقعية، حياة كاليفورنيا بعيداً عن منزل عمه الحميم في بالتيمور، لم يكن حوله من عجائز أبداً. لم يكن يعرف أن إحدى المهارات التي يكتسبونها مع تقدمهم في السن هي القدرة على قراءة العقول، لأنه فيما كان جالساً هناك، مرتبكاً، أدرك أن السيد هول كان يقرأ أفكاره. يقرأها بسهولة وعفوية كما قد يقرأ هو نفسه كتاباً.

هل أنت متزوج؟، سأله السيد هول.

كنت، أجاب سويلو.

ظل السيد هول يترقب التتمة.

لقد خربت زواجي. لست أدري الآن ما الذي سيحصل. إنني أنجرف.

أراهن أنها في غاية الجمال، قال السيد هول.

بدا هذا كلاماً زائفاً لسويلو. وغير مناسب. فالسيد هول أكبر سناً من أن يهتم بالجمال المجرد. حتى هو كان كذلك. على أية حال، هل فاني جميلة؟

الجمال حالة لا تشبه مظهرها، قال سويلو. ربما لم يكن أبداً كذلك.

لا تعقد الأمور، قال السيد هول ضاحكاً.

ضحك سويلو أيضاً.

النساء، قال السيد هول بمزاج مرح.

لا يمكنك العيش معهن ولا يمكنك... تعرف البقية، أنا *أعرف* فقط، نظر أحدهما إلى الآخر وضحكا مجدداً.

رافق سويلو السيد هول نحو شاحنة متهالكة. انحنى السيد هول على

المقود كما لو أنه يريح صدره فيما كان يصلي للشاحنة لكي تشتغل. وحين دار المحرك، بعد الكثير من الأنين والحشرجة، التفت نحو سويلو.

اطلب من ليزي في زيارتها المقبلة أن تحدثك عن نفسها.

كل هؤلاء العجائز الطاعنون في السن يركبون السيارات، فكر سويلو، متسائلاً عن معدل حوادث السير التي تحدث لهم. بقي السيد هول قليلاً يحث المحرك كمراهق يعاني من صعوبة في السمع.

أهي صديقة؟، سأله سويلو رافعاً صوته بسبب ضجيج المحرك.

أكثر من ذلك، قال السيد هول، وهو يدور مبتعداً. ليزي كانت زوجتي.

عاد سويلو إلى الداخل وتوقف أمام أول صورة صادفته. امرأة في ريعان شبابها، حافية القدمين، ملامحها عنيدة وترتدي فستاناً طويلاً غامق اللون وتحدّق فيه بنظرة متكبرة. كانت تقف أمام خمسة كراس خشبية جديدة من الطراز القديم. وقفت على تربة رملية، ولاحظ أن فستانها ملطخ في مكان قريب من حاشيته. على إحدى الكراسي سلة قيد الصنع، جعلتها سنابلها العارية تبدو أشبه بعنكبوت ضخم يوشك أن يزحف على مسند الكرسي.

تلك الكراسي استثنائية في شكلها: كراس طويلة صنعت من خشب ذي لمعان خفيف، مقعدها من قصب ومساندها دقيقة الميلان. لم يرَ لها مثيلاً قط في حياته.

واصل النظر إلى الصور المنتشرة أعلى وأسفل بيت الدرج، وفي الردهات. الوحيدة التي لم يتمكن من التعرف عليها هي تلك الشابة في الصورة مع الكراسي. عاد إليها مرات عدة، وأمكنه دائماً أن يحدد عَماته وبنات عمه، إنما ليس هذه الشابة. لاحظ بعدها وجود بقع مربعة وبيضوية باهتة اللون في مواقع الصور التي كانت معلقة على الجدران ذات يوم. لا بد أن أحداً قام بإنزالها.

***

كنا أنا وليزي نتودد لبعضنا منذ أن كانت ترتدي الفساتين الطويلة وأرتدي أنا السراويل القصيرة، قال السيد هول لسويلو بعد أيام قليلة من احتسائهما القهوة على طاولة المطبخ. لا بد أنها بدأت، أقصد مشاعرنا المبهمة المتبادلة، في طفولتنا المبكرة جداً. كما تعلم، أو ربما أنتم الشباب لا تعلمون، لكن نمط العيش في البلاد آنذاك كان فيه الكثير من الحسنات. لم يكن كله متسيداً من فرسان الليل[1] والبيض المخيفين الذين يثيرون الذعر بتصرفاتهم المشينة. بالطبع كانوا يفعلون ذلك حينها، لكنني توصلت الآن إلى الاستنتاج بأنه لم يكن بيدهم حيلة وحسب، فتمني نفسك لو أنهم عاينوا ميولهم تلك، لكنهم لم يرغبوا بذلك، وإن فعلوا فليس في هذه الحياة على أية حال، ربما في حياة قادمة. تتعرض للضرب على أيدهم، وإذا ما كنت طفلاً، فإنهم إن ضربوك ونجوت من الموت ولم يرغموا أحداً من أسرتك أو أحد أفراد أسر أصدقائك على الفرار، يمضون في طريقهم. هللويا! حينها لن يتبادروا إلى ذهنك مجدداً ما لم يتسببوا بحزن عميق. إنهم الأشد إثارة للرعب من بين جميع البشر، ولأكن أميناً: أنا أخشاهم. بوسعهم الحصول على ما يبتغون بغض النظر عن قيمته، هذا ما يعتريك حين تلقاهم، ولذا كنت أسعى دائماً للحفاظ على ما هي عليه حياتي بما لا يستدعي اللقاء بهم.

لكن هذه البلاد مكان شاسع، وهي جميلة، الجزر المتناثرة في الخليج من تشارلستون، جزر مميزة بحق. كنا أحياناً نتبادل الزيارات مساء بعد العمل في الحقل - وعائلاتنا أيضاً، كما تعلم - وترانا نجلس على الشرفة. حسناً، الكبار يجلسون يمضغون التبغ ويدخنون، والأحاديث الطويلة بينهم تقصر وتمسي كلمات وجيزة. تمضي أحياناً ساعة كاملة لا ينطقون فيها كلمة تقريباً، لكن العالم وسماوات الجنة وأسوار جهنم كلها تكون محتجبة وراء صمتهم.

1- Night Riders: فصيل شبه عسكري كان يجبر مزارعي التبغ على الإضراب ضد شركات التبغ التي تشتري التبغ منهم بسعر زهيد - المترجم.

حسناً، قبل أن نعي أنفسنا جيداً، ونحن صغار، اعتدنا أنا وليزي اللعب سوية. كان مسكن والديها مواجهاً للشاطئ، بيد أننا لم نكن ننظر إليه كشاطئ حينها؛ كنا نراه مجرد فناء لمنزلهم، إذ يمكنك الجلوس على تلك الشرفة المسورة تراقب نزول الشمس في الخليج. كان مشهداً بديعاً، نرغب جميعاً بالخروج لمتابعته: الأطفال، والكبار، وكلاب الصيد، والقطط وحتى الماعز. نجلس أو نقف هنا وهناك صامتين وحسب، نراقب غروب الشمس... رغم أن القطط لم تكن تفعل - ليس بالقرب منا على كل حال - إذ كنت وما زلت، لسبب أجهله أموت خوفاً من القطط، وهذا ما كان يحزن ليزي المولعة بها ولعاً كبيراً. مع أنني لا أستطيع تذكر أنفسنا ونحن صغيران، بالكاد يمكنني هذا - ليزي تتذكر بشكل كامل، كما تقول - ويروقني أن أستعيد كيف كنا نتابع ونحن صغيران وأكياس الحلتيت معلقة في أعناقنا، غروب الشمس جنباً إلى جنب مع الحيوانات وتنزل ريالة كل منا على وجه الآخر.

ضحك الجميع من رؤية قوة الانجذاب بيننا. حالما تمكنّا من السير، خرجنا وأصبحنا نترنح بالسير معاً، ندس كل ما يقع في طريقنا في أفواهنا ويعلك كل منا أنف الآخر بأسناننا اللبنية. بعدها كبرت ليزي قليلاً وأصبحت هي فتاة، وأنا فتى صغير. مضت سنوات وافترقت دروبنا، إلى أن عادت السيدة بيمونت وافتتحت مدرسة صغيرة خلف منزلها، فعدنا أنا وليزي واجتمعنا من جديد. لم يكن ما بيننا حباً حتى، كما هو الحب المعروف، إنما شعور أكثر شبها بالأحاسيس التي تخالج شباب اليوم عندما يخرجون للاحتجاج معاً مناهضين للحرب النووية، شيء من التقارب. كل منا كان منجذباً نحو الآخر، لأننا بهذا الانجذاب كنا نشعر أَن هذه هي الحياة المثلى والأكثر أماناً. أحسسنا أنا وليزي بهذه المشاعر معاً، حتى السيدة بيمونت وكل من بالمدرسة الصغيرة كان يعرف هذا. ها وليزي، ليزي وها، تراهم يقولون.

لم تكن ملاكاً أبداً. كانت فتاة لئيمة في حقيقة الأمر. يتعين عليها

باستمرار إيجاد طريقها الخاص، لكن ليس دائماً برفقتي. كنت أفلح أحياناً في حملها على رؤية الجانب الخير فيه. تسرق أحياناً الطعام من الأولاد وتقدم لي كسرات منه، ونتناول أياً يكن الطعام الذي سرقته ونراقب ذلك الرفيق الصغير مسلوب الطعام وهو يبكي. تعرضت ليزي للجلد أكثر من أي أحد آخر في المدرسة. لقد جاءت إلى الحياة مفعمة بروح الزعامة، ومهما بلغت تفاهة ما تتفوه به فهي على حق. كانت الفتيات الصغيرات تعانين مشكلة تنمر الصبيان عليهن، لكن ليزي لم تعرف هذه المعاناة، فهي تتحكم بالصبيان بالأسلوب ذاته الذي تتحكم فيه بالفتيات، تراها تدخل في عراك في أية لحظة وبمنتهى السهولة، تقاتل كالشيطان بذاته، تكشر عن أسنانها البيضاء الكبيرة، وتكيل ضربات خاطفة، تعض أذن الصبي حتى توشك أن تنزعها لأنه حاول النيل منها، تقف بعد ذلك كالملكة. تتكلم فتنشق المياه.

لأقول الحق، كنت أخشى ليزي قليلاً. كانت شرسة. ولسوف تلفق الأكاذيب عن الناس لا لشيء إلا لتضحك على البلبلة التي تحدثها. فعلياً كان بمقدورها أن تكون خبيثة. ذات مرة أوشك السيد بيمونت على إغلاق المدرسة لأن ليزي قالت، وبصوت مرتفع إلى حد وصل إلى مسامعه: يبدو أن هنري آيكين - ذلك البهيمة الضخم الذي يبدو كحصان يجلس في مقعد مدرسي - قد أضاع شيئاً ما تحت مقعد السيدة بيمونت. صحيح أن أنظاره كانت دائماً على ما يستطيع رؤيته من كاحلي السيدة بيمونت، لكنه لم يكن مؤذياً، وكان سلوك السيدة بيمونت فوق الشبهات، ولديها مهام كبيرة لا بد من تنفيذها في المدرسة. سخرت السيدة بيمونت وهنري من الموقف. ظهر السيد بيمونت في النهاية بمظهر المغفل، خاصة بعد أن تخلت السيدة بيمونت عنه مؤقتاً، وابتعدت عن المجتمع، وخسرت تقريباً عملها هذا في التدريس. وجد السيد بيمونت نفسه مضطراً للذهاب إلى منزل والدتها والتوسل إليها للعودة. كانت ليزي، ليزاي الصغيرة، تضحك وحسب.

لم يكن من أحداث كافية تناسب طبعها، ولذا فقد كانت تميل للنظر

إلى حيوات البشر وكأنها ألعاب. كانت على الدوام شخصاً مؤثراً فيمن حولها. إلا أنها كانت فتاة صالحة بالنسبة لي وتعمل على حمايتي. لسبب غريب فيّ لم أكن، على النقيض من زملائي، قادراً على العراك، عاجزاً عنه وحسب، وقد بدا لي في منتهى الوقاحة والفجاجة. كنت دائماً أؤثر الهروب من العراك، والهروب من العراك، كما تعلم، يروق لهم. أفكر أنه ولا بد من سبيل آخر لتسوية الخلافات، من دون أن يكون أحد في جزيرتنا يبدو أنه سمع به، فقد درج الكبار على التفوه أحياناً بأمور تجعلهم فيما بعد، في ليالي السبت، يهاجمون بعضهم بعضاً. وقفت ليزي إلى جانبي. تراها واقفة بقدميها المسطحتين – الحافيتين أيضاً، لأن أياً منا لم يكن لديه أحذية للمدرسة، عدا تلك التي ننتعلها يوم الأحد إلى الكنيسة – تنفخ صدرها النحيف وتكشر عن أسنانها الكبيرة البيضاء ثم تهجم بأفضل وأشرس طريقة يهاجم بها الصبيان، حتى لو كانوا ضعف حجمها. لم تكن تعبأ بهم قط، بل كانت لا تبدي أي خوف... في الواقع، عندما بدأت ليزي تحصي الأطراف التي تعتزم فرمها والجروح البليغة التي تخطط لتمريغها بالتراب، كان صوتها يحمل قدراً من اللامبالاة الهادئة وتبدو عيناها وكأنهما تنظران إلى البعيد، إلى ما وراء رأس خصمها. كان هذا مشهداً مفزعاً. فتاة صغيرة جداً وشديدة السواد، وكأنها، في حالة *تركيز*، إن كنت تفهم ما أعنيه، كأن جسدها سوط يقاومك ويسوطك كيفما أمسكت بها، كما أن نظرتها الضجرة، تشي بأنها قد تعاملت مع نوعك من قبل وتتمنى فعلياً أن تلقى شيئاً أكثر إمتاعاً للقيام به من مسح الأرض بمؤخرتك التي يرثى لها في تلك الظهيرة. من أين جاء هذا؟ طاقة ليزي المكثفة والموجهة؟ عندما أخبرتني، اندهشت ولم أندهش في آنٍ معاً.

***

كما تخيلتهما كارلوتا بالضبط، كانا واقفين متقاربين أمام درابزين السفينة. لم تكن سفينة بالمعنى الحقيقي؛ مركب أرفيدا الشراعي بلونه

الأخضر الزيتوني، وأشرعته السوداء والصفراء، والذي يقوده بالبراعة التأملية ذاتها التي كان يعزف بها على الفلوت. على متن هذا القارب الصغير، كان يبحر في مياه العالم حينما تتعبه الأوضاع على اليابسة. هدوء القارب يسكّن أعصابه، وعندما يصيبه الإعياء من الإبحار، يوقف المحرك، الذي يئزّ بحيوية، مثل ذبابة مثابرة كبيرة، أو يترك القارب يتهادى حيث يشاء مع الريح.

سافرا جنوباً.

تحت السماء الصافية، جعلت انعكاسات المياه التركوازية بالقرب من شواطئ بلادها عينيها الحزينتين تشرقان، لقد أصبحت زيدي امرأة مختلفة. اختفى تلعثم لغتها الإنجليزية الناتج عن الخجل أو الإثارة العاطفية، أو الخوف، مع أن صوتها غالباً ما كان يتهدج وهي تبذل جهداً لئلا تبكي من الألم الناجم عن اجترار التجارب التي عاشتها من قبل. تكلمت بفصاحة أفزعت أرفيدا، الذي هرع إليها حين سمعها، لا كعاشق، وإنما كأذن قد تتمكن من إعادة ربطها أخيراً بعالمها.

ليس بوسعك أن تفهم أي شيء عن نمط حياة بلادي. قالت، خاصة كما كان في طفولتي. عصف التغيير بكل شيء، هذه الحقيقة، بيد أن كثيراً من أساليب العيش القديمة لا تزال تطغى على المشهد. علمتنا أمهاتنا ممارسة الحب ورعاية الأطفال عندما أصبحنا شابات، بالطبع، علمننا هذا طيلة تاريخ حضارتنا.

لطالما تذكرت ذلك الشلال الهائل، تابعت زيدي، الشبيه بالذي رأيته في صور جامايكا. مكان خلاب. نقصده مجموعة كبيرة من الفتيات وأمهاتهن للاستحمام أثناء الدورة الشهرية، عند اكتمال القمر دائماً. كان مكانا دافئاً. في انهمار الماء المنعش على بشراتنا وشعرنا الطويل. في الماضي كان الجميع يرخون شعورهم كي تطول! وهذا كل ما في الأمر! لا أحد يقوم بتوجيهك كثيراً بخصوص هذا، لا أحد. يمكنك تسريحه بالطريقة التي تشاء، تربطه أو ترفعه إلى الأعلى فوق رأسك أو تشده إلى

الوراء وتحزمه بسلاسل صغيرة أو سيقان الأزهار، يمكنك التعامل معه كما تشاء. أجل، وكانت بعض النسوة يضعن عصابات الرأس وقوامها الخرز الجميل والمصقول كجلد سحلية الإغوانا. أجل!

على أية حال، كنا نتجمع قرب الإلهة إيكستافتا فاهيكس، هذا ما يعنيه اسمها، فتقوم الأمهات بإعداد الطعام، وتمضي الفتيات صعوداً ونزولاً على جانبي الشلال يجمعن الحطب للنار. بعد الأكل والاستحمام نتحلق حول النار، وإن كان ثمة من تريد وشماً، تنقش لها والدتها إياه، تفركه بالصباغ، فيما والدة فتاة أخرى تروي الحكايات الغابرة.

على هذا النحو تعرفت للمرة الأولى على الكهنة. لم يكن كهنة قريتنا يتمتعون ولو بذرة من المرح. يبدو عليهم دائماً، عبر ملامح وجوههم الحامضة، وكأنهم تعرضوا للأذى وأحجموا عن أمر ابتلاهم الآن بالقلق. بالتأكيد كانوا يخشون فقدان الاحترام، وبالطبع بدا الخوف على شكل احترام، على ما أظن. أليست هذه هي العادة؟ ينحني الناس لهم حيثما ذهبوا، حريصين على ألا ينقطع الطعام عنهم. شيد الناس البيوت لهم، وقاموا بكل ذلك بلا بهجة ولا فرح. لا يتلقون أدنى استحسان من الكهنة إلا عندما يقود هؤلاء الاستعراضات في الشعائر الدينية، ويباركون القرية، والمحاصيل، والدواب. والسبب في هذا كان - أزياءهم؛ أزياؤهم التي خاطتها نساء من شاكلة والدتي، التي كانت أحياناً تعمل طيلة العام على ملابس مزدانة بالريش والخرز ومشكوكة بالأصداف يرتديها الكهنة. وعندما تنظر إليهم الحشود في الاحتفال السنوي، تكون كسوتهم أكثر تألقاً من تلك التي حيكت في العام المنصرم. أحياناً، كما أقول لك، كانوا يبهرون العيون، ويزداد القلب ولعاً بهم لمجرد تخيل أن مثل هكذا جَمال يمكن أن يصنع أو يوجد. لن تصدق أن شيئاً بهذه الروعة والجمال صنعته أياد بشرية، وتحديداً أيادي أولئك النسوة الهزيلات الفقيرات والمحنيات الظهور كوالدتي، وهي تجلس على أرضية كوخها القذرة.

كانت والدتي تعمل في كوخ مميز ذي جدران طينية وسقف من

النجيل. لا تفارقه لأيام متواصلة أحياناً. كان بوسعنا رؤيتها من بيتنا الرئيس، إلا أننا تعلمنا باكراً ألا نضايقها أثناء أدائها لعملها المقدس، حياكة أزياء الكهنة. اعتدت أن أتخفى في أجمات طربا[1] قرب شجرة المانغو الضخمة في فنائنا وأراقبها أثناء عملها. كانت تمر أيام لا تعمل فيها على الإطلاق. هل تعلم أن والدتي درَجَتْ على تدخين الغليون، غليون صغير من الطين سويقته مزدانة بالريش، فتراها تجلس وقد أسندت ظهرها إلى الكوخ تدخن وتنظر شاخصة في البعيد، كما لو كانت تبارك آلاف الأكرات من أشجار الموز الممتدة أمام ناظريها. بين الفينة والأخرى تدمدم لنفسها، بصوت مرتفع تماماً، وبعدها أظن أنها اكتشفت أنني كنت أتخفى وأراقبها. لكن لا، حتى إذا ما سرت أمامها في مثل تلك اللحظات، أشك في أنها كانت لتراني.

بعدها في النهاية سوف تنفض الغليون - لديها سلسلة من النقرات الإيقاعية الخافتة جداً، وشديدة العذوبة - تنقر بها على تلك الشميسات[2] المعلقة قرب الباب، وترهف سمعها للصوت الخفيف العذب المنبعث منها. إذا ما لاحظت توافقاً بين صوتها والنقرات، تومئ برأسها علامة على الاستحسان، ثم تعيد الكرة.

كانت تخيط مشالحاً وعمامات فائقة الجمال، تنجزها بحق كما لو بفعل السحر. لم تكن لوالدتي تجاعيد حول عينيها، كما حول عيني، إذ إنها نادراً ما كانت تنظر إلى ما تفعله. بدت أصابعها وكأنها تعرف ما عليها القيام به، ووجهها غارق في حلم. وحده ظهرها تقوس بعض الشيء، بسبب طول فترات الانكباب على العمل.

كانت أحياناً تفقد هذه الحالة الثمينة خلال فترات العمل الطويلة. تأتي إلى البيت وتطهو وتنظف وتوبخنا كأي أم عادية. وكنا دائماً مسرورين بعودتها، مع أنها لم تكن أبعد ببضع خطوات عنا في الجهة

1- Taraba: ولاية طربا في نيجيريا المسماة على اسم نهر طربا - المترجم

2- chimes: نوع من الآلات الإيقاعية تصدر أصواتاً متتالية شبيهة بالأجراس - المترجم.

المقابلة من الفناء. والدي خاصة يسعد بعودة زوجته أيضاً. يغمره السرور لدى سماعه منها أن العمل يسير على خير ما يرام، لأن والدتي سوف تبتسم له حينها. أما إذا لم يكن يسير على نحو حسن، فسوف يصبح سؤال والدي عبئاً مزعجاً وتدخّلاً ويصبح كل كلامها معه قاسياً، وتلك كانت مرات قليلة على كل حال. إذا ما حاول التحدث إليها عندما يكون ذهنها مشغولاً بعملها، كانت تجيبه وتقاسيم وجهها كمن يعاني من ألم في المعدة.

لم تكن شخصاً متسرعاً. قد تبدو هذه خصلة تافهة. لكنها فعلياً ميزة مدهشة جداً، ميزة موغلة في القدم. كانت تقوم بكل شيء بالوتيرة ذاتها التي كان ينجز فيها من قبل، يمكنها تحديد الوقت في النهار والليل من رطوبة الغلاف الجوي، وكانت مستغرقة في عملها كما لو أنها ستعيش إلى الأبد، وهذا الأبد كان طويلاً... طويلاً جداً. ماما من هذا النمط من النساء[1]. عندما تنظر إلي تراها، إلا أنني فقدت الأبد؛ لهذا تراني أحياناً في عجلة من أمري.

حكاية الكهنة هي حكاية مؤسّية، ولا أظن رجال قريتي كانوا يدركون أن النساء يعرفنها حتى أدق تفاصيلها. للأسف، حتى في قريتي الفقيرة كانت تعتبر النساء تابعات وأبعدن عن الأسرار التي ظن الرجال بوجوب امتلاكها. إلا أننا عرفنا! كل شيء! كانت لدينا أسرارنا الخاصة باستمرار.

علمتنا أمهاتنا أنه في الأيام الغابرة، حين كنّ هنّ جداتهن وجداتهن كن عجائز - لأننا نحن جداتنا، أتفهمني، عدا الكثير من الأمور المختلفة والجديدة المضافة - كان الكهنة من النساء فقط. أجل! كما أقول لك. لكن بحق، في البداية لم يكنَّ كهنة بقرارهن؛ الرجال هم الذين نصبوهن. نسي الرجال بعدها أنهم هم من نصبوهن كذلك. حسناً، ما حدث أنه في البداية، في الوقت ذاته تقريباً الذي خلق فيه طائر الطوقان، ولدت أيضاً امرأة، ومع مرور الزمن والتغيرات، أنجبت كائناً لا يشبهها إلى حد ما.

1- Mujer: وردت بالإسبانية - المترجم

لقد أفزعها هذا. مع ذلك، احتفظت بهذا الرجل[1] الصغير بجانبها لزمن طويل، إلى أن أخذ ينتابه القلق لاكتشاف إن كان يوجد من نوعه في أي مكان آخر. خرج باحثاً، وعثر بلا شك على آخرين من شاكلته، من الذين يعيش بينهم. هؤلاء الرجال الأوائل كانوا جدداً جداً على بعضهم البعض بحيث أن كل ما فعلوه هي التحديق كل منهم في عيون الآخر - على مدى قرون من الزمن! غمرهم السرور لأنهم قد عُثِر عليهم. لكن هذا كان معناه أنه لم يكن لديهم وعي ذاتي حول هيئتهم، عدا الدليل المتعلق بذكوريتهم، أي البظر المتطاول. لم تكن لديهم فكرة عن اللباس.

بينما كان الرجل لا يزال مأخوذاً بحداثته، كانت المرأة معتادة كلية على نفسها. عرفت التبرج من قبل. بالحقيقة، عرفت نمطاً رفيعاً من الموضة قبل زمن طويل! أجل! يمكنك أن تضحك، وهذا أسلوب ظريف لقول هذا الآن، لكنها لم تكن واعية باهتمامها بالنمط الرفيع للموضة. أحبت أكثر، كما تعلم، أن تداعب نفسها. تمتع نفسها وتمنح الأخريات المتعة التي عرفتها قبلاً. إذ لديها ثديان بارزان، بطن ناعم أسمر وساقان سمراوان قويتان، وللشعر أن ينمو على فرجها ويتألق مثل جناحي عصفور، وشكل هذا مصدر إزعاج لها. وهكذا بدأت تلعب بمظهرها. استعملت الريش، والأصداف، الحصى والأزهار. استعملت أوراق ولحاء الأشجار والرمل الملون. استغلت الوحل. مخالب الطيور! في النهار كانت وأخواتها رابضات على أطراف برك المياه العاكسة في الأدغال، يجربن هذا التزيين أو ذاك. كن يمضين بعض الوقت في جمع الغذاء. من حين لآخر كن يستضفن رجلاً، يلعبن وإياه الألعاب الجنسية إلى أن يسأمن منه؛ عندها يهجرنه.

مع مرور الزمن، عثر هؤلاء المهجورون على بعضهم وأكد كل منهم تجربته للآخر مع النساء، ارتدوا ثياباً غريبة جداً بألوانها وريشها، ونشروا معارفهم بين الرجال الآخرين المفتقرين للخبرة. ذات يوم، علم أحد

1- Hombreوردت بالإسبانية - المترجم

الرجال بالولادة التي تحدث بين النساء. حسم هذا الأمر. تخيلوا على الفور امرأة هائلة الضخامة[1] أكبر من السماء، تلد الأرض على نحو ما، وقالوا عنها إلهة. بالتالي، إذا ما كانت ولّادة الأرض امرأة كبيرة، إلهة، فلا بد أن النساء كهنتها، ولا بد أنهن يمتلكن قوى عظيمة خارقة.

هل يرهب العقل ما لا يستوعبه أم يعبده. أتكلم عن عقل الرجل. الرجال لديهم كلا الأمرين، يعبدون النساء ويخشونهن. لقد حافظوا على مسافة منهن، لكنهم تجسسوا عليهن متى استطاعوا. بدا أن الأناقة التي ترتدي بها النساء ملابسهن برهان على امتلاكهن لهذه القوى الخارقة المتخطية للطبيعية. لم يكن الرجال، وهم الذين كان تعوزهم قرون من تجربة النساء مع الثياب والتزيين، قادرين سوى على الإتيان بأساليب محاكاة خرقاء جداً. ضحكت النساء منهم، وكان ذلك من أفدح الأخطاء في دنيا ردود الفعل البشرية بأسرها على جهد مخلص! وهكذا، بغية إظهار نواياهم التعبدية في البدء، قام الرجال، الذين كانوا أكثر مهارة من النساء في الصيد، لمجرد أن النساء وجدن أن بإمكانهن العيش بشكل جيد تماماً على الطعام النباتي أكثر منه على اللحم، بتجميع كل الأمور التي عرفوها تروق للنساء أو ربما أُقنعت المرأة بمحبتها - كالريش، والعظام، ولحاء الشجر لاستخلاص الأصباغ، وأسنان الحيوانات وبراثنها - وقدموها للنساء، جاثين على ركبهم، وكانت النساء تتقبلها ويخترن منها مثلما تفعل ربات البيوت عند الشراء.

حدث هذا قبل زمن طويل من الوقت الذي بدأن فيه بطلب هذه الهدايا، وقبل مدة طويلة من وعي الرجال للشبه المذهل بينهم وبين بعض الأطفال الذين تنجبهم النساء. لم يرق، على نحو غريب، الأطفال للرجال؛ تبين أنهم يثيرون حفيظتهم، حتى الصبيان من الأطفال، الذين كانوا دائماً يوهبون لهم أو الذين كانوا دائماً أو تقريباً يهربون للانضمام إليهم، والذين إذا جاز التعبير، يتولون تربيتهم. ظل مجتمع الذكور على

1- MujerMuygrande: وردت بالإسبانية - المترجم

مدى قرون دائراً في فلك الإناث، وبالكاد كانت النساء تلحظ هذا، ما عدا تقديم الطلبات المتعلقة بكمية وعدد الأشياء التي يبتغينها.

عاشت الكثير من الجدات وتوفين خلال ذلك الزمن. يُنحنى لهن، مرهوبات، معبودات ومدللات. فيما بعد حدث تمرد ذات يوم. داهم الرجال إحساس بالإعياء من عبادة النساء، وكانوا آنذاك قد توصلوا إلى اكتشاف هام حول قدرة النساء على إنجاب الحياة. ذلك الاكتشاف هو - وقد حافظت النساء على كتمانه زمناً طويلاً - أن الحياة التي تنجبها المرأة تخرج من فتحة في أسفل جسدها! لكنها تختلف عن الفتحة التي يملكها الرجل، كما كانوا يعتقدون. (بالطبع جربوا شتى الأمور الغريبة مع تلك الفتحة)، لكن الفرق بقي قائماً. كان يعتقد آنذاك أن كل من لديه مثل هذه الفتحة يمكنه الإنجاب من خلالها.

ومن هنا جاء الحزن. فالنساء، مع أنهن لا يجدن عناء في الإنجاب، ويمنحن الحياة قدراً هائلاً من المرح. يقهقهن ضاحكات أثناء ارتداء الثياب. يضحكن وهن ينظرن إلى انعكاس صورتهن في مياه برك الأدغال الراكدة، ثمة القليل جداً من الألم في حياتهن عدا تلك المشقة التي يكابدنها خلال الإنجاب، وسرعان ما ينسينها. يفارقن الحياة شابات نسبياً، أيضاً، سواء نتيجة لهجمات الحيوانات المفترسة أو لأن دورة حياتهن الطبيعية قصيرة، لذا فلم يكنّ يعرفن آلام الشيخوخة الممضة. باختصار، قرر الرجال في مرحلة التمرد تلك أنهم يستطيعون ويعتزمون أن يصبحوا كهنة. إنهم قادرون على أن يصبحوا الأفراد الذين تمر الحياة من خلالهم! راحوا يتعاملون مع أجسادهم، قطعوا ذكورتهم وتخلصوا منها، وحاولوا إنشاء نوع من الفتحة يمكن أن تمر من خلالها الحياة.

ماتوا كالذباب. حتى يومنا هذا، هذا هو السبب الذي يجعل الأسرة تشعر بالحزن عندما يقرر الصبي أن يصبح كاهناً. هنا يكمن جذر اختيار العزوبية، وتخلي المرء عن إنجاب أولاد من صلبه. كي يغدو المرء كاهناً في الأيام الخوالي كان عليه أن يفعل هذا دون أعضائه التناسلية تحديداً!

لكن اسمع، يا ولدي[1] قالت زيدي، وهي تمسد على جبين أرفيدا، هكذا كان هو الحال عندما كنت طفلة. ليس الأعضاء التناسلية بأكملها، لأنهم كانوا تعلموا أمراً بشكل تدريجي من أعداد الرجال الذين ماتوا - أضفى موتهم عليهم المزيد والمزيد من القداسة! - وإنما قطعوا الخصيتين. نسوا كل ما يتعلق بالفتحة التي من خلالها تمر الحياة. نسوا أن هذا ما كانوا يسعون إلى الوصول إليه، فقد آذاهم جداً التفكير في هذا، والقيام به من دون نجاح يذكر. أنهك العقم قواهم تقريباً. بقي ماثلاً في الذاكرة وجوب أن يصبحوا كالنساء، وإذا ما خصوا أنفسهم في سن معين - في سن البلوغ، عندما يختارون أو يتم اختيارهم للكهنوت - سيتسنى لهم أن يظهروا بمظهر النساء ويتحدثوا مع الكون بصوت المرأة.

لكن الألم الذي يحدث! وا حسرتاه، وعمليات الاستئصال التي نادراً ما كانت تجرى بشكل سليم، وارتفاع الحرارة والذباب والتعرق! كانت مبرراً للحقد على المرأة، التي كان ألمها مقتصراً على مخاض الولادة أو ربما بضعة تشنجات في كل شهر، بينما تواصل إنجاب الحياة والتبرج دون أن تفكر في كل هذا.

***

اسم ليزي معناه (الشخص الذي يتذكر كل شيء)، قالت الآنسة ليزي لسويلو، وقد اتقدت عيناها السوداوان خلف أجفانها المجعدة، بنظرتها الحادة كعيني الصقر، لكنني غدوت عجوزاً الآن وخلايا دماغي - خلايا الدماغ كالبطاريات كما تعلم - تتماوت، يموت الملايين منها كل يوم. لا أذكر شيئاً عن حياتي في مصر أو الأطلنطيس، أشير إلى هذه الأمكنة فقط لأن الجميع يفعل هذا، وعلى الأخص أولئك الذين يتطلعون إلى شعور أفضل حيال ذواتهم في حياتهم الراهنة غير أنهم عاجزون عن الوصول إلى هذه الإحساس. لأكن أمينة، لم أتذكر يوماً أي شيء عن

1- chicomio: وردت بالإسبانية - المترجم

تلك الأماكن، ولولا وجود الأهرامات والبراهين التي يكتشفونها الآن على اندثار الحضارات القديمة، لشككت في وجودها في يوم من الأيام. طالما أنني أعرف بعقلي المنطقي أنها موجودة، يتعين علي أن أزعم أن خلايا دماغي تلك سأحتاجها لكي أتذكرها، لأن آلافاً من السنين، وأكثر، قد اضمحلت. لكنني من جهة أخرى، لا أتذكر عبر دماغي لوحده على كل حال، وإنما من خلال ذاكرتي، المنفصلة عنه بمعنى ما، ومع ذلك فهي في داخله. أشعر أن دماغي مشحون بالذاكرة. أجل، كما أسلفت، مثل بطارية.

كان سويلو مفتوناً بجدائل شعر ليزي المائة أو نحوها، بلونها الأبيض الفضي والتي تكلل رأسها المقولب بشكل بديع، وتشكل هالة على وجهها الأسمر الداكن فتجعله يبدو، حتى في داخل بيت العم رافي الظليل، كأن الشمس تقبّله. كانت خصلات الشعر هذه تتناثر خارجة من جمجمتها في كل الاتجاهات، لكنها تنساب بلطف على كتفيها منسدلة على ظهرها المنتصب كأنها عباءة صوف في منتهى اللمعان. حين رآها لأول مرة، بين الأخريات في الردهة الأمامية لبيت العم رافي، كانت تغطي رأسها، شأنها شأن الجميع، لم يكن ليتخيل قط مثل هذا الشعر الجامح والغزير والبهي على رأس شخص بمثل سنها. منحها هيئة مخلوق قديم غريب الأطوار، فحتى في تهدله يبدو على وشك التوثب.

انتابه إحساس غير قابل للتفسير أنها جدته الحقيقية، وأن جدته الفعلية، التي صبغت شعرها الأبيض باللون الأشقر لكي تعزز شبهاً بعيداً بباتريشيا نيكسون[1]، كانت امرأة مدعية. أصاب هذا الشعور سويلو بالحيرة، وراح يحدق، شارداً، في خصلات شعر ليزي الشبيهة بخصلات شعر مغنوا الريغي منذ أن شرعت بالكلام، وتساءل عن عددها.

مائة وثلاث عشرة بالضبط، قالت، كما لو أنه قد سألها، قبل أن تمضي في رواية حكايتها.

1- زوجة الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون - المترجم.

لم يكن الماضي السحيق هو الذي كنت ملمة به في طفولتي آنذاك، حتى وأنا رضيعة، وإنما الماضي القريب الذي يعود لعدة آلاف من السنين. كنت دائماً امرأة سوداء. أقول هذا، كما آمل، من دون أية غطرسة أو اعتزاز زائد، فأنا أعلم أن هذا لا يتعدى الصدفة. وأنا أتكلم عنه على أنه صدفة بسبب الكفاح الذي بذله الآخرون لاكتشاف كينوناتهم من خلالها واستبصار ما عليهم القيام به فتستعصي عليهم الإجابة لكثرة الأصوات وتنوعها التي يضطرون للإصغاء لها. لدي صديقة في هذه الحياة تذكّرني بنفسي، كانت على الدوام، في جميع حيواتها، امرأة سوداء. وكل ما تنطق به يكشف عن هذه الحقيقة ويستند على منطق كينونتها القديمة، وعندما تحاول تلفيق أصوات الآخرين التي لم تكن موجودة في كينونتها القديمة فإنك تميز هذا مباشرة في صوتها. يصبح صوتاً لشخص مجرد عن الجسد إلى حد ما، مع أن كلماتها تظل قاطعة، ومشرقة، وتنطقها ببراعة تامة. لكن عندها، حين تتحرر وتتكلم على سجيتها، يصبح لكل ما تسرده حواف مسننة، ويتحول الاستماع إليها مسيراً متعثراً كأن حصوة صغيرة في حذائك، وتشعر أنها إذا ما حاكمتك فإنها ستكون في منتهى القسوة، لكن تحت درع صوتها وجلدها يربض شخص لطيف. كم من السنين قد أنفقت في خلق هذه اللطافة!

لم أكن قط شخصاً لطيفاً. ربما في حيوات لست أذكرها، أما في جميع حيواتي التي أتذكرها فقد كنت مقاتلة، والمسؤولة عن افتعال المشاكل. شخص يسأم منه الآخرون بسهولة ويشعر بالإساءة إذا ما حاولوا عرض وجهة نظرهم الضعيفة. لا يتذكر معظم البشر، كما تعلم، أي شيء عن الحيوات الأخرى، ومهما بلغوا من العمر فإن ذاكرتهم لا تتحسن أبداً. يفكرون صادقين أن دماغهم كان لوحة ناصعة البياض لحظة ولادتهم. لقد قيل هذا على مسامعي فعلياً! الأطفال الرضع ليست لديهم ذكريات؛ فارغون من المعرفة والتجربة؛ ذاكرتهم خاوية من أي كان في الواقع. هذا جنون. بالطبع، تبدو ذكريات الأطفال الصغار عن أنفسهم أحلاماً

مظلمة مبهمة لأنهم ما عادوا في تلك السن، ولأن الرضع تنقصهم القدرة على التكلم بأية لغة، وليس فقط اللغات التي كانوا يتحدثون بها سابقاً. في جميع مراحل حياة المرء، الطفولة المبكرة هي المرحلة الأشد مدعاة للرثاء والتشويش، فأنت في مكان، لا تعرف أحداً فيه، محاطاً بعمالقة لعلك لم تكن لتتخيل وجودهم، ينفثون أنفاسهم الكريهة عليك، يزيتون لك جلدك يعلم الله بأية خلطة غريبة، يقدمون لك طعاماً ربما كان محرماً في حياتك السابقة. هذه بشاعة! وفيما أنت مستلقٍ تنظر حولك، تستجمع ذكاءً كافياً تماماً لتفهم أن هذه غرفة الصف التالية، وهؤلاء البشر هم الدرس التالي المطلوب منك تعلمه. آه، أي رعب هذا! هذا هو السبب الحقيقي لنوم الرضع الكثير. تخيل أين ولمن الكثير منهم قد ولد. ينامون بغية تجنب صدمة الأفعال القاسية التي تطبق عليهم وتجنب العجز المطلق المحتوم والشعور به.

لم أحب والديَّ قط. والدتي خرقاء إلى حد ما وجهلها ظاهر للعيان؛ بدت لي تتكلم ليس فقط بلغة لم أتحدث بها سابقاً، وإنما بلغة اخترعت حديثاً. كانت تتفوه بكلمات من قبيل: المتعلمين ومشروب متعفن وقتل الخنزير وأثداء سكرية[1]. كانت تبدو كأنها في غيبوبة، وعندما أبكي تستجيب ساهمةً، الأمر الذي يقطع أنفاسي. اعتدت أن أستلقي على السرير أراقبها رائحة غادية في المنزل في أثواب قذرة، تمشي بتثاقل، تجرجر نفسها تقريباً، من الشرفة الأمامية إلى المطبخ. كانت تسحب أنفاسها وتتنحنح بعمق ثم تشحط بحذائها نحو طرف الشرفة وتبصق على الأعشاب. عرفت أنني لن أرى أبداً من يفوقها غباء في أي من حيواتي.

ثم والدي. ففي حين كانت والدتي خرقاء وحسب - لديها عادة في تغيير الحفاض القديم المتسخ بطريقة تجعله دائماً يلامس رأسي - كان والدي بلا حول ولا قوة. تجتمع فيه كل الصور النمطية للأب غير الكفوء

1- جميع تلك الكلمات التي تفوهت بها الأم بلغة السود المحكية - المترجم.

لطفل حديث الولادة. يتكلم بذات اللغة الغريبة كوالدتي - يغمغم بها - ولسوف يستغرقني فهمها سنوات، بينما في حيواتي الأخرى كنت قادرة على فهم اللغات الجديدة في دقائق، وقبل شهور من تمكني من الحديث بها. تأخر تعملي الكلام سنوات، وسوف أقاتل أيضاً نتيجة لهذا الإحباط من عجزي عن تعلم اللغة.

أسوأ ما في الأمر هو أنني لم أكن قد عرفت هؤلاء البشر بالذات من قبل! مطلقاً. كانوا غرباء تماماً بالنسبة لي. لم أتعرف إلى رائحتهم، ولا إلى حركات أجسادهم، وإيقاعاتهم - التي كانوا يؤدونها بكثرة - لم أتعرف، كما أخبرتك، على كلامهم. ليعلم الله، لم أتعرف على مأكلهم! عاش هؤلاء البشر على خبز الذرة وحبوب الفاصولياء، وفي أحيان نادرة على الكرنب المسلوق، هذا في أزمنة الوفرة. أما في باقي الأوقات فعلى الشحم، وشراب الذرة السكرية والبسكويت.

نمت في الأشهر والأسابيع الأولى قدر ما أستطيع. وحتى عندما أصبحت أكبر بقيت أطلب النوم. الحقيقة أن نومي هذا أحد الأسباب الذي دعا إلى تحسين طعام الأطفال في الجزيرة. واصلت غفواتي في صف السيدة بيمونت، وذات يوم لاحظت ممرضة الصحة الزائرة هذا. عندها بدؤوا بفحص بقية الأطفال، واكتشفوا أن طعامنا جميعاً لم يكن يحتوِ على كمية كافية من فيتامينات سي ودي وإيه. لم نكن نتناول الفواكه البتة، ولا الأوراق الخضراء النيئة، ولا نشرب الحليب مطلقاً. كانت الجزيرة تحوي الكثير منها، كما تعلم، غير أنها تباع برمتها، حتى آخر نتفة منها، إلى البر الرئيس، وكان هذا منذ عهد العبودية. في تلك الأيام، أي عهد العبودية، كان الناس يتعرضون للجلد عقاباً على تذوقهم الحليب أو سرقة الأوراق الخضراء أو تناول الفاكهة؛ وبعد قرابة خمسين عاماً أمسى لا بد من إجبارهم على تناول تلك الأشياء. كانوا يبغضون السمك! كثيراً ما سمعت والدتي تشتكي أن الفاكهة الطازجة تسبب لها الغازات، والحليب يسبب لها طفحاً جلدياً وقشعريرة، ووحدهم معشر البيض، هكذا كانت تفترض، يأكلون

طعام الأرانب - الطريقة التي كانت تنظر فيها إلى الأوراق الخضراء النيئة. كان لا بد من إقناع والدتي والأخريات في الجزيرة بالعودة إلى زرع حدائق المطبخ الصغيرة. في وقت من الأوقات كان لكل منهن حديقتها، وعلى حد سواء كن يربين الخنازير والدجاج، لكنهن أضعن الحيوانات والبذور بشكل أو بآخر، ربما في أحد الفيضانات الكبرى التي كانت تضرب أحياناً نتيجة للعواصف الساحلية. قد أضيف قائلة عواصف جميلة. بعدها، على مدى عدة سنوات، لم يكن قادرات على تحمل أعباء شراء الحيوانات أو البذور، ولأنهن على جزيرة فهذا لا يساعد، لأن كل شيء مهما بلغ من التفاهة كان لا بد من حمله على متن واحد أو اثنين من القوارب المهلهلة الصغيرة، في رحلة تستغرق قرابة العشر ساعات. سوف يقوم مشرف المزرعة باقتلاع جميع الخضروات المزروعة في أفنية منازلهن والمماثلة لما يزرعه في الحقل. وقد تفقد بيتك، إذ إن أحداً لم يكن مالكاً لبيته.

إلا أن تلك السيدة الصغيرة - البيضاء ولديها مساعدة من السود - بدأت تؤلب الرأي العام في البر الرئيس بخصوص ظروف أطفال الجزيرة، وسرعان ما وصلت إلينا حمولات سفن كاملة من البيض الذين جاؤوا ليلقوا نظرة علينا. كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذا العدد الكبير منهم! كانوا بهيئات متنوعة وأحجام مختلفة وينضحون بالصحة لأنهم تناولوا ***طعامنا*** طيلة حياتهم. لم أكن أعرف آنذاك بالطبع: كيف تكون الأسنان سليمة لأن أسناني منخورة؛ كيف يضعون النظارات لتساعدهم على الرؤية، بينما لم يستطع صديقي إيدي أن يرى أبعد من أنفه ولن يتعلم القراءة مطلقاً؛ كيف أنهم... حسناً، ها قد وصلتك الصورة. امتلكوا جميعاً صفة مميزة ألا وهي بعدهم عن الحياة الواقعية، كما لو أنهم على أحد وجهي المرآة ونحن على الوجه الآخر، ولن نتمكن من التأثير على ما يحدث في جهتهم من المرآة، الوجه المجهول من المرآة، لكنهم استطاعوا أن يحدثوا تأثيراً هائلاً علينا، وأحسست أن هذا كان لأننا موجودون حيث هي الحياة، لأننا كنا نضحك رغم هشاشتنا. كان ثمة الكثير من الأمور التي تبعث البهجة في قلوبنا!

أما هم فكانوا عاجزين عن الضحك بعفوية. وجوههم شبيهة بقبضة اليد. يرتبكون حين يلمسونك لمسة خفيفة فينظرون حولهم ليروا ما يفعله باقي أفراد المجموعة. تجمعنا في مجموعات، نحفر بأصابع أقدامنا العارية في الرمل، وننظر إليهم كما لو كانوا حديقة حيوان. رجل واحد فقط، قصير القامة وبدين وذو شعر منكوش، بدا حياً معنا أو دوننا، توجه إلى الشاطئ أمام المدرسة ونزع معظم ملابسه، دون أن ينظر إلينا أبداً، أخرج عبوة من الصابون السائل وبدأ ينفخ الفقاعات، سرعان ما لحقنا به جميعاً نطارد الفقاعات ونراقبها وهي تطفو عابرة الخليج.

في ذلك الوقت، وُجد عمل كبير للقيام به يتركز على إعطائنا زيت كبد سمك القد، فقد لاحظ أحدهم أن نعاسي ناجم عن عوزه. كانت سيقان الكثير من الأطفال هشة ومعقوفة مثل الكعك المملح الجاف. كانت سيقان سكان الجزيرة مقوسة، الأمر الذي جعل من ذوي السيقان السليمة يبدون مشوهين. هذا ما كنا بحاجة له، زيت كبد سمك القد للعلاج والوقاية مما يسمى الكساح. كان هذا مضحكاً أيضاً، لأنه في تلك الأثناء، في الجزيرة، كانت تعتبر سيقان النساء المعوجة مظهراً للإثارة، وكنت تسمع الناس فعلياً يتهامسون كيف أن النساء مستقيمات السيقان لا تمنح لهم ذلك الشيء، يقصدون الإثارة الجنسية. بلغت الوقاحة بوالدتي فعلياً لأن تحاول أن تخبرني بأنني لست مجبرة على أخذ المادة، إذا لم أرد ذلك، لكنني تذكرت الأطفال المشوهين المرضى منذ مئات السنين، وانتابني الاشمئزاز من استمرار حدوث هذا. لكنني طالبت أن يقدم لي زيت كبد سمك القد ممزوجاً مع عصير البرتقال، إذ عندما سُئل الآباء إن كان الأطفال سيأخذونه مباشرة أم مع عصير البرتقال، دخلوا في جدال حول الأمر وحاولوا أن يجعلوا منه قضية أخلاقية. أولادهم ليسوا مخنثين جبناء، ليتمجد اسم الرب وجدته! أولادهم يستطيعون تناول كل ما يقدم لهم في صحن كما الرجال! أتصدق ذلك القرف؟ إن هذا يجعلك بحق تتساءل عن عمق التفكير العام في الخطة الكونية الإلهية.

حسناً، لست برجل. لم أكن رجلاً أبداً. إن لم أحصل على عصير البرتقال، قلت، لن أتجرع زيت كبد سمك القد. وإذا لم آخذه فإن أحداً في كل المدرسة لن يفعل أيضاً. كان الجميع يعرف هذه الحقيقة البديهية. إضافة إلى أن تناول زيت كبد سمك القد مباشرة كان له مذاق الخراء.

كانت هناك أمور أكثر إشغالاً لبال الناس من استعادة الصحة واكتسابها. هذه إحدى أعظم المعضلات. وعندما أفكر في والدتي العزيزة عندما بدأ عقلها يصفو - لأنها هي أيضاً أخذت تدريجياً تقتنع بإعادة حديقة المطبخ، ربت بضع دجاجات من أجل البيض، وابتعدت عن القهوة المحلاة بالشراب التي تحبها - حتى الآن، بعد وقت طويل من ابتراد رأسها العجوز، يتعين علي الضحك! بدأت، للمرة الأولى منذ أن كانت فتاة، بتذكر أحلامها. وكأنها - في أول صباح بعد الكثير من الليالي الميتة - رأت شبحاً. على مدى أسابيع لم تكن تتحدث سوى عن أحلامها. الأشخاص والأحداث فيها، الأراضي الخرافية التي رأتها - لم تفهم قط أنها *أراضيها*، البيوت التي زارتها التي شعرت أنها مألوفة تماماً، الطعام الذي تناولته. في الواقع، كانت على الدوام تأكل في أحلامها هذه، تشرب الحليب وتأكل الفاكهة والأوراق الخضراء! وأخذت تبحث عما كانت تأكله في حلمها إلى أن تعثر عليه. وسعت حديقتها وأكثرت مواشيها وباعت الفائض للجيران، واشترت لنفسها قارباً صغيراً، وعلى متنه ذهبت إلى البر الرئيس بحقيبتها الملأى بـ النكلات والديمات. سوف تذل نفسها ذهنياً أمام برتقالة، ولموزة أن تجعل منها شخصاً متوحشاً.

ظل كلامها غريباً، لكنه ما عاد مبهماً بما أنها أضافت إليه المزيد من ذاتها. ما عادت تجرجر قدميها. غادرها ولعها بالتنخع. بدأت أراها في ضوء جديد خالص، وأقل ازدراء لها ونفاد صبر منها. منذ ذلك الوقت أصبحنا أكثر من أم وابنة. أصبحنا صديقتين.

* * *

هول، هول. الحمد لله على وجود ها. هو الشخص الوحيد الذي شعرت أنني أعرفه مسبقاً. يروقه أن يروي الحكايا عنا حين كنا رضيعين وريالة كل منا تسيل على وجه الآخر في سعينا أن نمسك ببعضنا بطريقة تعيننا على الحبو. هذه حقيقة الرب! عندما لمست هول للمرة الأولى، حين كانت أصابعي السمينة الصغيرة تقبض على حفنة من وجهه الممتلئ، بدأت عصائري (سوائل فمي، بالطبع فمي) بالسيلان. في النهاية، كان شيئاً وشخصاً مألوفاً. أعرف بشراً حاليين يروق لهم أن يخبروك أن الرجل الذي تزوجته، أو المرأة، كانت ذات مرة جدة لهم. لا يمكنني الادعاء بأمر كهذا. ليس لدي فكرة عمن كان هول، ولم أفلح طيلة هذه السنين في تذكر أو اكتشاف من يكون. ما يمكنني قوله لك هو أنه كان أليفاً، مريحاً؛ وأكثر من ذلك، يمكن تمييزه عاطفياً. وكان هو يشعر بالمشاعر ذاتها. قليلة هي ذكرياتي عن تفاصيل حياة لم يكن هول حاضراً في مكان ما فيها. أشعر برغبة ملحة لرؤيته يومياً. تجتاحني رغبة بالموت عندما كان يضطر للسفر إلى أي مكان، حين التحق بالجيش مثلاً.

لا أحد منا يصل إلى حقيقة ما هو عليه أبداً. ليس في معظم حيواتنا، على أية حال. خذ هول مثلاً إذ كان فناناً، رساماً. الأمر الوحيد الذي أتقنه تماماً هو الرسم، فقد رسم كل ما في متناوله. منذ طفولته المبكرة! حمل عصا صغيرة حفر ورسم بها على الرمل، سعيداً مثل سمكة بطلينوس صغيرة، لكن أباه كان يمقت تلك الموهبة فيه، وقد رأيته ينتزع العصا منه ويدوس ماحياً الرسم - وكان هول طفلاً صغيراً! والده نفسه كان يتمنى لو يرسم، فن لعله امتلك موهبة حقيقية فيه، لكنك لا تكسب عيشك من رسم اللوحات، هذا ما أخمن أنه فكر فيه، ولعل أباه قد حطمه في سن مبكرة، محرّماً عليه المحاولة. سابقاً، في زمن العبودية، كان هذا الحظر من صلاحية مشرف المزرعة، لكنه منعٌ في منتهى القسوة! وبدا الأمر كما لو أنك تنظر إلى شخص يجبر على إعماء نفسه. وعلى نحو يعوزه المنطق أصبح السيد لينكينز، والد هول، صانع أثاث عظيم مختصاً

تحديداً بصنع الكراسي، ينحت عليها تصاميم غاية في الجمال. ومن مبيعات هذه الكراسي تمكن وأسرته من العيش أفضل من بقيتنا. كان من الجميل أيضاً رؤية تلك الكراسي المتألقة المصقولة الطويلة، تنقل إلى القارب الصغير، وتطفو مبتعدة في البحر! مع ذلك، كان يكره ميول ولده الفنية. لماذا؟ أمضى هول حياة في عتمة مخاوف والده.

حين حطم له ذلك الإبداع الفني، ومنعه من صنع الجمال وتسجيل تاريخه وترك بصمته، والاستجابة بـ أجل سيدتي لروح الحياة، والتي يكون أحياناً مطلبها الوحيد هو الاعتراف أنك تراها رؤية حقة، فقد حطم شيئاً من روح هول. عجز هول عن الدفاع عن نفسه، إذ إنه اعتبر نفسه غير مؤهل للدفاع عنها. لم يتعلم العراك مطلقاً. واسمع، الأمر الأشد إذهالاً، أصحبت عيناه واهنتين! إلا أنني كنت على الدوام أشد من أزرهما؛ كنت أعلم أنه ينبغي تذكيره أن الرؤية أمر جيد، وأياً تكن زاوية عزلتنا يمكننا أن نعثر على ما يستحق النظر، فأجبرته على الرسم. لو لم أفعل، لأصبح ضريراً كخفاش في غضون سنة واحدة. هدده والده بإخراجه من المدرسة إذا ما واصل الرسم. بهذه الطريقة اكتسبت سمعة كبيرة على مدى سنوات كفنانة. جميع اللوحات كانت بريشة هول - لوحات مواربة ومتسرعة، رسمها وكأن والده رابض فوق كتفيه، لكنها تبقى معبرة وخام ونقية، وأنا أعتز بالقول إنني أتذكر تقريباً كل لوحة قام برسمها. ظل يرسم لحين التحاقه بالجيش. انقطع بعدها عن الرسم لفترة طويلة. من المؤكد، خلال تلك الفترة، كما أخبرني هول فيما بعد، أنه غدا أخرق وعديم النفع على الدوام، لكنه سرح في النهاية من الجيش بسبب ضعف بصره، مع أنهم احتفظوا بباقي الرجال الملونين الذين كانت إعاقاتهم تثير الرثاء. غمرني سرور عارم باستعادته وعودته إلى الرسم، لأن فناناً ملهماً من شاكلة هول وحده يمكنه تصوير الذاكرة التي ربما أنت نفسك قد بدأت ترتاب فيها، فإنه قام بهذا مرات يتعذر عليّ تعدادها.

تبادلت الحديث ذات مرة مع أستاذ إفريقي، وهو خريج إحدى تلك

الجامعات العظيمة. كان منتصب القامة وأسود ونحيلاً جداً، يعتمر قبعة صغيرة من النمط الإفريقي شبيهة تماماً بقبعة الجندي الأمريكي، مع فارق أنها بألوان براقة، وكان بصحة جيدة حسبما أظن، بيد أن عينيه كانتا خاليتين من الحياة، وعلى وشك الاختلاج خلال كلامه معي. بدا شبيهاً بزومبي سلس الكلام وعالي الثقافة، ولديه نوع من الحركات المتشنجة أيضاً. على أية حال، بدأ بالحديث عن مدى الابتذال في ادعاء السود هنا بأن أسلافهم قد بيعوا في سوق الرقيق على يد أعمامهم. قهقه إلى حد ما عندما تفوه بهذا وعدّل جلسته إلى الوراء، لم أعقب بأي كلمة، إذ إنه قرر مسبقاً بأن الحقيقة، إذا ما تكرر قولها مرات متعددة، يمكن استبعادها من باب أنها غير قابلة للتصديق، وقد عشت مرات كافية لأرى أن هذا قد حدث مراراً. يعتقد بعض البشر فعلياً أن الحقيقة مرهقة. بكل الأحوال فقد كان عمي هو من باعني. العم هو الذي باع الكثير من النساء وأولادهن، ومن السهل جداً أن نفهم سبب حدوث هذا، كان ذلك نابعاً من تراتبية الحياة الأسرية في إفريقيا.

فارق والدي الحياة إثر نوبة قلبية حين كنت في الثانية من عمري. كان عجوزاً وكنت أنا أصغر أولاده من صغرى زوجاته؛ ولو بقي حياً، لكان بدا، وقد كان كذلك، كأنه شخص قادم من قرن آخر. بموجب القانون أصبحت زوجته وأولاده من مسؤولية شقيقه، والذي كان أكبر منه سناً حتى، يدين بالإسلام ويغتسل ويصلي طوال النهار. لديه فائض من الزوجات والأولاد والعبيد لا يعرف ماذا سيفعل بهم. شجعته إحدى زوجاته الطفلات على بيعنا، وهذا ما فعله. كانت تود شراء بعض من حلي الرجل الأبيض وحدث هذا بعد موسم الأمطار الذي غمر تماماً الجزء الذي نعيش فيه من العالم. المرايا! لم تر في حياتك هذا الكم من المرايا التي ظهرت سريعاً من حيث لا ندري وبيعت بالسرعة ذاتها. ملابس بألوان صارخة، مغاسل قصديرية براقة، وأغراض ليس من الواضح ما هو الغرض من استعمالها - التحف التافهة؛ على سبيل المثال، تماثيل

خزف السيدات الراقصات وجنتلماناتهن المولعين. حدث هذا بالضبط في فصل الجفاف حيث الطقس شديد الحرارة؛ لا بد أنه كان في تشرين الثاني أو كانون الأول أو نحوهما. أرسلتني والدتي إلى حاكورة البامية لقطف القرون التي تركت على السويقات من أجل بذورها، كنت أهمهم طيلة الطريق وأنا أضرب الأعشاب النامية على طرف الدرب المغبر بعصا. كنت في حوالي الثالثة عشرة من عمري في حينها. نقيم في كوخ صغير فقير منعزل وبعيد عن أنظار مجمع عمي السكني. جلس أربعة رجال ضخام الجثة القرفصاء على طرف حاكورة البامية، أوحى لي منظرهم ورائحتهم بالشر، لذا فقد تحولت عائدة إلى البيت. حسناً، أمسكوا بي وقيدوني، وقذفني أحدهم على كتفه مثل كيس من الحبوب. مضوا بي إلى الكوخ واختطفوا أختيّ وأخي ووالدتي.

لم تفعل أمي شيئاً سوى توسلهم واستجدائهم وطلب الرحمة، فقد كانت على علم بأمر تجار الرقيق، لكن آذان أولئك البهائم لم تسمع توسلاتها. كانوا أشبه بذلك البروفسور الزومبي الإفريقي الذي حدثتك عنه، لعله كان أحدهم في ذلك الحين. حسناً، حملونا وجرجرونا وصولاً إلى بيت عمي، وخرج هو. حاولت أمي أن تركع أمامه، وتلك كانت إحدى عاداتنا في بلادنا، إلا أنها كانت مقيدة بطريقة جعلتها تسقط على جنبها. تكوّم غبار كثيف على أحد جانبي وجهها، وسُحجت ركبتاها. أعلم الآن أنها لم تكن شخصاً محبوباً قط، لأن أحداً فعلياً لم يكن يراها، عدا أبنائها، الذين كانوا يحبونها. أنجبت أربعة أولاد ولم تكن قد تجاوزت المراهقة بعد. ذات بنية جسدية قوية، بدينة بعض الشيء، تنتمي لنوع من النساء ذوات بشرة سوداء ضاربة إلى الحمرة وعينين حرونتين. ومع أننا كنا فقراء، إلا أن أمي كانت حائكة ماهرة، تكفيها كمية القطن الضئيلة التي يسمح لنا عمنا بالاحتفاظ بها من المحصول الذي نزرعه لصالحه لتحولها إلى ملابس تكسونا - أقمشة رمادية وملونة في غاية الجمال، تحاك زاهية وتلونها

بأصباغ طبيعية. لقد تعلمت الحياكة والصباغة من أمها، والتي بدورها تعلمتها من أمها وهلم جرا.

دأب عمي على سلبنا تلك الثياب، إذ أنها حيكت بنمط يميز قبيلتنا - كانت ألواننا هي الأصفر والأحمر والأبيض - وإعطائنا عوضاً عنها ملابس قطنية حيكت من قطن عادي لم يتم تبييضه. في تلك اللحظة كنت أقف مقيدة أمام عمي، برفقة أختيّ وأخي. لم نسعى للانحناء له. لم نكن نبكي مثل والدتنا. لقد مقتنا هذا الرجل. الحقيقة هي أننا ربما كنا نشعر بالصدمة. أتذكر أن الرجال نقدوا عمي قطعاً نقدية فضية مثقوبة، فأخذ أربعة من أصغر القطع ووضعها في أيدينا بالقوة. سوف نسير عدة أميال قبل أن أعي أنني ما زلت أحتفظ بالقطعة التي أعطانيها. كانت نقوداً عربية بما نقش عليها من أحرف وكل ما عليها.

أجبرونا على الهرولة لمدة خمسة عشر يوماً تقريباً دون توقف، أو هكذا خيل لنا، إلى أن بلغنا حصناً حجرياً كبيراً على الساحل. آنذاك رأينا الرجال البيض. كانوا ينتشرون في كل مكان أعلى وأسفل واجهة الحصن، وكنا مجرد مجموعة صغيرة من بين العديد من المجموعات التي كانت تتلاقى في الحصن في ذلك الحين. أخيراً اقترب منا رجلان أبيضان بغية فحصنا. نظروا في آذاننا، أعضائنا التناسلية - لن تصدق الدقة، أو اعتراضات النساء المثيرة للأسى - فحصوا أسناننا وأعيننا. طلبوا منا الوثب في مكاننا للتأكد من قوة سيقاننا. كانت أقدامنا تنزف. غاصت والدتي في نوع من هجوع المسير وراحت تنفذ أوامرهم وكأنها مسرنمة. أخذنا نحن الأولاد نقلدها مع أننا كنا في حالة تنبه يقظ، من الشدة لدرجة أننا نحن الأربعة نجحنا في إخفاء القطع الفضية، قبل وصولنا، في جمام شعرنا.

دفع الرجال البيض، الذين كانت هيئاتهم ورائحة عرقهم أشبه بالخل وبعيدة كل البعد عن كل ما تخيلناه، المال لأولئك الذين أحضرونا، فدار هؤلاء على أعقابهم ثم أخذوا يهرولون بالطريقة التي أتينا بها. اعترتني

رغبة بالجري خلفهم وقتلهم، ثم قام البيض باستدعاء بعض من السود الآخرين، الذين بدا أنهم يألفون الحصن، واقتادونا إلى زريبة احتجاز أشبه بقبو يقع تحت الحصن. مكان مكتظ بأناس مرعوبين مكتئبين. حين شاهدوا أمي وأولادها يحشرون ويدفعون عبر الباب، نظر عدة رجال إلينا بنظرة يملؤها الحزن وأشاحوا بوجوههم عنا مجللين بالعار. هؤلاء من الذين بيعوا في سوق الرقيق بسبب معتقداتهم الدينية، التي لم يكن المحمديون[1] ليتسامحوا معها، فقد كانوا من أتباع التقليد القديم بعبادة الأم، وهم يشهدون على أم تباع في سوق الرقيق، الأمر الذي ما كان له أن يهز شعرة في رأس محمدي ما لم تتحول هذه المرأة إلى دينه - يا له من عذاب رهيب لهم.

بيع هؤلاء على مدى مئات السنين من تجارة الرقيق في إفريقيا إلى أن قضي على هذه الديانة في نهاية المطاف، مع أنها تعرضت للهجمات مئات السنين قبل ظهور تجارة الرقيق. كانت الغارات، في الأيام المبكرة، تشن على معابد النساء، التي كانت موجودة في بساتين مقدسة من الأشجار، تُجَر النساء والبنات من شعورهن من المعبد ويجبرن على الزواج من قبائل يهيمن عليها الذكور. أولئك اللواتي لم يكن يجبرن على فعل هذا إما يعدمن أو يبعن إلى قبيلة تتحدث لغة مختلفة. اتخذ الرجال قراراً بالحلول محل الخالق، ومضوا في خلع النساء عن العرش بشكل ممنهج. أصبح بيع النساء والأولاد الذين ما عدت راغباً في تولي مسؤوليتهم أو من يعاني من قصور ذهني أو من أهانك بطريقة ما، تقليداً جديداً وطريقة مقبولة للحياة. كما أصبحت فكرة امتلاك الرجل، في ظل المحمديين لاحقاً، لعدة نساء، كما يمتلك المواشي وكلاب صيد، فكرة سائدة.

من بين جميع الأفارقة كان الأصعب هو القضاء على عبدة الأم هؤلاء، فقد كانوا يكرسون أنفسهم لعبادة الإلهة، وكانوا حرابي[2] بحق

1- Mohametans

2- جمع حرباء

(لقد تعلمنا على مرّ الزمن الكثير الكثير من السحالي!)؛ مع ذلك قضي عليهم. هذا هو السبب في أن أقذع شتيمة تكال لإفريقيا/ الأم/ الإلهة - ألا وهي أولاد الشرموطة[1]، والتي ما زالت موجودة في اللغة. لا بد أنها لم تكن لتخطر على البال أيام زمان، ولسوف يسأل من يتفوه بها على الفور بأن ينتبه إلى لغته. لدى أسيادنا الجدد عبقرية في جعلنا نقلب بطريقة شرسة ضد كل ما أحببناه يوماً، بأساليب تجلب العار والانحطاط حتى لهم هم أنفسهم. لو أنهم يملكون فقط حساً كافياً ليدركوا ذلك.

أطعمونا القليل من عصيدة الدخن، وكنا نمد أيدينا مرتين يومياً لتناولها من جرن خشبي طويل خارج الزريبة. نرى السماء لعشر دقائق في الفترة التي نستغرقها في تناول الطعام. يسمح لنا في الصباح الباكر، قبيل الفجر، بالخروج لإفراغ أمعائنا. عانيت من إمساك دائم؛ جعلني الخوف والقلق أظل مغلقة بإحكام، غير أن حالات الزحار كانت متكررة، وأصيب الكثيرون، أثناء انتظارهم - انتظار ماذا، لم نكن نعرف - بالأمراض وفارقوا الحياة. أدركت لاحقاً أن الرجال الذين اشترونا ليبيعونا قد وضعوا في حساباتهم احتمال تعرض البعض منا للموت ولذا فقد أمسكوا على الأرجح بعدد يفوق ما هم بحاجة إليه.

ألمّ المرض بأمي بعد أسبوعها الأول في تلك الحظيرة. لم يكن هناك من مهجع خاص لأي منا يمكنه الاستلقاء فيه بشكل مريح، لكن واحداً من عبدة الأم فرض عليهم تخصيص حيز صغير إضافي لها قرب الجدار، بالاتجاه الذي يتيح لأمي استنشاق الهواء، وأن تجثو على ركبتيها عند اشتداد آلامها. كانت تعاني من الإقياء والزحار، من الصعب إخفاء هذه الأمراض. أما مرضها الأعمق فكان ناتجاً عن الخجل لأنها توسخ نفسها وتنكشف أمام الغرباء، في حضور أولادها العاجزين والمحرجين. ما من امرأة أكثر حساسية وحياء من أمي. كانت تستحم مرة واحدة على

1- Motherfucker

الأقل يومياً، وثيابها نظيفة تماماً. أتذكر طيب رائحة الزيت التي تفوح من شعرها دائماً! لم تكن لتقبل مثل هذه القذارة على نفسها ومن حولها.

في اليوم السابع شاءت نفسها الموت. فأرسل البيض اثنين من الرجال البهائم لجرها من أعقابها إلى الخارج - كان أحدهما يضع خرقة على أنفه أثناء سحبها - ثم وضعوا جثتها على عربة ونقلوها بعيداً. حسدتها. أشفقت على نفسي. لم أكن أعرف كيف أطلب من الغرباء أو حتى من أختيّ وأخي أن يقتلوني.

لهذا أشعر بمرارة حادة حيال موطني القديم، ومن له الحق بمطالبتي بعدم الشعور بهذا؟

هذه ليست إشاعات تناهت لي. فقد كنت موجودة هناك.

ألا تصدق أنني كنت هناك؟ أنا أرثي لحالك.

جعلت من نفسي في فترة من الستينيات مثل حكواتي القبيلة. ادعيت أنني سافرت إلى إفريقيا وسمعت قصص الشتات من رواة الحكايا العجائز مباشرة وسجلت ما حفظته منهم. لم أكن مضطرة للسفر إلى أي مكان. أذكر ما يكفي من القصص لأرويها لك بامتنان. دخلت بيضاء نحيلة إلى إحدى محاضراتي التي تتناول عبور الأطلسي على متن سفينة العبيد. البروفيسورة من أولئك المولعات بإفريقيا المتحمسات بشدة لحماية إفريقيا لدرجة ادعائها أن عيدي أمين[1] شخصية مختلقة. نهضت وقالت، ليتك لم تحاولي القول (أتذكر كذا وكذا) عن تجاربك الإفريقية. إذ تبدو كأنها مزاعم تتجاوز حدود معرفتك ربما، إضافة إلى أن ما تسردينه يبدو ملتبساً. حسناً، اعتذرت عن قيامي بذلك. إنها هفوة وحسب. كنت أتذكر كل ما تفوهت به، مع ذلك، كنت أعلم أن الأسلوب المحترف في طرحي لتجربتي جعلها تظهر كأنني سمعت بها ليس إلا. قد لا يفهم البعض أن من طبيعة العين أن ترى إلى الأبد، وطبيعة العقل أن

1- رئيس أوغندا بين عامي 1971 - 1979.

يستذكر كل ما عُرِف يوماً. أو أنها صيرورة الطبيعة، يجدر بي القول، إلى أن بدأ الإنسان يدون الأحداث على الورق. ومضت البروفيسورة بالقول إنها لا تستطيع حتى أن تتخيل ماهية الأمور على متن سفينة العبيد. الازدحام، القذارة، والاعتماد الكلي على مجانين في توجيه السفينة، وفقدان السيطرة والاحتجاج.

هل يدفعك هذا إلى الضحك؟ ألا يضحكك؟

لكنني كنت هناك على أية حال، في حياتي تلك، أراقب شعر الجميع وهو يقص حتى النهاية. قبل بضعة أيام من سفرنا، طلبوا منا الركوع على الرمل خارج الحصن وشرعوا يقصون جِمام شعورنا الكثيفة ثم حلقوا لنا رؤوسنا. شعر الأفارقة كثيف كما تعلم، والبعض كانت لهم خصلات شعر أطلقوها منذ الطفولة وتصل حتى الركب تقريباً. أسلوب متوحش في قص الشعر، سبب الكثير الكثير من العويل والصرير على الأسنان، وبعدها جاء دور حلاقة رأس ولحية وشوارب الرجال، بشفرة حلاقة جافة ومستدقة بلا شك. أخذ الرجال السود، الذين قاموا بهذا العمل بأوامر أسيادهم البيض، يجزون تلك الخصلات بحرص. لقد خبئت في هذا الشعر جميع المواد الصغيرة القيمة، تذكارات من البيت: خرز من الذهب، دبابيس فضة، وقلائد التعاويذ. اكتشفوا في شعري وشعر أختيّ وأخي النقود المعدنية الفضية. دس أولئك البهائم الممسكون بنا بالقطع في جيوبهم، وكانوا ينخرون راضين كلما عثروا على إحداها. من حين لآخر ترى هذه الوجوه ذاتها في شوارع مدننا الأكبر؛ الشبان الذين يبيعون المنشطات، أو يتنمرون على الفتية أثناء سلبهم إياهم المال القليل الذي بحوزتهم والذي يودع في أصغر الجيوب ويشبك بدبوس ثمناً لوجبة الغداء. تلك الوجوه لن تفارقنا، وليس من العسير العثور عليها.

أثناء حلاقة الشعر دهشت لدى رؤيتي لمجمع سكني كبير إلى حد ما، يبعد مسافة صغيرة من الحصن، ومكون من عدة أكواخ الصغير. خلال الساعات الثلاث التي استغرقتها حلاقة شعورنا، غطسونا في سائل كريه

الرائحة، وغسلوا أفواهنا بالخل - وقاية من الأسقربوط - بما أتاح لي تبيان أن قاطني هذا المجمع نساء متباينات اللون ومن جميع الأعمار، كثير منهن ذوات بشرة سمراء خفيفة أو صفراء وبعضهن بيضاوات تقريباً؛ تعج المساحة أمام الأكواخ بأطفال تتفاوت ألوانهم كما النساء. أذهلني المشهد، فأنا التي لم أر بشراً بمثل هذه الألوان المتدرجة قط، وكنت أصغر من أن أعي الغاية من هذا المجمع، فقد كان واضحاً أنه موجود منذ أجيال، وما هو إلا بيت دعارة الحصن. أعلمتني بهذا لاحقاً شابة غاية في النحول، بيعت على مركبنا هي وابنها الصبي. كان سيدها الأبيض، لعلمه أنه من البدانة والدناءة والشناعة أن امرأة لا يمكن أن تلمسه أو تتقبل رائحته، قد اقتنع أخيراً بالحقيقة المرة أن أحداً لن يحبه كما أحبته هذه المرأة، مع أنها عبدته. في غمرة سكره ذات ليلة، قامر عليها هي وولدها في لعبة ورق، زاعماً أنه كان يعلّم خدمه من الأفارقة الخانعين أن يلعبوها.

بعد أن اجتثوا شعرنا وتناثر على الأرض - بعضنا كان شعره أشبه بلحاء الأشجار - وسمونا بقطع صغيرة حارة من المعدن ذات أشكال مطابقة لرغبات الذين اشترونا في أميركا، غير ظاهرة للعيان. وسموني بالحرف C، تيمنا بـ Croesus[1]، ولم يكن هذا اسماً لشخص وإنما لمقاطعة فقيرة، كما اتضح لاحقاً. أصبح تعريفنا وفقاً لهذه الوسوم، وإذا ما توفي أحدنا، يتم التدقيق في وسمه ويشطب من السجل الذي سجلنا فيه جميعاً.

عرفنا آلاماً مبرحة لحظة كانوا يضغطون الحديد على جلد الإلية أو أعلى الذراع. يستمر التورم والاحتراق لأيام بعدها. مع أن تجار الرقيق كانوا ينقطون القليل من الخل وزيت النخيل على جروحنا، فما من مسكن كان أكثر نجاعة من حليب الأمهات المرضعات؛ العلاج الذي يعرفه كل الأفارقة، مع أنهم ما عادوا يؤمنون بعبادة الأم، إلا أن البقية الباقية من قوة الأم ما زالوا يؤمنون بها بقوة. لحسن الحظ وجدت مرضعات بيننا، مع أنهن بلا صغارهن. لم يسمح باصطحاب الرضع على سفينة العبودية، ولا

1- كريسوس.

لأولئك اللواتي هن في مراحل متقدمة من الحمل. قذف ببعض الرضع على الأرض إلى أن تهشمت أجسادهم من قبل آسري أمهاتهم، وترك البعض الآخر على قارعة الطريق ليلقوا حتفهم، بعضهم بيعوا أو، وهذا نادر في العادة، تبنتهم إحدى القبائل التي لم تكن تؤمن بتجارة الرقيق ولم تتورط فيها - أي أنهم رفضوا بيع أو شراء الناس - ويعتبر الرضع على وجه الخصوص، الذين لم ينفصلوا بعد عن نبع الحياة، بالنسبة إليهم كائنات مقدسة. قيض لي التعرف على هؤلاء على متن سفينة العبودية، لأن أحدهم، وهو في طريقه لتسويق بضاعته من الملح، قبض عليه تاجر رقيق أبيض وأتباعه السود، ورفضوا الاستماع لاحتجاجاته حول استثناء مستخرجي الملح من الاختطاف، بموجب قانون منفصل. لا بد أن رد تاجر الرقيق كان حسبما أتخيل: بموجب تجارة العبيد، ما من زنجي على وجه الأرض مستثنى بموجب فقرة قانونية مستقلة.

كانت صدور الأمهات المرضعات ملاذاً للأصغر سناً من بيننا، وقد سمح لهم بشرب الحليب. لولاهن لكان لقي المزيد من الأطفال الهلعين والذاهلين حتفهم. وبالنسبة للبقية كان ثمة دفقة من الحنان الذي لا يصدق تغدقه هؤلاء الأمهات الشابات وهن يتحركن بيننا، ينقطن قطرة حليب هنا وقطرة هناك فوق جروحنا المتقرحة. عندما كنت طفلة، أخبرت هول بهذه الحكاية إذ إنه الشخص الوحيد الذي لن يضحك مني لظني أنني أتذكر هذا؛ الأمر التالي الذي عرفته، أنه عثر على أقلام التلوين ورسم هذا المشهد. رسم وجه إحداهن كما لو أنه رآها بنفسه فعلاً. هذا مشهد لا تتاح للمرء رؤيته كثيراً، إلا أنني سأتذكر على الدوام المشاعر التي انتابتني حينها؛ صبيان وفتيات صغار، ليسوا صغاراً جداً، يلتصقون بجوانب وبطون الشابات الحزينات، اللواتي كن يرضعنهم واقفات، يتزاحمن في المقصورات النتنة، في جحيم الرجل الأبيض الذي أتيح له وأحياناً شجع على إقامة هذا الجحيم على أرضنا. ومع أنني كنت كبيرة، مرت عليّ لحظات من اليأس، جراء حزني على والدتي والخوف من الرحلة

المجهولة القادمة. أرضعوني أنا أيضاً. في الحقيقة، في فترة معينة على متن السفينة عدت إلى الطفولة، حتى إلى مرحلة مص الإبهام. في المرة الأولى التي اغتصبني فيها أفراد من الطاقم على ظهر السفينة، كنت مقيدة بالسلاسل وأمص إبهامي. أما في المرة الثانية، فقد قيدوني بطريقة كانت فيها ذراعاي وساقاي مفتوحتان ولم يكن إبهامي في متناولي. ما كان من شيء يعزيني. لكن في عنبر السفينة، في مكان ما في تلك العتمة الكالحة الرهيبة، كنت أعرف أن الأمهات اللاتي أرضعنني يستلقين أيضاً، وأحياناً كنت أتخيل أنات يأسهن أغان من السلوى لي ولأولادهن الضائعين.

اقتادونا إلى شاطئ المحيط في صبيحة إبحارنا في قوافل صغيرة ثلاثية، مرغونا بالمياه المالحة لكي ينظفوا جلدنا، ثم سحبونا بعدها إلى السفينة. على اللوح الخشبي المؤدي إلى سطح السفينة، نزعوا عنا آخر بقايا ثيابنا، ذلك الشريط القطني حول أوراكنا، وأجبرونا على دخول عنبر السفينة، موسومين وعراة كما ولدتنا أمهاتنا. كافحت للمحافظة على تلك الشارة الصغيرة الأخيرة من حيائي، لكن رجلاً أبيض سدد ضربة قوية على رأسي دون النظر إليّ تقريباً – تخيلت أنه ولا بد أعمى بسبب زرقة عينيه – فترنحت داخلة إلى السفينة مع الآخرين.

بخصوص أسلوب شحن العبيد، الذي قرأتَ عنه أنت، للأسف كل ما قرأته وأكثر هو صحيح. لقد عبؤونا كما لو كنا سرديناً طيلة الرحلة التي استغرقت شهرين. في الحقيقة، ينبغي ألا يحشر السردين بهذه الطريقة في العبوات، ولو كان الأمر بيدي لما سمحت بتعبئته مجدداً أبداً. كل منا رأسه في حضن الآخر، قيدونا بسلسلة طويلة من أقدامنا في رتل طويل واحد، وثبتنا بالمسامير إلى جدار السفينة، وما من حركة إلا وتلقى اعتراضاً ممن يجاروك، إذ إن كل واحد متصل بأربعة. في الواقع، كان تقليم أظافر اليدين والقدمين طقساً يومياً تقريباً؛ فقد حدث، كما يمكنك أن تتصور، الكثير من الخمش الذي يقوم به المرء في مسعى عبثي تماماً لحماية درجة صغيرة من فضائه الشخصي.

من بقي حياً شعر بالامتنان لمن مات، وفارق كثرٌ الحياة حالما غادرنا القارة الإفريقية، خاصة من بين الأطفال. شح الطعام ونقص الهواء والحركة – إذ لم يفارق أي منا الهواء والضوء في يوم من الأيام! – كلها ساهمت في وفياتهم؛ غير أن الغضب كان السبب الأكبر. لقد أتلفني أنا نفسي، وعجزت حتى عن خمش الشخص المجاور لي. قلبي كان مكلوماً ومجهداً. هكذا أحسست به! وشعرت بالسرور عندما، لأسباب خاصة بهم، بدّل تجار الرقيق موقعنا إلى الجانب الآخر من العنبر، فأصبح بمقدوري الاستلقاء على جانبي الأيمن، وبالتالي انزاح شيء من الضغط والاحتقان عن قلبي.

بعد شهر ونصف من الرعب الذي لا براء منه أبداً – الجرذان، ورائحة الرؤوس الميتة المغطاة بالقروح الجلدية في حضنك، وصراخ النساء والرجال الذين يتعرضون للاعتداء من أجل تسلية الشياطين الذين يمرون بوصفهم طاقم السفينة، ودورات الحيض الموجعة للنساء والدم يسيل عليَّ، والإجهاض، توسلات الرحمة التي ضج بها الجميع، وليس فقط من هم مصابون بالزحار ورهاب الاحتجاز – بعد ذلك جاء الرعب الأبدي، أصعدونا إلى سطح السفينة بما يتخطى نصف الساعة المعتادة يومياً، في الوقت الذي يمسحون العنبر، كانت عدة نساء ورجال يرقصون رقصاً جميلاً على حافة السفينة في عرض البحر. تم تشجيعنا الآن، على حين غرة، على استذكار ثقافتنا وإظهارها، والمنحصرة وفق منظور البيض بالغناء والرقص. ظهرت الطبول. وفجأة ظهرت عيادة لعلاج المرضى. دلقوا علينا دلاء المياه المالحة. دهنوا رؤوسنا الحليقة بِطلاء الأحذية الأسود إن كان ثمة من مؤشر على الشيب. وقدمت الكسوة للنساء والرجال التي ربما سرقت من خزائن السفينة، ولذا فقد ترى رجلاً طويل القامة وعريض الصدر لا يرتدي سوى قميص قرصان داخلي مزركش وصغير تماماً أو يربط بواسطة الخيوط قبعة من القماش تغطي أعضاءه التناسلية. أو قد ترى فتاة شابة تضع وشاحاً على جسدها.

أعطوني خرقة بالية وباهتة اللون بدت وكأنها قطعة من قماش الأشرعة، لففت بها جسدي ممتنة فيما كنت أراقب المرح الكئيب للذين أطلق سراحهم بلا سابق إنذار إلى سطح السفينة الذي تناثرت عليه أشعة الشمس، وقد حافظ على برودته رغم ذلك. أمرونا بالرقص لكي ندفئ أنفسنا، ومصدر إلهامنا الوحيد لسعة السوط على أقدامنا.

لاحت لنا اليابسة بعد ذلك بأيام، الصغيرات من بيننا اللواتي حملن بالإكراه كن أصغر من أن يعرفن معنى الحمل، أو يعرفن أن تسليمنا إلى مالكينا الجدد ونحن حوامل يمنح سيد السفينة علاوة إضافية، لقد دخل العديد من أولاده وبناته – فقد كان هو وبقية طاقمه هم المعتدون – سوق الرقيق الأمريكية بصحبتنا، قبل وقت طويل من مغادرتهم أجسادنا في الواقع. لم يكن تجار العبيد يأبهون. اختلاف اللون جعل بذرتهم الخاصة غير موجودة في نظرهم؛ ما كانوا يرون سوى لون الذهب، ولكن ليس إذا كان لوناً ذهبياً لبشرة طفل. تُركنا مع هذه البذرة المريرة مثقلات بكرهنا لهذه الثمرة، وكم كان ذلك مجحفاً بحق الأطفال.

باعوني لأحد ملاك المزارع، وبيعت أختاي وأخي لمالكي مزارع آخرين. لم نر أو نسمع عن بعضنا ثانية أبداً. بعد ثمانية أشهر من مغادرة السفينة، أنجبتُ فتاة رمادية العينين وذات مظهر عجيب. أرادت السيدة الشابة صاحبة مزرعة كرويسوس للفتاة أن تكبر كعبدة مرافقة للطفل الذي تنتظر قدومه. أتاح لنا هذا الحصول على غرفة شبيهة بالحجرة تحت الشرفة الخلفية. لما بلغت طفلتي عامها الثاني هربتُ من المنزل إلى الغابات، لأدوس حال هروبي تقريباً، على فخ نصبه السيد لصيد الدببة، كما ادعى. هشم الفخ عظام ساقي اليسرى. أرجأ السيد ضربي – عقاباً على هروبي وعلى غبائي أيضاً: لا أحد، صاح قائلاً، من الغباء أن يدوس على فخ بهذا الكبر والوضوح، مع أنني لم أسمع أو أرى بتاتاً مثل ذلك الشيء الشنيع من قبل – إلى أن أغدو قوية كفاية لأتحمله. انتظر قرابة الشهر؛ كان سكيراً، وغاضباً لأنه ما زال فقيراً رغم أن أحلامه بالثراء

تشطح به بعيداً. كان الضغط الناتج عن فقداني لجزأين من جسدي، هما ساقي وقدمي، وتزامنه مع فقداني لطفلتي أيضاً - أعطيت لامرأة أخرى لتتولى تربيتها - وكنت قد بدأت أحبها، على عكس الطبيعة، وعليه كنت في حالة يمكن فقط للضرب بلا رحمة أن يؤججها. مات جسدي الواهن بحسرته تحت الضرب - بمعنى آخر، لقد مت.

* * *

كانوا يلقبونه بيسوع، همست زيدي، وهي تشد على يد أرفيدا، مع أنها كانت لا تزال تدير ظهرها له، لأنهم ما كانوا قادرين على لفظ اسمه الحقيقي حتى لو أخبرهم به، الأمر الذي لم يفعله، وكان عبداً شأنه شأن بقيتنا، مع فارق أننا كنا محتجزين في قريته. كانوا يدعونه أيضاً بـ الهندي المجنون[1] بسبب فرار جميع أفراد قبيلته، وعجزه هو عن الهرب. هرب إلى مسافة ليست ببعيدة وتخفى في الأدغال، التي يعرفها عز المعرفة، تماماً كما تعرفها الحيوانات. عاش فيها على الدوام، كما تعلم. لم يفارق تلك القطعة من الكرة الأرضية لحظة واحدة في حياته. تخفى ثم انسل عائداً وراح يتمشى في القرية في آخر الليل. لم يسرق شيئاً حتى الطعام، وهذا أثار حيرة الجميع، حيرة مستعبدينا وكذا حيرتنا.

لن يعرف مستعبدونا سبب رجوعه أبداً، ولم يكونوا ليستوعبوه بأي حال من الأحوال، إذ كان الوصي على حصى القرية المقدسة. كانت تلك الحصوات عبارة عن ثلاثة أحجار بسيطة وتبدو عادية ولا بد أن توضع دائماً في بقعة محددة في وسط القرية. إن لم يخبرك أحدهم أبداً بأنها مميزة، صدقني لن تعرف هذا مطلقاً. كانت تتوالف داخل التراب بشكل مثالَي. ومع ذلك، عندما دلني يسوع عليها، وأراني شكلها المقدس والشبيه برمز الملاجئ النووية، خرجت الحصوات ووثبت علي، وتأثرت بشدة لدرجة عجزت معها عن الكلام عندما يركلها أحدهم هنا

1- indio loco وردت بالإسبانية - المترجم

أو هناك أو يدوسها. عندما تركل من قبل جنود في تبطلهم العابس مثلاً، أو عندما تتعرض روح مظلومة للضرب وينسال الدم فوقها، أو عندما تلمسها لقمة من طعام أسقطها أحدهم - حسناً! كان هذا معناه زيارة أخرى مؤكدة من يسوع، مجازفاً بحياته ومعرضاً نفسه للقتل لتستعيد الحجارة موقعها، يغسل الدم حتى يزيله أو يفرك بقايا الطعام عنها، وهلم جرا. عندما زادت معرفتي به، عرفت أنه لن يخطر على باله إنقاذ نفسه إن كان هذا يعني التخلي عن واجبه تجاه الحصوات الثلاث الصغيرات - التي كانت تقريباً بحجم ولون بيض الحمامة البني. كما يعود الكلب لا محالة إلى حيث العظمة مطمورة، كان يسوع يعود إلى تلك الحجارة. شغلت المحافظة عليها كل حياته، وقد كان هذا على مر آلاف السنين! مؤمناً إيماناً مطلقاً بأن عدم حماية تلك الحصى، سيعني أن قومه من الكرابوكيشوان، أوالبشر، سوف يظلون في تيهٍ إلى الأبد ولن يعثروا على موطنهم مجدداً البتة. حيث تكون الحصى يكون موطنهم، أتفهمني. ما من مكان آخر. هذا أمر لا يستوعبه سكان أمريكا الشمالية: أعرف هذا.

ألقوا القبض عليه في النهاية. كم شعرنا بالأسف! لأن حضوره، على الرغم من أن معظمنا يشعر بالخجل من الجزء الهندي فينا، كحضور الروح الحارسة، إنه ملاك، وأقنعتنا المرات التي قيض لنا أن نلمحه فيها متسللاً في أزقة القرية في أوقات غريبة من الليل، أنه كان شخصاً رؤوفاً بكل ما في الكلمة من معنى. كان يافعاً! مع جمة شعر تتدلى حتى خصره. لم يكن عليه من كساء سوى على خصره ويتدلى من أذنيه ريش ببغاء زاه أحمر اللون.

لم يفهم آسرونا لغته، وعندما ضربوه ظل صامتاً. أرغموه على العمل معنا فيقطع أشجار الغابة بالمناجل. استعمل الرجال المناجل والمعاول والمناشير لإسقاط واقتلاع الأشجار والنباتات المعرشة، واستعملت النساء العزاقات والمجارف لاستكمال مذبحة الأرض. هذا كان عملنا، يوماً بعد آخر، من صياح الديك فجراً حتى مغيب الشمس. أرغم

الحراس النساء على الاقتران بهم، وكان كل حارس قد وقع اختياره على عبدته زوجة قبل وقت طويل. لم يرغمني من اختارني أنا، بل أخذ وقته. شخص يضرب ويحرق ويقتل بلا مشاعر أو ندم، مع ذلك كان لا يزال متشبثاً بالاعتقاد أن ثمة من سوف ترغب بالنوم معه من دون اللجوء إلى القوة. المسألة مسألة كبرياء بالنسبة له. عرفت أنه اختارني فقط من الطريقة التي نظر فيها إليّ ولأن الرجال الآخرين تركوني لوحدي، وغالباً ما تناهى إليّ ليلاً صراخ عبداتهم أو أدعيتهن المنتحبة.

لم أخطط للوقوع في حب يسوع، لكنه كان مختلفاً عنهم اختلافاً كبيراً! في داخلي يعيش حب الكاهن، في مكان ما على الدوام، إنما الكاهن *الحقيقي*، الشخص الذي يرعى ويحمي. قبل كل شيء، الشخص الذي يقتصر على زيه التنكري. إن كان ثمة من روح أجدها إيروتيكية تماماً فهي هذا الشخص. *أأي*! يسوع من نمط ذلك الكاهن الذي كنت أشعر كأن الأشجار تخر أمامه ليباركها، فقد كان من الواضح أن قطعها مثّل له عذاباً مماثلاً لذبحه هو نفسه. كان يسوع وأشجاره ينشجون طوال الوقت. لقد عرفها طوال حياته، وعلى مدى جميع حيواته السابقة.

كما حدث معنا أنا وأنت يا حبيبي، لم أكن أعرف ما يجري أو ما الذي علينا القيام به حيال ما يجري. تتكلم عيناه فينتفض رحمي. لا تضحك! رغم أنه تعبير بلغة بلهاء، إلا أن الأمر كان كذلك! اكتشفنا أنني كنت اعرف بضع كلمات من لغته الغريبة. كلمة ماء ataras، خشب xotmea، حب oooo. كلمة الحب، فعلياً هي أربعة من الحرف o! لم يكن باستطاعتهم مراقبتنا كل دقيقة. مارست الحب معه في ساعة لم يشهدوا أو يحظوا بمثلها أبداً. مارس الحب معي. مارسنا الحب معاً. كانوا قد قيدوه من قدَميه حتى لا يتمكن من مباعدتهما. تسللت إلى كوخه وداعبته بصمت ثم قبلته طويلاً قبل أن أضع عضوه في فمي. عندما اعتليته كان يصرخ وصرخت أنا، ومص نهدي وتهدل شعره المبلل كضباب دافئ على وجهي. *آي*، لن يحظوا بشغف مماثل أبداً!

كانت المرة الثانية والأخيرة كالأولى، لا بل أكثرا اتقاداً. عرفت أننا كنا نتخيل كارلوتا الحالية في لحظتها. تدفقت البذرة في داخلي وقد كان رحمي مفتوحاً على اتساعه. نعست وكذا يسوع أيضاً. ما كشف أمرنا هو أننا غططنا في النوم معاً. أول ما فعله الحارس الذي كان قد اختارني لإرغامي على النوم معه هو جز شعر يسوع. جزه ببطء وبرود، وبشكل ممنهج، كما لو أنه تطلع للقيام بهذا منذ زمن بعيد. لقد قصه بواسطة منجل حاد جداً، وعندما غطى الشعر الأسود الطويل السميك والخشن جزمته المغبرة، نفض الشعر عن قدميه كما لو أنه ينفض الرغبة عنهما.

لم يلمسني أبداً هو نفسه، ولا حتى ضربني. تداعى بقية الحراس تلك الليلة واحداً تلو الآخر إلى كوخ صغير في الغابة وضعت فيه. أثناء اغتصابهم لي أجهزوا على يسوع. عند الغروب، بينما كنت مستلقية أنزف، أحضروا جثته ورموها إلى جانبي في الكوخ. أغلقوا بعدها الباب بالمسامير. كانت حنجرة يسوع مقطوعة، وأعضاؤه التناسلية منتزعة. تعرض لشتى صنوف التنكيل. لم يتركوا عليه ولو مزقة قماش صغيرة تستر جثته. وكنت أنا عارية.

مرت أيام وليال. الذباب بالمئات. الجرذان. الرائحة. كنت أخبط على الباب إلى أن تدمى يداي، اللتان غطاهما الذباب أيضاً. صرخت. ما من صوت في الخارج سوى أصوات الغابة. عندما تمكنت من النوم، رأيت كوابيس عن جسد الرجل الذي أحببت. كان صامتاً جداً. لعنته لحظتها لأنه هو موتي.

سمعت ذات ليلة أصواتاً خفيضة في الخارج. ثم انفتح الباب بهدوء، وملأ رجال قبيلة يسوع الثكلى وذوو الهيئة البربرية الكوخ الصغير. لفوا جسده ببطانية كبيرة قبل أن يتحولوا إلي، عارية وأرتعش وأحتضر على الأرضية القذرة. بعدها أدركت أن ثمة بطانية أخرى لي.

لبقيت معهم لو كان متاحاً ذلك. كانوا يفهمون، كما لم يفهم أحد قط، شكل انكساري. كنت مكسورة كلياً، جراء أنني أمسيت لا أثق

بأحد، ولا أسعى لحب أحد قط، وأنا في صدد جلب من يستدعي هذا الحب. لكنهم كانوا في حالة هرب دائمة، والجنود دائماً في إثرهم. حين ولدت كارلوتا، أفهموني بوجوب الرحيل من أجل إنقاذها وإنقاذ يسوع. أخذوني إلى بيت يعيش فيه هنود بالأسلوب الذي سمح فيه الغرينغوز للهنود بالعيش؛ منهمكون جميعاً في تصنيع الحلي الرخيصة مقابل دولار السياح، حيث يحصل الرجل الأبيض المتحكم بهم على النصيب الأكبر منه ويحميهم من الجنود. أخفوني وطفلتي. تعلمت صنع آنيتهم الفخارية الخضراء الزاهية، وبما أنني أعرف الإسبانية، ساعدت النساء في بيع منتجاتهن في شوارع البلدة غير البعيدة، التي تعج بالسلالات الميسورة من الفاتحين الإسبان والأمريكانو ذوو العيون الفارغة، وما كسبت سوى ما يسد رمقي من الطعام، إلى أن أخبرني الأصدقاء عن مدرسة يديرها مجموعة من الغرينغو قد أفلحت في الحصول على عمل فيها كخادمة – عبدة فيها. كانت تلك بداية رحلتي نحو أميركا الشمالية.

فراقي لشعب يسوع كان فراقاً لن يشهد له بقية العالم مثيلاً، ولن يفهم حتى هذا العالم معناه. لست أكيدة من أنني أفهم معناه أنا نفسي. كل ما أعرفه أنهم قدموا لي آخر رموزهم المتبقية في هذا العالم – ريش ببغاء إفريقي أحمر لأذنيَّ، ذلك الببغاء الذي كان قد جلب إلى قريتهم منذ مئات عدة من السنين من قبل رجال ذوي شعر خشن، من قارة يدعونها زوما، أو شمس، وأعطوني، من أجل كارلوتا، الحجارة الثلاث التي بحجم بيض الحمام

* * *

أول مرة تبينت فيها أن الأمريكيين الشماليين محترمون للغاية، كانت في مكان يدعى مدرسة الأدغال[1]. كانت ثمة مساحات شاسعة من الأشجار والأعشاب في هذا الموقع، ولم تر في حياتك مثل تلك الزهور

1 – Le Escuela de jungla، وهو اسم لمكان. بالإسبانية في الأصل – المترجم.

وتلك الفاكهة! بدت قطعة من الجنة، وكنت على يقين من أنني وحبيبتي سوف نعرف سعادة كبيرة فيها. كان فيها منزل مزرعة مسقوف بقرميد أحمر اللون وغرف طولانية مطلية بالأبيض تعج بنباتات السرخس التي تصل حتى السقف، وأرائك وكراسي تفوق خيالك، عميقة ووثيرة جداً من شتى الأنماط والألوان. رصفت الأرضية أيضاً، حتى على البرندا، ببلاط على شكل مربعات ضخمة بلون غروب الشمس المعتكر، والتي عرفتها جل المعرفة إذ كان عملي هو تنظيفها يومياً. في بيت المزرعة هذا، وفي الغرف الفسيحة في الطابق العلوي، كان الغرينغو يقضون وقتاً بعد إحضار أولادهم إلى هذه المدرسة. لدى مغادرتهم، كانوا يعتقدون أن أولادهم سيلزمون إحدى تلك الغرف – غرفة كبيرة جيدة التهوية، ومليئة بالخضرة والأثاث المصقول القديم الغامق اللون، مع قفص معلق على النافذة بداخله ببغاء. لكن هذا لم يكن يحدث. فقد كان هناك حي للطلبة[1] يقع خلف المزرعة، في فسحة خالية وسط أيكة البامبو. يقيمون في أكواخ ويعيشون كأشد القرويين فقراً، وتراهم مخدرين ومحبوسين أغلب الأوقات.

بعضهم كان مختلاً عقلياً وينحدر من عائلات يمنعها شعورها بالعار من وجود حالة جنون في العائلة من إيداعهم في أي مصح للأمراض العقلية في أمريكا الشمالية. بعضهم كان معاقاً أو متخلفاً ذهنياً أو مشوهين أو عميان. هؤلاء لم يقيض لأحد رؤيتهم سوى أشد الخدم فقراً من الهنود. في حينها كان قد ظهر رجال السياسة المتطرفون في أمريكا الشمالية. وكان هؤلاء التلاميذ جميعاً قد كبروا؛ هل قلت لك هذا؟ ومنهم من غدا في منتصف العمر تقريباً. ظهر الراديكاليون معتلو القلوب – التعبير الذي كثيراً ما رددته على مسامعي الغرينغا التي أعانتني على الفرار – ممن كانوا على يقين أن آباءهم لم يفعلوا شيئاً صحيحاً طيلة حياتهم، وأحياناً، على حد قول تلك الغرينغا، لم تكن هي نفسها لتجلس على مائدة أبويها بهندام أنيق أو تسرح شعرها أو حتى تنتعل حذاءها!

1 – el barrio de los alumnos، بالإسبانية في الأصل.

أتدري، كانت فاحشة الثراء. أصاب هذا السلوك الشائن والديها بكآبة عميقة. وما كان بمقدورهما تجاهل هذا في سريرتهما.

يوم التقيت بتلك الغرينغا، كانت متسخة جداً، حافية القدمين وترتدي الأسمال. كانت تمسح غرفة أحدهم ويدعى المعاق، وهو مثال غرينغو غزير الشعر من زمن الحرب الكورية الأمريكية، وتنبعث منه رائحة مقززة. لقد سرها سماع الإسبانية، إذ أن تواصلها الرئيس مع الهنود، وكان المعاق قد لقم كمية هائلة من المخدرات لدرجة أنه فقد لسانه. راحت هي تنظف غرفة المعاق لأن الهندية الحامل جالسة تحت شجرة قريبة تعاني من آلام المخاض. بطنها هائل، وفقيرة أيضاً، رثة الملابس وحافية القدمين، رغم أنها ليست وسخة، وكان والد أطفالها بعيداً يشارك في حرب لا تفهمها.

سألتُ الغرينغا عن اسمها، رنت إليّ بنظرة طويلة قبل أن تجيبني. كانت حدقتا عينيها واسعتين في وجهها المتسخ، وبدت كأنها تقلب عدة صفحات في كتاب بذهنها قبل أن تعثر على الرمز الذي يمثلها. ثم قالت ماري آن. قلت لها أنا أدعى زيدي. ضحكت. كانت فارعة الطول.

تبادلنا الضحك. كان قد مضى زمن طويل جداً مذ ضحكت آخر مرة.

مكثت هناك، دعني أقول، لسنتين. وهناك برهنت كارلوتا أنها مساعدة عظيمة لي. أثارت دهشة كل من التقيناه إذ أنها لم تكن تبكي أبداً. لا أقصد أنها لم تذرف الدموع قط؛ ليس كذلك، إنما لم تكن تبكي بكاء مسموعاً. تبكي بالطريقة التي يبتسم فيها المرء. كان يروق لمسؤولة الدار متابعتها وهي تحبو هنا وهناك على بلاط الأرضية، عارية إلا من الخرز على معصمها أثناء عملي على شطفه وتلميعه. ما كانوا على علم بمَعرفتي للقراءة والكتابة وكانوا يحاولون التحدث إليّ طيلة الوقت بما كانوا يعتقدون أنها لغة الهنود أو بإسبانية مقتصرة على الخدم والعبيد. كانوا يسمونني كونسويلو؛ أو كوني اختصاراً. افعلي هذا يا كوني، قومي بذاك يا كوني. لم أفصح لهم البتة عن اسمي الحقيقي، قلت لهم إن

اسمي تشيكيتا. مثل الموز، قالت الغرينغا لزوجها ضاحكة. مثل الموز! مع ذلك، كانت تدعوني في حضرة ضيوفها بكونسويلو، فقد أغرمت بإيقاع صوتها وهي تتلفظ به.

كانت ماري آن تصادق رجال السياسة المتطرفين أولئك في أمريكا الشمالية، بيد أنهم كانوا من الفقراء. كل ما تفعله تلك - العاهرة الثرية - كان مدعاة لتهكمهم منها. عندما أودع أحد الزنوج الراديكاليين السجن، حاولت حبيبته قتلها؛ توجهت في أحد الأيام إلى باب منزلها حاملة سكيناً كبيرة وأخذت تطعنها بها. بعد الهجوم، الذي أسفر عن تشويه في الرقبة، والذراعين، والصدر، غادرت ماري آن شقتها الصغيرة القريبة من حي السود في سان فرانسيسكو واعتزلت في مزرعة فوكس هولو، من ممتلكات أبويها في نيوجرسي. هناك بدأت تتحدث جهاراً عن الاستغناء عن أبويها، اللذين يعيلانها، وعن عزمها على تولي الدعاوى المختصة بالمخدرات، حسب تعبيرها. راقب والداها تهاويها بأسف. لم يكونا خيرين - بثروتهما الفاحشة التي لا تؤهلهما ليكونا صالحين في أي يوم من الأيام - لكنهما أحبا ماري آن. كانت ماري آن تصفهما بأنهما بالذات قد اغتالا ستة أنهار وارتكبا مجزرة بحق اثنتي عشرة بحيرة، فقد اخترعا مادة قاتلة تختلط فيها باستمرار. كانا مسرورين على طريقتهما أنها أبت أن تتعلم السرقة والغش وابتكار المواد السامة. بالرغم من ذلك، سوف ترث مبلغاً يقارب المليار دولار، حصيلة الفحش الذي اقترفاه، وأرادا منها أن تكون راضية على الأقل؛ بعيداً عن فوضى الندوب والمخدرات والسكر، والتخطيط للاغتيالات وهي تهمهم من بين خصلات شعرها الشقراء التي بدت مثل صوف الخروف. من حسن حظهما أن أحد أعضاء حزب الجمهوريين، الذي قدما له أحد عقاراتهما، أخبرهما بوجود مصح الغابة ذاك. بدا هذا وكأنه استجابة لأحلامهما، خاصة لأن أحداً، عندما سألا عنه بين أصدقائهم، لم يكن قد سمع به، أو على الأقل قالوا إنهم لم يسمعوا به. وهكذا ركبا الطائرة على الفور، وماري آن محشورة بينهما

ومكبلة، وفي غضون ثلاثة أيام تقاسمت غرفة جميلة واسعة مع أثاث داكن اللون هائل وببغاء أحمر في قفص. اختفى أبواها. اختفت الغرفة الجميلة. حتى ملابسها اختفت. لم تختف المخدرات، بل زادت.

رأيت خلال وجودي هناك رسائل أبويها وقد علاها الغبار على مكتب كبير من مكاتب الغرينغو. أصابتني الدهشة إذ اتضح لي أن والدها كان يحاول في إحداها أن يكتب كلمة أو كلمتين في أكثر من موضع باللغة الإسبانية. أقله كان يخاطب ماري آن بالإسبانية يا ابنتي. أنا نفسي قمت بتحرير رسالة لهما أخبرهما فيها عن مصير ابنتهما. لقد فعلت هذا لأنني أخذت أتعلق بماري آن من جهة، ولرغبتي بالتمرد على الغرينغو وتوكيد هويتي مثبتةً لهم مقدرتي على القراءة والكتابة، فإلمامي بالقراءة والكتابة منحني قوة عظيمة، مؤكدة لهم بأنني لست خادمة عبدة هندية حمقاء؛ لست كونسويليو. شعرت بمتعة حقيقية وأنا أرى خط يدي، خط من تدرب في الجامعة، ومنحني بياض المظروف حساً بالمهابة. بعد أقل من شهر طار والداها بواسطة مروحية، وأعادا ابنتهما إلى المنزل. سعدت برؤيتي لها وقد انعتقت. كما قلت، كانت قد بدأت تروقني، مع أن استيعابها أمسى ضعيفاً جداً معظم الأحيان؛ تشوش دماغها تماماً آنذاك. كانت بشكل فطري شخصاً لطيفاً ليس واعياً لثرائه في عالم كهذا العالم، حيث تجعل الثروة الطائلة المرء يفكر مباشرة بالجرائم الكبرى. لم يشتبه الغرينغو بأنني من قمت بتحذير أبويها، واستمروا في الاهتمام بكارلوتا معاملتي كأنني قطعة حية من الخشب. حصلوا على المال الكثير من أناس على شاكلة والدي ماري آن. كان التلاميذ الصغار المحتجزون يموتون في بعض الأحيان جراء الوحدة وشح الطعام، والملل القاتل والقذارة، مع تواصل ورود الرسائل والشيكات من أجل الإنفاق على رعايتهم. أصابني هذا بالحزن، إلا أنني لم أكتب رسالة أخرى البتة.

حلمت ذات ليلة أنه تم تهريبي من الحياة التي أحياها هناك، ونقلت بعيداً على متن قارب. لكن منطقة الإيسكويلا كانت تقع في المناطق

الجبلية، وبعيدة كل البعد عن المحيط، الذي كنت قد سمعت به ولم أره قط، عدا أن القوارب الوحيدة التي رأيتها هي تلك القوارب الصغيرة التي اعتادت والدتي تشبيهها بقرون الفانيليا المجففة. في أحد الأيام وأثناء قيامي بتنظيف أحد أكواخ حي التلاميذ تناهى إليّ من ينادي باسمي. اسمي الحقيقي. رفعت ناظري، وكانت ماري آن! منتعلة جزمة برباط إلى الأعلى زهرية اللون وفائقة الجمال. لم أتخيل يوماً مثل هذا الحذاء، يرافقها رجلان مسلحان بالبنادق، وهي تنضح بالحياة وعلى أهبة القتال! امتلأت عيناها الزرقاوان الفاتحتان الفضوليتان بالنور، ما دفع الهنود للهروب من أمامها. عانقتني وطلبت مني أن أجري وأحضر كارلوتا. وهذا ما فعلته، دون أي تلكؤ. في طريق خروجنا مررنا بجثث الكلاب التي ذبحت وقطعت حناجرها، تماماً كما قطعت الأسلاك الشائكة. أحزنني هذا المشهد فقد كنت أحب الكلاب، أصدقائي الوحيدين في هذا المكان إذ لم يسبق لهم أن نبحوا علي مطلقاً، لكنني كنت مسرورة بشأن الأسلاك الشائكة. كما في التلفزيون! رددت ماري آن مقهقهة مرة تلو الأخرى. لم أكن قد عرفت التلفزيون أبداً؛ فلم أفهم ما ترمي إليه. الآن أعرف كم كانت على حق. مع ذلك، فإنّ فِعلتها، مع أنها لا تعدو سوى مشهد تلفزيوني بالنسبة لها، التي قامت بها من أجلي وابنتي، أحدثت فرقاً هائلاً في الحياة.

في سيارة من نمط سياحي - رحبة جداً وكأنها منزل - قادت بنا بمحاذاة الشاطئ ثم ركنا تحت بعض الأشجار. عند الغروب تماماً، لاح لنا قارب جميل، بكل لمعان خشبه، وتلألؤ نحاسه، وبياض أشرعته، قارب بدا كأنه يغني بعذوبة في المياه. سحب المسلحان زورقاً صغيراً من الأجمة، وأبحرنا فيه إلى اليخت. يخت تملكه ماري آن ويدعى *ريكويردو*.

للأسف، قبل يوم من رسونا على اليابسة، هبت عاصفة هوجاء على سواحل شمال كاليفورنيا. انكسرت السارية فانقلب القارب، وفقدنا

كافة معدات الإنقاذ! شاهدنا خفر السواحل ونحن نغرق فوصلوا إلينا في اللحظة المناسبة وأنقذوني وكارلوتا. كان ثمة يخت آخر قربنا عند بداية المتاعب على القارب، لكنه اختفى، على نحو غريب.

على متن ذلك القارب سألتُ ماري آن كيف واتتها الشجاعة للقيام بما فعلته، وشرحت لي أنها عندما كانت تخلص جسدها من المخدرات التي ظلت مستلبة لها على مدى سنوات حدث لها ما يشبه التحول الديني بمعنى من المعاني. استند هذا التحول على عبارة تذكرتها على نحو غامض من مدرسة الأحد، مقولة أوصى به المسيح حسب الكتابات. مفادها إن ما تقدمونه للفقراء. لم تكن حتى لتكلف نفسها عناء رفع ناظريها أثناء ترتيلها آنذاك، كما قالت. همس عقلها إن ما تقدمونه للفقراء، إن ما تقدمونه للفقراء إلى أن شرد ذهنها بالعبارة، قالت كما في الدعاء، ثم نقلتنا - أنا وكارلوتا - وبدأت بعدها تحلم برؤيتنا مجدداً، سعيدتين، على متن قارب جميل. لم تكن ترى خطأ في أفكارها السياسية - فقد سعت، بوصفها راديكالية، لتمثل مقولة إن ما تقدمونه للفقراء، غير أنها كانت تسعى لمساعدة أناس لم تكن تعرفهم، معهم لم يكن هناك من معاملة بالمثل؛ تخفيف المعاناة عن الذين ما كان بمستطاعهم رؤية أنها هي أيضاً تعاني، أو حتى يخطر في بالهم أنها قد تعرف المعاناة. أحبتني، كما قالت، لأنني رأيت ذلك في شخصها. صحيح أنني كنت قادرة على رؤية هذا، لكن الحقيقة الأعمق هي شعوري بالرضى حيث أنني عندما وجهت ضربة في سبيلها فقد خلصت نفسي من تلك التي تدعى تشيكيتا ومن كوني كونسويلو.

واحسرتاه، لا يلاحظ معاناة الأثرياء سوى قلة قليلة من الناس. لحظة وصول والدي ماري آن، لم أكن قادرة على رؤية أي شيء عدا أيديهما المتشابكة. استفسرا مني عن الرحلة البحرية، وطبيعة العاصفة؛ سألاني إن كانت ماري آن بدت سعيدة. أخبرتهما أنها غاصت عميقاً كالشهب. أقنعا حراس الحدود بوجوب السماح ببقائي وكارلوتا في

أمريكا الشمالية. طلبا التقاط صورة لي مع كارلوتا، وأرسلا لنا نسخة منها فيما بعد. اختفيا ولم أسمع عنهما منذ ذلك الحين. أتخيلهما أحياناً طاعنين في السن، على متن طوف عائم من ممتلكاتهما، عائمان في نهر مذبوح، يفتشان عن موضع للرسو فيه. لكن لا، جميع أولئك الأثرياء، يمكنهم الطيران حتى. التحليق إلى *الخارج*، إلى ما يسمونه الفضاء، حيث يتوقعون العثور على موطن جديد لهم.

أمر مبهج جداً أنني أمضيت بعضاً من الوقت على القارب وأنا أخيط حقيبة صغيرة لأقراط يسوع المزدانة بالريش والأحجار. وضعتها حول عنقي ولم تضع مني. الحمد لله!

* * *

حين سألتني عن الأمان يا سويلو، قالت الآنسة ليزي، إن كنت قد عرفت الأمان يوماً في كل حيواتي، وجدت نفسي حائرة إلى حد ما. هل يعقل أنني لم أعرفه بعد عبوري لمئات من الحيوات؟ يبدو أنه الواقع. عرفت الظلم حياة تلو أخرى: على يد الأبوين، والأشقاء، والأقارب، والحكومات، والبلدان، والقارات. وعلى حد سواء ظلم جسدي وذهني. في كل حياة ثمة قسم كان لا بد أن أقضيه في لعق جراحي التي سببتها لي هذه القوى القاهرة. في الذاكرة، يجدر بي القول، عشت لحظات وحسب - أياماً كحد أقصى - من الأمان، عدا تلك الأزمنة التي كنت فيها شامان أو كاهن، وكنت أعيش فيها طيلة أشهر متتالية، في نوع من غيبوبة النشوة. لكن كما تعلم ربما، كانت هذه المراحل المباركة إجازة من الحياة، بمعنى ما، وقد يجبر رضيع يصرخ أو كلب ينبح المرء على العودة إلى المنزل.

في عالم الحلم داخل ذاكرتي، على أية حال، كان هناك شيء ما. لا أتذكره بالدقة التي أتذكر فيها الأمور الأخرى التي رويتها لك. إلا أن الذاكرة في وسعها الحلم، كالعقل، وتماماً كما توجد الذاكرة على مستوى أعمق

من مستوى التفكير في الوعي، كذلك فإن عالم الحلم في الذاكرة يكون أيضاً على مستوى أعمق. سأخبرك عن الحلم الذي تطمئن إليه ذاكرتي، وعلى حد سواء عقلي. عندما أفكر فيه أدرك أن ثمة أساساً آمناً على الأقل.

في حلم الذاكرة نحن جميعاً بشر صغار الحجم، وليس فقط الأطفال، الذين هم فعلياً صغار، ويعيش الأطفال برفقة أمهاتهم وخالاتهم؛ آباؤنا وأعمامنا في الجوار، نزورهم ويزورروننا، بيد أننا نعيش مع النساء. كل ما نعرفه عيشنا في غابة تغطي كامل الأرض. ليس هناك أي مفهوم عن المحدودية، بأي معنى من المعاني. كانت الأشجار آنذاك كما الكاتدرائيات، وكل منها تصبح مسكناً في الليل. خلال النهار نلعب تحت الأشجار كما يلعب أطفال المدن اليوم في الشوارع. تجوب أمهاتنا وخالاتنا الغابة بحثاً عن الطعام، أحياناً يصطحبننا معهن وأحياناً يتركننا في رعاية الأشجار الكبيرة. إذا ما عرفت كل غصن من أغصان الشجرة، وكل تجويف وشق فيها، فلن تعرف ما هو أشد أماناً منها؛ يمكنك أن تتوارى بسرعة من أي شيء قد يتعقبك. إلى جانب هذا، كنا تقاسمنا الأشجار مع المخلوقات الأخرى، التي كانت تعتني بنا، سواء كانت على شكل كائن مجلجل أو متسلل - الثعبان مثلاً. حسناً، بعد العودة من جمع الطعام طوال النهار الذي معظمه من الجذور والفاكهة، تكون خالاتنا وأمهاتنا متعبات غالباً ويتبرمن من وجودنا. ما كن قادرات في تلك الأوقات على تحملنا نحن الأطفال، فيرسلننا إلى أشجار أبناء عمومتنا. عاش أولاد عمومتنا، كآبائنا وخالاتنا، في أشجار مختلفة عن أشجارنا، وكانت زيارتهم تجلب البهجة إلى قلوبنا.

كان أولاد عمومتنا ضخاماً - ضخاماً على قدر ما كنا صغاراً - وسوداً ومشعرين، أسنانهم كبيرة، ذكاؤهم حاد وعيونهم وديعة. بدا لنا وضعهم غريباً إذ كانوا يعيشون معاً كعائلة؛ بمعنى، يسكن الآباء والأعمام برفقة الأمهات والخالات، وجميعهم كانوا يتسلون برعاية الأولاد. كانوا يحبوننا، أيضاً، تراهم يهذرون بفرح ونحن نتسلقهم. نتسلقهم لأنهم

كانوا في غاية الهدوء، أشجارهم هادئة جداً لدرجة أن الصخب المرتفع يجفلهم ويرعبهم. كنا، بالمقابل، مثيرين دائمين للصخب. التشابه الوحيد الذي يخطر لي مع حياتي الحالية هو تجربة إرسالكم، وأنتم صغاراً، جنوباً إلى بيت جدكم وجدتكم صيفاً. قد يكون جدك وجدتك هرمين، هادئين، وليّني العريكة وغير معتادين على الصخب. هما يعرفان بأن زيارة من الأحفاد ستقلب حياتهم لبعض الوقت، لكنهما يؤكدان لك يومياً مدى سعادتهما بوجودك عندهم. الأمر نفسه ينطبق على علاقتنا مع أولاد عمومتنا. وقد أحببت أولاد عمومتي من الأطفال الصغار، بوجوههم الباهتة الخالية من الشعر، الذين كانوا على الدوام يتعلقون بظهر أحد ما. يا له من شعور جميل أن يحمل المرء ابن عمه الصغير في حضنه، وفرح الأهل بمغزى هذا الحمل! لم يكن على أجسادنا شعر، كما ترى، لتتشبث به الأصابع الصغيرة. تعلمت من أولاد عمومتي هؤلاء محبة الأطفال الصغار والرغبة في تربيتهم وإنجابهم.

أمان كبير كان يعم حول أشجارهم. الآباء والأعمام عمالقة وينظرون بنظرة ذات مغزى إذا ما تعرضوا للاستفزاز، ويهدرون بصوت يوجع أذنيك. تستطيع الأمهات والخالات التكشير عن أسنانهن بشراسة. يمكنهم أن يعضوك في رقبتك بأشرس ما لديهن. تعودت أن أكشر عن أسناني وأعض بالطريقة التي يفعلون بها هذا. أبهجهم هذا التقليد لهم كثيراً. إلا أنهن لم يكن يهددن إلا عندما يقتحم شخص أو مخلوق مجالهن دون ترحاب. أما نحن – أمهاتنا وخالاتنا، آباؤنا وأعمامنا، أيضاً – فكان مرحباً بنا دائماً، وإن كان ثمة ما يدعو للخوف، كنا دائماً تقريباً نتجمع في أشجار أبناء عمومتنا. أظافر أيديهم وأقدامهم حادة طويلة، وأذرعهم وأسنانهم قوية، وكانوا يمزقون الحيوانات الضخمة إرباً إرباً بضربة واحدة تقريباً. كانوا يحموننا، ويبدو أن هذا كان يمنحهم سروراً عظيماً. بعد قضائهم على المهاجم كانوا يهذرون بمرح ويضرب كل منهم الآخر بكفه على الظهر.

يروق لهم أن يطعمونا أيضاً نحن الأولاد. كانوا يقومون بكل شيء كما لو أنه لعبة. أحببت مرافقتهم في رحلات الصيد لأن أولاد العمومة، على عكس آبائنا وأمهاتنا الذين كانوا يأكلون اللحم وبالتالي يقتلون الطرائد الصغيرة طوال الوقت، كانوا يقتاتون على النباتات فقط. تراهم يخبئون الجذور التي استخرجوها من الأرض، عنّا فقط نحن الخرق وذوو الأيادي الضعيفة بشكل يدعو للرثاء، كي نعثر عليها.

كانت والدتي، التي كان اسمها غوتا رو، غاضبة مني في أغلب الأحيان؛ لذا فقد أمضيت الكثير من الوقت مع أولاد عمومتي. مرت الأيام طويلة ومليئة، إذ يستغرق جمع الطعام وتحضيره جزءاً لا بأس به من النهار. لكن أين هي المغامرة في رحلات الصيد من أجل الطعام؛ ما فتنني العلاقة بين بقية الأقارب إضافة إلى أولاد العمومة، والتفلية التي شكلت التجربة الحسية الأشد إرضاء التي عرفتها يوماً، سواء في حلم الذاكرة أم سواه. لعدم وجود الشعر على جسدي - الأمر الذي أسفت عليه أسفاً شديداً! - كنت أنتهي من التفلية في فترة قصيرة جداً بالمقارنة معهم، والتي قد تمتد طوال النهار. الأسنان الكبيرة المسالمة وهي تتكتك على جسدي الصغير المثار تترك لدي شعوراً رائعاً. اللعق باللسان الخشن بحثا عن القمل، أيضاً له الشعور نفسه. شعر رأسي كان كثيفاً جداً على الأقل. يعملون على تنقيته من القمل على مدى ساعة أو اثنتين، وكنت، تحت أسنانهم وألسنتهم، راضية تماماً.

حاولوا باستمرار تعليمي كيفية اللبس. لبس أوراق شجر، جلود حيوانات نافقة، طحالب أو لحاء أشجار. كان هذا مضحكاً. لكنني تعلمت من تجاربهم أن ألبس ما يسترني وما أرغب فيه؛ تعلمت كيف أرَبط قطعتين من جلد النمر أو الفهد طولانياً من الأمام والخلف، وهذا أمتعهم، مع أنهم حسبما أعتقد كانوا ينظرون إلى أزيائي كأنها أجهزة صناعية. بدا أنهم لا يستوعبون حالة الانفصال؛ عاشوا وتنفسوا كعائلة واحدة، ثم كعشيرة، ومن ثم كسكّان الأدغال، وهلم جرا. إذا ما

آذيت نفسي وبكيت يبكون معي، كأن الألم ينتقل بفعل سحري إلى أجسادهم.

لما بلغت سن التزاوج، تزوجت من أحد رفاق اللعب، صبي كنت أعرفه وأحببته طيلة حياتي. بعد تزاوجنا وحملي، كان من المتوقع منه، حسب الأعراف، الانتقال والذهاب إلى الرجال. وهذا ما رفض القيام به. وكذا أنا رفضت. كنا نتوق بكل جوارحنا للبقاء سوية مع أطفالنا طوال الوقت، كما قد رأينا هذا يحدث في أشجار أولاد عمومتنا. حسناً، أنت تعرف الراشدين. لم يتغيروا منذ مليون عام؛ ولا يبدو أنهم سيتغيرون أبداً. اشتكت النساء من احتمال مصادفته لنا أثناء دورة الطمث الشهرية المشتركة؛ أصر الرجال على حاجتهم له من أجل الصيد وممارسة الطقوس. عاقبونا بعزل كل منا عن الآخر. قاومنا هذا بكل ما أوتينا من القوة. عندما أنجبت طفلي، هربنا للإقامة مع أولاد عمومتنا، الذين كانوا بلا ريب يتخذون موقفاً أكثر تقدماً من آبائنا في معظم الأمور. كنا سعداء بصحبتهم. كانوا يعتقدون أن رغبتنا بالبقاء سوية هي أمر طبيعي. أعدوا لنا سريراً من الطحالب للنوم عليه.

أدركت أننا في صغر أحجامنا كنا مثل أطفال دائمين بالنسبة لهم، وأن أطفالنا مثل دمى متناهية الصغر. كنا صغاراً لدرجة أنه كان يتعذر علينا حمل أحد أطفالهم وهو لا يزال في الأسبوع الأول من عمره. في الوقت ذاته، كان بمقدور أبناء عمومتنا حملي بسهولة وزوجي بذراع واحدة أو متشبثين بشعر ظهورهم.

ما كانوا يعرفون العنف - بمعنى أنهم لم يكونوا البادئين به أبداً - لا يعرفون سوى الاهتمام. اعتدت النظر إليهم والتساؤل كيف انقسمنا، ونحن بهذا الصغر وهذا العري وهذه السهولة بالاستفزاز.

على نحو مفاجئ عصفت في حلم الذاكرة أيام وليال من الرعب، وأمست وجوه آبائنا وأعمامنا الشبيهة بوجوهنا أكبر بكثير. كانوا يحملون عصياً ذات نهايات مدببة قذفوا بها أبناء عمومتنا، وأصابوهم

في صدورهم. وسط هول ما رأينا، أخذوا جلود أبناء عمومتنا وأخذوا يطبخون ويأكلون أجسادهم أحياناً. أما نحن، صغار الحجم، فقد كنسونا كأننا ذباب وتشتتنا إلى قمم الأشجار باكين صارخين.

مع مرور الزمن وبعد الكثير من الهجمات، أرغم أبناء عمومتنا ونحن أنفسنا - الناس الضئيلين، كما قد وعينا أنفسنا حينها - للإقامة في الطرف القصي من الغابة. تعلمنا تصنيع تلك العصا ذات النهاية الحادة وتسميمها أيضاً. تعلمنا صناعة المقاليع وسهام النفخ. لقد ضاعت تلك الثقة التي كانت بيننا ذات يوم. لم نعد نعتبر عاجزين أو جذابين، وثمة من طرفنا من هلل لامتلاكنا في النهاية للوسائل التي تخيف أبناء عمومتنا العمالقة.

لكني وقريني لم ننس قط ما تعلمناه من أبناء عمومتنا. ربينا أولادنا ليكونوا شبيهين بهم قدر المستطاع؛ وبقينا معاً حتى الممات، تماماً كما كان يفعل أبناء عمومتنا. ترسخ أسلوب العيش هذا تدريجياً في كل المجموعات البشرية التي تعيش في الغابة، على الأقل لفترة طويلة جداً من الزمن، إلى أن دخل مفهوم الملكية - التي نشأت حين بدأ ينظر إلى الغابة على أنها مساحة قابلة للفصل إلى مساحات أصغر وكل منها تخص هذه القبيلة أو تلك - إلى المنظومات البشرية. بعدها راح الرجال، بوصفهم الأقوى، على الأقل خلال فترة الحمل التي تكون فيها المرأة ضعيفة، يفكرون بامتلاك النساء والأطفال. حدث الأمر ذاته سابقاً، وقد نسيه آباؤنا، إلا أن نظامهم في فصل النساء عن الرجال كان نتيجة لمرحلة سابقة حاول فيها الرجال والنساء العيش معاً - ومن المثير للاهتمام اليوم رؤية الأمهات والآباء في يومنا هذا يعودون إلى الأساليب القديمة في تبادل الزيارات فقط دون الرغبة في العيش سوية. سيبقى هذا نمط الحرية إلى أن يتوقف الرجل عن رغبته في الهيمنة على النساء والأولاد أو يتخلى عن شعوره الدائم بضرورة البرهنة على سلطته. عندما رأى الرجل أن بمستطاعه امتلاك امرأة وأولادها، أصابه الجشع ورغب بالحصول على

أكبر عدد متاح له. في زماننا هذا، هناك مغنٍ إفريقي لديه سبع وعشرون امرأة. عدد النساء اللواتي يتملكهن عيدي أمين كبير لدرجة أن أولئك اللاتي كان يشاع أنه قام بقتلهن لم يشعر حتى بغيابهن.

حياتي مع أبناء عمومتي هي حلم ذاكرتي الوحيد عن الأمان الذي عرفته. بعد عدة حيوات وفي واحدة من أسوأ حيواتي، سمح لي، بسبب حادثة، بالزواج من رجل آخر كنت فعلياً قد أحببته واخترته بنفسي، وشعرت بالأمان لبعض الوقت، صوابية رائعة عن الحياة، لكن لأنني على ما يبدو قد ولدت دون غشاء بكارة وبالتالي لم يكن هناك بقع من الدم لعرضها على القرويين بعد ليلة الزفاف - حيث استجبت له بشهوانية، أو بلا حياء، كما ادعى فيما بعد - اتهمني أمام القرية وطردني أبواي. أصبحت بعد ذلك أدنى صنفاً من عاهرات رجال القرية، بمن فيهم الزوج الذي أحببته، إلى أن فارقت الحياة بسبب تعرضي للعدوى وأنا في الثامنة عشرة.

* * *

بماذا ساهم البشر، كان سويلو يفكر تفكيراً كئيبا خلال انتظاره مجيء الآنسة ليزي ذات ظهيرة. لقد حرضته حكايتها عن أبناء عمومتها الحيوانات، وفي كل يوم كان يجد نفسه يزداد وعياً حول أقاربه اللا آدميين في العالم.

النحلات تساهم بالعسل، لكن لا فهو فعلياً يؤخذ منها. ماذا، تساءل الآن، هل يفترس النحل بعضه؛ المؤكد أنها لا تجمع العسل في سبيل البشر. الزهور هي التي تساهم بالعسل لكل من النحل والبشر، الزهور التي تمنح على الدوام شيئاً ما: الجمال، البهجة، حبوب الطلع، والبذور. لم تكن لتكترث بمن يراها، أو لمن تعطي. وعلى قدميه، أدرك سويلو مشمئزاً أنه ينتعل خفاً بلا كعب مصنوع من الجلد. ما هذه الكناية، جلد. كلمة لا معنى لها فعلياً. لا شيء فيها ذو دلالة على الحقيقة الكامنة

في الجلد. جلد شيء ما. ونظاراته من درع السلاحف. نزعها وتمعن فيها عن قرب ممسكاً بها على بعد ذراع من وجهه. لكنها تقليد لدرع السلحفاة. لعلها من البلاستيك. ومع هذا فقد ازداد غمّه فهو يعرف أن السبب الوحيد لتقليد أي مادة هو نضوب المصدر الحقيقي لهذه المادة. ربما لم يعد هناك المزيد من السلاحف لقتلها. وماذا يعني، على أية حال، من البلاستيك؟ إنها متوفرة وزهيدة الثمن. ومع ذلك فهي آتية من مكان ما. مم يصنع البلاستيك؟ ما هي المادة التي أزيلت لابتداعه؟ يعلم أنه أحد المنتجات البترولية، من النفط، وهكذا زعم أن البلاستيك قد صنع من شريان الحياة الحقيقي للكوكب. بعد استخراج النفط من باطن الأرض بكامله، راح يتخيل ارتجاج الكوكب وانكماشه على نفسه، كبرتقالة عصرت وامتصت حتى النهاية.

أحس سعادة عندما سمع طرقات الآنسة ليزي. طرقات ثابتة وقاطعة، كعادتها. حين فتح لها الباب، انفرجت أساريره على الفور من العينين المفعمتين بالحياة والساخرتين - كأنهما تقولان، حسناً، ماذا بعد، هل من جديد؟ - في وجه عجوز ذاو جميل. كانت تغطي شعرها اللماع بشال من الصوف بلون خشخاش كاليفورنيا الأحمر الفاتح، زهرة فاني المفضلة. هذا لوحده جعل سويلو يبتسم. ارتدت معطفاً من وبر الجمل، وجزمة سوداء برباطات حتى الأعلى. تقطعت أنفاسها من الجهد الذي بذلته وهي تحمل صندوق الكرتون الضخم صاعدة الدرج. مد سويلو يده إليها وحمله عنها.

سارت في البهو ونزعت عنها الشال والمعطف، وعلقتهما على المشجب ثم نظرت إلى نفسها في المرآة المعتمة أسفل المصباح. كانت ترتَدي فستاناً ناعماً أصفر اللون نقشت عليه كف حيوان سوداء كبيرة، أم لعلها زهرة، فكر سويلو وهو ينظر إليها عن قرب، في موضع فوق قلبها تماماً. بعد دقائق كانا يجلسان في الردهة الأمامية، يحتسيان الشاي الذي أعده سويلو أثناء انتظاره لها، وشرعا بالبحث في الصندوق الكبير.

حين توفي عمك، قالت الآنسة ليزي، لم أكن أعلم من سيتولى شؤون المنزل بالضبط. لم أكن أريد لهذه الصور أن تذهب لأي كان لا على التعيين. كان سويلو قد وقف قبالة الصور مرات عديدة محاولاً أن يتخيل لمن تلك الصور. أخرجتها الآنسة ليزي تباعاً، وفكت الغلاف عنها، ثم وضعتها على وجهها فوق مقعد السنديان قرب الصوفا. قامت بعد ذلك بتمزيق الجرائد التي كانت تغلف الصور بعناية ووضعتها في الصندوق. أخرجت قطعة قماش من جزدانها الجلدي الأسود وطفقت تلمع بللور كل صورة على حدة. وضعتها بعد ذلك في نسق على المقعد، تراجعت في جلستها، ودعت سويلو لمشاهدتها.

قبل النظر إلى الصور، مع ذلك، نظر بعناية في الوجه العجوز بجواره وحاول العثور على الفتاة الصغيرة التي تقف أمام الكراسي المنحوتة الرائعة، حافية القدمين، ثيابها ملطخة وشعرها مضفور في جدائل. بحث عن الأنف الجميل، والفم الناعم والوجنتين المدورتين. لعلها كانت هنا. كان من العسير التأكيد. بعدها، وقد لاحظ ملمس إطاراتها الخشن الجميل من خشب الصنوبر والسنديان، بدأ بالنظر إلى الصور، والتي كان عددها ثلاث عشرة صورة. شرحت الآنسة ليزي له أن لديها في المنزل نسخة من إحدى الصور، ولهذا لم تأخذها عندما نقلت بقية الصور.

تذكر سويلو إشارة السيد هول: ليزي هي الكثير من النساء، وتوقع أن يرى الكثير من الصور للمرأة ذاتها وقد ارتدت ملابس خاصة كي تبدو مختلفة في كل منها؛ وكان هذا صحيحاً، الكرسي ذاته في جميع الصور - أحد تلك الكراسي الموجود في الصورة التي تركت في المنزل - أما الملابس فقد تنوعت تنوعاً هائلاً. ما شاهده، مع ذلك، كان ثلاث عشرة لوحة لثلاث عشرة امرأة كل منها تختلف كل الاختلاف عن الأخرى. إحداهن بدت طويلة القامة، وأخرى شديدة القصر، إحداهن ذات بشرة فاتحة وعينين فاتحتي اللون، وأخرى سمراء بعينين سوداوين سواد زجاج السبج. إحداهن شعرها طويل حتى خصرها، وأخرى كان شعرها

بالكاد يغطي جمجمتها. إحداهن تظهر بهلوانية، بصحة جيدة متوردة الوجه. وفي صورة أخرى بدت كسيحة بالكاد قادرة على السير.

اختار صورتين وسحبهما إلى أمامه. في إحداهما، شابة قصيرة القامة، طائشة وبشرتها فاتحة جداً تحدق بجسارة في آلة التصوير، شفتاها مزمومتان ونظرة عينيها التي يبدو أنهما خضراوان فارغة، زائدة من الشعر الخفيف أشبه بعلامة استفهام مقلوبة رأساً على عقب في وسط جبهتها؛ وبعد ثانية، آنسة طويلة القد سمراء، ذات حسن حزين لخادمة محلية ومزارعة سابقة، تنظر بعينين مهزومتين إلى آلة التصوير والمصور الذي لا تثق به. كانت ترتدي زي خادمة منزلية أبيض اللون، وقد سرحت شعرها القليل بقسوة وشدّته بإحكام تحت قبعة بيضاء مستدقة. لم يكن من شبه على الإطلاق بين كلتا المرأتين. في الواقع، لم يكن من شبه أبداً بين أي من النساء الثلاث عشرة. ولا كن شبيهات بالمرأة الأنيقة الحنونة حنان الجدة التي تجلس جوار سويلو.

لقد هربتُ مع المصور، رجل ملون من تشارلستون، وهو من التقط هذه الصور، قالت الآنسة ليزي، وهي تشير إلى صورة الفتاة الطائشة. كان متزوجاً. هربت منه عندما اكتشفت هذا. كنت حاملاً حينها، هكذا كان مظهري حين عُثِر عليّ مجدداً، قالت هذا وهي تشير إلى الفتاة التي ترتدي زي الخادمة. بقيت إحدى موديلاته قرابة الثلاثين عاماً، بشكل متقطع. بعد فترة طويلة من خمود جذوة الحب المتأججة بيننا. كنا مفتونين ببعضنا. لم يكن قد صور أحداً البتة، طيلة مسيرة عمله مصوراً، مثلما صورني، وقد أفلح ألا يظهرني أبداً بالشكل ذاته مرتين متتاليتين، ولم أجد في حياتي قط من استطاع أن يدرك كيف أنني نساء متعددات مخَتلفات. يا للهول، كان البعض، حتى ماما وبابا، يعلقون مستغربين من أنني لا أملك، على حد قولهم، مظهراً مميزاً واضح المعالم، لكنني ماثلت نفسي بالنسبة لهم على نحو كاف من يوم لآخر بحيث أن هذا ليس بذي شأن. بدأ هنري لايتروم بتصويري مرة أو مرتين كل سنة، والنتيجة

هي ما تراه؛ ثمة المزيد من الصور، إنما الفروقات في هذه الصور هي الأكثر صدمة.

أجل، قالت، كما لو أنها تجيب على سؤال سويلو، هاتان كلتاهما لي. كلها لي، تابعت كلامها، بحركة قاطعة من ذراعها، كلها أنا. كان هنري لايتروم، بآلة تصويره القديمة وكرسيه القابل للطي - حتى يتمكن من حمله معه حيثما ذهب - والذي قام والد هول بالحفر عليه، يستطيع تصوير النساء اللواتي كنتهن في الكثير من حيواتي السابقة. هدية رائعة تمكن من تقديمها لي، مع أنني لم أخبره البتة بالسر الذي حيره وبالتالي فتنه، ذلك أنه خدعني خداعاً مؤلماً بخصوص زواجه، ولم يورد ذكره إلا بعد هروبنا معاً. في البداية أرعبني أن أرى نفسي شبيهة بالكثير من البشر! ولم أستطع فهم ذاتي إلا بعد سنوات من التنقيب في الذاكرة واستكشافها، سنوات من وعيي بعدم الشبه بيني وبين معظم الناس، سنوات من الغضب والاضطراب جراء هذا الوعي، سنوات من الكفاح ضد المحيطين بي! في النهاية تراءى لي أن ذاكرتي والصور كل منها تثبت الأخرى تماماً. كنت كل أولئك الناس، وكانوا لا يزالون في مكان ما في أعماقي. حين كان هنري لايتروم يصوب آلة التصوير، يرتسم هؤلاء الناس ويظهرون بمختلف تنويعاتهم. يقوم هنري لايتروم بتظهير الصور ويجري لملاقاتي ثم يفردها على الشرفة ويعرفنا على بعضنا. الآنسة ليزي، تراه يقول، وهو ينحني لي وللصورة الأخيرة، قولي لها طاب يومك! وأفعل. كان هذا مفاجئاً وساراً. ذواتي التي حسبت أنها ضاعت إلى الأبد، الحاضرة في ذاكرتي فقط، كانت لا تزال موجودة! وجود فن التصوير يثير فيَّ أحياناً سعادة عصية على الوصف.

اندلعت حرب في العالم الشاسع. سعى هؤلاء البيض هنا للسيطرة على بقية سكان أميركا، وسعى الأوروبيون للسيطرة على باقي العالم. جاءت مرحلة الكساد. كلما تلفّتَ حولك تسمع عن شنق الملونين أو تعرضهم للمعاملة الرهيبة. هذا ما جرى لي. ولأنني امرأة ملونة، فإن

أحداً لن يعلم بهذا قط. كنت مسرورة بعض الشيء لأنني أنتمي لصنف من النساء يروقه إمتاع نفسه بأمان.

هز سويلو رأسه. لم يكن يدري إن كان يستطيع تصديق هذا أم لا. وفكر كيف أن تصديق أمور مثل مذنب هالي لم يكن الأمر ذاته. أم هو ذاته؟

أتذْكر ما أخبرتك به عن فقداني لقدمي وساقي بعد أن خطوت فوق فخ الدب؟

أجل، قال سويلو، وانتقلت عيناه مباشرة إلى صورة المشلولة الضئيلة فاحمة البشرة وذات العينين الحزينتين. ليس مهماً أنك لاحظت مدى إصابتها - الساق والقدم المفقودتان - بل تعرفت عليها من خلال نظرتك إلى وجهها الشاحب وحسب، الذي بدت الروح فيه وقد استسلمت تواً.

إليك هذه الآن، قالت الآنسة ليزي، وقد شاهدت على وجه سويلو الحزين شدة مواساته للذات التي كانت قد تسربت منها، هكذا كنت أبدو في الزمن الذي أقمت فيه مع أولاد عمومتي ألهو على أشجارهم. عرضت على سويلو الوجه الأشد سعادة من بين جميع الصور، كانت فيها تجلس القرفصاء، متناهية الصغر، بخصر نحيل كخصر الدبور، شعرها كثيف بجدائل متماوجة كالصوف، عيناها مشرقتان ضاحكتان، أسنانها البيضاء المتينة تكشف عنِ ابتسامة واسعة. كانت قزمة.

* * *

هذا هو السبب إذن لاعتقادهم بأكل الأفارقة للحم البشر، استغرق سوِيلو بالتفكير متأملاً بما قالته الآنسة ليزي، في زيارتها ما قبل الأخيرة، عن أولاد العمومة. مر أحدهم مصادفة، بعد آلاف السنين من الفترة التي تحدثت عنها، بالجماجم والعظام المتآكلة لأولئك الأقارب المنحوسين. إنما حينها، حسب تخمينات الآنسة ليزي على ما يبدو، كان أولاد عمومتها قد تحولوا إلى بشر، أكثر شبهاً بالبشر من القوم الذين ينحدر

منهم فرع عائلتها. جلس ينظر إلى صورة الآنسة ليزي قبل آلاف السنين؛ تخيل قرينها يلتقط الصورة ويضحكان معاً فيما كانت تعرض وجوهها المتنوعة عليه. تخيل أولادهما يَحبون هنا وهناك تحت الأشجار الشبيهة بالكاتدرائيات؛ أشجار بضخامة كاتدرائية تشارترية[1]، على حد وصفها. تخيل سواد أبناء العمومة المشعرين الضخام يتأرجحون وصغارهم على ظهورهم وصغير الآنسة ليزي أيضاً. فكر بالوجوه السوداء الكبيرة وبالوجوه الصغيرة الأفتح لوناً.

كان لا يزال غارقاً في تأمله عندما سمع صوت شاحنة السيد هول، وبعدها، طرقاته الناعمة المترددة على الباب. دعاه سويلو للدخول، وأعانه في نزع معطفه، ولأنه يعرف مدى استمتاع السيد هول بالقهوة اللذيذة، فقد أسرع في إعداد فنجان من القهوة له.

مضى على وجود سويلو الآن في منزل العم رافي أكثر من شهرين. لم ينس فاني وكاليفورنيا - لافتة للبيع معلقة في الخارج فوق مرجة العشب القصير - لكن أياماً مرت دون أن تخطر في باله، ولو فكر فيها لأحزنه عدم مشاطرتها له تجربته هذه. كانت فاني مغرمة بكبار السن وملمة بشؤونهم على نحو لا يعرفه هو. غالباً ما كان يشعر بالارتباك في حضرتهم، كأنه يشتبه تحسسهم لقلة صبره التي تمثل موقفه الفكري حيالهم على الدوام. غير أن مشاعره لم تكن ببساطة قلة الصبر عليهم؛ تبرمه ناجم عن الوضع الذي ورثه الشباب وكبار السن في هذه الأيام (ولطالما غاب عن باله أنه هو نفسه قد أصبح أكبر سناً): تبرمه من أنهم لا يملكون متسعاً من الوقت سواء للحديث، الحديث الفعلي، أو للإنصات إلى بعضهم بعضاً. لنفترض أنك تحضر مناسبة مميزة، من نوع الحفلات المنزلية، ثم وجدت نفسك بجوار عالمة أنثروبولوجيا عتيقة وقالت عرضاً: حسناً، حين كنت في أفغانستان في الثلاثينات... كذا وكذا،

1- وتعرف أيضاً بكنيسة السيدة، كنيسة كاثوليكية تقع على بعد 80 كم جنوب غرب باريس - المترجم.

وكذا. ماذا تفعل؟ ما سترغب في القيام به هو الإمساك بها من ياقتها ثم سحبها إلى المنزل وإجلاسها على كرسي كبير مريح وبعدها تجلس عند قدميها (أو قدميه، حسب الموقف) لأسبوع، فيما هي تتحدث. أقصى ما قد تحصل عليه في الحفلة على الأرجح هو حكاية نادرة تدور أحداثها عن رحلة على ظهر جمل وانعدام وجود الطرق. كان ذلك مبعثاً للغيظ.

أما فاني فهي أكثر ميلاً للالتصاق بعجوز استثنائي طوال السهرة، مستغرقة تماماً، مع أن كلاً منهما يسمع الآخر بمشقة بسبب الصخب الذي يثيره باقي الحضور.

أحب سويلو ما يجري له وشعر بالامتنان للوقت الذي وفره له عمه رافي كي يتعرف على منزله وأصدقائه، وحياة لم يكن ليقيض له معرفتها بأي حال من الأحوال لولا حصوله على الدعم المالي. تذكر المرة الأولى التي كان ينتظر فيها الآنسة ليزي وصديقتها، الآنسة روز، لتحضرا الغداء ورجاهما الدخول. رفضت الآنسة روز، على عجل، قائلة إن أحفادها ينتظرونها في المنزل، إلا أن الآنسة ليزي دخلت كأنها تترقب هذه الدعوة، وقفت في البهو بأسلوب أقرب إلى الأسلوب الملكي، كما بدا له، كأنها تنتظر منه التخلص من ضيف سابق. نظر كل منهما إلى الآخر للحظة بدت طويلة. أول ما لاحظه فيها ذلك اليوم هو مهابتها؛ وقفتها المنتصبة. وثانياً، تحفظها، حين نطقت كيف حالك؟ برسمية شديدة، لم تقل شيئاً بعدها، أثناء وقوفه إلى جوارها، منتظراً منها المبادرة بالخطوة الأولى باتجاه غرفة الجلوس التي، فكر في سريرته، لا بد أنها جلست فيها عدداً لا يحصى من المرات من قبل. لكنها لم تتزحزح. فكر أنها تبدو في غاية الجلال، بالنسبة لشخص ليس بهذا الطول. بعد ذلك، أصبح ينتبه إلى باقي ضيوفه في غرفة الجلوس أيضاً.

آسف، المعذرة، قال على عجل، وسار مسرعاً إلى داخل غرفة الجلوس، وأطفأ التلفزيون.

اعتدت على تشغيله من أجل الرفقة، قال، بنبرة يشوبها الاعتذار.

وفكر بعدها، لعلها هي نفسها تشاهد المسلسلات، ولذا قال، يوماً بعد يوم أغدو أكثر شبهاً بأبناء عمومتي وخالاتي؛ كلهم يتابعون المسلسلات.

وما المغزى؟، سألت الآنسة ليزي.

كما تعلمين، الحكايات على التلفزيون، قال سويلو مفكراً أن الاختزال المعاصر في القصص التلفزيونية قد أربكها. في النهاية، هي عجوز طاعنة في السن. أي منها تتابعين؟

لا أشاهد التلفزيون، قالت، وهي تجلس على كرسي بجوار الجهاز وفي الوقت نفسه جذبت شالاً مهدباً أزرق اللون كان ملقى على الجهاز منذ وصول سويلو وقامت بتغطية الشاشة.

أها، هذه هي الغاية منه إذن، فكر سويلو، إذ كان قد نظر سابقاً إلى الشال الأزرق، وهو رداء مكسيكي زاه وكبير، فأوحى له أنه مفرش طاولة غريب الشكل.

جلس السيد هول اليوم في الكرسي ذاته الذي كانت الآنسة ليزي تختاره عادة، على يمين التلفزيون، وشأنه شأن ليزي اهتم بوضعية الشال أكثر من مجرد اهتمام عابر. أصبح سويلو يتابع التلفزيون لفترات أقل الآن طالما أن الآنسة ليزي والسيد هول يحدثانه، أو يبثان له، كما يفكر بحديثهما أحياناً، بطريقة شبيه جداً بما يفعله التلفزيون. اعتاد على تغطيته عندما يكون مغلقاً. كان السيد هول يكتفي بجذب زاوية الشال وتسوية طرفه. يكتمل ذلك الطقس الصغير، مع لفتة تبدو كأنها تهدف عن غير قصد إلى إغلاق تام لوجهة نظر خاطئة أو مبتذلة، استرخى السيد هول إلى الوراء في جلسته ليبدأ بسرديته من حيث كان قد انتهى. لم يكن الكلام معه ومع الآنسة ليزي بالنسبة لسويلو مجرد حديث، بل أصبح يراه بدقة أكثر كحالة من حالات التسليم، يتلقاها سويلو ممتناً.

أنت لا تعلم، أو لعلك تعلم، قال السيد هول، ونظرة من الارتياح العميق بفعل القهوة وأفكاره البادية على محياه، روعة الشعور الذي ينتابك عندما تعلم أن ثمة من يحبك، وهذه كانت الحالة تماماً. يظل

هذا الشخص يحبك سواء كنت خيّراً أو شيطاناً، ضعيفاً أو قوياً. سواء ملكت أكواماً من المعرفة أم لم تعرف شيئاً تقريباً. حين تفكر بهذا النمط من الحب، يبدو تماماً كما لو أنه نوع من الأحاجي، قد تصرف حياتك وأنت تسعى لاكتشاف كنهه. إذا ما نفخك الغرور، سوف ينتهي بك المطاف إلى الاعتقاد بأن ما يغرمهم فيك هو أمر خلقته أنت بنفسك. أو ربما أموالك أو سيارتك. إنما ثمة أمر... شبيه بمحبتك لموضع معين. تحبه وهذا كل ما في الأمر. وإذا ما حالفك الحظ، في وجودك على هذه الأرض، سوف يتسنى لك زيارته. وهذا المكان يعرف بمحبتك له، أنت تشعر بهذا. هكذا كان الحب ولا يزال بيني وبين ليزي.

سوّى السيد هول جلسته واسترخى أكثر في كرسيه، وهو يرتشف رشفة كبيرة من القهوة، بالأسلوب ذاته الذي كان العم رافي وكل جنتلمانات الجنوب العجائز الذين التقاهم أبداً يشربونها فيه، وتابع القول.

أراد منا معشر البيض نحن الصبية، وعمك رافي أيضاً، الالتحاق بالجيش، للقتال في الحرب الكبرى، أو هذا ما قالوه ظاهرياً. الحقيقة هي أنهم أرادونا خدماً عند الرجل الأبيض في المعارك. لم أرسم شيئاً ذا قيمة آنذاك - هل أخبرتك أنني كنت غالباً ما أستعمل طلاء المنازل؟ - لم تحثني ليزي، لسبب ما، وبصعوبة كنت أستطيع تلمس الطريق أمامي. لكنني كنت أسود وقوي البنية، وأرادني معشر البيض وقوداً لحربهم. الأدهى أنني كنت من الجزيرة التي تبعد قرابة الميل عن الشاطئ. أرادوا منا قتال بشر لم يكن أي منا قد سمع بهم، وهم من البيض أيضاً. ليس للقتال، خدمة لأسيادنا البيض فقط، يمكنك القول، أثناء حربهم معهم.

بكل الأحوال، كان هذا يعني الرحيل عن الجزيرة، وترك عائلتي والابتعاد عن ليزي. لم أكن أدري كيف سأتحمل هذا. وليزي أيضاً لم تكن بقادرة على تحمله، غير أن ليزي لا تستطيع القتال في جيش الرجل الأبيض، مع أنني لا أشك في أنها كانت لتحاول هذا. كانت تمقت البيض

على كل حال وقالت بأنها لا تحمل في جعبتها، على مدى ألف عام من التعاطي معهم، ولو ذكرى واحدة جيدة عنهم. تفهم هذا من كل الأمور التي أخبرتني بها ليزي، إذ لم يكن لديها الكثير من الذكريات الجميلة الحقيقية عن أي كان. ظلت تشعر بالغيظ التام نتيجة غيابي طوال الوقت. ونتيجة لهذا الحنق، راودتها فكرة وجوب زواجنا. كنت أخشى الرفض. إضافة إلى هذا، كان هذا ما يفعله الجميع، أقصد الزواج، ومن الآمن أن أقول لك اليوم أننا لم نكن نملك أدنى فكرة، حقيقية وفعلية، عن ماهية الزواج. إضافة إلى حبي لليزي - ومتى لم أحبها؟ - كانت تكن لي حباً كبيراً، كبيراً لدرجة أنني كنت أشعر أحياناً بالاختناق.

كانوا يتحدثون عن ذلك الزمن باستمرار في الجزيرة ويصفونه بزمن الاندفاع الكبير. يقصدون اندفاع الناس للزواج. شأننا شأن معظمهم، تزوجنا في يوم ربيعي بديع على الشرفة الأمامية في منزل آل ليزي، المطلة على الخليج، وما كنت متلهفاً سوى لرسمه وحسب. لن أنسى بتاتاً أن واعظة هي التي عقدت قراننا، إذ كان هناك واعظان في الجزيرة، وكلاهما كانا يلقبان بالروح، وبسبب بعدنا كل البعد عن سياق ما يجري في بقية العالم لم نكن نعرف أن صفة الروح لا تطلق على النساء. كانت ليزي آنذاك تتفرس في الجميع وتقول إنها ***تذكرت*** بأن أولئك النسوة كن يلقبن ***بالأوائل*** وأن الرجال جردوهن من تلك الصفة. حسناً، لم يكن من أحد بوارد الخلاف مع ليزي على أمر لا يعتقد أحد أنه ذو شأن. كان هناك امرأة ورجل يلقبان بالروح. بدا هذا صواباً. كما أن لديك أبوين من جنسين مختلفين، امرأة ورجل، كما تعلم. لم يخطر على بالي التفكير بما تفوهت به ليزي يومها إلا عندما أصبحت في الجيش، ورأيت أن جميع الواعظين والكهنة والقساوسة حيثما ذهبنا - وقد وصلنا حتى فرنسا - هم من الرجال، وكم كانت تشعر بالقرف عندما تفوهت بما سبق. بالطبع كانت ليزي نفسها في أوقات مختلفة طبيبة وساحرة وواعظة على شتى الصعد، لذا فقد كانت تعرف عما تتكلم. يعتريها **غضب** شديد، وما رأت

عيني كائناً بشرياً أشد جنوناً منها طوال سني عمري. ترى الناس يهزمون في ساحة معركتهم ضد الجهل وكان باستطاعتها رؤية انقلاب تلك المعركة، أياً تكن، فقد شهدتها كلها في الماضي.

لذلك لست أدري بحق سبب اعتقادها أن الزواج هو الحل بالنسبة لكلينا. إلا أنني جاريتها وكلي أمل أن نحظى بالأفضل. ها هي المرأة التي أحببتها، التي أحبتني وجعلتني أرسم - كانت تعتقد أن لا ضير في تمضية الصباح في مزج كمية كبيرة من طلاء المنزل كي أستهلكه أنا في ساعة، وكانت تواظب على كنس الورق المقوى والقطع الخشبية، لأنني كنت أرسم على كل شيء وأي شيء، وحفزتني على هذا، ويمكنك القول، *أجبرتني* عليه، وكنت عاجزاً عن جعلها تستسلم. من جهتها، أعتقد أنها كانت تريد أن تجعل العلاقة بيننا أكثر وضوحاً للآخرين - لم نكن بحاجة لتوضيحها أكثر مع أنفسنا - وأنت تعرف كيف هو الأمر: إن السعي لنقل علاقة خاصة إلى العلن كالسعي إلى تحويل الماء إلى نبيذ لمجرد رغبتك في أن يغدو الماء نبيذاً، وبكل الأحوال فأنت لست المسيح.

ما الذي كنا نعرفه؟ استلقينا في السرير تلك الليلة بعد الزفاف. كنت مرهقاً إرهاقاً قاتلاً وكان موعد سفري صبيحة اليوم التالي. ليزي أيضاً كانت متعبة جداً، إذ ظلت تصطاد الأسماك على القارب منذ الصباح الباكر؛ أردنا أن نأكل السمك المقلي في زفافنا. بطريقة ما فكرنا بوجوب أن يطعمه كل منا للآخر، كما يفعلون. لم يتعد الأمر دقيقة أو دقيقتين رائعتين من المداعبة، أو هذا ما كنت أظنه. ذرفنا الدموع وتبادلنا ملايين القبل، وهمسنا لبعضنا بكل عيوبنا وآمالنا وأسرارنا الصغيرة، وغططنا في النوم، مضجعين كطفلين، كل منا بين ذراعي الآخر - أتوقع أن ليزي ما زالَت تمص إبهامها. غادرتُ في الصباح التالي.

حسنا، لم أنجح في رؤية فائدة للحرب، ولا حتى في الخلوص إلى فتى متماسك ولائق، وسرعان ما أعادوني إلى الديار. افتتحت ليزي ووالدتها حانوتاً صغيراً في الجزيرة في قسم من شرفة منزلهم الأمامية.

تبيعان فيه منتجات حديقتهما وأغراضاً مثل الكيروسين، والكبريت، والصبغة، وخميرة الكعك - تأتي بها والدتها في قاربها من البر الرئيس. كانتا أيضاً تبيعان السمك الطازج. أتذكر هذا لأن كل شيء، حين انتقلت إلى غرفة ليزي الصغيرة في مؤخرة المنزل، كان عابقاً برائحة السمك.

حملت ليزي، ووحِمت على الليمون والملح. تراها على الدوام ونصف ليمونة رشت بالملح لا تفارق فمها. كانت معافاة وقوية البنية - تصطاد السمك في قارب والدتها - وسرعان ما أصبحت أنا أيضاً برفقتها قوياً ومعافى، فقد صرت أمارس صيد السمك والسلطعون، وأبليت بلاء حسناً. عدت إلى الرسم تحت إلحاح ليزي المتواصل، رسمت ونور الشمس في عيني يشفيهما، ورطوبة الخليج لا تفارقني. قمت ببيع اللوحات القليلة التي أنجزتها، التي علقتها ليزي في الحانوت، وكان سكان الجزيرة بين الفينة والأخرى يشغفون بلوحة ما فنبيعها لهم بالتقسيط، وكذا سكان البر الرئيس من البيض، اشتروها أيضاً أثناء توقفهم لتناول المشروبات الباردة. بعتها مقابل دولار وأقل من دولار أحياناً؛ مبلغ بالكاد يغطي تكلفة اللوحة. لكني صمدت تغمرني السعادة لعلمي أن ثمة من هو إلى جانبي وأن ليزي قد راقها ما أفعله.

كنا في حينها قد اكتسبنا المزيد من المعرفة، وغدت علاقة الحب بيننا متينة، لهذا تركنا أنفسنا على سجيتها. كان حملها في بدايته فلا داعي للقلق، لا بأس، وكنا نتنايك في جميع الأوقات. اعذرني على هذا التعبير. أظن أن ليزي كانت سعيدة آنذاك. أعرف بأنني كنت كذلك. اعتدت النظر إليها بحب حين كانت تجري حولي، كورقة تغادر شجرتها وسط الريح، دائمة الحركة، بسرعة وخفة. امرأة ذكية. بعد ذلك بفترة قصيرة انتقلت بنا من منزل والدتها إلى مكان يخصنا، وفي منزلنا الخاص بلغ شغفنا المتبادل قمته، ثم تراجعت هذه القمة بشكل منطقي لتغدو هضبة. ذاك الصنف من الحب، مقترنا بالـ - ماذا تسمونه أنتم جميعاً هذه الأيام؟ - الجنس، والذي لا مثيل له فيما تراه على التلفزيون أو

في معارض التصوير. لا يبدو حتى أنه كان أمراً عظيماً في حينها. علاقة *جميلة* بحق ليس إلا، طيب المذاق، أتعلم هذا؟ أمر شديد الشبه بالطعام أو النوم. كنا نمارس النيك وننام ونأكل ونصطاد الأسماك، وكنت أرسم أثناء قيامها بأعمالها، ويسطع نور الشمس أو يهطل المطر، وقد يكون الصيد وفيراً أو تذهب الأسماك جميعها في زيارة لجزء آخر من الخليج. ما كانت الملابس مخيطة بل يلبس الثوب قطعة واحدة. لهذا فإن مداعبة قطعة صغيرة من الخبز لحليماتي الذوقية كانت تجعلني أفكر في نيك ليزي. أو نيكها لي؛ يشهد الله أنها استطاعت هذا. ارتشاف الماء البارد على متن القارب تحت أشعة الشمس يدفعنا للركوع على ركبتينا. كانت ليزي دائمة الضحك، من حماقاتها الخرقاء، من ثدييها الكبيرين اللذين كنت مغرماً جداً برضاعتهما، من طيزها الناعمة، من بطنها الذي يلوح فوق رأسي مثل بطيخة عندما أمارس الحب مع هنوها الصغير، فلنقل هكذا. أو بالطريقة التي كنا نعبر فيها آنذاك عنه، حين كنت أجعلها تتلوى بلساني. كنت أحب أن أباشرها هكذا على متن القارب. إذا ما كان الخليج هادئاً، وأحياناً يكون رائقاً كالبلور، كنا ننسى الصيد، تنتصب واقفة بجسدها الضخم العاري، توازن نفسها على القارب. وتباعد ساقيها بالقدر الكافي تماماً. أوه.

عندما كنا نمارس الحب لم نكن نفكر بأي شيء أو أحد. على كلٍّ أنا لم أفعل هذا بتاتاً، تماماً كما حين أشرب كأس الماء فلم تكن الكأس التالية ترد إلى تفكيري محاولاً الادعاء أنني أيضاً أشربها. هذا الأسلوب في منح الحب لشريكتك يبدو بعيد المنال تماماً بالنسبة لنصف البشر الذين يمارسون الحب في العالم أيامنا هذه. وأظن أنها حالة مشينة.

لقد انتهى كل ذلك على كل حال، يا سويلو. ذلك الجزء من الحياة. انتهى بمولد ابنتنا لولو. ولم يكن خطأها. ولعله لم يكن خطأً أي كان. أحاول إقناع نفسي أن لا مناص من أنها ستنتهي، حين كان كل شيء كالمياه الباردة الصافية لعطشي، كالخبز اللذيذ لجوعي. كنا معرضين

فعلياً أن نفقد بعضنا وأن نفقد أنفسنا، لأنني حين كنت برفقة ليزي لم أكن لأكترث إن غابت عن الأنظار.

أتذكر مجيء أحد المصورين ذات مرة، أول مصور أراه قط في الجزيرة، قاصداً شراء كرسي من والدي، ولدى رؤيته لليزي، طلب التقاط صورة لها واقفة بجانب الكرسي. أذهلتنا فكرة التقاط الصورة، التي كنا قد سمعنا بها، ولم نكن رأينا مصوراً حقيقياً من قبل أبداً، وكان رجلاً ملوناً! وقفنا على رؤوس أصابعنا حول الحامل ثلاثي القوائم وطرقنا مرتين على الصندوق الأسود الكبير الذي قال الرجل عنه إنه يصنع الصورة، إلا أن شعورنا العميق كان ماثلاً برغبتنا بألا يقلق راحتنا أي كان؛ صحيح أن علم التقاط الصور الحديث عمل رائع ومدهش تماماً، لكن كانت لدينا أمور أهم منه نقوم بها، مثل الاستلقاء. إنني على يقين مطلق من أننا كنا مسربلين برائحة النيك. تلك الرائحة التي تنبعث من بعض الأزواج، أو الرائحة التي تفوح منهما على الدوام. تم تغطيتها في زماننا الحاضر ومحوها بالعطور، لكنها دائماً ما تفوح بقوة من ليزي، وكم كنت أحبها، لكن ليس عندما يلحظها بقية الرجال ويشرعون بالتشمم حولها. مثل ملتقط الصور ذاك. أمتزوجة؟ سألها. كنت حاضراً، وبابا وماما أيضاً، كانت علائم حمل ليزي بادية بشدة عليها لدرجة أنها بالكاد كانت قادرة على رؤية قدميها آنذاك. أمتزوجة؟ سألها ذلك الكلب.

ولدت لولو في ليلة هادئة مفعمة بذلك السكون الذي جعلنا نعتقد أن العالم بأسره يحبس أنفاسه. ترقبنا أنا وليزي يوم الولادة. أعددنا مهداً صغيراً جوار سريرنا وكل ما يلزمها. لم يكن أي منا يتوقع الكارثة المقبلة التي ستقصف عمر حبنا، وبين الآلام الأولى للولادة ومخلفات ما بعد الولادة سوف أغدو رجلاً مختلفاً. وحتى لو كنا على علم مسبق، فما الذي كان في يدنا؟ طرحت هذا السؤال على نفسي ملايين المرات. طحننا القدر بين أسنانه.

لم تكن الحوامل في تلك الأيام من أمثال ليزي يذهبن إلى الطبيب

لمجرد أنهن حوامل. عندها سيكون الأمر كأن تذهب إلى المشفى لأن ثدييك بدأا بالظهور. إنه أمر طبيعي يحدث للنساء، والمرأة الجيدة، بمعنى العاقلة، لديها على الدوام جدة تلجأ إليها لمساعدتها على العناية بنفسها. في الواقع كان لدى ليزي اثنتان. والدتها، أيولا - أيولا ماي - وأحب امرأة إلى قلب ليزي في العالم دورسي - دورسي هوغشيد - جدتها. دورسي شيطانة. الساحرة العجوز الأشد مشاكسة وإثارة للنزاعات أبداً على مر التاريخ. مع ذلك فهي بارعة جداً في توليد الأطفال. كان معشرها يزعمون دائماً أن ليزي تسير على خطاها وهذا هو السبب في حقارتها الشديدة. لم يؤمنوا أبداً بذاكرة ليزي ولا صدقوها، كما ترى، أنا نفسي لم أفهم مطلقاً كيف أمكنهم ألا يؤمنوا بها. كانت ليزي تتذكر وتنطق بأمور لم يسمع بها أحد قط، أمور لم يكن أحد بقادر على إخبارها إياها. أمور لم تقرأ عنها البتة إذ لم تكن مكتوبة في الكتب التي كانت بحوزتها. لم يعد من تفسير سوى الأحلام، ولذا فقد قال قومها إنها حلمت بدلاً من قولهم تذكرت، أما الأشياء التي لم تحلم بها فقد حفظتها من جدتها دورسي.

هكذا ظلت الجدة دورسي ترعى ليزي طيلة الوقت. وكانت تتذكر الكثير أيضاً، وهذا التذكر منحها الكثير من القوة، تماماً كما منح القوة لليزي، غير أنها لم تكن تمتلك نمط إيمان ليزي بنفسها، لم تكن لتقنع نفسها بالإيمان بقدرتها على تفسير أحلامها وأحلام الآخرين. ما فعلته حقيقة هو صياغة الماضي وفق قالب معين حتى يغدو مفهوماً في الحاضر. أظن أن هذه الهبة ربما تسببت لها بالذعر وبالهلع. كثير جداً مَن البشر هم على هذه الشاكلة. عجوز تبدو قادرة على تذكر رؤيتها لعبور السفن الحربية الجزيرة وهي في طريقها لإطلاق أولى القذائف على حصن سومتر[1] في مستهل الحرب الأهلية، الأمر الذي قالت إنها

1- Fort Sumter: على اسم الجنرال توماس سومتر - المترجم.

تذكرته. كان فيها الكثير من سوجورنير تروث[1] - تعرف تلك الصورة التي تراها من حين لآخر وتظهر فيها بقلنسوتها وفستانها الطويل وشالها وغليونها الأبيض المصنوع من الطين. كانت الجدة تدخن الغليون وأحياناً، كما قال البعض، وتنفث دخانها على المواليد لتجعلهم يعطسون فتسري بهم الحياة. أعرف أنها أكدّت باستمرار، أقصد كما روي عنها، أنها لم تصفع يوماً أياً من المواليد الذين تأتي بهم إلى الحياة، وأنت تعلم أن صفع المولود كان وما زال أمراً ينفذ بشكل تلقائي تماماً. آمنت الجدة دورسي بأنه سلوك في منتهى الهمجية.

عاشت في الطرف المقابل من الجزيرة، وكانت تركب بغلاً أحياناً عند قدومها لرؤية ليزي، وفي أحيان أخرى تذهب والدة ليزي وتحضرها على متن القارب. كان وجود أيولا أثناء حمل ليزي، أمراً ممتازاً أيضاً، إذ غدت *مخبولة* بالطعام، تراها باستمرار تقوم بتدقيق مضاعف لكل ما يدخل فم ليزي. عندما كانت هي نفسها حاملاً، عاشت إيولا على دهن الخنزير والعصائر والحوّار الأبيض الذي كانت الحوامل يستخرجنه من حفرة في التلال، لكنها لم تكن لتسمح لليزي أن تتناول منه أكثر من ملء الكشتبان من حين لآخر وبحسب قولها فإن وحامها مؤشر على حاجة جسد ليزي لتناول الشمندر، الذي جعلته على مائدتها باستمرار، وأن الإفراط في تناوله، أي الحوار المليء بالحديد الذي يمتصه الجسد عموماً، يسبب احتباساً في الأحشاء ويضعف الأوعية الدموية في الطرفين السفليين. إذن بدت هاتان المرأتان وكأنهما رهن إشارتها طوال الوقت حتى قبيل نهاية فترة الحمل.

عندئذ، وقبل أسبوع تقريباً من موعد الولادة حسب توقعاتهما، أخرجتا القارب وذهبتا لصيد الأسماك. أظن أنه ولا بد كان موسم سمك النعاب؛ السمكة المفضلة لدى دورسي العجوز. بعد مغادرتهما مباشرة،

1- Sojourner Truth: ولدت في عهد العبودية وهي مدافعة عن حقوق المرأة السوداء - المترجم

داهمت ليزي أولى آلام المخاض، فهرعتُ إلى الشاطئ ولوحت بيدي محاولاً إعادتهما إلى الشط. ظنتا أنني ألوح لهما مودعاً، وردتا لي ملوحتان بالوداع، راحتا تجذفان ماضيتين في الأفق. لم ينتبني القلق فقد كنت أعلم أنهما ستعودان في غضون ساعتين كحد أقصى؛ وليزي أيضاً لم تقلق. لكن احزر ما حدث؟

هناك بعيداً على متن القارب، دخلت أيولا ماي ووالدتها في جدال حول أي جهة من القارب سوف تصطادان السمك منها، كانت الأم وابنتها على وشك الانفجار تقريباً عندما احتدم النقاش أكثر فأكثر وأعاد إلى الأذهان الخصومات السابقة الكثيرة بينهما. كان طبع دورسي مرعباً؛ طبع يفتقر إلى التبصر. راحت تؤرجح المجداف في وجه إيولا عند لحظة معينة، فانتزعته الأخيرة منها ورمته في مياه الخليج. فما كان من دورسي إلا أن التقطت المجداف الآخر وطوحت به بعيداً أيضاً. هل أعجبكِ هذا الآن؟ إنني سعيد فقط لأني وليزي لم نكن نعرف أي شيء عما كان يحدث حينها. على هذا الوضع، بلا أسماك وفي طقس لا ريح فيه، مسعورتان كائنين من صانعات القبعات، كل منهما تستشيط غضباً على الأخرى وأذرعهما مطوية وشفاههما ممطوطة، على ظهر قارب لا يتحرك نحو الأمام ولا الوراء ولا حتى على أي الجوانب، وسوف لن يتحرك طوال بقية النهار.

في المنزل أخذ القلق يساور ليزي. ليس على نفسها بقدر ما هو قلق على والدتها وجدتها. بعد حوالي ثلاث ساعات قالت ليزي إنها طرحت سدادة الرحم وبدأت السوائل بالتدفق. استوعبت مباشرة بأنه إذا لم تصل المرأتان سريعاً، سيكون عليّ توليد طفلي. يمكنك الضحك إن شئت، لَكن مع أني رأيت بوضوح لا لبس فيه أن ليزي تضخمت بسبب الطفل وبدأت التعرق حتى جراء الألم والجنين يتحرك في بطنها، طالما أن الأمر كان منوطاً بي فلم يكن يبدو أن ثمة وسيلة أخرى يمكنها من خلالها إنجاب الطفل؛ كان هذا أمراً مستبعداً. لست أدري ما فكرتُ فيه آنذاك.

إذا ما كنت صبياً فلن يخبرك أحد أي شيء إطلاقاً عن الولادة. يكتمون عنك هذا وحسب. وعندما تلد إحداهن في الجزيرة، يرسل الزوج خارج المنزل. عادة ما يتسكع حول الموقد القديم في متجرنا. بعد قليل سيأتي إليه أحد أبنائه الأكبر ويستدعيه عائداً إلى المنزل بنظرته الخائفة البلهاء. أظن أنني في مكان ما في أعماقي ما زلت أؤمن أن الجنيات هن من يجلبن الأطفال - كم ابتهلت أن يفعلن - لهذا بدأت أتساءل عما علي القيام به إن كانت مجرد إشاعة والجنيات فعلياً لا تفعلن هذا. أخذت بالتفكير بالأمر، ولم يكن لدي حتى أدنى فكرة كيف عساهن تكن هذه الجنيات.

كانت ليزي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً، سرعان ما اشتدت آلامها وأمست مرغمة على الاستلقاء. بعد ذلك، بدأ يتقطر منها ما يشبه السائل المخاطي. أعنتها على الاستلقاء فوق الوسادة المطاطية المغطاة بالجوخ، ورفعت يدها ثم قبلتها آلاف المرات كلما أطلقت أناتها، التي كانت تزلزل قلبي تماماً بحق. قالت لي: سوف تضطر لتوليد الطفل يا هول. هي فتاة - كانت تعرف هذا فالجنين كان نحو الأسفل دائماً - وأريدك أن تعرف أنني أريد تسميتها لولو.

لولو هو الاسم الذي كانت ليزي تدعى به حين عاشت ضمن الحريم في شمال إفريقيا، قبل أن تتحول أية بقعة من تلك المنطقة إلى صحراء. لم يكن يسمّى باسم حرملك[1] في ذلك الوقت، بل اسم آخر لا تسعفني الذاكرة به. ويبن، على ما أظن، وهي الجدة الأكبر لجميع الحريم التي نقرأ أو نسمع عنها في أيامنا هذه. قالت بأن اسم لولو يذكرها بالهضاب والحقول الخضراء حيث كانوا عادة ما ينصبون خيامهم المصنوعة من جلد الحيوانات، وبمدى سعادتها في الحريم، إذ كان سيد الحريم رجلاً عجوزاً وسقيماً ولديه المئات من النساء مجرد النظر إليهن يتعبه، فما بالك بتقديم أي شيء لهن، وكان لليزي (لولو) معشوقان. إحداهما امرأة أخرى من الحرملك، تدعى فادبا، والآخر خصيٌّ يدعى هابيسو،

1- harem

الذي كان عمله يتمثل في منع النساء من الهرب. كن يجلسن منتشرات ويضعن طوال الجلسة خطة للهروب سوية، أما هابيسو فكان يتهيب مفارقة الأمان الذي تشيعه الحريم، ويستطيب الحلوى التي تتقاسمها النساء معه ويحب الملابس الملونة التي يرتديها. كان ينحدر من أسرة فقيرة ويعتقد أنه ليس بأمر سيئ تنازله عن جوزتيه مقابل المسكن والطعام المريحين. لا أعلم الآن إن كان هذا صحيحاً بالفعل أم أن ليزي تفتري على هابيسو المسكين. كانت تضحك باستمرار، وقد هالني ما أسمعه منها، وهي تخبرني عن حياتها عندما كانت لولو. تراها تتكلم عن فادبا وترمقني بنظرتها فترى أنني لم أفهم شيئاً، ولا تجيبني سوى بالضحك ثم الضحك. كانت راقصة عظيمة حينها - تقول إنها احترفت الرقص جراء الملل - وتعلّم الرقص للنساء الصغيرات المخطوفات أو المباعات قبل أن يؤتى بهن إلى الحرملك. أمضت ساعات متواصلة في تعليم الرقص. وعلمت جميع الخصيان ممارسة الحب مع إحداهن باليدين واللسان فقط، هذه المرأة التي، بحسب كلامها، أغرمت بها لاحقاً. بالطبع لم يكن البعض منهن ليكترث حيال ذلك النمط من الممارسة الجنسية مع النساء بأي حال من الأحوال. ثمة من لم تكن تفعل شيئاً سوى الجلوس والتحدث عن الملابس والطعام وتناوله طيلة الوقت. في عيد ميلادها يعددن لها الكعك المحشو بالحشوة المفضلة عندها: حبات التمر. عاشت هي وفادبا، مع النساء والخصيان الآخرين، منعزلين تماماً عن بقية المجتمع آنذاك، وسائر العالم. مع مرور الزمن أصبحن متدينات تقيات.

بلغن في آخر المطاف حالة تمكنهن من القيام بالمعجزات. المعجزات، التي تقول ليزي أنها تعلمتها حين كانت لولو، هي النتيجة المباشرة للتركيز. أعظم المعجزات التي حققنها كانت نيلهن للحرية من الحرملك في شيخوختهن المتأخرة حين بلغن عمراً بين السادسة والتسعين والمائة وثلاثة، الحرية التي منحتهم إياها حفيدة سيدهم العجوز الكبيرة. ظللن يبتهلن ثمانين عاماً ويصببنّ جل تركيزهن على

هذا الأمر. في زمن سابق أرسلت تلك المرأة للدراسة في الخارج، حيث نجحت كما ينجح الرجال، ولدى عودتها إلى الديار، راعتها رؤية أولئك النسوة العجائز محتجزات خلف أسوار قصر جدها. كان قد توفي حينها واصطحب معه بعضاً من حريمه الأكثر شباباً وجمالاً. بمنتهى البساطة قذف أولاده الصبيان المكفهرين بالنساء إلى ألسنة النار فوق جثة والدهم التي كانت تفرقع وتنز، الواحدة تلو الأخرى، وبمنتهى البرودة. بالطبع، كن يصرخن ويخمشن بأظافرهن ويتشبثن بكواحل أولاده الصبيان، إلا أن هذا كان أثناء فترات الاستراحة، على رأي المثل.

كان لا يزال أمام لولو وفادبا بعض السنوات الجيدة، رغم تجاعيد وجهيهما الشبيهة بتجاعيد حبات الزبيب. فتحتا حانوتاً عملتا فيه بقراءة الطالع وعاشتا بحرية، إن لم نقل ببال مرتاح، إلى أن فارقتا الحياة. سعيدتان تماماً بمزاولة هذا العمل، لأنهما لاحظتا، بعد خروجهما من الحرملك، امتلاء عالم الرجال الدائم بالحروب. ما كان بوسعهما منع جلجلة واضطرام المعارك التي لم تنقطع يوماً. ظل الحنين يرافقهما لسكينة وسلام الحريم، وساعات الطهي وتناول الطعام والرقص أو متابعة النساء الصغيرات وهن يرقصن. وعندما كان يأتي الرجال إليهن لقراءة الطالع، كانتا تتثاءبان. لا تريان سوى الحرب في مستقبل جميع الرجال، مستقبل من القتال المتواصل. بدا هذا واضحاً وضوح الشمس. راحات أيديهم تشع احمراراً. لسوف تقول لولو وفادبا، عوضاً عن ذلك، أنهما تريان مئة امرأة جميلة محتجزة في غرفة مقفلة لا يملك مفتاحها سوى هذا الرجل الواقف أمامهما دون سواه، نصف مساء على الأقل من الأمان الذي يرغب به أي رجل. كان هذا يبعث السرور في الرجال. تصل سعادتهم إلى منتهاها إذا ما أضافتا بالقول إنهما تريان أيضاً مخازن من التمر والتين والفضة والذهب. عادة ما كانتا تذكران الجمال والماعز وزوجات الآخرين بشكل عرضي، فيغدو هؤلاء الرجال في مصافي أشهر المشاهير.

أحببت اسم لولو. كأنه نغم أكثر منه اسماً، وماذا في ذلك؟ عندما ولدت ابنتنا لولو، لاحظت أنها سوف تجعل أياً كان يستحضر في ذهنه اللون الأخضر. ذهب وعسل وكهرمان بكاملها، طفلة تجعلك تفكر بأزهار الثالوث. كانت موسماً ربيعياً بكل ما فيها.

وقعت المهمة الأصعب الآن على عاتقي. كان الجو شديد الحرارة. ليزي تتعرق دلاءً من العرق. قمت بغلي كمية كبيرة من الماء على الموقد. هذا على الأقل أقصى ما كنت أعرفه من تجهيز لا بد من القيام به. بدأت ليزي بعدها بالعويل فعلاً. أمر مرعب. بحياء، يرافقه خوف متصاعد، أرغمت نفسي على إلقاء نظرة أسفل ما بين ساقيها. لعلي توقعت رؤية قمة رأس الوليد، طالما أنه أمر يتوقع حدوثه على هذا النحو. صرخت ليزي وبكت كثيراً. لكنني لم أر الرأس. بدا ما رأيته كالوجنة، سواء وجنة وجه صغير، أم وجنة مؤخرة صغيرة. نظرت ثانية. أخذ بطن ليزي يتماوج، كما لو أن الطفل التف في داخلها. ظهر الآن ما يبدو كالكتف. واصلت النظر مجدداً. شاهدت ما يشبه الركبة. أو خاصرة؟

أحسست أنني مثل بريسي في *ذهب مع الريح*.

كان جسد ليزي مشدوداً على أقصى اتساعه ولم أفهم لمَ لمْ يتمزق. ورأيت خلال مراقبتي لجسدها أنها على وشك البدء بالتمزق فعلاً. تحول عويلها إلى صراخ هذه الأثناء. صراخ يفوق طاقة تحملي. كانت غريزتي تحثني أن أخطو خارجاً من الباب وأخلو إلى نفسي بعيداً عنها وحسب. لم أكن أطيق فكرة أنني أنا من تسبب لها بهذا الألم. ما عادت هي ليزي أبداً، أتفهمني؟ لم تكن شبيهة حتى بحيوان. فقدت صوابها وسيطرتها على نفسها. بلغ بها الألم درجة لم تعد قادرة حتى على القول لي بما علي فَعله. من الجلي أن الطفل كان عالقاً، ويحاول الخروج بشكل منحرف. فتحت ليزي إحدى أكثر الستائر الرمادية سخرية التي رأيتها قط.

رحت أجري من حين لآخر إلى الشرفة ناظراً صوب الخليج بحثاً عن إيولا والعجوز الحمقاء دورسي، بيد أنهما لم تكونا على مد بصري. عدا

أن الليل قد حل سريعاً. رفعت ناظري نحو التلال بحثاً عن زبائن يجيئون إلى المتجر. ما من إنس. لا أحد سواي، وليزي، ولولو الصغيرة.

صليت ابتهالاً لأمنح القوة وصليت من أجل زوجتي وطفلتي. بعدها غسلت يداي بشكل جيد تماماً ودهنتهما بالفازلين ثم دهنت جسد ليزي بالفازلين ودهنت ما استطعت وضع أصابعي عليه من الوليدة. ضحكت ليزي من هذا مرة واحدة؛ قلت لنفسي الفازلين هو إحدى المواد العظيمة التي كانت ووالدتها تستعملانها يومياً: تدهن والدتها وجهها به، وكانت تدعي أنه هو ما أبقى على نضارة بشرتها، ثم دهنت ظهر ليزي به. على أية حال، بدأت أدفع الطفلة من هذه الناحية وتلك بشكل لطيف، نوع من تدوير بطيء لها. ورحت أخاطبها طالباً منها الخروج نحوي، وأن كل شيء معدٌّ لها وأننا نعرف بأننا سببنا لها التوتر غير أننا لم نكن نقصد لها أي مكروه. لست أدري ما تفوهت به؛ قتلني الوجع الذي ألمَّ بليزي، مقت نفسي وكل النوع البشري. أقصد أنني بدأت أقطع بعضاً من الوعود الجدية لله. بعد قليل استطعت أن أتبين ذراع الطفلة، بالفعل أعلى كتفها. ثم أمسكت بذراعها بطريقة ما، ولم يكن حجمها يتعدى الإبهام، وعملت على إخراجها، قائلاً للولو طوال الوقت بأنها ستكون على أحسن ما يرام بعد خروجها، تمكنت من سحب الذراع في النهاية إلى الخارج. أوه، يا إلهي ماذا بعد، فكرت. فقدت ليزي الوعي. واستعادته بعد حين، فكانت منهارة تماماً، واستطعت أن أرى في عينيها معاناتها مئات المرات أثناء الولادة، وأقسمت أن هذا لن يحدث مجدداً، وماتت رغبتي فيها، في الجنس معها أو مع أية امرأة، وأصبحت أنا نفسي مخصياً. عرفت لحظتها أنني غدوت عاجزاً تماماً عن ممارسة الحب مجدداً مع أية امرأة.

قالت ليزي بعدها بشيء من التهكم، أظن أنه كان يفترض بأحدهم أن يطلب مني أن أدفع. لكنها لم تفعل، طوال الوقت، لأننا كنا قد نسينا – وتبين لاحقاً، بحسب والدتها ودورسي، أن الدفع وحده ليس هو الشيء الصحيح لإتمام الولادة. لقد كنت بالتأكيد قد نسيت كل شيء عن الدفع،

هذا إن كنت قد سمعت به يوماً، وأمسكت بلولو بإحدى يدي - كان الأمر شبيهاً بمصافحة أرنب صغير لزج - ووضعت الأخرى على ليزي بحيث سحبت لولو من إبطها وفكها نحو الأسفل وقلت، جيد استمري بالمزيد من الدفع. أخذت تدفع كما لو كانت تصل رعشتها الجنسية وفعلياً كانت تبدو مستمتعة بهذا بالطريقة نفسها تقريباً. أصابني هذا بالذهول بحق الجحيم. ومن ثم ولدت لولو، تنشم وتعطس حتى من دون أن يصفعها أحد أو ينفث الدخان في وجهها، وللحظة انتابني اضطراب حقيقي وخرجت. وضعت لولو على بطن ليزي، ومسحت ليزي جسدها بقطعة قماش، رحت أبحث عن سكين لأقطع حبل السرة، وفي الوقت الذي عثرت فيه على إحداها - كانت في الماء المغلي على الموقد وساخنة إلى درجة يتعذر معها لمسها مباشرة - عضت ليزي الحبل بأسنانها.

يا إلهي، إنه كالمطاط، قالت، وقد تغيرت تقاسيم وجهها ثم بصقت في قطعة القماش. نظرت إلى ليزي وهي تجلس الآن والطفلة العارية بجانب جسدها العاري، وفكرت في دخيلتي كم هي امرأة بدائية.

عندما خرجت المشيمة - كتلة من حشوة دموية شبيهة بالكبد فاقمت من اضطراب ذهني أكثر من قبل - لفتها بجريدة وسلمتني إياها كي أدفنها في زاوية المنزل لجلب الحظ، كي يمتلئ منزلنا بالأطفال. لم أفعل، وعندما غبت عن نظرها، رميتها في النار. لم تحترق. لا بل خمدت النار.

* * *

أنجبت ليزي أربعة أولاد آخرين، قال السيد هول، وهو ساهمٌ في بقايا فنجان قهوته، وقد بردت منذ وقت طويل، إلا أن ثلاثة منهم فارقوا الَحياة وهم رضع. لقد ولّدتهم أنا جميعاً، مع أن أياً منهم لم يكن من صلبي. أحدهم كان صبياً صغيراً، ابن ذلك المصور الذي أخبرتك عنه، وطفل ثان من عاشق آخر، أما الآخران فهما أولاد عمك الكبير رافي. كانوا يبدؤون حياتهم بصحة جيدة تماماً، إلا أن صبياً واحداً فقط من

عمك رافي نجا وكبر - عمك كورنيليوس، الذي قتل أثناء خدمته في القوات البحرية. تمتعت لولو على الدوام بصحة جيدة كما كانت منذ لحظة ولادتها، ولم ترغب مطلقاً أن يساعدها أحد سواي في إنجاب أطفالها، تماماً كما أنها لم ترد لأي كان أن يكون والداً لأطفالها سواي. كنت أرغب بالبقاء معها أيضاً، وبلغ بي الأمر أنني أحببت إعانتها على الولادة، كما أنني أحببت الأطفال أنفسهم. لقد توصلنا إلى ما يمكنك أن تسميه تفاهماً. مر كلانا بأنهار متدفقة من الألم قبل أن نصل إليه.

بعد شهر من ولادة لولو، أمسكت ليزي بي وسألتني، ما الأمر؟ ألم تعد تحبني؟ (أظن أنك لاحظت أنني وليزي نتحدث بأسلوب قديم أو جديد حسب تقلبات مزاجنا)، أحسست أنني أحببتها أكثر من أي وقت مضى. أحببتها لدرجة تفوق قدرتي على المجازفة بتعريضها لذلك الصنف من الألم ثانية. آوه، حتى النكاح يوجع المرأة أحياناً، قالت لي حين أفضيت لها بمشاعري، لكنها تتجاوزه حالاً إذا ما حدث بطريقة ممتعة فعلاً، ماذا؟ سألتها. لم يكن ليخطر على بالي مطلقاً ولا بمليون سنة أنه يؤلمها؛ مع أنني، يجدر بي القول، كنت أتساءل أحياناً لماذا لا يوجع النساء عموماً. بعضهن ذوات أجساد ضئيلة جداً، ورجالهن شديدو الضخامة. قالت، انظر، لقد أنجبنا لولو، أنجبنا هذه الطفلة الرائعة التي تبدو تماماً مثل فادبا. وأنا أحمد الله على كل ألم! راحت تمرغ جسدها على أنحاء جسدي، وتضع يديها على المواضع التي اعتادت توجيهها. غير أن جسدي لم يستجب وقتها. حسناً، كانت تعرف أمراً أو اثنين عن الخصيان والأمور التي يمكنهم تأديتها، وتدرك بالخبرة أن استمرار حبي لها رهن باستمرار رغبتي بها - المشكلة أنني فقدت الرغبة. كأن كل ما يحدث بين المرأة والرجل لا مغزى له على الإطلاق سوى حالة خلق جديدة وهذا ما أخافني وجعلني عنيناً. فقدت رغبتي حتى برؤيتها عارية. لم أرغب في رؤية نفسي. جللني العار. لقد فاق تصوري كيف يمكن لباقي الرجال مواصلة ضرب زوجاتهم في ظل المزيد والمزيد

من الولادات. لكنه كان مفهوماً بالنسبة لليزي. ازدادت رغبتها بالنيك، وإنجاب الأطفال أيضاً، وكلما أمعنت بالرفض، كلما اشتدت حماوتها وجنونها.

في النهاية، فرت ذات يوم برفقة مصور من تشارلستون وتركتني مع لولو. عادت قبيل ولادة طفلهما جاك مباشرة. لم أتفوه بأي كلمة. عرف الجميع أنه ليس من صلبي. لم أستدعِ إيولا ولا العجوز الجهنمية دورسي. غليت الماء ووضعت الفازلين. جاءت ولادة جاك سريعة، انزلق وخرج من جسد ليزي بشكل يسير كانزلاق أي شيء. كنت حينها قد تعلمت بعضاً من الأمور من دورسي فطلبت من ليزي أن تقرفص وتمسك بحواجز مهد لولو، ومن ورائها أمسكت بالطفل وهو يخرج من جسدها. مع ذلك فقد كانت ليزي مريضة، وواهنة من استعبادها في منزل إحدى النساء البيض، تعاني من نقص تغذية، وحاملاً من رجل تراودها الرغبة في قتله. تبين أنه متزوج، كما يمكنك أن تستنتج. ولديه العديد من الأولاد قبلها، هذا الكلب. لكن ليزي سئمت مني وأحست برغبة مشبوبة تجاهه. محاولتها الانتقام مني على موت رغبتي فيها جعلها أكثر مرضاً من ذي قبل.

عادت إلى سريرنا برفقة جاك. لأن لولو الكبيرة لم تتنازل عن مهدها. واستعدنا حياتنا بأفضل ما استطعنا - نصيد السمك، ونبيع المنتجات وأي شيء في الحانوت. أعين والدي من حين لآخر في تصنيع الأثاث. كان شخصاً متذمراً ومن الصعب مرافقته، بيد أنني أحبه وأعرف أنه يبادلني هذا الحب؛ علاقتي به في أحسن حال طالما أنني لا أرسم. لا أظن أنه كان يكترث كثيراً لأمر ليزي، ولم يكن يعنيها الأمر. كانت على الدوام تتكلم مع من لا تروقهم وتبادلهم الكره بطريقة مداهنة، لا لشيء إلا لكي تخجلهم. تراها تقدم لأحدهم خليطاً من السمك والفطائر لكي تراقبه يتلعثم بشكره لها ليس إلا. تتصرف كشيطان مع البعض. حين كان بابا يتلعثم، تراها تنظر إليه بعينين كبيرتين وبريئتين وتضحك. حاولت ليزي

المساعدة في المتجر، لكن والدي زعم أن وجود النساء يعيق العمل. لذا فقد أحجمت عن ذلك، وعوضاً عن هذا أخذت تخيط الملابس وترعى الأطفال، وتذهب لصيد الأسماك في الخليج. كانوا أطفالاً سعداء ولطفاء، لكن منزلنا كان مليئاً التعاسة. كنا نبدو وكأننا لا نفعل شيئاً سوى الجري وراء لقمة العيش؛ ورغم صدق مشاعر الحب التي نكنها لبعضنا، أدركنا أننا ضيعنا شيئاً ثميناً. أصبح من العسير جداً تحمل الأسى الذي قاسيناه. كانت أحياناً، وسط انهزامنا، تتسلل بين ذراعي، أو أنسل بين ذراعيها، ولم نكن نفعل شيئاً سوى الاستلقاء في عناق وأنظارنا متجهة إلى الخارج نحو الخليج، نتذكر ماضينا ونبكي.

كان عمك رافي صديقي المقرب. ذهب إلى الجيش ثم عاد، وعمل بعدها لدى أرمل فرنسي عجوز مالك هذا المنزل، اشتراه بعد وفاته، وكان دائم القول لي إنه يتحتم عليّ المجيء والإقامة معه. هذا قبل حصوله على عمل في الخطوط الحديدية، حيث كان يعمل في مسلخ آنذاك. عمل رهيب بالنسبة لشخص من أمثال عمك، رجل شديد الحساسية والدماثة، كما تعلم، لكن قوة وضخامة جسده مكنته من الصبر بطريقة ما على هذا العمل على مدى سنتين. لم يكن مهدداً بفقدانه للمنزل - الشيء الوحيد حتى ذلك الحين الذي أولاه اهتماماً كبيراً. هجمت مرحلة الكساد بعدها بقوة. تبخرت جميع الأموال النقدية من الجزيرة. مرت علينا أوقات عصيبة. انتشرت الأمراض المتعددة بين الأطفال نتيجة شح الغذاء الجيد. فقدنا جاك الصغير بسبب البرد ولو أنه طفل آخر أكثر صحة منه لتغلب عليه. أمضيت الليالي مع هذا الرفيق الصغير الشبيه بوالدته، وقد عز علينا أن نتركه يرحل. حسبت أن ليزي نفسها على شفا الموت إذ كانت متعلقة به تعلقاً كبيراً. غادرنا منزلنا الصغير ورحلنا عن الجزيرة بعد وفاته - أصبح البقاء مؤلماً جداً - إنما لبعض الوقت فقط، هكذا ظننا؛ واستجبنا لدعوة رافي ومضينا للإقامة عنده. أخذنا أنا وليزي ولولو الطابق العلوي، ووجدت لنفسي عملاً كبائع سمك جوال أبيع الأسماك

والسلطعون والمحار على أبواب الناس والخوخ والشمام صيفاً، في أحياء بالتيمور الثرية، حيث لم يكن الوضع يبدو قاسياً البتة. في الواقع، لا تعني الأزمنة الصعبة بالنسبة للأثرياء المستقرين في ثرائهم، كما تعلم، إلا انخفاضاً في الأسعار، ولذا تراهم يبرمون صفقات أضخم بكل شيء وينجحون أيما نجاح.

أخيراً، ليس بعد فوات الأوان، وبعد أن أعياه كثرة الموت وقال إن دم المسلخ ملتصق بأظافره، ويجب عدم مواصلة هذا العمل، عمل رافي عتالاً في عربة النوم. اشتغلت ليزي في الخياطة وخادمة في المنازل الخاصة، تدبرنا أمورنا في سبل العيش من خلال تجميع ما نحصله من مداخيل. كان هذا الحي حياً للبيض آنذاك، كما عاد الآن، عدا منزلين في شارعنا يقطنهما أناس ذوو هيئة إسبانية ربما كانوا من رجال العصابات. أحد المنزلين يقع في الطرف المقابل من الشارع، والآخر بمحاذاتنا. تحدث الرجال معنا بألطف ما أمكنهم فلم ينتبنا خوف كبير منهم، رغم عادتهم تلك في الجلوس على عتبة المنازل في قمصانهم الداخلية، وهم يفككون أسلحتهم الكبيرة، ينظفونها ثم يعيدون تركيبها. أخال أن حضورهم هو ما جعل البيض الخالصين يحجمون عن محاولة طردنا. أصيبوا بنوبة من الغضب بعد وفاة الفرنسي العجوز وأتاحت ابنة أخته لرافي فرصة شراء المنزل. كانت تقيم في فرنسا على أية حال ويروقها رافي. أحبته بحق، إن كنت تعلم ما أرمي إليه. ما الذي تعرفه أو تبالي به بخصوص جنون التعصب العرقي الأمريكي، على حد تعبيرها، بنبرة يبدو من خلالها كأنه أمر بمنتهى السخافة. علاوة أن رافي كان مستعداً أن يدفع ثمن المنزل بما يفوق ما قد يدفعه أي أبيض.

اعتقد الجيران بلا ريب أن المنزل مفرط الفخامة بالنسبة لزنوج. عملياً *أقمنا* فيه بشكل غير شرعي، ولا أظن أنه كان مسموحاً للسود السكن في ذلك القسم من المدينة في ذلك الحين. لكننا كنا من التحفظ لدرجة أنهم بالكاد كانوا يلمحوننا. لم نجلس أو نقف مطلقاً على مرجة

العشب الأمامية أو العتبة؛ اعتبرناها غير موجودة كجزء من المنزل وحسب. في طريق عودتنا كنا نسلك باستمرار زقاقاً يقع خلف المنزل. بعدها بوقت قصير بيع منزل آخر لسود بشرتهم فاتحة، تلاه منزل آخر. لم نرق لأي منهم - لون بشرتنا أغمق بالمقارنة معهم - لكننا قلنا ليذهبوا إلى الجحيم وبدأنا نشعر ببعض الاسترخاء. حافظنا على المنزل نظيفاً على الدوام وكنا نجز الأعشاب ونشذب شجيرات السياج، في السنوات الأولى كنا نعمل على ذلك ليلاً. منزل أجمل من أي مكان حلمنا يوماً بالعيش فيه.

تعاملت ليزي بود كبير مع رافي، وبادلها هذا الود هي ولولو. كنت أحسب أن العالم هو رافي، وأنا على قناعة أنه كان يبادلني هذا الإحساس. أتذكر حين قصصت عليه كل ما يخصني أنا وليزي، لم يخالجني حرج أو خشية من إساءة فهمه لي. شعر بالفضول تجاه علاقتنا، إذ كنا ننام في غرفتين منفصلتين في منزله. هي في غرفة النوم الخلفية المطلة على الفناء وأنا في الغرفة الأمامية المواجهة للشارع، مع الطفلة، أعني لولو.

تحول كل الولع الذي كنت مولعاً به تجاه والدتها إلى حب للولو، ومذ كانت رضيعة صغيرة وناعمة كان بمقدورها أن تلعب بي بإصبعها. لقد شغفت بتلك الفتاة حد الخرف. كانت ليزي أماً صالحة لكنها منعزلة، بحيث لم تكن الطفلة تشعر بحضورها. بعيدة على الدوام وتتجول في مكان ما عبر العصور. عادت تقابل ذلك الرفيق المصور مجدداً، لا لتنام معه - أصبحت تكرهه في الجنس - وإنما لتكون موديلاً للصور التي يلتقطها. لقد أذهله مدى اختلافها من صورة لأخرى؛ قال إنه لا يصدق حتى أن الصورة التي كان قد التقطها هي لليزي، وبهدف معاقبته ليس إلا، لم تكن تخبره شيئاً. إنه صنف من البشر المتمركزين على ذواتهم بحيث لن يسمعها أو يصدقها لو فعلت. تحمّست للكيفية التي تتحول فيها من صورة لأخرى، وأدركت في النهاية أن الله كشف، من خلال فن التصوير، لليزي أنها على حق حين حسبت نفسها نساء متعددات بعدد

شخصياتها في الحقيقة. انزاح عبء ثقيل عن عقلها لدى معرفتها أنها ليست بمجنونة.

تختلف الحياة اختلافاً كبيراً عندما يكون لديك صديق جيد. لقد رأيت أناساً من دون أصدقاء مميزين أو مقربين. باقي الرجال تحديداً. لسبب ما لا ينشئ الرجال عادة صداقات ولا يحتفظون بأصدقائهم. هذه مأساة حقيقية، حسبما أظن. وأنت سائرٌ في دربك، من دون صديق ذكر لصيق بك، لن تتمكن أبداً من النظر إلى نفسك بشكل فعلي. هذا لأن جزءاً من تشكيل ذواتنا هو من عمل الآخرين؛ والكثير من تشكيلنا يأتي من ذلك الصديق المقرب والذي يكون أحياناً شبيهنا بمعنى أو بآخر. كانت العلاقة بيني وبين رافي علاقة خاصة بحق. كنت الرسام البيتوتي، الزوج والأب. الرجل الهادئ، بحاجة لأن تقودني ليزي من يدي. كان مختلفاً عني حتى من الناحية الجسدية: أضخم وأطول قامة، وأشد سمرة أيضاً. بقيت معجباً به طوال حياتي. بقي عازباً! ما من امرأة تحملت البقاء إلى جانب رافي لمدة تتجاوز الأسبوعين. تراه يخرج مثيراً وقوياً على مدى بضعة مساءات – لكنه يعود على الدوام إلى المنزل ليختم الليل في سريره – وقد سألته في أحد الأيام إن كان سيخرج ومتى فيجيبني بالنفي. لا. يا صديقي. وسوف يضحك، فيغمرني السرور خفية، لأن هذا معناه أنه سيبقى في المنزل معنا. وستعد ليزي شيئاً مميزاً لذيذاً للعشاء؛ سأضمن أن النار مضرمة بشكل جيد ومتواصل. وسوف نستقر أنا وليزي، ورافي، ولولو في غرفة الجلوس بعد العشاء نلعب الورق في السهرة ونستمع إلى الموسيقا، التي كان عمك رافي دائماً يحصل على أحدث ما يصدر منها، إذ كان راقصاً رائعاً أيضاً، إلى جانب كل صفاته الأخرى.

أفكر أحياناً أنه كان يوهم نفسه أنه محبط الفؤاد بسبب أحدث عشيقاته لكي يمتع نفسه برفقتنا؛ وبعدها سوف ينفرد بنفسه في غرفته – كان يشغل حينها أكبر غرف النوم – ويقرأ الروايات الرخيصة وهو مستند على ظهره في السرير. رافي هو أول من لبس الأردية والخف، أذكر أنه

كان لديه كيمونو فاخر باللونين الأبيض والأزرق، من الحرير، قال إنه جُلب له من اليابان. رجل أنيق! يدهن شعره ويلمعه، يشذب ليس فقط شاربيه وإنما حاجبيه أيضاً، وكان يدخن سجائر كبش القرنفل. لا، لم يكن جنياً، بل مجرد رجل العلامة الفارقة! كان لديه فيكتورل[1] في غرفة نومه ويضع صوراً للعديد من صديقاته على رف الموقد، وتراه يضع فيه نمطاً من الموسيقى الكئيبة الإيحائية ويستمع إليها، يدخن ويقرأ حتى نهاية المساء. في الصباح يكون قد شفي من تلك الصديقة، وإذا ما كان يوم عطلته، يكون حاضراً للعب مع لولو.

إلى جانبي وأمها، أحبت لولو عمها رافي. مرت لحظات فكرت أن طريقة محبتها له أفضل من محبتها لنا. في كل مرة تراه فيها يكون حليقاً ومهندماً، إذ لم يكن مسموحاً لها الدخول إلى غرفتيه. كنا نحن الثلاثة حريصين على خصوصيته. وفي أحيان كثيرة لم نكن نعرف بوجوده في المنزل - لا صوت يتناهى من طابقه. وبعدها تذهب لولو تجرجر قدميها وهي تمر جيئة وذهاباً من أمام باب غرفة نومه، وعلى الفور ستقول إنها سمعت عمها رافي وهو يمضمض فمه.

كان بوسعنا الانتقال، لكننا كنا مسرورين في منزل رافي ومنحنا وجودنا معه جوّاً أسرياً. في منزل يرعاها فيه رجلان، تعافت ليزي من الضعف الذي أعقب فقدانها لرضيعها جاك. استعادت قوتها وأسلوب حياتها، وازداد وزنها قليلاً. أمكنني أن أرى أنها تتورد بالأنوثة التي تكاد تقطع أنفاسك. أنوثة *يانعة*. اتخذت عيناها عمقاً أكبر نتيجة حزنها، وبات فمها ينحرف بابتسامة مائلة ما زالت تحمل نأمة خفيفة من خلود الألم. حتى جبينها أصابني بالذل بشكل أو بآخر، وبسبب هذا ألفيت نفسي غالباً ما ألمسه، وأمسد شعرها إلى الخلف، وأملس لها حاجبيها. غير أن الأشد جاذبية في حينها كان أسلوبها في الحديث، يذكرك بالماء، حديث بمنتهى الرقة والوداعة، لكنك أيضاً قد تسمع فيه خرير الماء الهادر في

1- راديو – المترجم.

منحدرات الأنهر. أصبحتْ أكثر ضحكاً أيضاً، ضحك عميق بدرايته، وأمسا صوتها وضحكها نغماً يثيرني أيما إثارة: صوت إذعانها لقدرها، و... صوت الامتنان.

سامحتني ليزي، لأنها استوعبت الأمر. وظلت تحبني، لكنها صرفت ذهنها عني. وكانت ممتنة لأنها حية وما زال بحوزتها كل ما هو بحوزتها. لديها لولو وأنا ورافي، على سبيل المثال.

أغرقت نفسها بقدر ما استطاعت، آخذين بالاعتبار شرودها المتأصل فيها، في أمومة لولو، التي ولدت كالصبيان مما جعل ليزي دائمة الجري خلفها. ظلت تهتم بي كما كانت تفعل على الدوام. ما انفكت تشجعني على الرسم، وعثرت لي على موقع يمكنني فيه بيع أعمالي للسياح وسط بالتيمور. ما عدت إلى استعمال الطلاء المنزلي، بل الألوان المائية والزيتية، وهذا كان الفردوس بالنسبة لي. شجعتني أيضاً على حضور دروس الإنجليزية المسائية وعلوم النبات التي تعطى في المدرسة الثانوية الجديدة زاهية الألوان. سهلت لي الإنجليزية التواصل مع أولئك الذين لا يفهمون دائماً الإنجليزية كما ننطقها في الجزيرة. وحسّن علم النبات طريقة رسمي للنباتات.

بعد سنوات، أصبح لدينا أصدقاء تمكنوا ربما من تخمين ما جرى. أصدقاء تبينوا الشبه بين ولدنا أناتولي - أسميناه تيمنا بالفرنسي العجوز - ورافي. أنا متأكد أنهم أشفقوا علي. لقد ظنوا بلا شك أن ليزي ورافي كانا على علاقة من وراء ظهري. ولم يكن الأمر على هذا النحو.

مرت سنين طويلة منذ أن مارست الحب مع ليزي، طويلة لدرجة أنني لم أفكر فيه أبداً أو بالكاد كنت أتذكر إمكانية حدوثه سابقاً، وكنا ما نزال نَستمتع برفقة كل منا الآخر. قد نذهب للتسوق معاً أو نسير مصطحبين لولو إلى مدرستها، أو نتعانق، أو نمسك بأيدي بعضنا، وهذا ما فعلناه على الدوام. في الواقع، عادت علاقتنا من حيث بدأت ونحن طفلين قبل أن تبدأ ليزي بالانتباه فعلياً إلى عمك رافي. الانتباه إليه كرجل، كما تعلم.

إذا ما استعرضنا الماضي، يمكنني أن أفهم أنه أمر محتّم. ليزي ورافي كلاهما من نوع الضربة القاضية. عندما ارتدينا نحن الثلاثة ملابسنا بغية الذهاب لحضور إحدى الحفلات، حتى لولو الصغيرة جرت نحوهما، يا ويلاه! فيهما بريق خاص. كلاهما يهوى الثياب، ويروق لليزي أن تكون امرأة مختلفة بكل حفلة من الحفلات الراقصة. أحبت أزياء من الترتر اللماع، والحلي الرخيصة المتلألئة، والشالات ذات الشرابات والأهداب، بينما أحب رافي ارتداء قمصانه الحريرية البيضاء، وأحذية الخف القماشية اللماعة، ومعطفاً زاهي الألوان من الفرو. يغدو نمطاً مميزاً من الزنوج عندما يرتدي ثيابه للخروج، ويضع قفازات من جلد البقر حاملاً عصا خيزران أحد طرفيها مغطى بالفضة. كان يتوهم نفسه مارقاً، لدرجة أن بإمكانه الانسحاب من مغامراته قبل الثانية بعد منتصف الليل، عندما يشعر بضرورة العودة إلى البيت والتنعم بدفء السرير فحسب، وكان يفعل هذا.

في الحقيقة، إنه الشخص المطابق والملائم لليزي.

***

راودني حلم في الليلة الفائتة أنني كنت أريك معبدي، قالت الآنسة ليزي. لا أدري أين موقعه، لكنه مؤلف من غرفة واحدة مربعة الشكل ومتواضعة، ومبني من اللبن الخالص أو على طريقة المساكن الجنوبية الغربية، بأعمدة ناتئة من السقف ونوافذ عميقة في الجدار. كان مطلياً بلون مرجاني مغبر ووافر وفيه الكثير من الرسومات - العديد منها، مرسومة بلون التركواز والأزرق القاتم، شبيه برموز الأمطار والعواصف لدى سكان أميركا الأصليين - وقد رسمت حول قبته. معبد بديع رغم صغره، وتذكرت ذهابي إليه لتأدية الشعائر وأنا أرتدي ثوبا طويلاً أبيض من القطن. كنت فارعة الطول آنذاك، ومهيبة، شعري أسود كثيف ألمّه إلى الأعلى على شكل كعكة. الأمر الآخر الذي ذكرني معبدي هذا فيه

هي أهرامات المكسيك، مع أنني على قناعة بأنه لم يكن من الحجارة بل من الطين المطلي.

على كل حال، كانت تابعتي – ما قد ندعوه في أيامنا هذه، للأسف، بـ الحيوان المدلل – صغيرة الحجم، مخلوقاً جميلاً بجمال يفوق تصور العقل فهي في جزء منها طير، إذ أن لها ريشاً، وجزء منها سمكة، فهي قادرة على السباحة وهيئتها هيئة عصفور وسمكة إلى حد ما. في جزء منها كائن زاحف، فقد كانت تجري سريعاً في أرجاء المكان كما تفعل الوزغة (أبو بريص)، حاضرة دائماً أثناء حديثي معك. حركاتها رشيقة وبارعة، أسلوبها لعوب وكلها ظرافة. أليفة *حية!* بالمناسبة يا سويلو، لقد كنت أنت رجلاً أبيض، كما تجلى لي في تلك الحياة، رجل بالغ التهذيب وفاحش الثراء، وكنت على ما يبدو مهتماً اهتماماً كبيراً بأساليب عيشنا.

تزحلقت تابعتي الصغيرة، التي لم يتعد حجمها حجم يدي، وراحت تنسل هنا وهناك في المكان خارج المعبد حيث كنا جالسين. الأزرق لونها السائد، لكنها تلونت بألوان أخرى كالأحمر والأخضر، وترقطت بالذهبي، والأحمر الكرزي، والأرجواني. أجل. رأسها كرأس العصفور. هل قلت هذا سابقاً؟

كان انسلالها السريع في تحركها بجوارنا مشتتاً للانتباه أثناء حديثنا فأخذتها بين يدي وحملتها إلى مسافة بعيدة عنا ثم وضعتها على الأرض وغطيتها بطاسة من الزجاج الشفاف. حال عودتي للجلوس، سمعت صوتاً شبيهاً بصوت عيار ناري مكتوم. عدت مجدداً إلى الطاسة و، كما هو متوقع، إذ بالأليفة قد اخترقتها وأحدثت فيها فجوة صغيرة في أعلاها. نظرت حولي فعثرت على طاسة أخرى، بيضاء ثقيلة الوزن، ملساء جدّاً وذات حواف شديدة السماكة. كانت تابعتي مستلقية تنظر إلى الأعلى نحوي بفضول، تأخذ قيلولة من عملها. عندما غطيتها بالطاسة البيضاء لم تسع للفرار. وقبل أن يتسنى لي الجلوس سمعت جلبة أخرى. تابعتي تندفع اندفاعاً ضارياً وسط الثلج، عمت البرودة الشديدة المكان على

نحو مفاجئ، ورأيتها جميلة جمالاً لم تكن عليه يوماً. كيف أو حتى لماذا فعلت ما فعلته بعد ذلك، أحجية لا أجد لها تفسيراً، إلا أنني أظن أنه رد الفعل المغفل اللا إرادي للغرور البشري، لأنني أعي تماماً الآن أن كل حركة أتت بها الأليفة كانت مرتبطة بالحرية، وأنني من خلال أفعالي هذه كنت أحطم علاقتنا. مهما يكن من أمر، حتى لا يبدو عليّ الانهزام - فجأة ظهر العشرات من أبناء شعبك، أناس بيض، يجلسون حولنا ويتابعون هذا النزاع - احتجزت بعدها تابعتي الجميلة الصغيرة تحت قِدر الغسيل المعدني، لم أهتم للبرودة أو الثلج ولا حتى فكرت بمدى تعذيب وقسوة هذا عليها. الآن بالتأكيد لن تكون قادرة على الإفلات. عدت إلى حيث كنا نجلس، أنت وأنا، وحاولت متابعة الحديث الذي يدور عن المعبد، عن معبدي تحديداً. الشمس في لحظة الغروب، وتغمر البناء الصغير مرجاني اللون واللامع باللون الذهبي. كان مشهداً باهراً. شعرت بامتلاكي لسعادة لا تدانيها سعادة وفكرت بالسلام العميق عمق النوم الذي غمرني أثناء مروري داخلة عبر بابه.

سمعنا بعدها قصفاً آتياً من تحت مقعدينا، كأنه انفجار بركان. كأن طاقة تقاطرت في تيارات من جميع الأماكن ثم تقاربت وتلاقت في نقطة واحدة تحت الثلج. شُفِطنا جميعنا، أنت وأنا والبيض الذي يرتدون أزياء غريبة جداً وأحذية بكعوب عالية ومعاطف الفرو، إلى داخل القِدر المهتز، والذي بدا أنه انتقل في هذه الأثناء إلى أسفل درج مبنى حجري هائل في مدينة أخرى وفي قرن مختلف. لم نصدق أن مخلوقة صغيرة، حجمها لا يتعدى قبضة اليد، بمقدورها اختراق المعدن برأسها الهش كرأس الطائر. كنا ننظر شاخصين في ذهول عندما راحت تابعتي الصغيرة، بلمح البصر كأنها مندفعة من أعماق البحر السحيقة، تخترق قعر القِدر وتخرج إلى الهواء الطلق. نظرت إليّ نظرة شفقة أثناء عبورها. طارت بعدها مبتعدة، مستعملة جناحيها اللذين لم تستعملهما من قبل أبداً. بقينا أنا وأنت والبقية من أبناء قومك على الدرج الحجري البارد،

تحيط بنا ألوان كألوان الأسنان الصناعية الرخيصة، في عالم مختلف عن عالمي وقرن زمني استحال عليّ استيعابه، إلا من خلال استذكار تلك التابعة الصغيرة الرائعة التي كانت مرحة جداً وتواليني ولاء أعمى، وخنتها أنا برعونتي، بدافع الغرور والتسلية.

* * *

مكان يملؤه الذباب. هكذا وصف أرفيدا لكارلوتا مكان ولادته.

وما رأيك؟ سألها.

لم تكن لديها أدنى فكرة عما يمكن أن يكون رأيها. عاد أرفيدا ولم تعد والدتها. حاولت ألا تفكر في زيدي.

يجري تصوير مشاهد فيلم هناك! في *غواتوزوكان*! قال.

لم تسمع كارلوتا بالاسم سابقاً أبداً.

تدور أحداثه حول إلهة هندية قديمة، واصل كلامه، إلهة طويلة وشقراء، مثل بو ديريك التي وقعت في غرام عالم أنثروبولوجي معاصر أبيض زلت خطاه ذات يوم وسقط عند مدخل كهف إلى عصر ما قبل التاريخ حيث عاشت تلك الإلهة. يصبح الأمر في غاية الهزل عندما يتعين عليك ألا تملكي سوى الضحك أمام حالة كهذه. عثرت والدتك على إحدى صديقاتها القديمات، امرأة بدا عمرها أقرب للمئة سنة، رغم أن زيدي لا تكبرها سناً، وجلستا في ظل شجرة معظم النهار تتابعان مجريات تصوير الفيلم. قام منتجو الفيلم بتشغيل صديقتها هيداي السمراء ذات الوجه المليء بالتجاعيد في الكومبارس وكممثلة عن قدامى الهنود المهملين الذين خرجت من بينهم الإلهة الهندية الشقراء الحاذقة، الظاهر أنها ولا بد كانت مصابة بالبهاق. كانوا يحاولون محاكاة أسلوب زي الإلهة، البكيني المصنوع من ريش الحمام الذي يباع للسياح. أظافرها مطلية وتضع على شفتيها حمرة قانية بلون الدم. طُلِب منها أن تعتمر قلنسوة هائلة، وعلى هذه القبعة كانت ثمة براغيث. أخذت الإلهة تهرش رأسها

وتهش الذباب، ذابلة بسبب الرطوبة والضجر، وقد علا وجهها الشحوب جراء تناولها لشطائر السجق، وراحت تتابع عالم الأنثروبولوجي الأبيض ينهب جميع كنوز شعبها من دون أن تعترض، لأنها... مغرمة به!

لكنه كان عملاً، أقصد بالنسبة لزيدي وصديقتها وباقي سكان القرية. حصلت زيدي على عمل ضمن طاقم الإنتاج لقدرتها على التحدث بالإنجليزية، كانت تترجم. أيامك مع والدتك كانت عبارة عن سجن تحول إلى قرية بالفعل. أو ربما يجدر بي القول إنه عاد وأصبح قرية من جديد، فهي قرية أنشأها في الماضي أبناء شعب والدك الهندي، كما حدث في أستراليا، حيث تحول المجرمون سكاناً في آخر المطاف، كذا تحول تجمع الحراس والعبيد الذين تم توطينهم في غواتاتوزوكان من أجل زراعة البابايا إلى قرية.

لم يبق سوى هيداي وستة أشخاص ممن بقي من العبيد الذين كانت تعرفهم والدتك. فتكت بالبقية قلة الطعام، والعمل المضني والحرارة وأمراض الأدغال، ناهيك عن قمع الحراس. لقيت أغلب النساء اللواتي أنجبن أطفالاً من مختطفيهم مصرعهن، ولم يمت مختطفوهن. كانوا يغتصبون كل دفعة جديدة من العبدات ويجعلون ممن يميزوهن زوجات عبدات، يهملون العجائز والمحطمات اللواتي لم يعد لديهم رغبة بهن. هؤلاء النساء أنجبن الأطفال. وضع الأمر الحراس في موقف غريب فقد أصبحوا سادة على ذريتهم وعلى ذرية بعضهم بعضاً، وفي حين ظل الانسجام مستمراً في تسلطهم على الكثير من البشر الذين لا حول لهم ولا قوة حينها، فقد ظهر الآن الحقد والاشمئزاز. كل واحد من خاطفينا، كما ترين، هو أب لصبي محبب لا محالة، ولم يكن يرغب لهذا الصبي أن يطيع أحداً سواه أو أن تساء معاملته على يد أي شخص آخر في السلطة إلاه هو. عدا الاغتصاب الذي ستتعرض له بناته لا محالة من قبل أجساد تدربت على عدم الاكتراث للشبه بينه وبين هذه البنت، لم يكن هو نفسه أحياناً يدرك هذا. يا له من جحيم.

كانت حقول البابايا تعطي غلالاً ممتازة، وتدفقت عائدات مبيعاتها إلى جيوب ملاك المزرعة من أوروبا وأمريكا الشمالية؛ ظل العمل قاسياً، مع أنه لم يكن بالهول الذي كانت عليه إزالة الأدغال وزراعة الأشجار أول الأمر. استغربنا في البداية ما الذي دعا شركة إنتاج سينمائي لصناعة فيلم حول تاريخ الحياة الهندية ما قبل الغرينغو وسط مزرعة ضخمة وحديثة للبابايا زرعت أشجارها في صفوف متقنة. حين سألت زيدي مخرج الفيلم، أوضح أنه ينتج فيلماً تقدمياً يكسر الصورة النمطية عن الهنود، أمر من النادر جداً أن يقوم به الأمريكان؛ تظهر هذه المزرعة أن الهنود لم يكونوا كسالى على الإطلاق، بل كانوا كادحين منذ الأزمنة الموغلة في القدم حتى. بلا شك! قالت والدتك، عندما نقلت هذا لي ولبقية الهنود مجعدي الوجوه. فضحكنا جميعاً.

وجد الأسرى ومستعبدوهم أنفسهم في وضع شبيه بالأسرة، بينما الأطفال المولودين في القرية يترعرعون في المنطقة الرمادية من الاعتقاد أنهم نصف عبيد ونصف أحرار. ما كانوا قادرين على فهم الازدراء الذي يتعاطى فيه آباؤهم مع أمهاتهم ولا مردّ الخوف العميق لدى آبائهم من أولئك النسوة المغلوبات على أمرهن، ولا استطاعوا فهم الحقد الذي لا قرار له الذي تكنه أمهاتهم لآبائهم، الذين أخذت زياراتهم لاغتصاب النساء تحاط بقناع عاطفي حين بدأ الأولاد من نسل الزنى يكبرون. أولى ذكريات هذه الذرية هي أنين أمهاتهم المكبوت، وصوت سحل ما اعتقدوا أنها عظام العمود الفقري لأمهاتهم على الأرضية.

لا يهم إن كنتِ تحبينني أم لا، قال أرفيدا. لعلني لست جديراً حتى برؤيتك أو رؤية أولادي، إلا أنني أود أن أقدم لك هدية التعرف على والدتك – لا أظنك ستحصلين عليها دوني، فهي أعجز من أن تخبرك عن نفسها، وهي شديدة الخجل – وأرغب في أن أقدم لك بالضبط ما أتمنى لو أن أحداً يقدمه لي، وما لا يمكن لأي كان أن يفعله، طالما أن والدتي متوفاة.

شعرت كارلوتا أنها تمقت الرجال؛ اختفاءهم وغيابهم وصلفهم لدى عودتهم. فكرت بالأحمق أنجيل كلير ورأت نفسها شبيهة بتيس[1] خطر لها تي كيك ورأت نفسها جاني[2] كانت على قناعة من أن هيلغا كراني[3] هي امرأة غبية. وصلت إلى حكم أن الرجل الوحيد الجدير بإعجابها سواء في الحياة أو الأدب هو ليونارد وولف[4] لكن بالطبع لم تكن وتلاميذها قد شرعوا بعد في قراءة عمله *قرية في الأدغال*. ربما لا يفترض بها أن تحبس أنفاسها.

رغب أرفيدا أن يروي لها عن زيدي في الهواء الطلق تحت الأشجار، فإن كانت السماء مترامية في مدى رؤيتك، فما من رسالة، ولا حتى ممن يحتقرك، بإمكانها تحطيمك، بيد أن كارولتا جلست في غرفة الجلوس رخيصة الأثاث، مكتوفة اليدين، وقد صالبت ساقيها الممشوقتين. لم تكن تسمعه. لم تكن قادرة على رؤية أي منطق فيما تفوّه به. كانا كما لو أنهما مخموران. إضافة إلى فيلم التحريك *نقار الخشب* المضحك على الشاشة والأطفال يصفقون بأيديهم ضاحكين.

كف أرفيدا عن الكلام في هذا الجو. نظر إلى أولاده مستلقين على الأرضية متجاهلين وجوده. لم يكن يلومهم. في النهاية، لم يكن هذا الرجل الذي هجرهم يعني لهم شيئاً، عدا أنه بدا من المهم لهم أن يروا إن كان نقّار الخشب سيصل إلى مبتغاه بعد الكثير الكثير من المحاولات القاسية في حياته.

1- Tess و angel clare: شخصيتان من رواية توماس هاردي بعنوان آل دوبيرفيل، (1891) - المترجم.

2- Cake Tea و Janie: شخصيتان من رواية زورا نيلي هرستون بعنوان عيونهم تراقب الله، (1937) - المترجم.

3- Helga Crane: شخصية من رواية فيلا لارسون بعنوان رمال متحركة، (1928) - المترجم.

4- Leonard Woolf: منظّر سياسي بريطاني وكاتب وموظف حكومي، وهو زوج الكاتبة فيرجينيا وولف، تتحدث روايته قرية في الأدغال عن تجربته في المرحلة الاستعمارية في سيلون - المترجم.

وسط اعتراضاتهم الغاضبة، أوقف أرفيدا التلفزيون حال انتهاء فيلم الرسوم المتحركة. أغلق الأبواب الخشبية لخزانة التلفزيون بحرص، تناول غيتاره من خلف الباب الأمامي، وجلس على كرسي ذي مسند مستقيم أتى به من المطبخ والغيتار بين يديه. بدأ يدوزن الغيتار، فيما تجمع أولاده على الأريكة مع والدتهم، شاخصين فيه بأعينهم يصطنعون التثاؤب، ينظرون إليه نظرتهم لشخص دخيل. راح ينقر على أوتار الغيتار، مقطوعة في قراءة البخت قديماً في إفريقيا عنوانها سيلوم، ومعناها عظام أو حجارة رون التي تدل على الشباب. أحس بأن عليه بعد طول ترحاله، التفكير في ابتداع مقطوعة موسيقية جديدة.

كانت لديه فكرة.

سأل كارلوتا، هل ما زالت الحصوات الثلاث الصغيرة التي أعطتك إياها والدتك بحوزتك؟

لم تجب في البداية. فكّرت بمدى مقتها له ثم حاولت أن تتذكر ثلاث حصوات صغيرة أعطتها لها والدتها ومكانها.

هلا أحضرتها؟ لم يكن لديه شك أنها ولا بد مشغولة يدوياً.

ربما تحتوي على حبات ألماس وياقوت في لبها، فكرت كارلوتا، وقد انزعجت من انصياعها وهي تغادر الغرفة.

خزانة ثيابها أنيقة ومرتبة كالعادة. لم تكن لتواجه أية صعوبة حقيقية في العثور على الحجرات الثلاث الصغيرة. لقد ظلت محفوظة على الدوام في رتل مستقيم في نهاية درج الملابس الداخلية. حملتها وعادت إلى غرفة الجلوس.

فتح أرفيدا يده، فأسقطت الحجرات فيها.

انحنى فوق غيتاره ووضع الحجارة على الأرضية، على شكل هرم وليس في رتل مستقيم.

هذه هي طريقة ترتيبها، على شكل رمز ملجأ الطوارئ النووية، قال. هي هدية لك من والدك وشعبه.

بدا هذا كلاماً فارغاً تماماً من المعنى، ما لم يكن غريباً. شطح ذهن كارلوتا. تعجبت من كونها لم تضعها، ولم تحفظها إطلاقاً في الصرة التي صنعتها زيدي لها. لا بد أنها فكرت بهذه الحجارة الصغيرة العادية كمجوهرات لها بمعنى ما وترغب في عرضها. في صباها كانت تحتفظ بها في مكان مكشوف فوق خزانة ملابسها. هذه الحصى مميزة جداً تقول زيدي، وهي تلمسها مساءً بإحساس حين تدخل إلى غرفة كارلوتا وتضعها في السرير. هذه الحصى تحمل مغزى بالنسبة لك. إلا أنها لم تقل لها يوماً هذا المغزى.

عرف أرفيدا شعوراً مذهلاً وهو جالس أمام الحصى وقد شرع في مداعبة أوتار غيتاره. لقد عرف، أخيراً، عرف السبب الكامن وراء وقوعه السهل في الحب، الوقوع حتى بغرام والدة زوجته. لأنه موسيقي وفنان. أدرك لحظتها أن الفنانين هم مجرد رسل، تقع عليهم مسؤولية توحيد العالم. يا لها من مهمة رائعة يؤديها في حياته، وهو كما أحس على قدر المسؤولية. ينبغي أن يكون إيمانه بأن الألم الذي ألحقه بالآخرين وبنفسه - الذي يكاد لا يخفى في المعطيات الظاهرة - سوف لن يؤدي إلى التدمير، بل إلى التحوّل.

بدأ الغناء لزوجته وولديه برقة لم يغنِ بمثلها يوماً. أغنية عن بلاد ترتدي الأخضر لوناً مفضلاً لها؛ أرض الأنهار والمراكب التي تستحضر في ذهن المرء من مسافة بعيدة قرون الفانيلا اليابسة. غنى عن بشر أتوا هذه البلاد قبل زمن بعيد، من أرض تدعى الشمس، وعن اكتشافهم للنهر الذي يصب متدفقاً في المحيط - وعلموا أيضاً عن ذاك الذي يتدفق في السماوات لكنهم كانوا يفتقرون وسائل الارتحال فيه - والتقائهم ببشر وجِدوا من قبلهم وعن هروب البعض منهم سوية ليتقاسموا فهم كل منهم الآخر عن العالم، وأسسوا حضارات عظيمة بالصدفة تقريباً، مع أن تلك الحضارات العظيمة لم تلحظ أو تتباهى يوماً بكونها عظيمة؛ وكيف اندثرت مع مرور الزمن، وتشتت البشر في كل الاتجاهات وعاشوا حياة

بسيطة كالتي تعيشها الشعوب الصغيرة في كل مكان، يصطادون السمك والطرائد ويبتهلون، يمارسون الحب وينجبون الأطفال. كان يغني عن ريش الببغاء الأحمر المعلق في آذانهم - إذ اصطحبوا الببغاء معهم؛ كان هو تابعهم ورمزاً لكنههم - وشعرهم الطويل الخشن الذي توسدوه وناموا عليه. راح يغني عن قدوم تجار العبيد والمصير القاسي الذي لاقاه المستعبَدون. غنّى عن شخصين أحبهما للحظة، وعن تلك التي ماتت بشكل مريع ولم تخلّف وراءها شيئاً سوى بذرته التي أصبحت طفلاً، وأقراط مزدانة بريش الببغاء الأحمر وثلاث حصوات لا أهمية لها. غنى عن ذعر الأم وارتباكها: الندوب التي عجزت تماماً عن الكشف عنها لطفلتها إذ إنها لم تندمل وكانت لا تزال تؤلمها بشدة، وحبها لوالد طفلتها البري، عصا عنيفة مزروعة في حلقها.

حين بلغ أرفيدا الجزء الذي تاقت كارلوتا لسماعه، كان الطفلان قد غطا في النوم قبل وقت طويل. غنى أرفيدا بهدوء عن مدى محبة الأم، التي لا تزال في البعيد، وحنينها لطفلتها. عن مبلغ حزنها لأنها آلمتها. كم صلت أن تغفر لها طفلتها وترضى ذات يوم بلقياها مجدداً. غنّى عن اشتياق تلك الأم لأحفادها، عن حجم الخطر الذي تتعرض له الأم الآن في بلادها القديمة، ذلك أنها في عملها مع طاقم إنتاج الفيلم لصالح الغرينغو كواجهة، سعت للعثور على والدتها هي، التي لم تقع عليها عيناها مذ اقتحم الجنود المدرسة الفقيرة قبل سنوات طويلة جداً وجروها مبتعدين بها. هذا هو السبب الوحيد في أنها لا تعانق ابنتها في هذه اللحظة، إن أذنت ابنتها بهذا. كان يغني عن شجاعة زيدي، عن كبريائها في عدم تحميل طفلتها عبء تاريخ لا يحتمل. غنى عن شعورها الصَادق بالذل. ظل يغني إلى أن تراءت زيدي، شفافة وعابرة كحورية الليل أمام ناظري ابنتها.

لم تكن كارلوتا لتحلم بالمزيد من التحطيم لقلبها الذاهل، أو بذلك التحطيم الذي يمزق القلب.

عاد أرفيدا ليغني. أجل، كما لم يفعل من قبل. شاهدت كارلوتا أنه لم يعد بحاجة الآن إلى الريش أو العباءة.

أغمض أرفيدا عينيه تحت نظرتها الثاقبة المغرورقة بالدمع، وهو لا يطلب شيئاً لنفسه. كان يعرف أنه غنى عن حياتهما. إنه فنان حقيقي، فنان ينير له الله الدرب، ويعرف أنه يتجاسر بألا يشكّ بقوة أغنيته.

* * *

نشوة الوجد غابة عذراء ورائحة خبز طازج خارج لتوّه من التنور. أرهف سويلو سمعه كي يتلقف الموسيقا الحميمة والخصبة الآتية عبر الهاتف، من بين قوالب الثلج في كلمات فاني الصقيعية. ما زالت إذن تستمع إلى هذه الموسيقا، فكّر مستغرباً. ألبوم أرفيدا القديم ذاك. لا بد وأنها قد ابتاعت ألبوماً جديداً بعد انتقالها؛ ذلك الذي اشترياه معاً كان طويلاً وأثلامه متآكلة. سوف تبليه من كثرة تشغيله، وتذكر كيف كانت تضم الألبوم إلى صدرها، غلافه خال من الصور عدا شجرة ضخمة خشبها أحمر اللون، وتحتها رغيف من الخبز، وكيف تمايلت طرباً مع كل نغمة من الأنغام، تغمرها عذوبة الموسيقا أحياناً إلى حد البكاء. يتابعها فيما تترنح وترقص وتئن باكية. رفعتها الموسيقا، فكّر، إلى حالة أسمى، وبأكثر من أي شيء آخر في حياتها. كل ما في الموسيقا هو نشوة ووجد بالنسبة إليها.

ذات مرة، حين دُعي أرفيدا إلى البلدة لإقامة حفل موسيقي، اشترى البطاقات لكليهما. وأخيراً سوف يشاهدانه. كانت فاني في منتهى السعادة أول الأمر، ولسوف يضحك من ارتباك أصابعها حماساً وهي ترتدي ملابسها. لبست أجمل ما لديها. جميع ملابسها كانت من درجات لون الخزامى، والنيلي الغامق، ولون زهرة الكوشاد[1] ما أجملها، فكر حينها.

1- gentian: زهرة الكوشاد من فصيلة الجنطيانا، أزهارها على شكل بوق ولونها أزرق فاقع - المترجم.

قد تحظين بلمحة منه، كان سويلو يشعر بالغيظ. سيكون على الخشبة، والبطاقات التي اشتريتها ستتيح لنا أن نجلس في مقعدين قريبين. لكنه لن يستطيع رؤيتك وسط الجمهور إلا كرأس الدبوس.

ضحكت، وهي تضمخ نفسها بعطر من تركيبها جعل رائحتها كرائحة الماء العذب على نحو مذهل.

تسمرت بعد ذلك في مكانها، لحظة مغادرتهما الشقة وهما يمران عبر المدخل، ولم يقنعها كل ما قاله لها بالتقدم أكثر. حين أمسكها من ذراعها، بدت كأنها متسمرة في مكانها. حين تظاهر أنه يجرها، تشبثت بإطار الباب بقوة كسرت أحد أظافرها.

كانت تتهيب لقاء الشخص الذي خلق ذلك الجمال الفتان الذي كانت روحها متعطشة له لدرجة البكاء.

بشق النفس تمكن سويلو من تفهم حالتها، لكنه شعر بالضيق أيضاً، فسوف تفوته الحفلة في هذه الحالة - مع أنها رجته المتابعة واصطحاب شخص آخر معه. وكان قد أنفق مبلغاً كبيراً نوعاً ما ثمناً للبطاقتين.

أليس أرفيدا عجوزاً؟ سألته وفي سؤالها نبرة التمني. (ليس كذلك) سأنتظر إلى أن يموت أو أموت *أنا*، وبعدها... سألقاه.

وكيف يمكن لسويلو أن يرد على مثل هذا الحب، حب خاضع بشكل كبير للقدرية والوجل.

آه، يا حبيبتي المسكينة قال لها في سخط وعجز، وهو يعانقها، ويعرف دون النظر إلى وجهها أن دموع التوق كانت تنهمر نازلة على وجنتيها.

***

ما الذي راوده حين التقى في المرأة الأولى؟ كانت فاني تتهمه أنه لا يرى سوى البشرة الكهرمانية والشعر الأسود السميك الطويل. الرشاقة. امرأة ملونة، أجل هي كذلك، لكنها امرأة بلا ذلك النوع المؤلم من

الماضي الذي سوف يهدد إحساسه بنفسه كرجل أو يثبط استمتاعه بها كامرأة وحسب. في الحقيقة، تولدت هذه الأحاسيس لديه لاحقاً، بعد أن بدأت علاقته مع كارلوتا. في أول مرة رآها فيها، في اجتماع الكلية التي كان ظاهراً عليها أنها محاصرة ومتململة فيه. فكر أنها تبدو شبيهة بلاتينا كوريتا كينغ[1] إنما أصغر سناً منها. ثمة صورة للسيدة كينغ رآها في مكان، تظهر فيها منكوبة بالحزن ومغدورة، وجدها امرأة جذابة لكنها تغرق في مستنقع الترمل الشهير. اهربي، اهربي، كان يود أن يصيح بها. لا تسمحي لهم أن يغلقوا القبر عليك! لكن ربما كان هذا جانباً من شعورها، فقد دفن جزء منها مع زوجها. لكن بالتأكيد ما زال أمامها المزيد من عمرها لتعيشه؟ أمر واحد أعجب سويلو به في جاكي أوناسيس[2]، التي لعلها كانت تعيش المصير ذاته، باستثناء رفضها الماكر أن تسمح له أن تدعه يكون كذلك: ألا وهو نجاحها التام في الانسلال من زوجها المتوفى جاك. في الصورة التي تذكرها، وقفت السيدة كينغ برفقة مجموعة كبيرة من النساء من سكان أميركا الأصليين، وكانت تبدو هندية أكثر من أغلبهن. حين تأملها، كانت لها هيئة المنكوبة بالحزن ذاتها وقد تعرضت للخيانة. كلما دقق النظر فيها بشكل أكبر، متجاهلاً باقي أعضاء الكلية من البيض، والذين فهم بأنهم ملّاك الجامعة، كلما رأى بعد الشبه بين نظرتها ونظرة السيدة كينغ فعلياً. أو لعلها تشبهها، وقد أثرت فيه هذه النظرة لأنه رآها، شعر بالألم الكامن فيها، وحاول إزالتها عن الوجه الباكي لشخص أقرب إلى الوطن: انجذب لكارلوتا لأن تعابير وجهها كانت مماثلة لتلك التي علت وجه فاني لدى انكشاف خيانته لها. لقد صرف كل الزمن الذي عاشه برفقة كارلوتا وهو يسعى لمحو تجسيد حزن فاني عن وجهها، من دون أن يجرؤ ولو لمرة واحدة، مع ذلك، على إرغامها على إخباره سبب هذا الحزن. علم ذات مرة أنها منفصلة عن زوجها، ولديها طفلان يتعين

1- Coretta Scot King: زوجة مارتن لوثر كينغ، ناشطة حقوقية - المترجم.

2- زوجة الرئيس جون كينيدي وتعرف أيضاً بـ جاكي كينيدي - المترجم.

عليها إعالتهما بنفسها، مرة رأى شقتها رثة المفروشات، ومرة سمع شكواها المريرة من عنصرية قسم دراسات المرأة حيث تعمل، وافترض حينها أنه فهم دواعي كربها. أدرك الآن أنه ربما لم يفهم أي شيء، وخطر له أيضاً مدى السطحية والغش اللامتناهيين أن تنام مع شخص لا تعرفه حق المعرفة.

بدأ يثمّن أكثر من أي وقت مضى الحكاية التي رواها له السيد هول والآنسة ليزي بلا كلل.

* * *

ما كان والدي شاذاً كوالدتي، قال السيد هول. تضحك طوال الوقت؛ بقهقهة حقيقية. كل ما في الأمر أنها كانت عاجزة عن الكف عن الضحك. كل شيء بالنسبة لها يبعث على الضحك. بالمقابل، كانت ثمة غيمة فوق رأس أبي على الدوام. قد لا تصدق هذا الآن، ففي النهاية أنت تعيش في كاليفورنيا. كنت أتصفح الجرائد من حين لآخر، لهذا عرفت أن كثيراً من الرجال ممن يذهبون مع رجال آخرين يحتضرون. كلما قرأت عن هذا أفكر بوالدي، لأنه كان سيشعر بالفرح. لم يكن شريراً – لا تسئ فهمي – بيد أنه يمقت ذلك النوع من البشر وهو النوع الوحيد الذي سمعته يعبر عن كرهه له قط. حتى فيما يخص البيض عموماً، لم يكن ليتعامل معهم بالطريقة التي قد يسلكها مع رجال مضحكين. عندما كان على فراش الموت، أسرَّ لي بالسبب.

نشأ وترعرع في الجزيرة، في مزرعة يملكها قوم من البيض ينحدرون منِ البر الرئيس ويشرف عليها ناظرون من السود. لم يكن ذلك زمن الرِقيق – كان العبيد آنذاك قد نالوا حريتهم القانونية قبل وقت طويل – لكن الأمور في هذه المزرعة بدت شديدة الشبه بما جرى في عصر العبودية، ولا تزال الأمور تسير على منوالها. على كل حال، في بعض أيام العطل كعيد الميلاد أو الفصح ودائماً في فصل الصيف، كان البيض

يسافرون قاصدين أملاكهم في الجزيرة، حيث الطقس أكثر برودة صيفاً، ومستساغ أكثر بكثير منه في البر الرئيس. لسوف يبحرون على متن يختهم - كانوا أثرياء - جالبين معهم من البر الرئيس كل طاقم البيت: الطباخ، الخادمات، وسائس الخيول، وحتى الجنائيين. كان والدي عادة يعمل عندهم عاملاً مؤقتاً ومرمطون ويساعد في تفريغ حمولة اليخت، ويدفعون له بالبرتقال، الذي كان نادراً في الجزيرة ومذاقه بالنسبة لنا يعادل الذهب. على أي حال، كان لديهم ولد يدعى هيث، وبدأ يرافق والدي طوال الوقت. وعلى الفور راق الصبيان كل منهما للآخر، ما أغضب والدي هو اضطراره للبقاء في الخارج. مثلاً، في حين كان هيث يدخل إلى منزل والدي وغالباً ما يتناول الطعام عندهم في الصيف، في المطبخ مع بقية أهله، كان محظوراً على والدي، الذي يدعى بالمناسبة ديفيد تيمناً بديفيد[1] الصغير في الإنجيل، الاقتراب من منزل هيث أكثر من عتبة الباب الخلفي. إن كنت أسود ولست ممن يعملون في المنزل، لن يسمح لك بهذا. هكذا كانت الأمور في حينها.

بدا أن علاقة والديّ بهيث لها طابع الود أكثر مما هي حميمية، ولم يكن أي منهما يتحدث مع هيث. مع ذلك، بدا الأب فرحاً بصداقة هيث ووالدي؛ يبدو أن الأم لم تكن تكترث. كانت مدمنة على الكحول.

أصبح هيث ووالدي صديقين صداقة الصبا، ظلّا يلتقيان في العطلات وفصل الصيف على مدى سنوات. غادر هيث بعدها إلى الجامعة وتزوج والدي. في آخر المطاف تزوج هيث أيضاً، وانتقل برفقة زوجته للإقامة في الجزيرة في المنزل الكبير الذي أحبه هيث وانتقل إليه الآن من بعد والديه. سُعِد والدي بزواجه. لست أدري إن انتظر في يوم من الأيام أي نوع من أنواع الفرح من هذا الزواج. تتزوج في الجزيرة في سن مبكرة، وتنجب كومة من الأطفال، تعمل وأسرتك بجد، تأكل وتنام وتتعبد قدر استطاعتك. تموت. هذا كل شيء. اكتفى الكثيرون بهذا. وأين هي

1- داود

الإثارة؟ مواضيع التشويق هي القصص والنمائم التي تسمعها عن بشر آخرين، يعيشون هناك في البر الرئيس.

طالما عاد هيث إلى المكان من جديد وكان مثيراً لأسباب وجيهة، وكذلك كان بوسعهما إنجاح العلاقة، بما أنهما الآن غير متساويين أكثر من أي وقت مضى في نظر المجتمع والقانون - أصبحا رجلين راشدين بمعنى آخر - إلا أن صداقتهما تواصلت. راح هيث يشرب، ولم يحب السود فعلياً. أحد أولئك البيض الذين، في غمرة سكرهم، قد يقول لشخص أسود وذراعه حول كتفه: كما تعلم، كذا وكذا، أنا لا أحب الزنوج، بيد أنني أحبك! لذا يمكنك أن تتخيل كيف كان على ما يدعى صداقة بينه وبين والدي أن تسير على ذلك الخيط الرفيع بين الغضب والخوف. بالطبع كان يمقت عنصرية هيث، تماماً كما يخشاه بوصفه رجلاً أبيض، حتى ولو تضاحكا معاً ومازحا بعضهما. لم يكن لدى والدي أدنى فكرة - وأظن أن هيث نفسه لم يكن يعرف - أن هيث منجذب له بمشاعر حب. أعني ذلك النوع من الحب الأكثر خصوصية حدث بينهما، كما أتصور، تفاهم من النمط الذي تغلغل في كليهما عندما لاحظا طيلة الوقت وهما معاً في بيتنا، مدى استمتاعهما بهذا الوقت، رغم كل شيء.

يمكنني حتى أن أتذكره. فتى أحمر السحنة، ممتلئ الجسم، قصير ومكتنز وليس سميناً، بلون أحمر طاغي يندفع إلى وجهه أحياناً ويختفي في أحيان أخرى. شعره ضارب إلى البياض ويتلون بلون أبيض كامل تحت أشعة الشمس. أسنان متينة وأنفاسه معطرة برائحة النعناع. رجل من شاكلة تيدي روزفلت[1].

هيث هو الذي شجع والدي على هجران العمل في المزرعة ومزاولة صنع المفروشات. كان ينظر متعجباً من القطع التي ينحتها والدي من الخشب في أوقات فراغه: بمعظمها دمى وأسرّة ومهاد للأطفال. لا أظن

1- Teddy Roosevelt رئيس الولايات المتحدة للفترة ما بين 1901 و1909.

أنه كان قادراً على تحمل رؤية صديقه يعمل في الحقول كعبد. ما كان ليكترث لأمر البقية، أتفهمني؛ هم غير جديرين حسب اعتقاده بعمل أفضل من عملهم عبيداً في مزرعته. إنما ليس ديفيد، ذو الملامح الوقورة وزوجته الحامل على الدوام ومنزله الذي يعج بأطفاله الحفاة. أعان والدي على بناء متجر واشترى منه أولى القطع التي اشتغلها، وهي طاولة وبضعة كراس. عثر في البر الرئيس على سوق لبيع أعمال والدي فعشنا حياة كريمة. حياة أفضل بما لا يقاس من تلك التي عشناها من الانكباب على قطف البطاطا والفاصولياء.

كان راغباً في أبي.

حتى وهو على فراش الموت بدت تلك بالنسبة لوالدي فكرة - ليست مزحة يعني - أقسى من أن يستوعبها. حالة غريبة أيضاً، بغض النظر عن الكلمات التي وقع عليها ليخبرني عن الحالة، فقد كانت كلماته تلك تدفعني للضحك على الدوام. حتى هو أفلح في أن يضحك في النهاية، مع أن ضحكه بدا قوقأة جوفاء. لم يكن يضحك من هيث، بل من احتمال أسلوب الحياة هذا والذي بدا له خارج حدود الطبيعة بالمطلق. رجلان يتعاملان مع بعضهما مثل رجل وامرأة؟ فاق هذا قدرته العقلية وحسب. لو أنه موجود، ترى ما الذي كان والدي سيقوله عن سان فرانسيسكو؟

مهما طالت أم قصرت علاقة الصداقة، سرعان ما ستتلوث. لم يكن لمشاعرهما القوية التي تبادلاها من مكان لتفرغ فيه. ما كانا بقادرين حتى على الجلوس أمام كشك هوت دوغ في أي مكان لمناقشة المشكلة. لسوف يتعرضان للاعتقال نتيجة هذه الخلوة وحسب. ازدادت معاقرة هيث للخمر، وتفاقم كرهه للزنوج وأصبح أكثر نكداً. قال الكثير عن سوء معاملة والده له وهو صغير، السخرية منه وضربه بسبب ضعفه في استيعاب ما يقال له وبطئه في تعلم القراءة والكتابة. راح يردد هذا ليبين قدرته على تفهم مشاعر الزنوج، بيد أن حقيقة كلامه كانت السبب الكامن وراء سعيه الدائم لجعل من عرفوه يشعرون بالسوء الذي عاشه هو نفسه

ذات مرة. قريباً منه، نكص والدي إلى ما سماه زنوجياته[1] القديمة الجاهلة. يهرش رأسه ويتمتم وسط أنفاسه اللاهثة. أشعر كأنني مغفل لعين. بالطبع لعلك استنتجت أنه كان يدعوه بـ السيد هيث منذ أيام المراهقة. غير أن تظاهر والدي بالجهل لم يحمه. دخل هيث ذات يوم إلى المتجر، وقبل أن يستوعب والدي ما يجري وجد نفسه في أحضان رجل مخمور و، كما وصف الأمر، بكى من مؤخرته. مع ذلك فقد شعر والدي بأمان تام، إذ كان يرى والدتي وبعض الأولاد يلعبون على بعد بضعة ياردات من الباب المفتوح. كان هيث قد أفرط في الشرب وتشاجر مع زوجته. سيصبح هذا طي النسيان قريباً. هذا ما يحدث باستمرار. سوف يعد والدي القهوة، يضع كمادة من الثلج، ثم يعد خلطة ما لهيث كي يأكلها. لكن والدي أطلق العنان لنفسه في تلك الأثناء، ربما لأنه أحس بأمان كبير، جراء جسده الباكي وهو يدور حوله. أو أحسّ بالشقاء والعار. لعله شعر بالحب. على كل حال، دون أن يخطر حتى في أحلامه إمكانية حدوثه، مخفضاً بصره على جسده كما لو أن أحداً قد دس قضيباً في أعلى بنطاله على غفلة منه، استجاب لشهوة هيث الذي كان قد بدأ يداعبه.

لحظة غيرت حياته، من دون أن يعي كيف أصبحت هذه العلاقة واردة. رغب والدي أن يكون مرغوباً من قبل هذا الرجل الذي يمسك به، وأراد هذه الرغبة. يقول إنه شاهد والدتي من الباب وناداها، لكن صوته كان من الوهن لدرجة لم يصلها. بعدها، بعد عدة دقائق، كأنها أحست بخطب ما وأنه واقع في مشكلة، سارت نحو الباب برشاقة. من فوق كتف أبي، شاهد هيث والدتي تقترب أثناء مداعبته لوالدي وتحسسه لاستجابته، فقال له، أطلب منها ألا تدخل، وهذا ما فعله أبي.

ما عاد الشخص ذاته بعد ذلك. غدا متجهماً. لا يبتسم إلا لماما. ظل يلتقي بهيث مع ذلك، لا زلت أتذكر مشاعر المرارة الغاضبة التي كانت

1- Niggerisms: يقصد بهذا المصطلح أفعال الزنوج السيئة من أسلوب الكلام، والسرقة والخطف والإساءة لغير السود - المترجم.

تسود شجاراتهما. تلك الشجارات التي كانت مليئة ببعض الكلمات القاسية والقاطعة والمنتقاة بعناية، بعد تجرع كمية كبيرة من الخمر، إذ راح والدي، مع مرور الوقت، يشرب بقدر ما كان هيث يشرب. كلما كان والدي يقرأ عن إعدام تعسفي لرجل أسود على يد البيض وأنهم قطعوا له أعضاءه التناسلية ثم دسوها في فمه، كان يقول إنه يفهم المبرر الحقيقي الكامن وراء هذا الفعل. لا أدري إن كان فعل هذا ذات مرة أم لا، إلا أنني على يقين أنه أمر كان ولا بد يرغب أن يصرخ به في وجه السيد هيث. أي أنه يتفهم وجود دوافع ذات طابع جنسي في كل حالة من حالات الإعدام التعسفي.

ظل طيلة ما تبقى من الحياة يكره كل ما يعتبره مثلياً. هجر الفن، وأصبح يقوم بالحفر على الخشب الذي اعتاش منه بقرف في آخر الأمر. كان نحاتاً مثالياً للأثاث الضخم البربري الذي أصبح بالياً في ذلك الزمن، قبل الحرب العظمى. الأسود التي حفرها على الخشب تزمجر، الزرافات تلوك العشب، والغربان السود تنعق. البراثن والأنياب وقطرات الدم في كل مكان. أعمال أثارت ذعري وأنا طفل، وفشلت والدتي أن تجد فيها ما يستثير قهقهتها الشهيرة، ومع ذلك ابتاعها البيض؛ والسود أيضاً أصبحوا يشترونها لاحقاً. تواجدت حتى في منازل فقراء الجزيرة. فضّلوا أن يكون أثاثهم وكل شيء آخر بسيطاً وصريحاً عموماً؛ وحده الله يعلم ما دار في أذهانهم حقاً.

كره والدي لوحاتي وجعلته هذه الرسوم يعتقد بوجود خلل ما في شخصيتي. ظل طوال حياتي يسعى لإبعادي عن الرسم. حين توفي هيث في النهاية إثر نوبة قلبية، كان والدي، وهو الأسود الوحيد الذي سُمِح له بحضور الجنازة، لا يزال حاقداً. لم تتصرف والدتي، وهي تلك المرأة المرحة البشوشة، وكأنها تعرف شيئاً عن علاقتهما أبعد من حقيقة أن هيث رجل لطيف ولو أنه أبيض سكير ويحب زوجها ديفيد، ويتناول طعام العشاء - الذي كان يمدحه باستمرار - أحياناً في منزلنا.

لم يكن والدي ليكترث إذا ما فتك الطاعون بجميع المثليين في العالم. كره هيث لأنه أرغمه على رؤية جانب صغير منه وهذا الجانب موجود فيه هو نفسه. لم يجهزه أحد لهذا التجلي، ولا كان باستطاعته الادعاء أنه لم يبصره. لطالما فكرت بالصراع الذي ولا بد قد خاضه والدي مع نفسه حين عانقه هيث في المتجر. ما حدث له ذلك اليوم بقي عبئاً ثقيلاً جاثماً على روحه. توفي بعد عدة سنوات من الشقاء بسبب تليّف الكبد. انبعثت من جثمانه رائحة مقززة جداً، كريهة لدرجة أن طلاء جدران غرفته مرة أخرى لم يكن كافياً لمحوها. بعد موته، كان علينا كشط وإزالة الطلاء عن الجدران وحرقه، ومن ثم دهن الجدران عدة مرات كي نخفي آثار تلك الرائحة. لا بد أن تلك النتانة، كما أحسست، هي الرائحة العفنة المنبعثة من ذلك الجزء من والدي الذي قتله وسعى إلى دفنه ومواراته عن الآخرين وعن ذاته هو.

حين أخبرت ليزي عن تحامل أبي على الرجال الطريفين وكرهه لذلك الجزء من ذاته، ورويت لها ما جرى بينه وبين هيث في تلك المرة الأولى، أول ما قالته هو أن والدي قد عومل كامرأة؛ ذلك أحد الأسباب التي جعلته يشعر بالأذى إلى هذا الحد؛ وأضافت أن الطريقة التي استجاب فيها إلى شعوره جاء بمزيد من الأذى. لقد تقوض وجوده برمته من خلال ما كان يحدث، مع هذا فما كان قادراً على منع استجابة إيروتيكية حاضرة لديه. قالت أيضاً إنه لم يكن محقاً باعتقاده أن المثليين هم أناس مخالفين للطبيعة، قالت إنهم كانوا حاضرين في كل عصر عاشت هي نفسها فيه - وقهقهت عندما قالت هذا - وادعت أنها شاهدت السلوك الشاذ حتى بين بنات العمومة، كمثال دائم عن السلوك الأخلاقي الذي أقلق ليزي. لم تعلمها إحداهن، كما ادعت، **كيفية** ارتداء الملابس وحسب، وإنما **وجوب** ارتدائها.

***

في النهاية، كان لدى سويلو حكاية يرويها لصديقيه. جلسوا لاحتساء الشاي مع البسكويت في الصالون، وبدأ يروي رويداً رويداً، وبصوت هادئ أجش.

في الحديقة، خلف المنزل ووسط الورود. كانت أمسية في شهر نيسان، دافئة، وصافية، ومشرقة إشراق يوم من أيام الخريف، ولم يكن فعلياً من شيء في الحديقة للعناية به. شجيرات الورد قد قُلِّمت منذ حين وأحرقت أغصانها الصغيرة. ومع ذلك، حين أتذكر تلك الأمسية أراها وسط الورود المتفتحة، كما كانت تبدو في الصيف السابق، سمراء ومعافاة بعينين متألقتين سوداوين، وبشرة متوردة، وشعرها قصير مجعد خفيف كما هي اليوم. كانت ترتدي تنورة طويلة بألوان بهيجة، وتي شيرت. في يديها قفازات البستنة وتحاول أن تلف فرعاً من قصبة الورد المتسلق على تعريشتها.

ياه يا سويلو، قالت، حين لاحظت وجودي في الممشى قرب الباب الخلفي، أنت في المنزل.

بدا عليها السرور لوجودي. إلا أنها لم تهرع إلي وتقبلني كما فعلت ذات مرة. شعرتُ بالانقباض لكنني لم أكن حقاً أتوقع أكثر من هذا. في النهاية، كنا حتى ذلك الحين قد ناقشنا طلاقنا على مدى أشهر. توجهت نحوها واقتربت أكثر من المكان الذي مطّت فيه جسدها بقوة كي تضع الوردة على الحامل، وتراجعتْ قليلاً حين وصلت إليها لأساعدها. كانت نحيفة وهزيلة و*عابسة*، هناك تحت الشمس. أحببت رائحتها، كما كنت على الدوام، رائحة الزهور المنعشة. جعلتني أتوق إلى إمكانية عناقها بالسهولة والطيش نفسهما الذي كنت أعانقها بهما.

أذكر تلك الأمسية جيداً فقد عادت وفتحت موضوع الطلاق من جديد.

ليس لأني لم أعد أحبك، قالت. سأظل أحبك باستمرار. ربما. ابتسمت لي. غير أني لم أعد راغبة أن أكون متزوجة.

ما كان هذا تصريحاً جديداً منها. قالت بعدها. لسوف تجد امرأة أخرى في الحال، أو بالأحرى، هي من ستعثر عليك. سترى.

لا أريد امرأة أخرى، قلت لها.

غير مهم، قالت. فأنت الأندر في جميع صفاتك: أسمر، وحر، وموظف. سوف يتهافتن عليك في لمح البصر.

كنا نتناول الغداء حينها. لم تكن ما قد يسميه الجميع بالطباخة العظيمة، لكنها بالتأكيد طباخة ممتازة. في ساعة تراها تسلق لحم الجنزير مع الثوم وإكليل الجبل، وبالطريقة التي تروقني، تعد السلطة والأرز على البخار. بقيت طيلة عملها هذا جالساً إلى طاولة المطبخ أتابعها.

المشكلة الوحيدة هنا، قالت، وهي مقطبة الجبين فوق صحنها ترش عليه قليلاً من الملح، هي أنها ستشعر بالغيرة.

ماذا؟ سألتها. عمّ تتحدثين. ستشعر بالغيرة. من هذه التي ستشعر بالغيرة؟ وممَ؟

هي، قالت. الزوجة الجديدة. ستشعر بالغيرة مني. ألا ترى أنني لست راغبة بإنهاء علاقتنا؛ أريد تغييرها. لم أعد أرغب أن أكون متزوجة. لا منك، ولا من أي كان. غير أني لا أريد أن أخسرك أيضاً.

حسناً، قالت، لا يمكنك أن تخبز الكعكة ثم تأكلها أيضاً.

لكن، لم لا؟ قالت متسائلة بجدية. لنقل إنك أنت كعكتي. أرغب في الاستمتاع بك وأن أحبك وأثق بك وأكون صديقتك. اللعنة، قالت فجأة. هذا لا ينفع. ما معنى هذا حسب توقعاتك، تعد كعكتك وتأكلها أنت أيضاً؟

ما يعنيه هذا بالنسبة لنا هو، هذه المرة ليس أنت من يقرر. إن كنت تَحبني، ابق مقيماً معي.

قالت سأبقى معظم الوقت. ولكن دون زواج. وفي طابق منفصل.

كنت أهمهم بتأوه. هذه هي المكافأة جراء موافقتي على شراء منزل طابقي.

كنا أكثر سعادة قبل أن نتزوج، قالت.

الجميع كانوا سعداء قبل زواجهم.

فلماذا يتزوجون إذن؟ قالت متسائلة.

لأن كل شيء يفضي إلى الزواج. لا تقولي إننا لم نكن سعيدين بزواجنا، قلت، وأنا أقرب إلى الغضب. كنا في منتهى السعادة.

لا أشعر أنني حرة، قالت.

وهل شعرت يوماً بأنك حرة؟ سألتها.

أخذت تتأمل في سؤالي. أنت على حق، قالت. لم أذق طعم الحرية يوماً، ولا مرة في كل حياتي. وأنا أرغب أن أشعر بالحرية.

قال العديد من زملائي في المكتب أنهم يشعرون بالأسف لانفصالنا. كان زواجنا هو آخر زواج عرفوه مستقراً وسعيداً ظاهرياً. في الأسلوب الذي كانوا يواسونني فيه تلمست نبرة جعلتني أدرك أنهم يعتبرون فاني مسؤولة بالكامل عن هذا الانفصال. بحسب معايير الرجال كانوا مهذبين معها سابقاً إلا أنها لم ترق لهم قط. وعندما جاءت إلى المكتب لملاقاتي قبل خروجنا لتناول العشاء معاً، كانت ساكنة ونائية، عاجزة عن إجراء ولو محادثة قصيرة. علاوة على أسلوبها في ارتداء الملابس. كلما كانت تقصر تنورات باقي الزوجات، كلما طالت تنانيرها. وكانت تضع أوشحة فضفاضة من الحرير، ومرة، خلال حديث مع أحد الفتيان، أشار إلى غليونها إشارة لا مبالاة شبه مستهجنة. غليون للزينة أكثر منه لأي غاية أخرى، حقاً. اشترته لتدخن الحشيش، هذا صحيح؛ لأنها لم تكن لتتعلم أبداً لف السيجارة؛ لكن حينها كان تدخينها قليلاً جداً. على أي حال، هناك أمور معينة لا تتحدثين فيها في مكتب زوجك البعيد كل البعد عن جامعة أصولية، وحتى جامعة تقدمية، حيث أن كل معلم غير أبيض مشتبه بتعاطيه المخدرات، وينكح الطلاب في بيت الدرج، ويخفي مدفعاً رشاشاً في شعره؛ وتحدثنا أنا وهي في هذا.

هل أسبب لك الإحراج؟ سألتني.

كيف يمكن أن تسببي لي الإحراج؟ سألتها، وأنا أميل بجسدي أكثر فوق الطاولة لأقبلها وأمسك بيدها.

يجب أن يكون معنى الحرية عدم التسبب (أو القدرة على التسبب) بالإحراج لأي كان مطلقاً، قالت.

وطلبت العشاء لأعفي أنفسنا من الدخول في نقاش آخر في ***تلك*** المسألة.

كلما اقترب موعد الانفصال راح حديثي معها يزداد صعوبة. كانت تتوسل لي ألا أصرف انتباهي عنها.

هذا زواج لا أريده، قالت بإصرار، ولا أنت.

لكنني لم أتمكن من رؤية هذا. أوه، ***ادعيت*** أنني أتمكن. انخلع قلبي من صدري. شعرت بالهجران، وأنني مرفوض وأسير على غير هدى. ومع ذلك فهي امرأة عرفتها وأحببتها في جانب رائع من حياتي. حين تزوجنا، كنت اعتبره *ارتباطاً* طبيعياً، تثبيتاً قانونياً لما كان من قبل أمراً واقعاً. كنا شخصاً واحداً، برأيي. وزواجنا قانونياً دعم ذلك الرأي.

أتعتقد أن زوجتك الجديدة ستسمح لنا بقضاء بعض الوقت سوية؟ سألتني، إذ كانت على قناعة أني سأتزوج مجدداً.

كرهت التعابير على شاكلة قضاء الوقت. تخلف لدي انطباعاً أنها تعابير مفرطة في الهبّية.

مرة كل عدة أشهر، إن كان سيزعجها لقاؤنا أكثر من ذلك؟

كانت تجلس على طرف السرير. وكنت أنا مستلقياً. وضعت يدها على ركبتي.

- أعلم أن شعور الإثارة نحوك سوف يزداد بعد الطلاق، قالت.

وعود، وعود، قلت بمرارة. فأزاحت يدها عني.

* * *

الفصل الثاني

طوبى لمن يتعلمون أن ثواب إيقاظ الألم
المتعمد كثواب الإيقاظ المتعمد للمتعة.
• إنجيل شوغ.

كانت والدتي سيلي، تتأثر باللون، قالت أوليفيا وهي تتحدث إلى لانس، الرجل الذي لم تكن أكيدة من رغبتها بالاقتران به. كانا يسيران في شوارع واسعة تظللها الأشجار على جانبيها بعد انقضاء مهماتهما اليومية في مشفى هاريسون ميموريال الوحيد المخصص للزنوج في أتلانتا، ويمثلان للمارة ثنائياً غريباً: هي قصيرة القامة بلون بشرتها الداكن جداً، وهو فارع الطول بلون بشرته الفاتح جداً، ومن خلال شعره المتماوج المتأرجح فوق رأسه، وفي ظل ظروف معينة في مدينتهما المعزولة انعزالاً صارماً، فإن بالإمكان تصنيفه رجلاً أبيض.

تحدّثت أوليفيا ببساطة وجدّية تميزان شخصيتها، وأنصت لها لانس باهتمام تام، وليسمع أخيراً، وبمحض الصدفة، حكايا سارة عن حياة يفتقدها.

في السنة التي قابلتها فيها، تابعت أوليفيا، حين بلغت الخامسة والثلاثون من عمري، كانت شغوفة بالأزرق. ليس زرقة السماء الصافية أو الأزرق الفاتح لأقمشة ثياب يوم الأحد، وإنما توليفة من الأزرق الفخم بلآلئ معدنية. مزيج من الأزرق المثير الضارب إلى الخضرة الذي عثرت عليه ذات يوم بفرح عارم أثناء تنقيبها اللانهائي في متاجر

الأقمشة في طول البلاد وعرضها. تلك الدرجة من الزرقة التي، حسب وصفها، تستنهض الطاقة، أو لأستعمل كلماتها هي، تستنهض القوة. كلُّ من يرتدي هذا الأزرق تزداد ثقته بنفسه وقوّته حالاً، ويغدو حضوره وحيويته أكبر مما كان يوماً. صنعت لي طقم ثياب من بنطال وسترة، وباتا يمنحاني كل تلك الصفات كلما ارتديته، كما تكهنت بالضبط، وشعرت بالأسف عندما دلقت ابنتي فاني نزينغا، وهي تساعدني في إعداد فطيرة الطامال[1]، صلصة الفلفل الحار عليه، وتعذر علينا إزالة البقعة، رغم المرات العديدة التي حملته فيها إلى مصابغ الملابس. اشتريت طقماً أزرق آخر بعد سنوات، إلا أنه لم يكن بالكمال الذي كان عليه ذاك الذي خاطته والدتي. مع أن لونه كان قريباً جداً من طقمي الأزرق السابق، فلم يفلح في إخراج أي طاقة مميزة مني. انتابني في الواقع شعور بالوهن كلما ارتديته. كأنني أرتدي ظل طقمي القديم.

لا علم لي إن كان هذا اللون هو لونها المفضّل دائماً. عرفتْ طفولة شقية، وأمضت جل شبابها بعد البلوغ في تربية أطفال امرأة أخرى، أما أبناؤها فقد ربّتهم خالتي نيتي - أنا وأخي آدم - والتي عاشت في إفريقيا كمبشرة. تربينا أيضاً على يد والدتنا بالتبني، كورين، حتى بلغنا سن المراهقة. توفيت بعد إصابتها بالحمى ودفنت خارج القرية التي كنا نقيم فيها. كان والدي صامويل مبشراً أيضاً، بيد أنه تخلى عن إيمانه قبل وقت طويل من عودتنا إلى أمريكا؛ لم يفقد الإيمان بتعاليم المسيح الروحية، النبي والإنسان، بل بالمسيحية كدين يُوظّف للهيمنة وإخضاع باقي الشعوب. أمضى وخالتي نيتي، التي تزوجها بعد وفاة والدتنا بالتبني، أمسيات طويلة معنا أنا وأخي وهما يناقشان أفضل السبل التي يجدر بنا أن نسلكها لمساعدة أبناء شعبنا على اكتشاف قواهم الكامنة والتواصل مباشرة مع الله. كنا جميعاً قد بدأنا نرى بأن صورة الله في إفريقيا - حيث يتعبد البشر أشياء متنوعة، بما فيها أوراق النباتات التي يستعملونها أسقفاً لمنازلهم - ليس حجراً ضخماً

1- فطيرة مكسيكية من دقيق الذرة والفلفل الأحمر - المترجم.

كالمسلة، ولا هو من أملاك موسى كما علمونا أن نفكر، فهو ليس بمنفصل عنا أو غائب عن أي مكان في العالم يقطنه الإنسان. عندما انفتحت هذه القناة، كما يقال، كلما ازداد تلقين أبناء شعبنا التعاليم الدينية، وازداد تشتتهم وإبقاؤهم تحت الظلم، وتبعثرهم التلقائي. لم يتمكن الأفارقة قط، من خلال هذا الدين الجديد الذي جلبناه لهم على سبيل المثال، أن يشعروا بمحبة الله لهم؛ أما في الأديان التقليدية التي اعتنقوها فكانوا يتعاملون مع هذه المحبة كأمر مفروغ منه وبدرجات متفاوتة.

وجد أبي الشجاعة ليعترف بأنه كراهب ليس ضرورياً لخلاص أي أحد. لا بل أردف من المؤكد أنها واحدة من دعابات الكون الصغيرة وجوب وجودي كقس كي أنير لهم الدرب.

الدين الذي يكتشفه المرء في دخيلته هو حكاية الأرض والكون والخلق نفسه؛ ومهما يكن الخير الذي ينشده المرء فهو غير موجود في درب الخلود الطويل، وإنما في قرية هذا المرء تحديداً، في بيته وموطنه. على ***هذه الأرض***. في النهاية، طالما أن هذه الأرض هي كوكب يدور على مداره في الفضاء، فنحن جميعاً نعيش ***في الجنة*** أصلاً! لا علاقة لله الذي يتجلّى للمرء في كلام الله نفسه بإدارة الخد الآخر. ولا حتى بالتحول إلى قيصر. إنما فقط بالجمال وعظمة الأرض والعالم والكون. هذا الله مرتبط بالخلق وإمكانية الفرح. يمكنك القول إن الرجل الأبيض أفسد، من خلال دوره المزدوج في الإرشاد الروحي والعهر الديني، حتى أرقى أشكال الله الأدبية حنكة بالنسبة لنا، عبر تحوير الكتاب المقدس وجعله ينطق بكل ما هو ضروري بغية المحافظة على حسن سير إقطاعاته، واستعماله كأداة للحط من مكانة المرأة واسترقاق السود. مع أن الديانات الإفريقية القديمة، حيث يصور أحياناً بتر أعضاء النساء على أنه أمر سائد، قد تخلت تقريباً عن كل ما هو مرتبط بالرغبة. نصب الرجل نفسه في تلك الديانات، نتيجة انعدام أمنه وشعوره بعدم إمكانية أن يغدو محبوباً، صلة وصل وحيدة مع الله، مع أن الله في تلك الأزمنة

كان مختلفاً عن الحالي. غالباً ما كان والدي يعلّق على الأسلوب الذي يخشع فيه القرويون أمام رجال دينهم ويسجدون لهم - مثلما يخشع الكاثوليك وينحنون للبابا - لدرجة ينسى فيها تماماً المتلقي المفترض الحقيقي لاسترحاماتهم وصلواتهم، ألا وهو الله نفسه. مع ذلك ثمة نقطة صغيرة في صالح الرجل الملون.

ما هي الحقيقة الوحيدة المطلقة عن الرجل الملون فوق هذه الأرض؟ كان والدي يتساءل. إنه يقرُّ بوجود الروح، تراه يجيب نفسه. ويقصد بهذه الروح الموجودة في كل شيء وليس فقط روح الله أو الطيف المقدس، هذا الطيف الذي كان ذات مرة الجانب المؤنث في الإله، أو يسوع المسيح.

كنت خلال تلك النقاشات أراقب والدتي وهي تبدع الكسوة بشكل سحري وتنجزها في تدرج لوني مميز للأزرق الذي منحته في آخر المطاف لقب أزرق القوة.

تسحرني بتسريحتها لشعرها الذي كان ما يزال فاحماً في الوسط وضفره في جديلتين تلتقيان خلف رأسها وتلتفان نحو الأسفل. ارتداؤها الدائم للبنطال، حتى في الكنيسة، لكنه بنطال مشغول بإتقان لدرجة أن أحداً عدا النساء لن يلاحظ أنه بنطال. بأسلوب كلامها القليل، وهي عادة اكتسبتها على ما يبدو من طفولتها ويفاعتها، أذهلني مزجها للغطرسة والرزانة في كلامها الذي يميل أحياناً للدعابة لكنه دائماً قاطع. كانت متحدثة موضوعية. ما تتفوه به تشعره وتحياه.

أقمنا في منزل قديم فسيح في أواسط جورجيا ورثته عن أهلها. والدها أعدمه البيض إعداماً تعسفياً؛ وفقدت والدتها صوابها جراء هذه الجريمة المروّعة. أنا وأخي حصيلة اغتصاب والدتنا من قبل زوج أمها، رجل نال إعَجاب السود والبيض على حد سواء في الحي الذي كنا نعيش فيه. هو من سلّمنا إلى والدنا صامويل، الذي اصطحبنا بحراً إلى إفريقيا حين كنا أطفالاً، برفقة كورين والدتنا بالتبني والخالة نيتي.

تلك الإفريقيا التي عرفناها للمرة الأولى كانت حتى ذلك الحين

مغتصبة في الكثير من أرزاقها، وشعبها يباع في سوق الرقيق. مع الأخذ بعين الاعتبار ازدهار الأسواق الخارجية والداخلية، فقد ظلت هذه التجارة تسير على خير ما يرام على مدى ألف عام؛ ولا بد أنها انطلقت في لحظة كانت فيها أولى الحضارات الإفريقية تجنح نحو الانحدار، في حوالي عام ستمائة. شُحِنت الملايين من أشجارها بالبواخر إلى إنجلترا وإسبانيا والدول الأوروبية الأخرى لصناعة مقاعد الكنائس ومذابحها في تلك الكاتدرائيات الأوروبية الضخمة ذائعة الصيت؛ حفرت المناجم لاستخراج معادنها وفلزّاتها وزرعت أرضها بالمطاط والكوكا والأناناس وجميع أصناف المحاصيل لمصلحة الغزاة الأجانب. قلّما أطلقت عليهم، كما يفعل الأجانب، صفة المستثمرين. وتحولت إفريقيا نفسها - أقصد صنعت - إلى منطقة غير مأهولة في مخيلة العالم، عدا ما يتعلق بصورة قاطنيها من الحيوانات البرية والاستوائية العجيبة.

على خرائط إفريقيا التي تعود إلى خمسمائة عام خلت، كما أشار أحدهم، وضع الأوروبيون الفيلة في مواقع القرى. لا أتذكر أمريكا فقد رحلتُ عن أمريكا وأنا في السادسة من عمري. إلا أنني أتذكر المحيط. بريق المياه الممتدة إلى ما لا نهاية، الأرجحة المنتظمة العميقة للباخرة، السؤال إن كان هذا الكم من الماء، بكثافته المطلقة، سيغدو - إذا ما سار المرء فوقه - أرضاً من زجاج. أتذكر نكهة رذاذ المحيط على وجهي لحظة أشار أحدهم إلى ملوحة مياه البحر. إن كان مالحاً، تساءلت محتارة، فلمَ إذن ليس أبيض اللون ومبلور، كملح الطعام الموجود في المنزل. حيّرني مذاق مياهه المالح إلى أن سمعت مصادفة خالتي نيتي تقول لوالدتي بأسى أنها ربما مجبولة بدموع وعرق جميع البشر الذين يعانون على وجه الأرض. بكت بكاء مريراً بسبب هذه الرحلة، ولم يعلم أحد منا، ولا حتى والدي ووالدتي، السبب في بكائها.

بعد وصولنا إفريقيا عانيت من اعتلال دائم طوال سنوات. أصبت بعدوى متكررة بالملاريا، شأني شأن جميع أفراد أسرتنا. وابتليت

بالطفح الجلدي والتقرّحات الجلدية وأصناف أخرى من تهيج الجلد فاقمها ارتفاع درجات الحرارة الرهيب. كانت الخالة نيتي، والتي دعوناها في بعض الأحيان ماما نيتي، تثني علي لأني لم أكن كثيرة الشكوى. كما تستدعيها ذاكرتي الآن، كنت أكثر بؤساً من أن أشتكي. أحياناً كان الطقس حاراً لدرجة أنه أقعدني عن الكلام. تحسن وضعي في سني المراهقة وأصبح أفضل بكثير.

كنت سعيدة في الواقع. ولم لا؟ أمضي النهار برفقة صديقتي المفضلة تاشي. نلعب بيت بيوت، نخوض في النهر ونجمع الطعام البري والحطب من الغابة. غابة ذات خصوبة وكثافة وسحر هائلة. كانت في الغابة أشجار عمرها آلاف السنين وأكبر بما لا يقاس من الأكواخ التي كنا نعيش فيها. تشاركنا جميع نشاطاتنا وأحببتها أكثر مما كنت سأحب أختي الحقيقية؛ أحببتها بقدر ما أحببت أخي آدم أو أكثر، والذي تحول من صبي يكبرنا يستفزنا ويطاردنا ويشدنا من جدائلنا ويشي بنا لوالدتينا، إلى صديق مؤتمن لتاشي وعشيق، ومن ثم بعد عدة سنوات، إلى زوجها.

تبدأ حكايتي الخاصة في السنة التي سبقت زواجهما. إذ تعمّقت رفقة تاشي بأخي أكثر من رفقتها بي. خلّف لدي هذا شعوراً هائلاً بالمرارة، فقد جعلني في وحدة قاتلة؛ وباتت رفقتهما تعتبر لجميع جيرتنا مصدر اعتزاز وأمراً مفروغاً منه. حتى بالنسبة لتاشي كان الأمر كذلك. انصرمت أيامنا من المرح البناتي معاً وأصبحت شيئاً من الماضي. نتيجة قناعتي أن الأمر يجب أن يسير على هذا النحو، قسوت على نفسي لأتحمّله، وغيّرت ملامح وجهي ليغدو مستعداً لخدمتهما بمحبة. لكن هذا الصنف من العذوبة والخفة له ضريبته، فقد دارت أفكار كثيرة مظلمة أحياناً في خلدي. وعيت وقتها للمرة الأولى أنك قد تحب أناساً حباً كبيراً جداً وتسيء إلى سعادتهم لعدة أسباب من بينها محبتك لهم.

فيما تركَّز الانتباه بأكمله على آدم وتاشي، تُركت أنا لوسائلي الذاتية وأهملت بشكل كبير، أو، يتعين علي القول، لم يلحظ أحد وجودي.

كانت كورين آنذاك قد توفيت منذ زمن بعيد. وأتى الأوروبيون ودمروا القرية التي كانت يوماً موطناً لنا. نقلنا إلى امتداد صخري قاحل ينبسط محاطاً بإقطاعية أشجار المطاط الشاسعة والتي يملكها ويديرها الإنجليز، وأصدقاؤنا يؤلفون جميع عمالهم الميدانيين. في أقل من سبع سنوات، استنزفت منظومة الإقطاعية البشر والحجر على حدٍّ سواء؛ وأبادت إبادةً حقيقية أيضاً أشجار المطاط البرية المحلية، التي كانت ذات يوم تنمو بوفرة في كل مكان. تعرَّت التربة في المواقع التي كانت غابات وارفة فيما مضى تعرية متراميةً. لقي الكثير من أصدقائنا حتفهم جراء إصابتهم بشتى أصناف الحمى، وسوء التغذية، وقسوة ظروف العمل. أو كانوا يفرون هاربين للالتحاق بالمبيليز[1] وهم جماعة من رجال العصابات - حسبما كنا نعتقد - الأفارقة الخرافيين الذين يقطنون الغابة البعيدة عنا بأميال وأميال.

وفي النهاية، لم يبق سوى شاب إفريقي واحد، في المجمع السكني القبيح والمغبر المسقوف بالصفيح الذي كان منزلنا المشترك. اسمه المسيحي داهفيد، وطالما أن هذا الاسم هو الذي يسمّى به دائماً، فلم أسمع إطلاقاً باسمه في قبيلته إلا بعد عدة سنوات. بقي داهفيد في الحي بسببي، غير أني لم أكن أعرف أن هذا هو دافعه. كان شاباً عنيداً وهائجاً وضارياً أحياناً، رأسه خال من التفكير في نظر الجميع، وكما كنت أعتقد، وبالذات في نظر الفتيات؛ وفي بعض الأحيان جعل حياتي أشد صعوبة جراء تعليقاته الساخرة والنزقة وسلوكه الفظ حيالي وأسرتي، إذ فسّر والدي سلوكه هذا على أنه أسلوب يتبعه للاحتجاج على الكارثة التي لحقت بشعب الأولينكا والحط من قدرهم حتى العبودية الحقيقية. ومع ذلك لم أستوعب لِمَ يوجّه حقده هذا ضدنا نحن بالذات، فقد كان ذلك شيفرة عصية على الحل بالنسبة لي، إذ لم يكن مجيء الأوروبيين ذنبنا.

1- Mbeles: عصابات إفريقية وتعني حرفياً الأدوات ذات الأطراف الحادة كالسيوف - المترجم.

في أوقات أخرى، عندما لا يكون بذيئاً ويدعونا بإسفين الرجل الأبيض، كان داهفيد مؤهلاً أن يكون في منتهى الجاذبية. أعترف أنه جذبني في تلك الأوقات، كان انجذابي لآدم. وصلت إلى قناعة أن أقصى ما يطلبه الذكور من الحياة هو آلة تسيرّهم، أو شخص بلا مشاعر ذو قوة تفوق الطبيعة. ما كان داهفيد قادراً على ملاحقة الأوروبيين لوحده، على سبيل المثال. وما كان قادراً حتى على منعهم من النظر إليه وإلينا جميعاً كأننا ولدنا بهائم للأحمال بأمر إلهي. أوغل الكثير منهم في هذا إلى حد اعتبارهم أن ليس من حق الأفارقة أنفسهم العيش في إفريقيا، بما أن خطة البيض هي الاستيلاء على القارة؛ يمثل الأفارقة المسؤولية الثقيلة الكاملة للإبادة الجماعية.

في السنة التي استرد آدم فيها تاشي من المبيليز، إذ هربت والتحقت بهم نتيجة اضطرابها إثر إبادة شعبها وإصرار آدم على مرافقتها له إلى أميركا، استجبتُ لطلب متواصل من مهندس إنجليزي شاب ونزلتُ عند رغبته في تعلم لغة الأولينكا. استأذنتُ والدتي الجديدة، ماما نيتي، ووالدي قبل البدء بتعليمه، في الفترة المسائية بعد أن يفرغ من عمله. كان رجلاً قبيحاً، طويل القامة وقد سفعت الشمس بشرته، بيد أن جديته وانتباهه جعلاه جذاباً. كنا نجلس ساعات ونحن نسند ظهورنا على الألواح الخشنة لثكنتنا، علمته لغة الأولينكا التي أنطقها بطلاقة نطقي للإنجليزية، لا بل وكنت قادرة على كتابتها أيضاً فوالدي وماما نيتي هما اللذان وضعا الأحرف الأبجدية للغة للأولينكا. كان اختراع هذه الأحرف الأبجدية فكرة كورين من قبل، فقد انحدرت من قبيلة الشيروكي من جهة والدتها، وساهمت جدتها لأمها في وضع الأحرف الأبجدية لشعب الشيروكي وأصبحت محررة لأول صحيفة شيروكي في هذه اللغة. أحد الأسباب في اعتبار قبيلة الشيروكي إحدى القبائل الهندية الخمسة المتحضّرة في أمريكا هو إصدارهم تلك الصحيفة. لم يمنع هذا، على أية حال، الرجل الأبيض من إحراق منازلهم وإعادة توطين بقايا القبيلة في أوكلاهوما حين وضع عينه على أرضهم.

في أحد الأيام، ونظراً لحرارة الطقس ولأن ما جرى قد جرى بكل بساطة ولم يكن أحد ليكترث بما نفعله - كل الأفكار تتجه نحو ملاحقة آدم لتاشي - رحنا نتنزه مبتعدين عن التجمع السكني، وتوقفنا نتحدث لغة أولينكا في ظل صخرة ضخمة. مال الرجل نحوي، يدعى رالستون فلود، بوجهه المحمر والمشعر المعروق ثم قبّلني. بادلته القبلة بسبب اللباقة والدهشة والضجر والوحدة. بمعنى أنني وضعت يديّ على ذراعيه والقبلة مستمرة. بعدما انتهت القبلة - انتظرت إلى أن أدار ظهره وراح يهذر بالأولينكا سائراً أمامي - فركت فمي بطرف بلوزتي لأزيل آثارها.

لم ير داهفيد مسحي هذا للقبلة. لا بد أنه انصرف أثناء القبلة نفسها. فهو أيضاً كان ينشد البرودة ذلك المساء في ظل تلك الصخرة.

قاطعني ولم يتحدث إليّ لبضعة أيام. لقد أثبت أمراً شعر بضرورة إثباته، لم يحاول الإنجليزي تقبيلي بعدها. بعد ذلك بوقت قصير، ولأنه تعلم اللغة بشكل يمكنه من إصدار الأوامر لعماله الميدانيين من الأولينكا بها، لم يعد يأتي إلى الدرس اليومي، ولم أشتق إليه في الأيام القليلة الأولى، رغم كوني وحيدة معظم الوقت. لم أكن وحيدة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار جميع أولئك المعتلّين والمحطّمين الذين كنت وأهلي نسهر عليهم باستمرار، لكن لوحدي لأنه لم يكن لي - بعد رحيل تاشي ووالدتها وآدم - من أقهقه معه فعلاً أو أتبادل وإياه الأحاديث.

علمت أن الأولينكا قضوا بتجريم أي نوع من أنواع التعامل مع الأوروبيين، وكانوا يمانعون تعليمي لغتهم للإنجليزي. لندعه يأمرنا حتى يكلّ لسانه التعس ويتعب، كانوا يرددون، مستمتعين بالتقليد الساخر لكلام الأجانب، ضاحكين عليهم من خلف ظهرهم. بالنسبة للأولينكا، تحمل اللغة الإنجليزية، بالطريقة التي ينطق بها آسروهم، نغماً معتلاً على شكل تقيؤ وتفتقد للفوارق الدقيقة والموسيقا في أحرفها بقدر افتقاد الحجر لها. ومع ذلك لم يمانعوا حين طلب والدي منهم أن يأذنوا لي بتدريس الإنجليزي، هذا لأنني لم أكن واحدة منهم. طالما

أنني امرأة، فقد أعطوا موافقتهم على مضض وبموقف يشي بأنهم غسلوا أيديهم مني ومن أية عواقب قد تنجم عن هذا.

لم يفضح داهفيد جريمتي أمام العجائز الباقين. جريمة تلقي القبلة من الإنجليزي. لم يكن مضطراً. احتفظ بالسر بغية تأديبي. وأخذ تأديبه لي، في وقت لاحق، منعطفاً متوقعاً. طالما أنني لم أصدَّ الإنجليزي، فيجب علي ألا أصدّه. وهكذا، منحته قبلة ذات مساء، في المكان الظليل نفسه الذي قبّلت فيه الإنجليزي. لم تكن القبلة وحدها كافية كما اتضح.

بعد رجوعي إلى أمريكا برفقة آدم وعروسه تاشي، ووالدي صامويل، وخالتي ماما نيتي، أدركت أنني حملت من داهفيد حملاً متيناً كما حدث مع أمي الحقيقية سيلي، ولكني لم أقل شيئاً. وكما كانت تاشي حاملاً من آدم حملاً متيناً.

ماذا عليّ أن أفعل؟ نصحني أفراد أسرتي بالاحتفاظ به؛ وعرضت تاشي علي بإخلاص مساعدتي في تربيته جنباً إلى جنب مع طفلها. ولدت ابنتي في التاسع من أيلول وهو يوم ميلاد ليو تولستوي، أعظم كاتب في التاريخ حسب رأيي، وأحد أكبر العفاريت - أفضل كاتب لدي على كل حال. في يوم من أشد أيام السنة حرارة، ولّدتني أمي، التي كانت وقتها قابلةً إضافة إلى أنها أمهر خياطة في الجوار.

صاحت أمي في اللحظة التي ظهر فيها رأس الوليد، فاني الصغيرة! حدث هذا حتى من قبل أن تتأكد أنها فتاة. لم تستطع أن تكبح نفسها. كان اسم فاني، اسماً على ما يبدو يمثل لها الحرية، ورغبته لنفسها على الدوام. كرهت اسم سيلي. مع ذلك، وفي اللحظة التي أخذت فيها نفساً كي تتمَّ تسمية الطفلة صرختُ وسط تعبي الشديد وضعفي بأعلى صوتي نزينغا![1]

* * *

1- Nzinga: ملكة أنغولية حاربت البرتغاليين - المترجم.

أولى ذكرياتي الباكرة عن عصفور أحمر له مجسات ماصّة على قدميه وعن عجوزين تتبادلان القبل، تقول فاني لأختها فيما بعد، بعد أن اكتشفت أن لها أختاً. صُنع هذا العصفور الأحمر من القماش والريش والمطاط؛ وكانت العجوزان اللتان أهدتاني إياه من لحم ودم برائحة زكية. يمكن تثبيت الطائر الصغير على أي سطح غير زلق: على زجاج النافذة وفي أعلى مهدي، وعندما أسحبه بكل قوتي، يصدر عنه صوت كصوت الوثب يبعث على السرور، فأصبح في يدي. لم أكن في البداية أرى وجه الشبه بين هذا الشيء الذي في يدي، بعينيه الصفراوين المتألقتين وذيله الأخضر الضارب إلى الصفرة، وتلك المخلوقات المحلقة في السماء. مع ذلك، حاولت العجوزان جاهدتين تعليمي هذا الشبه، وعندما كانت إحداهما تحملني بذراعيها وترفعني، وهي تبدي إعجابها بعصفوري وتهصرني بعناقها المميت تقريباً، كانت الأخرى تواصل القول صه مشيرة إلى مخلوق حطّ على دغلة قريبة ويغرد بصوت شجي. مخلوق بعيد كل البعد عن عصفوري الأحمر. فمثلاً لم يكن عصفوري يغرّد بل يعيش في قبضة يدي. رأسه يتناسب مع فمي حتى أضعه فيه.

ومع هذا، كان لا بد لي من فهم العلاقة بين اللعبة والعصفور الحقيقي، لأنني آجلا أم عاجلاً سأقول عصفور! وتلك أول كلمة نطقت بها. وهو أيضاً لقب جدتي.

تبين أن العصفور، أي عصفور، كائن أثير لدى جدتي سيلي، تماماً كما هي السلاحف والفيلة عزيزة على قلب صديقتها السيدة شوغ. فيما كنت أحبو في أرجاء المنزل وأستكشفه مع ابن عمي الأول موراغان بينتو أو بيني اختصاراً، كنت طوال الوقت أركب وأجلس، وريالتي نازلة على حجر أو قطعة معدن أو قماشة جميعها على شكل تلك المخلوقات الأثيرة. كانت غرفتا والدتي عاريتين وليس فيهما ما يثير الانتباه مقارنة مع باقي المنزل. ثمة أشياء معلّقة على جدران غرف أمي – ملابس وأقنعة

وعقود من الأصداف أو الخرز الكبير في أرجاء الغرفتين - لم يكن يسمح لي بلمس أي منها، حتى عندما بلغت طولاً يؤهلني للوصول إليها.

لم تهتم والدتي بي اهتماماً مميزاً. بينما ماما الكبيرة (كما كنت أدعو جدتي سيلي) والماما شوغ (كما كنت أدعو الآنسة شوغ) كانتا على الدوام حاضرتين لمنحي قبلة وضحكة وعناقاً حميماً ونزهة إلى الحديقة أو على الأقل إلى الشرفة الأمامية. كانت أمي - هل أجرؤ على قول هذا؟ - امرأة مملة، نادراً ما تضحك وأنفها مدسوس دائماً في أحد الكتب.

عادة ما كنت أجلس على الأرضية عند قدميها، بعد أن أكون قد حبوت في المنزل حتى تعبت، وأرفع ناظري نحوها، على أمل أن تنحي كتابها للحظة وتلعب معي. فعلتْ هذا من حين لآخر، لكن اهتمامها السطحي بي أثار سخطي. عوضاً من مبادلتها النفاق، وبالتالي أظهر كأنني راضية به، كنت أتملص من بين ذراعيها باكية. وعلى الفور ستصل إحدى رفيقتيّ أو كلتاهما، أتلقى عناقاً في منتهى الصدق، وقبلاً بمنتهى البراعة، يغيرن لي حفاضي إن كان هناك لزوم لهذا، ويلقمنني شيئاً سواء طلبته أم لا. كنت مكتنزة بشكل لافت للنظر، سمينة ومكورّة مثل ماما شوغ. عندما كنا نستلقي معاً، نبدو مثل كرتين، الصغيرة تتكئ على الكبرى. وكم نستمتع بتلامس بطوننا السمينة! لم تكن أي منا تتخيل أن الأخرى قد ترتكب أي خطأ. وكنا على حق.

عشت تلك المرحلة من حياتي في هناء متواصل. قلّما حدث ما كنت أعتبره تهديداً لي. سرعان ما تعلّمت أن أولي والدتي اهتماماً قليلاً على قدر الاهتمام القليل الذي أولته لي، وكانت حياتي دورة من الأحداث المبهرة والابتسامات العفوية. كان زوار منزلنا بشكل متكرر يغدَقون اهتمامهم على بيني، هذه هي الحقيقة، إذ كانوا يقدّرون الصبيان أكثر في بيوتهم. أما في منزلنا، فأن تكوني فتاة فهذا يعني أنك تتلقين اهتماماً خاصاً، وجميع أساليبي النسوية تلقى الاستحسان. أزين نفسي بكل ما تقع عليه يداي من ملابس وحلي أثناء تنقيبي الروتيني عنها

في دروج الجميع. أسترق النظر تحت ذيول الفستان وأمعن النظر في المغاليق السرية لسراويل الرجال. حاولت أن أطبخ، وأن أقطّع الحطب كما رأيت الآنسة صوفيا، صديقة ماما الكبيرة المفضلة، تفعل، وسعيت إلى بناء بيت من حطب الموقد ووضعت له ستائر من القش. تخيلت لنفسي سيارة، مثل سيارة ماما شوغ، وقدتها لمدة ساعة. جلبت المال إلى المنزل وأخذت الجميع في نزهة أيضاً.

هيا، دعونا نمضي، هيا جميعاً، كنت أقول لبيني وللدمى المتجمعة، كأننا نتوجه إلى مرقص ليلي على بعد أميال.

كنت أتخيل أحياناً أنني أفعل الأمور التي تقوم بها أمي وجدي. أقرأ. أو أتخيل نفسي بابا ألبيرت، الذي كان بالنسبة لي زوج ماما الكبيرة، وأسرح بنظري في الفضاء.

* * *

أخيراً قالت فاني في أحد الأيام، اسمع يا سويلو، أنا أحبك حباً يمنعني من طلاقك دون موافقتك. كنت رجلاً رائعاً معي. كيف كنت سأنضج من دونك؟ سوف أسافر لبعض الوقت بصحبة والدتي. سنعود إلى إفريقيا لزيارة الأولينكا. لقد تحررت بلادهم الآن، ويرغب والدي في أن يكحل عينيه برؤيتي.

كتبتُ إليه من لندن: نقيم في فندق كريه جداً. ما من هواتف في الغرف وتتعامل موظفات الاستقبال مع النزلاء بعدوانية. اندلع حريق في أحد الطوابق العلوية في وقت سابق وما زالت رائحة الدخان في الجو. يجلس المالكون الجدد، وهم من الشرق الأوسط، في الصالة يتابعون خادم الفندق الإفريقي، والخادمة النهارية القادمة من الهند الغربية، أما عمال صالة المطعم فهم هندي وعربي ويوناني. موظفات الاستقبال العدائيات، فتيات إنجليزيات شقراوات. قالت والدتي ذات يوم انظري، إنه ليس بمكانٍ آمنٍ حتى؛ يمكنني المرور عبر هذه النافذة فأغدو في الشارع وهذا

ما فعلته. لم نكن نمكث فيه وقتاً طويلاً، بل نمضي معظم وقتنا في المركز الإفريقي، حيث تلقي والدتي محاضرات حول السنوات التي أمضتها في إفريقيا - ترعرعت هناك وهي طفلة أمريكية سوداء حتى بلوغها الشباب.

تشبه ماما قطعة جلد صغيرة، حسب وصفها، لكنها جمعت إلى بعضها بعضاً بشكل متقن تماماً! لم يزعجها حتى التدقيق المشين لحراس المطار، حيث يبدو أنهم يعتقدون بأن كل زائر غير أبيض لإنجلترا آت للإقامة فيها. أية غطرسة هذه! جلست أنصت إلى حكاياتها يعتريني الخجل لأنني تجاهلتها لسنوات طويلة. كما أخبرتك، في طفولتي لم يكن لها أية كلمة في منزلنا المحكوم من قبل الملكتين، ماما الكبيرة سيلي وماما شوغ. بدا وهج أمي ذاوياً إلى جانبهما، وحتى إلى جانب الخالة العظيمة نيتي التي أشرفت على تنشئتها. حتى العم آدم كان مفعماً بحيوية تفتقدها أمي.

ما كان يميزها بالمقابل وضوح رؤيتها المدهش للأمور وإفصاحها عنها بأسلوب صريح ومتواضع. أدركت من خلال استماعي لها هنا السبب الكامن وراء الأداء الممتاز من الناحية الأكاديمية لطلابها في كلية التمريض، واكتسابهم أيضاً شيئاً من هدوء روحها الراسخ. هي خصلة ورثتها من والدتها بالتبني، كما تقول.

جمهورها هنا رائع. من الأفارقة والآسيويين والكاريبيين وطلاب بيض من جميع أصقاع الأرض. لا أبالغ إن قلت إنهم يعاملونها بتبجيل، كأنها على وشك أن تكون وثيقة مقدسة. إذ تمكنت فعلياً أن تروي لهم، بأدق التفاصيل، القصة الكاملة عن استعمار إفريقيا ودور الكنيسة والضريبة الجسدية والنفسية التي دفعها حتى المبشرون أنفسهم جراء ما اقترفوه. توضح باستمرار أن المبشرين هم بشر، كسائر البشر، والكثيرين منهم كان لديه أحلام حقيقية وجديرة بالتقدير حين أبحروا إلى شواطئ عالم آخر. قالت أمراً في الليلة الماضية صدمني فعلاً. قالت إنهم ولدى وصول المبشرين الأوائل إلى قرية الأولينكا، لم يكن لديهم ما يشبه النفايات؛ كانت النسوة يكنسن وينظفن القرية بأكملها مرتين يومياً، في

فترة الصباح وبعد الظهر. إنما بعد ذلك، أي بعد إحكام المستعمرين قبضتهم وضغطهم على البشر لدفع الضرائب علاوة على شراء البضائع المستوردة الرديئة، ما عاد من مكان نظيف سوى مقرّ البعثة. لدرجة أن من يتجول في القرية سوف يفترض أن سكانها قذرين بالفطرة وأن الأجانب هم وحدهم فقط من يهتمون بالنظافة.

لا تزال والدتي تبدو كمبشرة، بأناقتها وشعرها غير المسرح. في الواقع، ولم يكن فيها أبداً ما يشير إلى بعثة البيض التبشيرية سوى اسمها: *أوليفيا*، تيمنا بالجنة! يذكرك هذا بفاينيسا ريدغريف[1] وهي تعلّم السكان المحليين في المناطق المدارية! التقيت هنا في المركز بمئات المصورين الأفارقة من ذلك الزمن، وهي تبدو شديدة الشبه بهم، مع فارق بسيط هو لون بشرتها الأفتح قليلاً ليس إلا. لدى رؤيتي لهم اكتشفت ذوقهم المميز البسيط وجديتهم الخالصة. لا ترى أية مجوهرات، أو بالكاد القليل منها. عيونهم الجدية، والمتفانية والمفتوحة على اتساعها بنظرة مباشرة، هي حلي تلك الحقبة. يودّ الطلاب الاطّلاع على كل شيء ويطرحون الأسئلة: ما هو مصدر الماء بالنسبة لهم؟ أهو النهر؟ أين كان الناس يتسوقون؟ لم تظهر المتاجر إلا بعد مجيء الاستعمار. كانوا يتعاملون بالمقايضة، بدلاً من البيع والشراء. ما هو عدد البيض الذين التقتهم في طفولتها؟ قلة قليلة منهم. عدد الحيوانات البرية؟ قلة قليلة منها. وفقاً لاعتقاد الأولينكا فالبيض يمثلون مظهراً غير ناضج للبشر، كأنهم أجنة كبيرة السن. كان هذا تعليقهم حتماً لدى رؤيتهم لأول أبيض. أخذوا يميلون لمعاملة البيض في حينها بالرعاية والخوف عليهم، كما لو أنهم أشخاص ضعفاء.

لم يكن هذا التصرف مفهوماً، وجاء بنتائج عكسية على نحو خطير، قالت والدتي. فضحك الطلاب.

على أية حال، أثناء وجودنا في **قاعة المركز الإفريقي** علمنا أن والدي

1- Vanessa Redgrave: ممثلة مسرحية وناشطة سياسية بريطانية، ولدت في عام 1937 - المترجم.

تعرض للاعتقال. ربما اعتقدت بأنني لم أتأثر بهذا الخبر، طالما أنني لم أر هذا الرجل في حياتي. ومع ذلك، فقد انفعلت. بعد قراءتي لمؤلفات والدي وحضوري الآن، هنا في لندن، أحد أعماله المسرحية - أنتجه طالب صغير وتم تمثيله بشكل ضعيف وعرض برداءة على الخشبة - أمكنني التكهن بسبب اعتقال السلطات له. تقول والدتي إنها تستغرب عدم اعتقالهم له من قبل. راح الطلاب يناقشون هذا بعد المحاضرة. نوّهوا إلى جائزة السلام البديلة الدولية التي حصدها والدي في العام الفائت، في الفترة نفسها التي كانت الحكومة على وشك سجنه على ما يبدو. وهذا ما كان، سيّروا جرّافة على آخر أعماله المسرحية وهدموا المسرح.

عمله المسرحي الأخير هذا بعنوان *البقشيش*، تدور أحداث المسرحية حول التحصيل الضريبي. بكلمات أخرى، هو عمل مناهض للضرائب؛ ما من كاتب مسرحي سيؤلف هذا النوع من الأعمال في أمريكا وبالتالي ما من منتج سوف ينتجها، مع أن الجميع هناك يهتفون ضد الضرائب. حاولت تخيل هذا في أمريكا، وفكرت بمدى روعته. بكل الأحوال، كان بعض الطلبة في المحاضرة قد حصل مسبقاً على نسخ من *البقشيش* ويزمعون إنتاجها. يبدو أن الاستقلال لم يخفض الضرائب على الشعب إطلاقاً، ولا زاد من مداخليهم. أوفف! عندما لا يرون انعكاس الضرائب التي يدفعونها في العمل على حياتهم - ما زالت الدروب ملأى بالحفر، والمشافي تفتقر إلى الطبابة والمدارس تعوزها *الأقلام*، ناهيك أن *الجميع تقريباً لا يحصلون على كفايتهم من الطعام* - بالطبع سيرفض البشر دفع هذه الضرائب اللعينة! استوحى والدي فكرة المسرحية من المظاهرة العادية - أحداث شغب، بحسب توصيف صحيفة محلية تديرها الحكومة والتي يقول الطلاب أن المخابرات المركزية الأمريكية تموّلها - التي نظمها نساء وأطفال، واقتحموا في أثنائها منزل الرئيس يوم علموا بحجم أموالهم التي ذهبت إلى الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي مقابل أسلحة كان أولادهم من الضعف وقلة التعليم

والجوع، عاجزين عن استعمالها، على افتراض أنهم يرغبون في أمر كهذا. تكمن المصيدة في أن الطعام يحصل عليه من يتطوع في الجيش، رغم غياب التعليم. يتلخص موقف والدي أن السبب في إبادة ملايين الأفارقة على يد بعضهم البعض في الحروب هو وجود مخازن هائلة من الأسلحة القديمة لدى القوى العظمى يتوجب التخلص منها. يبدو أن النساء وحدهن فقط من يلاحظ معاناة جميع الأطفال.

أليس هذا هو شاغل الأم الإفريقية في جميع أنحاء العالم؟ تعليم أبنائها ودفع أقساط المدرسة التي لا مفر منها التي تدّخرها بطريقة ما من عائدات عملها في الغسيل، وكي الملابس، وأعمال الحقل والعمل في المناجم، وشتى أصناف العمل.

لا يدعو الطلاب والـدي باسمه الـذي يتطلب لـيّ اللسان، أباجيرالاسيزيولا، وهو مجرد تحسين طفيف لاسم داهفيد، حسب ظني، ولم أفلح أنا أيضاً في لفظه بشكل صحيح أبداً. كانوا يدعونه آولا. آولا لديه هذا القول. آولا يكتب كذا وكذا. آولا مصيب أو مخطئ في إجابته على هذا السؤال أو ذاك. بمعنى آخر، أصبح والدي شخصاً مقرباً منهم. استنكفوا احتجاجاً على اعتقاله. سوف يحدث أمران، كما يقولون: إما أن يسجن لوقت طويل، وربما يتعرض للتعذيب، أو يطلق عليه النار مباشرة. لا أحد في البلاد يملك ذكاءً يؤهله للسعي لرد الاعتبار له قال أحد الشبان؛ أو سيضطر إلى الرحيل والهرب من البلاد. أجل، قالت شابة منفية من كينيا، وكانت قد أنشدت أغنية جميلة احتفاء بوالدتي، لسوف يأتي وينضم إلينا؛ خارج القارة الإفريقية.

منافٍ كثيرةٌ جداً، قالت والدتي ونحن في طريقنا إلى الفندق البائس. لا تزال كثيرة كما كانت قبل الاستقلال. هل يعقل هذا؟ كانت مرهقة وتشعر بحزن عميق، وعيناها مترعتان بالدمع. احتضنتها وتعجبت كيف أصبح رأسي أعلى رأسها. كيف يحدث وتتقلص شيئاً فشيئاً هؤلاء الأمهات؟ ويداها *صغيرتان*!

حضر والدي لاستقبالنا في المطار خارج العاصمة. تعامل ووالدتي بود مع بعضهما. تصافحا بطريقة رسمية لكنهما تبادلا نظرة حميمية، وإن كانت نظرة حذرة بعض الشيء. فكرت: أجل، لا تدخل والدتي سيارة أي كان! فاجأني أنه بدا لي شخصاً عادياً جداً. رجل أسمر صغير القد ذو عينين مميزتين وشعر أشيب قصير جداً وأشعث إلى حد ما. بدا منهكاً، كأنه هبّ من سريره أو زنزانته بسرعة.

ساد بيننا شيء من الإحراج فنحن غريبان أحدنا عن الآخر، غير أنني شعرت بأنه، من خلال حساسيته، سيكون واعياً لأفكاري. لهذا حاولت إلهاء أفكاري بالتركيز على ركبتيه الناتئتين ورفرفة شورته الخاكي من الحجم الكبير جداً في الهواء أثناء سيرنا.

رغم ذلك فقد ضمني تماماً في اللحظة التي كنا ندخل فيها إلى سيارته، بمعانقة قصيرة وخجولة جداً، ضمة سريعة وعميقة – تصور يا سويلو، إنني أطول قامة منه أيضاً – ثم وضع لي خاتماً في إبهامي. كان هذا خاتمه؛ لاحظت وجوده سابقاً في إصبعه. لقد وصلتني الإيماءة، أيضاً. تصرفٌ لربما كنت سأفعله أنا نفسي. في ظل ارتباكه وانفعاله، سوف يود ببساطة أن يقدم لي شيئاً ملموساً ومباشراً. محاولة لردم هوة السنوات الضائعة. كان أمراً ساراً، تلك العاطفة التي شعرت به فجأة؛ كما تعلم، لم أكن واعية من قبل أبداً لحالة فقدان الأب، وبالتأكيد ليس فقدانه هو تحديداً.

ضحك عندما شاهد تقييم والدتي للسيارة وقد اتسعت عيناها دهشة. لم تكن سيارة بالية لخريج سجون بل سيارة تحمل علماً وشعاراً.

- بالطبع لدي سيارة جميلة، قال. لا تنسي، في النهاية أنا وزير الثقافة.

كانت والدتي تعرف هذا.

أوه، داهفيد، قالت. اعتزازنا بك يفوق الوصف. على الأقل هي ليست من نوع مرسيدس أضافت باسمة.

فقط لأن الألمان لم يستعبدونا! قال آولا. فكرت، صوته مليء بالمرح وحسب، وما فيه من أثر لشعور المرارة.

قال، كما لو أنه قرأ أفكاري، الغضب لا يجدي نفعاً. سأظل أقود سيارتي الصغيرة الجميلة إلا أن يأخذوها مني.

سمعنا أنك كنت في السجن قالت والدتي.

نعم كنت في السجن! صاح وسط الضجة التي أثارتها سيارات الأجرة القاتلة التي تمر بنا مسرعة. نظرت من النافذة إلى الخارج نحو الريف الإفريقي القاحل. تقول والدتي إن المناخ قد تغير بشكلٍ قاسٍ بمرور السنوات. الأمطار لا تهطل إلا بشكل متقطع الآن، وعمَّ الجفاف الحاد مناطق شاسعة من البلاد. على طول الطريق جيئة وذهاباً كانت ثمة نسوة سائرات. بعضهن يحملن أطفالاً على ظهورهن وطسوت فوق رؤوسهن. أخلوا سبيلي هذا الصباح. أخبرتهم أن لدي زوار مهمين من أمريكا. ثم توقف قليلاً عن الكلام. صديقة مقربة... وابنة. لم يتحول أولئك البلطجية العاملون في المكتب إلى مجرمين قساة بشكل كامل بعد. عرفتهم جميعاً حق المعرفة. ليسوا مستعدين للتخلص مني بعد. من سيلقي التحية على الزائر المثقف؟ في الواقع، لا أحسب أنهم يدركون ما هم فاعلون. يريدون أن يظن العالم بهم ظناً حسناً، كما ترون.

ضحك، بشكل مرح تقريباً، من سخافة الموقف.

فضحكت أنا معه. ماذا يمكنني أن أخبرك، يا سويلو؟ كان الأمر وكأنني أسمع ذاتي وهي تضحك. عرفت تماماً مكامن الروح التي خرجت منها ضحكاته. حاولوا تحطيم قلب والدي، ورأى نفسه صغيراً كخنفسة في عمله الدؤوب للنيل منهم، ولم يزل هناك جزء من ذاته لم تنل منه الهزيمة. الأمل موجود طالما أن البشر لا يخشون الحقيقة، قال لي أحدهم ذات مرة؛ تذكرت هذه الكلمات وأنا أنظر إلى قفا رأس والدي الأشيب. لأنهم خافوا منها ذات مرة، فلن تتاح الفرصة لمن يجاهر بها. ما زالت الحقيقة جميلة اليوم، على رأي الشاعر كيتس، لكنها مخيفة جداً.

مررنا بأحياء سكنية فقيرة ومغبرة، وتتوارى المنازل خلف جدران من الطين. طليت هذه الجدران برسومات فنية في غاية الحيوية والتجريد. النساء، شرح لي والدي، هن من أبدعن تلك الرسومات. لقد فشل، كما قال، في دعمهن لنيل الحرية.

تروقني! قلت له.

يسعدني أنها أعجبتك، أجابني. يقع منزل والدي على أطراف إحدى هذه التجمعات السكنية، إنما في كتلة سكنية أكثر ازدهاراً على نحو فجائي، ومطلي بألوان صارخة جداً! لم يكن منزل والدي ليقدَّر إلا في سان فرانسيسكو. نزلت من السيارة ورحت على الفور أتلمس الألوان، ستة ألون أو ربما أكثر: برتقالي، أصفر، أزرق، أخضر، أرجواني، أحمر، وبني، أبيض وبرونزي. مزيج من الألوان. بدت فعلياً كأنها تصميم فني لسجادة في غاية الجمال، مع فارقٍ أنها على جدران منزل من الطين!

منزل والدي، آولا، شديد البساطة. باعتباره وزيراً للثقافة... لأنني وزير الثقافة، يقول، متعالياً، يتعين علي السكن في منزل على الطراز المحلي! يضحك. مع ذلك، تتوفر فيه جميع وسائل الراحة. حمامان وأربع غرف نوم وغرفة جلوس فسيحة للاستقبال وشرفة تحيط بالبهو الداخلي بشكل كامل. ثمة أزهار وحديقة خضراوات كبيرة، فهو مزارع أيضاً. لديه خدم. امرأة ضئيلة خجولة وابنتها، تقومان بالطبخ والتنظيف؛ وشاب نحيف وطويل القامة، يدير شؤون الحديقة؛ وهناك شخصان أو ثلاثة، يتحركون حول المنزل، على الأرجح أنهم حراس شخصيون، أو - حسب قول آولا - على الأرجح أنهم مخبرون.

حسناً. ها أنا أجلس هنا على الشرفة مع الجن والتونيك، كما قد يفعَل إسحاق داينسين، وأكتب لك. أكتب لك من هنا عن جميع الأطفال الذين نشؤوا بلا آبائهم. العالم مليء بنا نحن الذين تربينا بلا آباء... وتدبر البعض منا أمرهم ونجحوا على أية حال!

* * *

في المساء السابق للمساء الذي قرأ فيه سويلو رسالة فاني نزينغا تخبره فيها عن لقائها الأول مع آولا، رأى مناماً محيراً يمضي فيه إلى السوق ويشتري طعاماً يكفيه إلى الأبد، ولما وصل إلى السوق اكتشف أنه لا يملك وسيلة لنقل كومة الطعام التي جمّعها - وأن جيوبه صغيرة على نحو غريب. رأى نفسه يقف في **سوبر ماركت الحياة العظيم**، بلا مبالاة، وجيوبه تكاد لا تتسع لسكين صغيرة.

تتناثر الأطعمة الشهية في تلال مغرية فوق رأسه حيث يقف، وقد وعى تدريجياً أنه في الجحيم - رأى نفسه رجلاً قصيراً بحجم الرضيع في المنام - تبتلعه الأرضية واضعاً إبهامه وسبابته في فمه. بكى سويلو لحظة استيقظ من هذا الحلم الجهنمي، أكثره بسبب الذهول. فهو نادراً ما بكى. رقد في السرير يحاول التفكير في الحصص الدرسية الصباحية، لكن كل فكرة فكر بها اقتحمتها عربة تسوق جديدة براقة.

تذكر حينها.

حياة المنزل الذي اشترياه في ضواحي المنطقة الشرقية؛ قبل أن تسترخي فاني وتقود السيارة براحة في المنطقة. هكذا هي: ماهرة في القيادة والسباحة والجري حتى. لكن دوراتها الشهرية كانت آنذاك طويلة وأقعدتها عن القيام بأي من هذه النشاطات. ركبتاها الراكضتان تصدآن، ذراعاها السباحتان تصدران الصرير، عيناها اللتان تقودان تصبحان غائمتين. تتحرك بتؤدة وحذر كالسلحفاة، كأنها تتوقع أن يداهمها شعور بسقوط السماء على رأسها في أية لحظة.

ثمة نقل عام لحسن الحظ. في الواقع، سيارات نقل عام موثوقة تماماً وهذا كان أحد أسباب اختيارهم للمنزل. ذلك المنزل والجدول الصغير الذي يجري وراءه. والنافذة البيضوية الوحيدة في واجهة المنزل، ذات الزجاج البنفسجي المائل. وفضاء الحديقة الفسيح (وقد قام ملّاكه السابقون بوضع السماد العضوي فيها منذ فترة وجيزة) في الجهة الخلفية. وقد أحبا المنزل بكل بساطة، رغم العمل المضني الذي قاما به لإحيائه قبل

انتقالهم؛ تبديل التمديدات صحية، وأسلاك الكهرباء وطلاء الجدران... وهلم جرا. كان ثمة أيضاً سوبر ماركت على بعد خمسة أبنية عنهم.

عندما وصل إلى المنزل ذات يوم، كانت فاني باسمة، وتدفع في الصالون عربة تسوّق لامعة بمرح. ذلك النوع من العربات التي يرى المرء النساء العجائز والسيدات الثريات برفقة الأطفال الصغار يسحبنها وراءهن. ابتسم عندما تخيل فاني نزينغا تستعمل هذا الشيء.

أتعجبك؟ قالت. من الآن فصاعداً، لا مزيد من تنميل اليدين جراء حمل الحقائب الثلاثة المليئة بحاجيات البقالة. لا مزيد من تقوس العمود الفقري. هذه المعدات رائعة!! ودحرجتها إلى الوراء والأمام فوق السجادة الغواتيمالية المتألقة التي كان أحد الأصدقاء قد قدمها لهما وقد شغلت كامل مساحة الصالون.

استمر شعورها بالرضا لأسابيع. يروقها أن تسير إلى السوق. وهذا ما أتاح لها التقاء جيرانها. راقها الاستيقاظ في الفجر وشراء الأطعمة الطازجة. حتى لو كان هذا يعني العودة على عجل جنوني شديد حتى يتسنى لها الوصول إلى العمل على الموعد. لقد أهلتها علاقة ربة المنزل هذه مع الصباح الباكر للشروع مجدداً في طقسها الصباحي اليومي بالجري. كان باستطاعتها هذه الأثناء أن ترى، علاوة على ذلك، من خلال دحرجتها العربة على عجلاتها، الأمر الذي تعلمته بحرفية، مدى قدرتها على قيادة السيارة في الحي ربما. في طريقها للتبضع، مرت ذات يوم ببركة ماء عامة لم تكن قد لاحظت وجودها البتة وهي في السيارة. رائع.

راحت تحاول من حين لآخر حثه على الذهاب إلى التسوق، باستعمال العِربة الصغيرة. لسوف يخطف منها قائمة التسوق التي وضعتها، ويلقي بمعطفه على كتفه ثم يثب إلى السيارة. يقود عبر الأبنية الخمسة، يرمي المواد التي اشتراها في المقعد الخلفي لسيارته ويقفل عائداً إلى المنزل في غضون دقائق. كانت فاني تحتار من سرعته لكنها بالمجمل تكون ممتنة، مع أنها تذكره بروعة المشي الذي يفتقده وبأن السير السريع،

في الحقيقة، جيئة وذهاباً إلى السوق، من خلال دفع العربة الصغيرة، ضروري تماماً ربما للتخلص من أية دهون ناشئة. تلميح. تلميح.

سوف يأخذ مرغماً العربة يوماً، إذ كانت السيارة في الورشة لإجراء فحص روتيني. لم يتمكن من رفعها وظل طيلة النهار يجري متأخراً. كانت حركة السير مكتظة لدرجة أنه شعر بشيء من السرور لعدم وجود السيارة، مؤقتاً، الذي سيزيد من الازدحام. استقل الحافلة إلى المنزل.

كانت فاني في المنزل، وقد استقلت بدورها الحافلة أيضاً إلى المنزل، تضع مئزرها الصغير ذا رسمة القطة؛ تعد الخبز بانهماك: كومة من العجين تنتصب تحت منشفة رطبة قرب المغسلة، وتكتب قائمة المشتريات بيدين يغطيهما الدقيق.

راح سويلو يئن في أعماقه.

اجعليها قائمة قصيرة تتسع لها حقيبة واحدة، قال.

لكن جميع حاجياتنا قد نفدت، قالت، وهي تخربش بقلمها على عجل. حري بنا ألا نقيم حفلات أبداً من النمط الذي نقدم فيه من طعامنا الخاص. أصدقاؤنا يلتهمون كل شيء.

لقد غابت عن ذهنه الحفلة التي أقاماها في الليلة الفائتة. أجل، وحتى زبدة الفستق قد نفدت.

اقترب منها سويلو وقبلها على مؤخرة عنقها حقيبة واحدة، مفهوم؟ قال.

تابعت الكتابة. انتبه أنها سجلت عدداً كبيراً من ثمار البرتقال (كلاهما يحب عصير البرتقال الطازج في الصباح) وغالون من الحليب!

لن يقوَ ظهري على تحمل كل هذا، قال.

رفعت نظرها عن القائمة، لم تكن بقائمة طويلة إلى هذا الحد، في النهاية، ونظرت نحوه نظرة متسائلة.

لكن ألا تذكر...؟ شرعت بالكلام.

وتفاهما بالنظر: *لدينا العربة!*

آن الأوان أخيراً كي يشرح لها عن حاله. قال، فاني، اجلسي.

جلست. على ركبته.

أريد أن أعترف لك باعتراف.

بدت متأهبة لسماع هذا.

تذكرني العربة، قال، بالسيدات العجائز الهزيلات ذوات الشعر الملون المضحك، والأوشحة المخرمة، وبحدبات الأرامل، بدت محتارة. تذكرني، واصل الكلام، بالشابات اللواتي يصبحن على حين غرة بدينات جداً في بنطلونات الجينز، عابسات فيما يدفعنها ويجرون أطفالاً فارغي الوجوه في الوقت نفسه. هي تذكرني، قال، متذكراً حماس فاني للعربة، بمتسابقات الخيل الشابات المشرقات وهن يضعن أنفسهن طوعاً في السخرة. تململت ثم نهضت من حضنه.

هي تذكرك، قالت، بالنساء.

كانت والدتي تدفع عربة. وجدتي أيضاً، قال سويلو.

زوجتك تدفع واحدة، قالت فاني.

لا أرى نفسي أدفع عربة تسوق، هذا كل ما في الأمر، قال سويلو. أنا آسف.

ألاحظ هذا، قالت فاني. أتساءل إن كنت ترى نفسك تأكل؟ ورفعت كتلة العجين وألقت بها في سلة القمامة الزرقاء عند قدميها.

أوه، لقد تناولا الكثير من الوجبات اللذيذة سوية بعد ذلك. لكن الأمور لم تعد كالسابق. حدثت جريمة صغيرة، هناك في مطبخهما المشرق الحميم، حيث كان كلاهما، حتى ذلك الحين، يشعر أنه خِفيف وحر ويعيشان كأن كلاً منهما يؤدي دوره تقريباً. اختفت العربة، وشعر سويلو بالرعب من الحدث برمته. عثر على خدمة توصيل البقالة وكان غالباً ما يتصل بهم لتلبية الطلبات. بدأ يتعلم الطهي، السمك والخضروات المقلية، أو اللازانيا. سوف يهرع ليسبقها إلى المنزل؛ لقد عاودتها مخاوفها من قيادة السيارة في زحمة السير ولهذا واصلت

استقلالها للحافلة. لم تعد تسبح ولا عادت تجري. يطهو في المطبخ، ومن المذياع تنبعث موسيقى الجاز وعلى الطاولة كأس من النبيذ مخصص لها. تدخل وترحب بقبلته. ومع ذلك، فقد مات في علاقتهما تفصيل صغير. كلما أمعن في محاولة إنعاشه، كلما ازداد موتاً.

لقد تربيت بطريقة معينة، كان يبدأ أحاديثه بالقول في أغلب الأحيان التي لم تكن تدور عن تلك الجريمة الصغيرة على الإطلاق، وإنما عن قضايا أخرى مختلفة كل الاختلاف، أو هذا ما كان يظنه.

تجيبه بهمهمة، أجل. *أجل، أنت كنت*؛ ليس بتفهم لأسلوبه الأخرق فيما يطلبه، بل باستغراب هادئ.

* * *

على فكرة، حين ولدتِ يا فاني لم أكن أعرف شيئاً عن الولايات المتحدة أو الأمريكان قالت والدتها. منذ البداية شعرت بغرابة شديدة من رؤية عدد هائل من البيض ومدنهم المزدحمة. كانت نيويورك مروّعة. وبدت أطلنطا أيضاً، مع أنها أصغر، غير قابلة للسكن لأنها - بشراً وأبنية - مكدسة فوق بعضها. إلا أننا دخلنا آنذاك بعضاً من البيوت التي فتحها لنا أناسها برحابة صدر - أو أناس الكنيسة - ورأينا أنه على الرغم من كل شيء فلا يزال المرء قادراً على إحراز ترف معين من العيش. كانت أجواءً رائعة، خاصة وسط السود، بعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية مباشرة. يعود الجنود من السود إلى الديار ويرفضون أن يتم فصلهم في المطاعم والحافلات، وكان البيض يتهمونهم باطراد باغتصاب النساء البيض، وبالنظر إليهن - كانوا يسمونه استراق نظر طائش، فوجد الكثير من الرجال السود أنفسهم في السجن بهذه التهمة! - أو حتى بتهمة تبادل الحديث مع امرأة بيضاء هي من بادرتهم به. لا داعي للقول بأن إدانة امرأة بيضاء في هذا كان حالة نادرة. ليس امرأة أمريكية على كل حال. معرفتها أكبر من ذلك. التقى الرجال البيض بالحمر تلقائياً أثناء قتالهم

في أوروبا، في فرنسا وإيطاليا تحديداً، حيث لا تكترث النساء البيض بلون الرجال الأمريكان - طالما أن نقودهم خضراء، علاوة على أن الرجل الملون يعرف كيف يمرح.

حين أقمت في منزل والدتي تعلمت هذا بطريقة صارمة. كانت تخاف من الرجال خوفاً جنسياً مع أنها تعرف الاستمتاع برفقتهم. كان هناك الكثير من الرجال الذين يأتون بانتظام لزيارة الآنسة سيلي والآنسة شوغ. كانوا على الدوام تقريباً ممن يملكون نوعاً معيناً من المواهب. هناك السيد بورغيس - بورغي، كما كان يدعى - عازف البوق الفرنسي! وعازف الغيتار يانسي بلاك. وعازف البيانو ليتل بيتي سويتنغ. إذا أمعنا التفكير في الأمر، زارنا عدد كبير من العازفين لأن الآنسة شوغ كانت مغنية بلوز عظيمة، مع أنها لم تعد تغني أمام العامة إلا لماماً. من بينهم أيضاً شعراء وفكاهيون، ما يمكنك اليوم أن تسميهم ممثلي كوميديا، وجميع أنماط البشر في الواقع: سحرة، مشعوذون، ورماة بارعون لحدوة الحصان، الرجل الذي يأتي من حين لآخر وهو صانع ألحفة أو يعمل بالتطريز. جعلتنا العبودية نستضيف المهارات! أحدهم متفائل طاعن السن، وكان ملك الشواء على الفحم كما يلقب نفسه دائماً. كانوا بشراً رائعين من نواح عديدة، بيد أن أروع ما فيهم هو خلوهم المطلق من الرثاء الذاتي، في ذلك الجزء من البلاد حيث عانى السود، وكل من يعتبر أدنى أو غريب، من الظلم المجحف. لدى تقابلهم مع بعضهم البعض، درجوا على عادة ترحيب مألوفة استعملها زوار منزلنا: جميع الجالسين على هذه الوليمة! تراهم يقولون ويصافحون بعضهم أو يتعانقون. يقولون هذا ضاحكين أحياناً، وفي أحيان أخرى يرددون هذه الكلمات والدموع تنهمر من أعينهم. لكن استمرارهم على مأدبة الحياة ظل مؤكداً على الدوام.

ضحك وليموناضة باردة وورود، ودائماً الكثير من الأطفال والعجائز أيضاً. ماما الكبيرة تلك ساهمت في تربيتهم. كما تعلمين، وجدت

مجموعات في المجتمع ممن لم يكن لهم صلة بمنزلنا وكانوا يلقبون ماما سيلي وماما شوغ بقضيب الثور. لكنني كنت أظن على الدوام بأن أصدقاءَنا هم الأفضل بين النساء والرجال، إذ كانوا منهمكين إلى أقصى حد في العيش بطريقة جديدة وغريبة أوجدوها لأنفسهم، وكانوا محترفين فيها تماماً، لم ينطقوا بشتيمة في يوم من الأيام. وآنذاك، أيضاً، وضعت ماما شوغ خاصة معايير عالية وأصيلة؛ إذا ما دستَ على نملة في حضور ماما سيلي ولم تطلب الغفران، فلن تستضيفك بكل بساطة في منزلها ثانية أبداً. مع أن هذا التعاطف مع الحيوانات لم يكن نهج ماما سيلي في الماضي. شعور استجد عليها، تعلمته من ماما شوغ كما تعلمت الكثير من الأمور الأخرى.

إنما فعلياً لم يكن لي حيز في المنزل. ليس تماماً. كان مرحباً بي وكنت محبوبة، لكنني كنت أيضاً ناضجة. بدأت أشعر بالاختناق بعد بضع سنوات بسبب اقتدارهم، وخبرتهم في كل شيء، مهاراتهم التي أحبطتني وجعلتني أشعر بلا جدوى مساهماتي الكبيرة. كانوا ببساطة يتولون مهمة تنشئتك. آنذاك اتخذت ماما شوغ أيضاً قراراً بالعثور على دينها الخاص، الذي وظفت منزلها في سبيله، وكان الوضع عسيراً جدّاً أحياناً بسبب طريقة ممارسته. تقام الكنيسة ست مرات خلال السنة، على مدى أسبوعين في كل مرة، فيأتي إليها من عشرة إلى عشرين ملتمساً، وهؤلاء لا بد من توفير مكان لنومهم. على الأرضية في العادة، أو في الزريبة أو السقيفة عندما يفيض العدد. كل من يأتي يحصل على معلومات مساره ورحلته. كانوا يتبادلون ويتشاركون هذه المعلومات. تلك هي روح الكنيسة. بعضهم كان من عبدة إيزيس وبعضهم من عبدة الأشجار. البعض لديهم اعتقاد بأن الهواء، فهو الوحيد الموجود في كل مكان، هو الله. (إذن فالله ليس على القمر، قال أحدهم). شعرت ماما شوغ أن ثمة صفة واحدة فقط يمكن للإنسان أن يصف فيها *ا – ل – ل – ه* ألا وهي – أنه بلا اسم.

في النهاية، لست أدري كيف أمكنهم قول إنه بلا اسم، أو كل إنسان يسميه حسبما يريد. أوه، أجل، أتذكر! كنت أقول لماما سيلي والآنسة شوغ، أن الأولينكا يستعملون الهمهمة عوضاً من الكلمات أحياناً وأن تلك الهمهمة مثلت النبرة الموسيقية في لغتهم. الهمهمة لها معنى، لكنها تعبر عن أمر يتعذر في الأساس التعبير عنه بكلمات، ويتعين بعدها على السامع تأويلها، من خلال خبرته، وأن يعرف القواسم المشتركة التي تؤهله لهذا الفهم، إلا أن الفهم الحقيقي للمعنى يرتبط على الدوام بدرجة الخبرة.

إن كنت، مثلاً، تقول لشخص يعيش في زنزانة ويعاني هبوطاً في معنوياته: كيف حالك؟ يمكن أن يقول أو تقول، همممم، أوغ، وسوف تصلك الفكرة التي تعبر عن حالته الحقيقية بدرجات متفاوتة. إذا ما أجابك الشخص بلا بأس أو رهيبة، فمن النادر أن تكون حالته متشابهة في كلتا الإجابتين. لست مضطراً للإتيان بأي فعل، فقد سمّى الأشياء بمسمياتها.

بهذا الأسلوب كانوا يحلون معضلة التعبير عن مكنوناتهم. سوف يهمهمون للمكان الذي يشغله ا - ل - ل - ه. جميع من في المنزل كانوا يتكلمون كثيراً بلغة **الامممم**!

وهكذا، كيلا نطيل الحكاية، تركتك هناك برفقة أشخاص حائرين يتحدثون بلغة الهمهمة والتحقت بمدرسة سبيلمان للتمريض في أطلنطا. أمي بالتبني التحقت بها، كما ترين، وهذا ما جعل الأمر مغرياً جداً لي، وكانت كأنها سيدة! الكلمة التي أعرف بأن جيلكم يمقتها، لكنها آنذاك حملت معنى عميقاً وراسخاً. تشير إلى من تمتلك احتراماً عنيداً لذاتها. علاوة على هذا، كانت كلمة امرأة ترمز إلى الأنثى القادرة على الإنجاب. مصطلح بيولوجي بحت، ونتيجة اقترانها بعهد العبودية، فقد كانت هذه الكلمة تعتبر انتقاصاً من قدرها. حين كنا نعيش في إفريقيا أرسلوني للدراسة في إنجلترا، لذا فقد كان لدي معارف كبيرة سابقة. عملت

مساعدة لطبيبة إفريقية شابة أيضاً في المنزل، والتي كانت قد تدربت في إنجلترا؛ دفعت لها كاتبة إنجليزية غريبة الأطوار تكاليف دراستها. مع هذا، بات من الضروري حصولي على اعتماد أكاديمي للعمل في الولايات المتحدة. لم يكن هذا سهلاً. كنت أكبر سناً من بقية الطلاب ولدي طفلة، غير أنهم كانوا مهتمين بحياتي في إفريقيا، وطُلِب مني مرات عدة أن أتحدث في صلاة العشاء. دعينا نفكر بهذا، لم يسألني أحد مطلقاً إن كنت متزوجة، إلا أنهم تلقائياً راحوا يدعونني بالسيدة ويتصرفون وفقاً لاعتقادهم أنني متزوجة. باحترام شديد. لكن آنذاك، كان الجميع - أقصد الطلاب - محترمين. كثيراً ما فكرت بمدى احترامهم هذا. يشعرون بامتنان شديد لوجودهم في الكلية - أحد الأماكن القليلة التي يسمح فيها للفتيات الصغيرات الملونات بدخولها - يتصرفون وكأن أساتذتهم والهيئة الإدارية للكلية هم آلهة. يتعاملون، في الواقع، بشكل شديد الشبه بالأفارقة المستعمَرين الذين علمناهم في بعثتنا التبشيرية في أولينكا. مبالغتك في احترام البشر الذين ليسوا على الدوام محترمين في نظرك، علامة مؤكدة على انعدام الأمن، وعرفانهم المتذلل بالجميل جعلني محبطة بعض الشيء. حسناً، لم أكن هناك لأثير الرأي العام. حصلت على الاعتماد الأكاديمي في الموعد المناسب وقدمت طلباً للعمل في مشفى السود في هونتر ستريت حيث يقع مستشفى هاريسون ميموريال. أرسلت في طلبك حالما حصلت على العمل.

كان مكاناً رائعاً! ليس فقط لأنه المكان الذي قابلت فيه زوج والدتك. بالطبع كان لوني غامقاً جداً بالنسبة لأسرته، وعملياً إفريقية، إفريقية حقيقية حتى العظم. ومن هنا انطلقت حكايتي. في تلك الأثناء كان لانس - أسماه أبواه لانسيلوت - قد تخرج من مدرسة الطب بعد أن لقي فيها ما يكفي من التعصب ضد السود؛ استعصى عليه تحمل هذا وحسب. جميع الجثث التي قاموا بتشريحها كانت من نسق واحد تتدرج ألوان بشرتها بين البني الغامق والأسود، فجعله هذا شخصاً متطرفاً حيال

الفوارق الاقتصادية المتواجدة على طول خطوط التداخل العرقي. بدأ يلاحظ عدم وجود السود من ذوي البشرة الفاتحة بين الفقراء فقراً مدقعاً بحق، فتسبب له هذا بحزن شديد. شاهد آثار اللكمات العنيفة على الجثث التي كان يطلب منه وبقية التلامذة تشريحها! كان قلبه يتحطم يومياً، كما قال. فمثلاً، ثمة امرأة سارت سبعين ميلاً حاملة ولدها المريض إلى طبيب تبين أن وجوده مجرد إشاعة قيلت لها. توفيت إثر نوبة قلبية؛ وتوفي الطفل نتيجة التجفاف الذي أحدثه الإسهال. أصبحت جثتاهما ملكاً لكلية لانس الطبية.

هناك تم تشريحهما بينما كان البعض من زملاء لانس يروون النكات وآخرون يتحدثون عن الطعام الذي يزمعون تناوله على الغداء.

يعتقد الجميع بأن الطبيب يعيش حياة رائعة! لم أفهم هذا يوماً. حين توجهت للعمل في المشفى وسنحت لي فرصة العمل معه، اتضح لي أنه عمل قاتل للروح وكئيب في كثير من الأحيان. ثمة بشر يعانون المرض ببساطة نتيجة نمط الحياة الذي يعيشونها، ونوع طعامهم: الدهون، والبسكويت، والعصائر، واللحم المقلي بكثرة. رأيت حالات سرطان كولون، وقرحة المعدة واحتقان الكبد والشرايين. كانت درجة اللامبالاة حيال الطعام الصحي صاعقة. ثمة من أدمنوا الكوكا كولا لدرجة أنهم لا يتناولون سواها طيلة نهارهم، إلى جانب الفستق السوداني المملح، التي يشترونها بخمسة سنتات. وتراهم **يتبجحون** بهذا! طعام ممتاز. هذا ما يشتهونه؛ يا للعجب، وهذا ما يرغبون في تناوله! إياك والحديث عن الخضار ذات الأوراق الخضراء في الغرفة ذاتها معهم، وحدها الأرانب تأكل الجزر، والقرنبيط لا ينمو في الجنوب، على حد معرفتهم، إنما ينمو ***بعيداً***!

كنت أبحث عن زوج. أحياناً أفكر بداهفيد؛ يوم حملت بك وكنت في مخيلتي كحلم في الذاكرة. علمت أن الحرب قد عمت البلاد بأسرها. تخيلت أن داهفيد ربما يكون هو أيضاً متورطاً في القتال، أو

لعله تعرض للإصابة أو قتل. إلى جانب هذا، كنتِ أنت بحجم الكمشة تماماً وشكلت رفقة كافية تماماً لي، هكذا فكرت. كنت ترتادين مدرسة تمريض سبيلمان النهارية خلال أيام الأسبوع، حيث الجميع قد أحبك؛ نذهب في أيام السبت لتبضع مؤن الأسبوع. أيام الآحاد كنا نذهب إلى الكنيسة. كنيسة حميمية ومحافظة على تنظيمها.

حتى عندما بدأ لانس يُظهرُ اهتمامه بي. تراجعتْ. كنتُ خجولةً باستمرار ومنكمشةً على نفسي - تلك الخصلةُ التي تبدو شديدة البعد عن خصلة قد يورثها مكان كمنزل والدتي المليء بالمرح، ورمي حدوات الخيل، والسحرة الذين يقطعون الناس إلى ثلاثة وعازفي الغيتار والمشعوذين! وبأمور يضيق صدرك بها. كنت صريحة وعابسة كوالدتي - أشد عبوساً من جميع الممرضات - ولم أكن ألعب. كان ثمة سؤال دائم في عقلي أيضاً كيف سيتعامل معك أي رجل يتقرب منا. سمعتُ الكثير من الحكايات المخيفة من الأخريات بهذا الشأن، ومن والدتي أيضاً. لا يزال يكسر قلبي التفكير بزوج والدتها وهو يعتدي عليها، الذي لم يكلف نفسه عناء إخبارها، إلا بعد أن كبرت، بأنه ليس والدها. فاني. لا يمكنني أبداً التفكير به على أنه *أبي*. الحقيقة هي، لم أشعر أبداً بأن لدي والداً بيولوجياً، ما عدا أبي بالتبني صامويل، وعندما علمت بأن لدي أباً بقيت عاجزة عن استيعاب الأمر. ولذا، حتى اليوم، يساورني شعور بأنني نتاج حمل طاهر، مثل يسوع، الذي بدوره لم يكن يعرف من هو أبوه البيولوجي. يخطر لي دائماً أن عدم معرفته لوالده الدنيوي هو الذي أدَّى به إلى والده السماوي، ففي دواخلنا جميعاً توق لمعرفة منشئنا، وجهل هذا المنشأ سيبدو أمراً مستبعداً تماماً على الأرجح بالنسبة لطفل وحيد بلا أب. اعتبر هذا تجديفاً لحظة غامرت بالإفصاح عنه؛ لكن السؤال ممن تلقحت مريم، تلك الفتاة اليهودية، وتحت أي الظروف السعيدة أو التعيسة كانت ترزح - بسبب التجربة المأساوية التي عاشتها والدتي نتيجة الاعتداء وهي صغيرة السن - كان هذا التساؤل يجول في رأسي

بشكل دائم. إن لم يكن يوسف هو والد يسوع، فإن الله في السماء ليس أباه، ولم تكن مريم قادرة، بسبب الأعراف أو الخوف أو الاكتئاب، على البوح فعلياً بما جرى لها، من هو الأب؟

حسناً، ها أنتِ ترين مدى قِدم جميع الحكايات اليومية بالنسبة لي، حكايات قديمة راهنة. نتيجة للأيام الفاترة الطويلة التي أمضيتها في إفريقيا، أيام تبدو وكأنها تستمر لأسابيع، حافظت على إحساسي بحقيقة، ***لا جديد تحت الشمس*** وأن الماضي ليس فيه من الغموض أكثر من غموض سيرورة الحاضر.

عوضاً عن هذا تحول تعلقي إلى والد والدتي الحقيقي، جدي سيمون، الذي أعدم إعداماً تعسفياً وهي لا تزال رضيعة. كان كادحاً ورياديا وناجحاً جداً؛ وهذا هو السبب في قتل البيض له. قتلوا الكثير من الرجال السود المكافحين، فقد كان نجاح الرجل الأسود يثير حنقهم أكثر بكثير من فشله، إذ بمقدورهم إرجاع الفاشلين منهم إلى عبيد، لتسلية أنفسهم وحيواناتهم. كلتانا أنا ووالدتي شبيهتان به. أصبح منزلها ومتجر الخياطة - كانت تفصل وتبيع السراويل التي كانت ترتديها دائماً - هما النور الذي يضيء بلدتهم، على قدر اهتمام السود بهذا. وأنا كجدي، حسب ظني، بعزيمتي وإيماني الراسخ بقدرتي على رعاية نفسي. حالما جئتني، كنت أعلم أنه ما من عمل لن أقوم به ليظل طعامك جاهزاً وأبقيك في مأمن وفي ملبس جيد.

وقع لانس بغرام عزيمتي وإيماني، إلا أنني كنت أخشى كآبته. خصلة من الحزن والفتور غالباً ما يحملها الذين يظهر على ملامحهم التداخل العرقي. ليس عبثاً وجود صورة نمطية عن مأساة الخلاسي! أظن الآن أنَهم بددوا الكثير من طاقتهم في سعيهم الحثيث للعيش بشرف كما هم (ومن هم؟)، بكلا الجانبين - أسود وأبيض - يقاتلون باستمرار ضد بعضهم البعض ويحتقرون أولئك العالقين في الوسط. لم أشعر أنني قادرة على تحمل هذا العبء؛ ولا كنت بقادرة أن أكون جبهته في مجتمع

السود أو نكايته بالبيض. كانت خالتي نيتي تقول باستمرار، لا تحملي عن أي كان أعباء أثقل من أعبائك. وكانت أعباء لانس ثقيلة بالفعل.

لكنك تعرفين الباقي. تبادلنا الغزل، تزوجنا... ما أروع أن يصبح لديك من جديد صديق وشخص موثوق! أحد ما يضاف إلى تاشي، تروي له عن تلك الدقائق الأخيرة الحزينة برفقة داهفيد؛ عن تلك اللحظات الأولى المبهجة لحظة أنجبتك يا صغيرتي فاني. كانت فكرة لانس بشأنك هي وجوب وقوفك معنا؛ لكي تقرري حقيقة شعورك حيال الزواج وتعبّري عنه بصراحة. ظل زوجاً مخلصاً ووالداً جديراً بالثقة حتى آخر يوم في حياته. أتذكرين كم كنا سعداء ذلك اليوم، يوم تزوجنا على الشرفة الأمامية لمنزل والدتي؟ أقسمنا أن نطرد الكآبة إلى الأبد. أتذكرين كيف *ارتدى الجميع*، ليس نحن الثلاثة وحسب، بل أيضاً العائلة والضيوف والسحرة ورماة حدوة الخيل والمشعوذون وعازفو البوق الفرنسي، وكل من رأيت - *اللون الأحمر*؟

* * *

لن تتوقع أبداً من لدينا في غرفة النوم التي في نهاية الممر، كتبت فاني. إنها بيسي هيد!

انتاب سويلو التوتر حين قرأ هذه الكلمات وراح يتذكر. إلا أن ما حاول تذكره هو نتيجة الفعل وليس الفعل نفسه. ولم يكن متيقناً من أنه يعرف تلك النتيجة.

وضع الرسالة المفتوحة على ركبته، نزع نظارته وقرّبها من ناظريه للحظة. هنا انتصب أمام عينيه مشهد غرف خاوية وصارخة في المنزل الذي ابتاعاه. تلونت الجدران بلون بنفسجي باهت يتداخل بالأبيض المغبش. لا بد من طلائها، شعر بذلك في الحال. كان يفضل الجدران البيضاء، فهو يستطيع العيش في الواقع وسط ألوان داخلية ناصعة البياض أو برتقالية أو بلون قشور البيض. تسبب له الألوان القوية

الضيق لأنها تستلزم ملاحظتها، ونوعاً خاصاً من الاستجابة. عندما يحيط الأبيض بك يدفعك لتركيز انتباهك اللوني على ذاتك، أو على المفروشات أو الفن.

امرأتان كانتا تملكان البيت، وهما مدرّستان مثله هو وفاني، وقد تركتا البيت بوضع مقبول. نظفتا البيت بالمكنسة. غسلتا سجادة الطابق العلوي بالشامبو، وفي الطابق السفلي وسط غرفة الجلوس تركتا زجاجة شمبانيا، ورسالة تتمنى لهما السعادة في البيت مثلما كانا. في موضع القراءة، في الطابق العلوي، تركت إحداهما عدداً من الكتب، رفعها وتصفحها واحداً تلو الآخر، وجميعها لكاتبة تدعى بيسي هيد[1]، وكان هناك قصاصة كُتب عليها إنها كاتبة استثنائية، وتحذير بعدم احتساء الشمبانيا وقراءتها في آنٍ معاً.

السيدة بيسي سوداء؛ لها صورة صغيرة على الغلاف الخلفي لأصغر الكتب. فكر في أن ترك المرأتين، وكلتاهما من البيض، لكتب من تأليف شخص أسود لهو سلوك عنصري سخيف. بعد أيام قليلة لم يعد يفكر بالأمر.

وضعت فاني بعد عدة أشهر أحد الكتب وعنوانه *مارو*، على الطاولة قربه بينما كان يكمل عمله الروتيني في *تدوين* إيصالات النفقات الشهرية. ألقى عليه نظرة حذرة. ظلت على الدوام تسعى لإقناعه بقراءة الكتب التي، وفقاً لأسلوب تفكيره، لا تمت بصلة لحياته هو. إنه مدرس؛ يعلّم التاريخ الأمريكي، وهو بارع فيه. لقد قرأ بما فيه الكفاية، إلا أنه لم يكن قد قرأ كتاباً لامرأة.

من تكون على أية حال؟ سألها. أليست إفريقية؟

أجل، قالت فاني. إنها مذهلة. *اقرأ* هذا.

حمل الكتاب وأخذ يقلب في صفحاته. مر على سطر مبهم. أعاد الكتاب ثانية. ضعيه على طاولتي، قال. سأحاول قراءته.

1- Bessie Head (1937 – 1986) كاتبة جنوب إفريقية – المترجم.

في نهاية المطاف أصبحت الكومة الصغيرة بأكملها على طاولته. شعر ذات يوم بالضيق من وجودها على طاولته فنقلها إلى الطابق الأرضي.

لقد غيّرت هذه الكاتبة وجهة نظري حيال إفريقيا، قالت فاني. غيّرت من طريقة تفكيري بكثير من الأمور!

الكتاب المبدعون يفعلون هذا، تمتم قائلاً، وهو شارد الذهن.

لكنه لم يكن راغباً بتغيير وجهة نظره حيال إفريقيا. عدا أنه عندما سيرغب في إمعان التفكير في إفريقيا، فإنه سيقرأ لكاتب رجل.

كما لو أنها قرأت أفكاره، أحضرت له ذات يوم كتاب *ألفاموسم*[1] لآي كوي أرماه وقد فرغت للتو من قراءته وأبكاها.

لا أصدق أن رجلاً يمكنه أن يفهم إلى هذا الحد! صاحت قائلة.

هذا الكتاب أيضاً، علاه الغبار على الأرضية قرب طاولته.

بعد وقت ليس بقصير، انتبه أنها تعيد قراءة الكتاب إنما بغلاف مختلف. كانت تقطب جبينها وتضع خطوطاً تحت الفقرات.

لماذا تعيدين قراءته؟ سألها.

أعادوا نشره بطبعة ثانية، قالت، محتدة، ويبدو أن الكتاب غير مرتب.

هل أنت متأكدة؟ لماذا قد يفعلون هذا؟ أتظنين أن هذا متعمّد؟

هل قرأت الطبعة الأولى قط؟ سألته.

حسناً، لا، اعترف قائلاً.

إذن فلن تفهم.

نامت في غرفة الضيوف، غرفة قراءتها، تلك الليلة.

لكن لماذا يتعين عليه محاولة قراءة جميع الكتب التي غيرت لها *حياتها*. لديها الوقت لمثل هذا النوع من الكتب. إنها تدرّس الأدب! أما هو فيتعين عليه الاطلاع على الكتب التي تخدم مهنته. تعليم التاريخ الأمريكي. لا يحتاج لكثير من النباهة فهم هذا الأمر. مع ذلك كان يتابع

1- Tow Thousands Season وهي للكاتب الغيني آي كوي آرماه (1939 –)

التلفزيون ساعات وساعات، الأمر الذي منحه مزيجاً من التعاليم في مهنته. بعد زجاجة الشمبانيا التي تركتها المرأتان، كانت هناك أنهار من النبيذ. جهاز تلفزيون، وأريكة، ونبيذ. فقط إذا ما توقفت امرأته عن قراءة الكتب وتغيير حياتها، يفكر أحياناً، ستأتيه تحت تأثير النبيذ والنشوة وتندس في حضنه على الأريكة فحسب. على الأقل، لن يتابع حينها سوى مباريات الدوري الأمريكي لكرة القدم ليلة الإثنين.

هل يهجرك الناس، ويفقدون أرواحهم هكذا ببساطة، لأنك لم تشأ قراءة كتاب يحرك هذه الأرواح؟ عرف الآن بأن الإجابة هي نعم.

عمرها قريب من أعمارنا، كتبت فاني. امرأة سمينة. لا، مكتنزة. تقول إنها لم تكن على ما يرام منذ زمن بعيد. سحنتها سمراء غريبة بسبب شحوب بشرتها. ترى في عينيها أحياناً وميض اللون الأخضر الأشد إدهاشاً، أخضر كلون برك المياه البنية. كنت أود أن أمطرها بالأسئلة بناء على أمور قرأتها في كتبها. لكنها بدت سريعة التأثر وبدت أسئلتي متطفلة جداً! أقصد، كانت تجلس، تحت المظلة على الشرفة، وهي ترتدي رداءً وخفين ليسا بجديدين أبداً - لأكن دقيقة شبشب شاطئي - تجفف شعرها القصير بعد الحمام، وتحتسي شاي الصباح. هل والدتك **فعلاً** بيضاء في جنوب إفريقيا؟ كنت أود سؤالها. هل والدك **فعلاً** أسود؟ أخبريني مجدداً كيف تقابلا. لا أذكر من قراءتي لكتبك. هل ما كتبته هو **فعلاً** عن نفسك، وعن والديك؟ هل ألقيت والدتك فعلاً في مصح للأمراض العقلية؟ وماذا بقي في الحياة بالنسبة ***لأبيك***؟ وهل طردوك من جنوب إفريقيا بعد صدور كتابك الأول مباشرة؟ من أية بقعة من الأرض هو والد ابنك الصبي؟ كما تعلم، يا سويلو، لم ألتق أبداً من قبل بلاجئ حقيقي.

حين قدمها لنا والدي، قال: الكاتبة العظيمة بيسي هيد.

همهمت قائلة: الكاتبة العظيمة التي لم يسمع بها أحد بيسي هيد.

لقد قرأت كل ما نشرته منذ زمن، قلت. وكانت ردة فعلها صادمة. في البداية حملقت فيّ بنظرة مطولة ليس إلا، كما لو أنها لم تكن متيقنة

مما قد تناهى إليها. بعد ذلك ارتسمت السعادة على محياها، مثل طفلة صغيرة، لكنني فكرت أيضاً أنها ربما شعرت بشيء من الحماقة.

أجل، كما ترين، قالت لاحقاً، لا أعتمد على الشهرة. يمكنني أن أجعل الناس فعلياً يشعرون أنهم متماثلون ومذنبون. لديها حس مرح حيادي.

أعمالك معروفة في الولايات، قلت. لقد درّست بعضاً من أعمالك. وأطلقت عليك لقب تولستوي إفريقيا.

هنا تصلّبت. هل قرأت كيف عامل زوجته؟

حسناً، قلت، آمل بإخلاص ألا يكون لديك زوجة.

فضحكت في النهاية ضحكاً عفوياً.

كانت في طريقها إلى لندن لدواعي علاجية. وبحسب قولها، لتفرض صدمة حضورها الباهت على الناشرين. من الواضح أنها تتلقى القليل مقابل أعمالها، ويمكنني بالتأكيد أن أشهد بأن الناشرين لا يفعلون شيئاً بغية ترويج هذه الأعمال. عرضت علينا صوراً من حياتها في بوتسوانا، حيث كانت من ضمن آلاف من لاجئي جنوب إفريقيا. لا شيء في الصور سوى كوخها العاري إلا من طاولة صغيرة تستقر عليها آلتها الكاتبة. ما من صورة لولدها.

تقول إن الكاتبات الأمريكيات شديدات الغرابة. جاءت إحداهن لزيارتها حاملة معها مجموعة كبيرة من الصور الشخصية. تضطر الكاتبات في أمريكا، أخبرتها، إلى الصور كي يذكّرن الجميع بوجودهن.

أطلقت على هذا اصطلاح السعي الطفولي الأمريكي النموذجي التافه. إن كان عملك موجوداً، فأنت موجودة، طفت على وجهها تكشيرة. سلي الله.

اشتريت في الصيف الماضي من مهرجان الحرف اليدوية للمرأة في فيرمونت وشاحين جميلين من الصوف بربطتين مصبوغتين، أحدهما أحمر اللون، رسمت عليه شمس صفراء، والآخر بني وقد رسمت عليه

شمس برتقالية أرجوانية. قدمت لها الوشاح البني، لتلف به عنقها في لندن الباردة. استطعت تخيلها تماماً وهي هناك، امرأة عادية ملونة آتية من المستعمرات، هكذا هي بالنسبة لمن يراها في الشارع. لكن، يا لها من كاتبة! وإلا كيف كنا سنعرف كل ما عرفناه عن روح جنوب إفريقيا؟ عن التمييز على الأساس الجنسي في إفريقيا؟ عن شعب البوش في كالاهاري؟ عن بوتسوانا؟ عرفنا هذا فقط لأن بيسي هيد تجلس هناك في الصحراء، في كوخها الصغير، وتكتب، نتعرف على أسلوب الحياة الذي سارت عليه على مدى آلاف السنين، والذي بغير كتاباتها سوف يضيع من السجل الإنساني. هذا ليس بأمر بسيط!

ليس بسيطاً. ومع ذلك، فقد رغب سويلو لبرهة بضياعه. كان يتمنى أن يبقى التاريخ الأمريكي، المادة التي يدرسّها، حاضراً في صلب الوعي الجمعي إلى الأبد. تبادر إلى ذهنه بأن هذا ما أراده بضعة رجال بيض، وفعلوه، إذ راقته الطريقة التي يمكنه من خلالها الانسلال في وجوه بعض الرجال السود في نهاية المطاف، ثم يتقفى أثرهم رجوعاً في التاريخ إلى أن يتمثلوا أمامه حتى قبل كولومبوس. كان نمط تدريس التاريخ الذي يؤديه شبيهاً بالخياطة العكسية، هكذا تصوره، تخييط وربط جميع القطع والأجزاء والألوان التي ألغيت من التصميم الأولي. ويتعين عليه الآن الانتباه إلى الكاتبات الإفريقيات وشعب البوش في كالاهاري! بدا هذا أكثر من اللازم.

أقلَّ آولا السيدة هيد إلى المطار بنفسه، تابعت فاني. أسرّت لها أثناء ركوبها السيارة بأن لديها اعترافاً تود التصريح به: مع أنني كنت قد أحببت جميع قصصها، وخاصة مارو، فإنني فعلياً لم أفهم كتابها الأضخم، سؤال السلطة[1].

- أجل، قالت، بلهجة كيب تاون المزركشة، لا أستغرب هذا على الإطلاق. إنه تصوير مفصل للروح المحطمة، والعفاريت التي لا يتخيل المرء عادة وجودها إلا خلف أجفانه وتكون قد اكتسبت أسماء ووجوها.

1- A Question of Power

لقد غادرت هذه العفاريت رأس المصابة لكنهم في الواقع يتجولون في غرفتها. ثمة من تعلق بالكتاب في الحال، حدث هذا لأن حالتهم شبيهة بما قيل فيه. التفتت لتعانق والدتي وتودعها. قالت بعدها: أما الذين يستوعبون الكتاب بشكل صحيح فهم ليسوا بحاجة لقراءته حتى. إنهم جميعاً في هذه الأثناء يحدقون في الفضاء بسلام تام.

عموماً، يتعين عليّ القول إنني شعرت بأنها لم تستظرفني تماماً، وبدوت لها شديدة التصلب والرضا عن ذاتي. شديدة العقلانية. يؤله معظم الكتاب، كما يخيل إليّ، ومضة الجنون لدى الآخرين؛ بالنسبة لهم، التعذيب الحقيقي هو بشر يتكلمون طوال الوقت ويتصرفون بشكل أحادي. إنها من أشد من التقيتهم نباهة. كان القلق بادياً عليها أثناء حديثنا، ولديها فكرة واضحة، بل أطنان من الأفكار، إلا أنها مبعثرة قطعاً.

بعد عودة آولا من المطار، أخبرنا بأنها تعرضت لانهيار عصبي منذ سنوات، لدرجة أنها أصبحت محطمة تماماً. استردت عافيتها من خلال العناية بحديقة عامة تستعمل للتجارب في بوتسوانا، إذ فرض عليها إرسال تقرير يومي إلى السلطات.

أي حياة هذه، قالت والدتي.

أجل، قال آولا، هذا يجعل من المشكلة التي تسببت بها كحبة مانغو صغيرة بحق. إنها تدفع ثمن الهوية التي اختارتها في حياتها. لكن، ألسنا جميعاً كذلك؟

في كل مؤلف من مؤلفاتك ثمة غلام يدعى فرنسيس، كان آولا يقول لكاتب أبيض محلي ذات صباح لحظة دخول فاني لتناول الإفطار. أهو أمر غير مقصود أم ثمة معنى مستبطن يفترض بالقارئ تبيانه؟

هيا، قال الرجل، هناك فرنسيس واحد فقط، في كتابي الأول. بعد ذلك كان هناك اسم فرنسيس بحرف e بدلاً من i، والغلام فرانك في الكتاب الأخير.

أليسوا جميعاً يحملون الاسم ذاته ولو بدرجات متفاوتة؟ سأله.

صباح الخير، آولا، قالت فاني. قبلته في أعلى رأسه، ولفها بذراعه. كان في مزاج بهيج، لائق بمنحرف أدبي.

هذه ابنتي من أمريكا، قال متفاخراً. فاني، سلّمي على السيد هنري باتس، العضو المؤسس في نقابتنا للكتّاب، لقد جاء ليحذرني ويسألني الابتعاد عن الأذى.

كان هنري باتس ضئيلاً ووجهه كالعجينة، وله لون فاتح وكرش مثل كرش الدب.

كنت أقول له إن معرفته بجميع أعضاء الحكومة أو صلته بهم لا تعني أنهم لن يضيقوا ذرعاً به قال باتس.

لا تعرف بارتباطنا بأي علاقة مع أي كان، قال آولا. والتفت إلى فاني، لسنا على علاقة فعلية مع أولئك البلهاء في الحكومة، إذ من الواضح أننا لسنا على هذا المستوى. هل تعرفين المثل الهندوسي الذي يقول يجب ألا تربطك أية علاقة سوى بأولئك الذين تمنحك رفقتهم حالة من الارتقاء الروحي؟ لكن البعض من أعمامك يتولون مناصب في السلطة. وهل تعرفين، حين اعتقلوني، بعد أن أعملوا الجرافة في مسرحي - جحيم الإسدال الأخير للستارة، عليك الاعتراف! - زارني اثنان منهما في زنزانتي لا لشيء سوى لتبادل دردشة قصيرة. لقد صدَّعت السياسة رأسيهما، ولهذا أرادوا الحديث عن كرة القدم. كرة القدم. هؤلاء رجال لم يقرؤوا كتاباً واحداً في حياتهم. لم يتمكنوا من البقاء مستيقظين أبداً حتى نهاية المسرحية. إن لم يقرؤوها أو يشاهدوها حسب النموذج الخامس، فلن يعرفوا شيئاً عنها.

ما الذي تسعى للقيام به، قال أحدهما، أتريد تشويه صورتنا أمام العالم؟ قال ذلك بجدية.

أوبينجوماد، اسمعني، قلت له. انظر إلى فمي ونظّف أذنيك. ليس

بوسعي أن أجعلك تبدو أسوأ مما أنت في الحقيقة. أنا مجرد كائن بشري، في النهاية.

لكن يا أباجيرالاسيزيولا، قال وقد نفد صبره، تقوم الحكومة بما في وسعها.

الرئيس وزوجاته، ومحظياته، ووزراؤه، وأقرباؤه، والجيش هم وحدهم من يحصل على كفايته من الطعام. أولادهم فقط مقدر لهم الذهاب إلى المدرسة. ينبغي على الحكومة أن تبذل جهوداً أكبر. أمور من قبيل تعبيد الشوارع من حين لآخر أو بناء مستشفى. وبالمناسبة، لماذا لا يرى المرء بعد حظر التجول في كل ليلة سوى أصحاب البزات العسكرية؟ من جملة أمور أخرى، سوف يبدو أننا بلاد للذكور، وأنت تعلم بأن بقية العالم سوف يلاحظ هذا. وما مدعاة حظر التجول، دعنا نفكر في هذا؟ التجوال هو المتنفس الوحيد الذي كان مسموحاً للأفارقة به على الدوام قبل حلول المساء. يبدو أنهم سيفقدون هذا حتى بعد التحرر.

تابع قائلاً: هيا، كن أضحوكة. أضحكت الجميع مسرحياتك دائماً. لكن يتعين عليك ألا تسخر ممن يبذلون قصارى جهدهم لأن يقدموا شيئاً لهذه البلاد بعد رحيل الرجل الأبيض عنها.

انظر إلى فمي، يا أوبينجومادي، أيها الصبي الثاني من زوجة أبي الثالثة؛ نظف أذنيك: **لا يزال الرجل الأبيض موجوداً هنا.** حتى بعد جلائه لم يذهب.

لكن يا أباجيرالاسيزيولا، يقول، لماذا لا تقدم لنا العون عوض الجلوس في الخلف وكيل الانتقادات؟ لماذا لا تكتب أعمالاً مسرحية تصور الجميع بأحسن حالاتهم؟ يمكنك أن تصور محاولات الحكومة إطعام وإكساء الشعب وتعليمه رغم الخراب العميق الذي خلّفه البيض. لم لا تكتب مسرحية تروي فيها عن تفجيرهم لجامعتهم، ومحطة الإذاعة والمشافي والجسور بدلاً من تحويلها إلينا؟

أوبينجومادي، افتح أذنيك الكبيرتين بمحبة: **جميع شعوب العالم**

تعرف كل ما تجب معرفته عن الرجل الأبيض. هذا هو الهدف الجوهري للتلفزيون. لكنهم لا يعرفون أي شيء عن أنفسهم.

أتعني البيض؟ سألني.

لا، الشعب، قلت له.

لكن يا أباجيرالاسيزيولا، قال أخيراً، وهو يضحك، أنت الوحيد الذي يمتلك أسلوب التفكير هذا.

أنت مخطئ، يا أوبينجي مادي، قلت. النساء يفكرن بالطريقة التي أفكر بها.

لكن يا أباجيرالاسيزيولا، قال، باستهجان، ومن ذا يهتم بما تفكر به النساء؟

راح هنري باتس وفاني يضحكان على الحركات التي يؤديها آولا بوجهه أثناء كلامه. لم يكن يبدو عليه أنه في الستين من عمره. بدا صبيانياً، لا بل شقياً، وهو يضحك من كل قلبه.

في السجن نام على الأرض، كما قال، وظن أنه قد تعافى من التهاب الأعصاب. أردف قائلاً. في الواقع، هذه عبارة اقتبسها في مسرحيته التالية.

نفض هنري باتس يديه.

فجأة صحا آولا. أجل يا هنري باتس، قال، راقب فمي: أين كنت أنت وهواجسك عندما سجنت وعذبت على يد البيض؟ عندما يكفّ أبناء شعبي عن التصرف على خطى الرجل الأبيض، عندها سأكتب مسرحيات تصورهم في أحسن حالاتهم!

***

ما كان باستطاعته القول للطبيب النفسي أن محبوبته امرأة تقع دورياً بحب الأرواح.

لماذا لا تخبره؟ سألته فاني ذات مرة، فيما كان يحاول وصف إحساسه بالقصور والخجل أمامها. وما نفع معالج نفسي لا يفهم بالأرواح؟

كانت تبدو امرأة عادية من نواح عديدة أغلب الأوقات. حدق سويلو فيها بطريقة يائسة وهي تسأله عن هذا. ترفع ذراعيها ثم تعيد تسوية شعرها الطويل المضفور، وهي تدور في كرسيها على الجانبين. استغراقها الذاتي الأنثوي وعدم اكتراثها الآني بوجهات نظر بقية العالم استحضر كليوباترا إلى ذهنه.

كان المعالج النفسي يهودياً في منتصف العمر لم يدلِ بأية معلومات مطلقاً عن نفسه، الأمر الذي جعل من المتعذر قول أي شيء له. ظل سويلو ينتظر وهو يعاني أسبوعاً تلو الآخر ظهور ولو أمارة صغيرة منه تشي أنه كائن بشري حسن النية. شخص يملك ولو إمكانية صغيرة لاستيعاب مأزقه ولكن بلا جدوى.

أرواح؟ سأله، وهو يحرك رويداً رويداً ثقّالة ورق، شبيهة بتلك التي في فيلم *المواطن كين*[1] موضوعة فوق كدسة أوراق مرتبة على مكتبه.

أجل، قال سويلو. الآن... توقف قليلاً. بدا الكلام عقيماً وبلا جدوى. ما الذي يعرفه الدكتور بيرني كيسيلبوم؟

أجل؟

في تلك اللحظة كانت الروح رجلاً يدعى... جون هورس الزعيم. شعر هنا أنه أفصح عن معطيات زائدة، وكاد يبكي من شدة ما بذله من جهد. لم تكن بالضرورة من الرجال، قال له مستدركاً. وليس بالضرورة أن تكون من البشر حتى، اعتقد أنه أنقذ علاقة فاني بالشجر والحيتان حتى يتسنى له رؤية المزيد.

خلا وجه كيسيلبوم من التعابير. كان سويلو يمقت الجمود في الوجه.

من هو جون هورس الزعيم؟

مر صمت طويل.

....

1- فيلم أورسون ويلز الشهير Citizen Kane

احزر على من عثرت اليوم! قالت لي وهي تبكي فرَحاً.

من؟ سألها وهو يقلّب كريمة حساء الهليون أثناء ولوجها من الباب على وشك أن تحلق.

جون هورس الزعيم!

لقد اعتاد على هذه الحالات من الحماس، مع أن كلاً منها تجرحه. شعر باستمرار أنها غير مكتفية به، فيترقب شهوراً من الوحدة، عندما سيبدو وكأنه بالكاد موجود.

حقاً! قال، باهتمام مزيف، وأين يقيم - هذا الشيء؟ جون هورس الزعيم؟ إلا أنه استطاع أن يرى بأنه، في تلك الأثناء، كائناً من كان هذا الزعيم جون هورس فهو يعيش في زوجته.

روت له بكلام هذياني عن هذا الرجل الذي كان زعيماً، زعيماً هندي أسود، على السيمينوليين[1] في فلوريدا، قبل أن تصبح ولاية (بالطبع، قبل أن تكون ولاية، سوف يتمتم، وهو يفكر بمدى صعوبة تصور وجودها كأرض قبل أن تغدو ولاية)، وعن رفض السيمينوليين استعباد السود الناجين من الاسترقاق وعن ترحيب عشيرة السيمينول بهم. دارت هناك معارك لا حصر لها، قالت (وعيناها تومضان، كما لو أنها كانت حاضرة)، أثناء ملاحقة تجار العبيد البيض لهم. مسيرة طويلة حتى المكسيك. سنوات من العمل لصالح الحكومة المكسيكية، ومحاربة قطاع الطرق المكسيكيين. آنذاك، عندما انتهت العبودية في الولايات المتحدة، عاد جون هورس الزعيم وأبناء شعبه - رجالاً ونساء وأطفال - إلى تكساس. كان ذلك في سبعينيات القرن التاسع عشر، حسب كلامها، وشعر سويلو بالدهشة من جديد كما يحدث له باستمرار، فعلى الرغم من أنه دارَس للتاريخ لم يسمع عن هذا الحدث من قبل أبداً. بعد وصولهم، ولأن الجيش الأمريكي ما عاد قادراً على ضربهم أبداً، فقد استأجرهم

---

1 - Seminoles: من سكان أمريكا الأصليين، أصولهم من فلوريدا وعاشوا في أوكلاهما مع بقاء أقلية منهم فيها - المترجم.

للمساعدة في تخليص تكساس من الصنف نفسه من قطاع الطرق الذين كان جون هورس وعصبته قد حاربوهم في المكسيك.

روى سويلو هذه الحكاية لكيسيلبوم بأفضل ما أسعفته ذاكرته.

كان قال لفاني بطريقة مترفعة ازدرائية، حقاً، كان جندي بوفالو. وكان يقصد بهذا قاتل الهنود، لصالح الرجل الأبيض.

نظرت إليه نظرة غريبة. ثم قالت بهدوء، نعم ولا. ظل طيلة حياته يبحث عن جزء صغير جداً من الأرض لا يشتهي البيض السطو عليها، جزء صغير من الأمان. لم يحصل على أي منهما. لكن هذا ما كان الحلم.

وإلامَ آلت الأمور معه؟ سألها.

رفعت كتفيها استهجاناً. ولى هارباً مع غياب الشمس، بالطبع. عائداً إلى المكسيك. في المكسيك كانت الحكومة على الأقل تقدر مهاراته كجندي وعرضت عليه قطعة أرض. أكثر مما فعلت هذه البلاد في أي وقت. لم يحصل هنا مطلقاً على راتب تقاعدي!

اتخذت عيناها تلك النظرة البعيدة التي تشي بأنها في هذه اللحظة تركب الخيل برفقة جون هورس عائدة إلى المكسيك؛ حملوا النساء والأطفال على عجل والسود بوجوههم اللماعة الذين كانوا يحلمون بالعيش أحراراً طوال مسيرتهم.

لم يفلح في استيعاب هذا الكلام.

وهل هو شخصية حقيقية؟ سأله كيسيلبوم. أقصد شخصية من التاريخ.

أجل، قال سويلو. أشعر بأنني محظوظ حين يكونون بشراً حقيقيين، إذ يمكننا عندها الحديث عنهم قليلاً. يصبح الأمر أعقد عندما تسكنها روح لا تعرف من تكون أو ما هي.

وهل يحدث هذا بشكل متواتر؟

مرة كل سنتين أو نحو ذلك. لكن ولعها يكون ضعيفاً أحياناً ليس إلا. نعيش معاً بقدر كاف من السعادة، مثل شخصين يمسكان بأيدي

بعضهما ويخوضان في نهر ضحل، وفجأة يجرفها تيار عميق يبدو موجوداً من أجلها فقط فتبتعد عني. حين يحملها التيار، تتركني وحيداً، أقبض على... اللاشيء. إذا ما تذكرت أن تقول لي عمت صباحاً في بعض الأيام أستغرب هذا، كما أن ممارسة الحب تمسي كارثة، ولا أعرف مطلقاً من هي هذه المرأة التي معي. بالتأكيد يكون جهلي على قدر همومها، مع أنها تدعي غير هذا.

لم تصل فاني الرعشة الجنسية معه منذ فترة طويلة؛ تعلمت كيف تبلغها من بعض صديقاتها. حدث ذلك في زمن كانت جميع النساء الواعيات فيه يحملن منظاراً ومرآة في حقيبة الظهر، ويدعن القبعة تتدلى، كما بدا لسويلو، وتتأرجح على ظهورهن في حركة دائرية ويعلمن بعضهن البعض الأمور الأكثر دهشة. مع ذلك، حين سألها عما تحس به أثناء الرعشة، كانت تدعي على الأرجح بأنها أحست بشروق شمس أو جبل أو شلال، تماماً مثلما أحس هو. كانت أحياناً تهمس، مغامرة، أو مقاومة، أو نجاة! هذا ما أصابه بحيرة هائلة.

كثيرون لديهم اهتمام شغوف بالشخصيات التاريخية، قال للمعالج النفسي.

هذا صحيح. لكن فاني نزينغا عثرت على الروح التي استحوذت عليها في ذاتها أولاً، ثم وجدت الشخصية التاريخية التي تلبست تلك الروح. تمنحها السمة الغريبة للثالوث - هي والروح والشخصية التاريخية، يجلسون معاً قبالتك على الطاولة في آن واحد.

أتلفه هذا التكثيف.

كما فعل مع جميع معشوقيها من الأرواح، انسل من خلف ظهرها وراح يستقصي عن جون هورس. أعانه في هذا كتاب ويليام لورين *الهنود السود*، حيث رويت فيه بعض التفاصيل من حكاية جون هورس. قدم لفاني، بشكل متردد خجول، نسخة منه هدية في عيد مولدها. قرأ فيه، قبل مائة عام، مات جون هورس الزعيم ميتة هائلة. هاه! من البديهي

أن هذه الأرواح القديمة مثل روح هورس لا تموت. كان له شريك يدعى **القط البري**. تزوج امرأة صافية من السيمينوليين، ومن ثم من مكسيكية. على الأرجح أنها كانت هندية أيضاً.

ما الذي يعجبك في هؤلاء البشر، سألها ذات مرة.

لست أدري، قالت. يفتحون أبواباً في داخلي. كأنهم مفاتيح، ويصلون إلى أعمق الحجرات في ذاتي. أعثر على باب في داخلي فيبدو لي كأنني أسمع همهمة من خلفه، وبعدها أدخل بطريقة أو بأخرى، بواسطة المفتاح الذي منحني إياه العجائز، وفيما أتعثر وأنا أسير في عتمة الحجرة، يبدأ شعور الهياج في ذاتي وطنين الحجرة، فيتوسع قلبي بشعور خالص من الشجاعة أو الحب أو الجرأة أو الالتزام. يصبح هذا نوراً، ويدخلني النور، من خلال التناضح، فيتجلى لي جزء من ذاتي لم يكن واضحاً من قبل. تراني أتألق سعادة بهذا النور الممتد.

و*هذا* ما يسمى، كما يعلم سويلو، الوجد.

***

أخبرنا آولا في الليلة الماضية، كتبت فاني في رسالتها التالية، أن العمل المسرحي الذي ينوي تأليفه مستقبلاً هو على الطريق - على الرغم من أن مستقبلي، باعتراف الجميع، قال مازحاً، قد يكون قصيراً جداً! - هو عمل يدور حول ألفيس بريسلي.

الألفيس بريسلي؟ قالت والدتي مستفسرة. إلفيس بريسلي الذي *عندنا*؟

السيد روكيت سوكيتس بذاته؟ قلت وأنا أقرع الأجراس.

بالضبط، قال آولا مبتسماً.

كما تعلمان، قال آولا، مستمتعاً بذهولنا، لدينا في بلادنا أيضاً الكثير من القبائل المتنوعة، مثلما لديكم تماماً في أمريكا. أتعلمان، لديكم قبائل من السود والهنود والإنجليز واليهود؛ القبائل الآسيوية، والشيكانو

والشرق أوسطية... إلى آخره. هنا لدينا قبائل الأولينكا، والأبابا، والهاما، وقبائل البيض، وتتفرع عنها العديد من القبائل الصغيرة.

تسعى جميع هذه القبائل الآن للمحافظة على هوياتها القبلية الخاصة، وهذا من طبيعة الرجل، الذي يخلد هويته الوراثية عبر التحكم بالمرأة التي يستغلها لإنجاب أولاده، غير أن هذا ليس بالضرورة طبيعياً بالنسبة للطبيعة، التي تنجب من أي كان. لهذا فقد تداخلت مع مرور الزمن الكثير من الحدود العرقية وولد أناس جدد. المذهل هو رؤية مدى الحب أو الحقد الذي يعبر عنه هؤلاء الناس الجدد، الذين ليس لديهم، في النهاية، أي تصنيف قبلي ثابت يمكن تصنيفهم فيه.

لكن ما علاقة هذا بإلفيس بريسلي؟ سألته والدتي.

سوف توظفه مسرحيتي كمجاز فقط. عربة من نوع ما ستحمل ما أحاول لفت الانتباه إليه.

وهو؟

لقد وجد البيض فيه مبرراً للتعبير عن توقهم وتقديرهم لساكن أميركا الأصلي المضطهد وللمناطق المظلمة في ذواتهم، أي تلك الصفات غير الأوروبية الكامنة في داخلهم وفي كل ما حولهم، والتي تدربوا على نكرانها منذ ولادتهم.

استغرق حديثنا هذا كل السهرة؛ وفي النهاية شغّل آولا بعضاً من التسجيلات العزيزة إلى قلبه لإلفيس بريسلي وجوني كاش.

لا أستمع إليها على طريقتكم، قال. أستمع إلى الأغاني لأعرف من خلالها إلى أين أفضى نجاح التيار الثقافي والتجاري العام بالشعوب، وقدِ خفي جانب من نسبهم حتى عنهم هم أنفسهم، في عالم - أو في بلد، في هذه الحالة - يصر على تجريد البشر من الذاكرة التاريخية والثقافية والعرقية، قد تستيقظان ذات قرن لتجدا أنفسكما بيضاً.

بحسب آولا، كان إلفيس بريسلي وجوني كاش هنديين. يلاحظ الأجنبي هذا على الفور، كما يقول؛ أما الأمريكان فلا ينتبهون. يقول

بأن هذا يفسر نمط ملابس إلفيس. شغفه بجلد الحيوانات والشراريب، وبالفضة. وسواده من الناحية الثقافية بالطبع كما يقول آولا، كسواد بقية البيض في ميسيسيبي.

لكن أليست عيناه زرقاوين؟ سألت والدتي.

لعلها الملامح الوحيدة البيضاء في مظهره، قال آولا. العيون الزرق مثل النقود؛ تسدد لك نفقات الرحلة.

إذا افترضنا أن والدي على حق؛ ماذا سيعني أن تكون ناجحاً نجاح إلفيس؟ لنفترض أن وراء تلك العينين الزرقاوين والشفتين الممتلئتين، وتحت ذلك الشعر الهندي الأسود الكثيف، ثمة شخص آخر: ذلك الهندي العجوز العتيق. لنفترض أنه أو أنها أيضاً واعٍ/ واعية لذلك. إذا ما كان هندياً فلا بد وأنه من قبيلة تشوكتو ربما، فالقبيلة استوطنت هناك، ولعلها ما تزال موجودة في تلك البقعة التي جاء منها في المسيسيبي. لنفترض أن أسلافه قد ذابوا وسط البيض، كما حدث للكثير من شعب الشيروكي واختبؤوا بين السود والبيض، في محاولتهم الهرب من الجنود الذي كانوا يجمعون الهنود ويسوقونهم في مسيرة طويلة نحو أوكلاهوما – ***درب الدموع***[1] لنفترض أن رقصة بومب أند غريند التي يعشقها الجمهور ما هي إلا رقصة الحلقة في الأصل. إذا ما تابعتها بالحركة البطيئة سوف تلاحظ أنها تماثلها. لنفترض أن نمط غنائه القصير الشبيه بالحازوقة كان ذات مرة صيحة حرب أو دعوة حب بالهندية.

تحدثنا في هذا طوال الليل، بينما كان يتناهى إلينا صوت صراصير الليل ونبدي إعجابنا بتألق النجوم الحميم. لا يدعى الناس نجوماً لمجرد ألمعيتهم – توقد التعبير عن الذات والرضا الذي يمنحه هذا التوقد – وإنما لأن الخصال التي يمثلونها خصال خالدة – ما دامت الحيوات البشرية مهتمة بها. إننا ننجذب إلى ألمعيتهم ونورهم ومودتهم، لكنهم سيظلون

1- سلسلة من عمليات التهجير القسري للسكان الأصليين من جنوب الولايات المتحدة إلى الشمال الغربي – المترجم.

بعيدين عنا إلى الأبد، بعيدين لدرجة أننا لا نستطيع قط أن نعترف اعترافاً كاملاً بعدم انفصالنا عنهم. لا نصدق تصديقاً كاملاً أبداً أننا أيضاً نتشكل من النور الذي يحملونه. يقول آولا إنه على قناعة بأن البشر يرغبون، في المقام الأول، بمحبة بعضهم بعضاً بشكل حر بصرف النظر عن القبيلة، وعندما سيمتلكون القدرة على فعل هذا بشكل صريح في آخر المطاف - رغم أن إملاءات المجتمع قد موّهت الجوهر الحقيقي للفرد الذي كانوا ركزوا عليه - سيحملون على الدوام ميزة الاعتراف الروحي المنذر - بمعنى، الهستيريا؛ نحيب الرحم.

فتى التشوكتو ذو الشعر الأسود الطويل، والشفتين الممتلئتين والعينين الشهوانيتين هو القرين الذكر الذي قد تختاره العذراوات القادمات، إذا ما أتيحت الفرصة لهن، قال آولا. وللمرة الأولى تخيلت إلفيس جميلاً بحق: برونزي البشرة ورشيقاً، يجري بخفة في غابات المسيسيبي العذراء، وشعره يصل إلى خصره. حفيداتهن الكبيرات ما فتئن يبكين على خسارتهن. وكذا أنا!، وهذا ما أدهشني.

إذا تعرض آولا للنفي، كما يقول، فسوف يأتي إلى أمريكا، وعندها يمكننا أن نؤلف هذه المسرحية سوية. قال هذا بأسلوب استفزازي، إذ لاحظ شهقاتي وبات واضحاً تأثري الكبير به.

لم أحلم في حياتي أنني قد أستمتع بهذا الشكل لأن لي أباً. كما لو أن المرء لديه عقل آخر ذكي ينقب فيه، كعقلك بشكل أو بآخر، إنما أيضاً عقل مختلف اختلافاً غريباً.

* * *

لَا آبه للموت إن كان الموت هو كل شيء، قالت الآنسة ليزي لسويلو. ردد العجائز بشكل دائم أن الزمن متوقف في الجزيرة. أحدهم سيكون شاهداً على هذا بهمهمة *ام - هه* um - huh صادرة من القلب. وكنت متيقنة أنهم يعرفون عن الحياة أكثر مما يظنون، لأن الموت، يمكنني

القول، هو أقل ما فيها، لا بل إن الموت ممتع، تنسحب من كل شيء وهذا كل ما في الأمر، وهذا يشمل الانسحاب من العذاب، تنسحب وتخبو بسكينة كأنك شمعة. المحزن هو العودة من الموت، وسواء كانوا يملكون حساً كافياً لإدراك هذا أم لا، فإن الجميع بلا استثناء، سوف يعرف هذه العودة. لا تسألني كيف ولماذا. إنهم يفعلون وحسب. أؤكد لك أن فكرة المجيء إلى هذا العالم مرة واحدة ليست أقل إعجازاً من المجيء عدداً كبيراً من المرات. هذه هي حقيقة الأمر.

خذ الطريقة التي تجري بها الأمور في عالم اليوم. أنهارك مسمومة وهواؤك مسموم وأطفالك يتحولون إلى مخلوقات مقرفة أمام ناظريك. القادة الذين يبدون كالشخصيات الكرتونية الفارغة والساسة الذين يبدون كأنهم تحت تأثير المخدرات. تعيش في عالم يروّع أياً كان حد الموت. لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان. لا يمكنك تناول أي شيء. لا يمكنك حتى ممارسة الحب إلا بشق النفس. لم يحدث هذا سابقاً البتة. تمر عليك أيام تكون فيها أجمل فكرة لديك هي أنك سوف تفارق الحياة ذات يوم وتهجر الحياة بكاملها.

دعني أقل لك يا سويلو، لا يمكنك أن تتركها وراءك. الحياة في هذا المكان هي حياتك إلى الأبد. ستبقى حاضراً على الدوام؛ تحتك التراب. ولن تموت إلا إذا ماتت هذه الأرض. *إنها* تحتضر، والبشر أيضاً – ما أخشاه يا سويلو ليس اندثارنا نحن البشر مع الأرض التي نعيش فوقها. في النهاية كل شيء يموت، ربما. لكن يبدو لي أنه سيستغرق زمناً طويلاً وسيكون موتاً موجعاً وبطيئاً. هذا هو الفرق بين أن يطلق النار عليك وأنت معصوب العينين فتموت مع أول رشقة رصاص وبين أن تعذب حتى الموت ببطء شديد ومن يتولون تعذيبك هم رجال يتلقون أجراً ساعياً لقاء عملهم. هذا ليس مجرد صراع بين الحياة والموت. هذا توصيف سهل جداً، كما أخمن. إنه صراع بين الحياة الأبدية والموت الأبدي، والأبد هو زمن طويل جداً.

إنني متعبة من هذا. لست متعبة من الحياة. لكنني خائفة من نمط العيش المستقبلي وكيف سيكون في المرة المقبلة التي سآتي فيها.

كان سويلو هذه الأثناء راكباً القطار في طريق عودته إلى منزله في كاليفورنيا. اجتاز جبال الروكي الصخرية والصحراء. فكر في الأشهر التي أمضاها في منزل العم رافي وتجاوز نفسه تقريباً فيها. فكر بفاني، بمن هي حقيقة، ومن كانت في كل واحدة من حيواتها السابقة. مع أن فاني رحلت عن سان فرانسيسكو ولم تعد راغبة برؤيته، إلا أنه كان يتمنى لو باستطاعته إعادة العقارب والالتقاء بها مرة أخرى منذ البداية، من منظور شخص يؤمن بأن الحب الحقيقي لا يموت أبداً وأنك تعاني فقط من الكفاح - وطالما أن الكفاح يؤدي إلى معاناة بلا شك، فالمعاناة تقودنا إلى معرفتنا بألا نعاني. في النهاية، ثمة عدد هائل من الحيوات، وحده الحب هو الشافي والبلسم. الحب وحده، حليب الأم.

باع المنزل في النهاية، وسوف يحصل الآن على المال الذي سيعتاش منه بينما يكتب ربما تاريخاً شفهياً - واحداً من تلك الكتب غير الرسمية، التي تعج بكلمات من قبيل قال وقالت، والتي كان دائماً يشمئز منها - عن السيد هول والآنسة ليزي. قبل مغادرته بالتيمور، قاد سيارته إلى عنوان الآنسة ليزي، ليكتشف أنه عنوان السيد هول أيضاً. كان هذان العجوزان الصديقان يرسمان بصمت في الفناء الخلفي، وتفصل أغصان دقيقة من نبات رعي الحمام الزهري بين مرسميهما. لم يتوقفا في حين كان يجلس على الدرج الخلفي يتابعهما. كانا يرسمان بلمسات رقيقة، قبالتهما مباشرة: خلفية منزلهما الصغير من الألواح البيضاء، وتسمق شاهقة شجرة جوز البقان الضخمة التي يعرش عليها اللبلاب حتى الجهة الأمامية، حَديقة تمتد على أحد جانبيه تنمو فيها الأزهار والفاكهة جنباً إلى جنب.

ثمة شتلة أضاليا عملاقة وأزهار الصباح الزرقاء تزين المنزل وحقل الذرة. نور الشمس دافئ والنهار نفسه كان خيالياً، سرعان ما استلقى سويلو على ظهره في الشرفة وغفا.

حين جلس الصديقان العجوزان بجواره، فيما كان يحث نفسه للنهوض من النوم، شعر كأنه يعرف كل شيء عنهما ومع ذلك لا يعرف شيئاً. عرف بأنهما بعثا بأناتولي إلى جامعة فيسك وأصبح بروفيسوراً في الألمانية في توسكيجي. عرف أن لولو، الموهوبة المتهورة والمغنية والراقصة الممتازة في آن معاً، كانت قد سافرت، بروح معنوية عالية، مع فرقة موسيقية كوميدية إلى باريس. للأسف، سقطت باريس أمام هتلر أثناء وجود لولو فيها. لم يسمع ثانية أبداً عن لولو وبقية الفنانين السود والملونين الذي كانوا يعملون في باريس آنذاك. عرف أن عمه رالف كان عاشقاً للسيدة ليزي وأحب أيضاً صديقه وصديقها المقرب، رفيق روحها وأحياناً زوجها، السيد هول. عرف أنهم عاشوا معاً بانسجام مميز سنوات طويلة وظلوا أصدقاء حتى وفاة العم رافي. عرف أن الآنسة ليزي هي شخص استثنائي في الحقيقة، لن تُعرف ندرتها ولن تُقدر على الأرجح إلا من قبل أولئك الذين لا يصدقهم أحد، حتى لو قالوا هذا للآخرين - ومن الواضح أن العم رافي والسيد هول والآنسة ليزي نفسها كانوا يلتزمون الصمت في أغلب الأحيان. إلا أنهم كانوا هم الثلاثة جميعاً أشخاصاً استثنائيين، فكر سويلو، لأنهم مرتبطون مباشرة بالحياة وليس بتجلياتها؛ أخذتهم الأسرار التي شاركوا فيها، ببساطة لأنهم على قيد الحياة وعرفوا بعضهم، نحو واقعية عميقة تتجاوز ما يسمح به المجتمع غالباً للناس. وجدوا أنفسهم وقد ولدوا في كون غامض ورائع، يعج بآخرين غامضين ورائعين؛ لم تخامرهم الحيرة مطلقاً من إعجاز هذه الهدية؛ إذ إنهم صنّاع أعظم ما فيها.

إنني مغادر، قال سويلو، وهو ينهض.

ونحن نعرف أننا ذاهبان وإياك، قالت الآنسة ليزي، وهي تسلّمه، بابتسامة، رزمة ملفوفة بورق بني اللون ومربوطة بشريط. ثم دست مظروفاً وردي اللون محشواً في جيب قميصه. خرجت فأرة من المنزل ثم توقفت وقد أبهرتها أشعة الشمس، فعادت إلى الداخل بسرعة. سقط

عصفور صريعاً على الشرفة؛ لا بد أنه شاهد صورة السماء منعكسة على زجاج النافذة فحلق نحوه واصطدم به.

عندما كان سويلو يسير عائداً إلى الشارع، وهو يمر بسيارة السيد هول القديمة، المركونة بجوار سيارة الآنسة ليزيداتسون الرمادية النظيفة، حمل في ذاكرته صورة عجوزين يلوحان له، يمسكان بيديه ويبتسمان، بما يبدو أنها كلمة وداعاً.

لقد رسماه، كجزء من حياتهما، حين كان مستلقياً على شرفة منزلهما الخلفية ومحاطاً بكل ما يعشقانه. رسماه وهو نائم.

لكن ما الذي تحويه تلك الرزمة؟ ما هي هديتهما؟ أخذ سويلو نفساً عميقاً حين كان يحل الشريط بعناية. تشقق الورق البني حين مرر أصابعه تحته. في البداية، ظن أنهما قدما له ألبوماً من الصور، فقد كانت الرزمة بهذا الحجم تماماً مع أنها خفيفة للغاية. لكن لا، كانت تحتوي على لوحتين. أخرجها وأمعن النظر فيهما لفترة طويلة، الأولى ثم الثانية. بدت كأنها لوحات بورتريه شخصية. ولعلها ليست كذلك، إذ كتب على إحدى اللوحتين بورتريه شخصي، ليزي ليليس، وعلى الأخرى، بورتريه شخصي، هارولد دي. جينكينز. كانت خلفية اللوحتين تظهر جميع الأشياء المألوفة التي كان يهوى الصديقان رسمها: أشجارهما والذرة وأزهار الصباح، زهرة العنكبوت بلونها الوردي والأصفر الباهت. مركز اللوحة هو الذي لم ير له سويلو مثيلاً أبداً، لأنه وعوضاً عن الوجوه، كما في البورتريه، لم يكن فيها سوى خطوط أولية لجذعيهما، خطوط على هيئة امرأة وهيئة رجل ولتحصر هذه الخطوط الأولية فراغاً أزرق لا نهائياً، تم تلوينه بمنتهى التركيز والعمق والتوق حتى بدا مشرقاً ومبتكراً إشراق السماء. قلّب سويلو اللوحتين باستغراب، كما لو أن ذاك الفضاء ربما يكون قد تسرب إلى الجهة المقابلة من اللوحة. ما رآه دفعه للابتسام وضم اللوحتين إلى صدره، حين كان القطار ينطلق في نفق رمادي طويل داخل ظلام أكثر

حلكة حتى. على خلفية بورتريه ليزي ليليس كتبت بأحرف زمردية اللون، الرسام هول جينكينز. على بورتريه هول الشخصية، وبأحرف حمراء قانية كُتب الرسامة ليزي ليليس.

***

كان سويلو، بعد أن وصل المنزل، مفتوناً بالمظروف الوردي السميك، حيث قرّبه من أنفه وتنشق رائحته. تفوح منه رائحة الآنسة ليزي – لها رائحة زهور بيضاء قديمة تحت أشعة شمس الصيف الحارقة. شعر بالذهول وهو يقلّبه بين يديه لدى رؤيته خط الآنسة ليزي العتيق، وجميع النقاط مكتوبة بوضوح وأحرف الـ Oمكتوبة بتدوير متقن: أحرقونا حتى النهاية حتى لم يبق منا سوى الدخان. لم يكن يعرف ما الذي يتوقع العثور عليه لدى فتحه الرسالة، إلا أن الصفحات الفارغة المسجاة في يده، أكثر من اثنتي عشرة صفحة، عصفت به كأنها انفجار هائل، حتى من الآنسة ليزي.

مرت أيام قبل أن يفهم المغزى، ثم اكتشفه فيما بعد، في منتصف إحدى الأمسيات. هذا جزء من حكاية الآنسة ليزي كتبتها بالحبر السري. في اللحظة التي وعى فيها هذا كان أيضاً قد علم أنه لا يحتاج لقراءة رسالتها سوى شمعة. نهض عن السرير متثاقلاً، وراح يبحث عن شمعة. لحسن الحظ عثر فوق الثلاجة على علبة من الشمع، هدية قديمة من الآنسة ليزي والسيد هول. انكبّ على طاولة المطبخ وهو ما زال في قميص النوم، قرّب الشمعة خلف الورقة الأولى، وكانت قشعريرة ضباب سان فرانسيسكو تتسرب إلى عظامه، شرع يقرأ... ما بدا له في البداية شكلاً من أشكال الهذيان الديني.

الدين الذي لقنوني إياه في طفولتي ونشأتي في الجزيرة، كتبت الآنسة ليزي، كان ديناً يحرض البشر على محاولة التهام كل ما على الأرض، طالما أنهم علمونا أن (كل شيء في سبيل الرجل)، فيما لم يكن مطلوباً

منه أن يكون في سبيل أي شيء محدد. حسناً، في سبيل الله، لكن من يدري ما هو هذا الله؟

هممم، همهم سويلو متثائباً وفرك ذقنه.

أولى الساحرات اللواتي أعدمن حرقاً على الأوتاد كن من بنات المغاربة *مغاربة*؟ تأمل مفكراً بارتياب. لقد ظنوا (أو بالأحرى ظننا) أن الدين المسيحي الذي ازدهر في إسبانيا سوف يسمح لإلهة إفريقيا أن تعبر إلى العالم المعاصر بوصفها مرين العذراء السوداء. في النهاية، هكذا كان الآلهة والإلهات قد انتقلوا من حقبة زمنية إلى أخرى في السابق، مع أن الإسلام، الذي كنا ندين به رسمياً زمناً طويلاً، لم يكن له شأن بهذا المفهوم، وبالمقابل، كان يجهز دورياً على كامل العائلات الإفريقية التي تعبد الإلهة، أو تباع في سوق الرقيق، أو ترغم على اعتناق الإسلام بحد السيف.

أجل، وهنا تخيل سويلو نفساً متردداً طويلاً، كنت إحدى أولئك المهرطقات الوثنيات اللاتي أحرقن على الوتد.

أحرقونا في البدء – على رؤوس الأشهاد، حتى بعد قرون من العيش وسط الأوروبيين. يمكنك أن تتذكر ديدمونة وعطيل، إن لم تكن قادراً على فهم هذا فهماً تاماً، فترى بلمحة خاطفة شكل حضورنا في أوروبا. في آخر المطاف، أقيمت محاكم التفتيش حيثما حلوا، حتى مدينة البندقية المائية شديدة الرطوبة، ومع هذا فهي مكان جميل، أصوات صرخات وظلال لألسنة لهب خارجة من جدران قصر دوغ في ساحة سان مارك استغرق خمودها أشهراً.

ألم تتساءل يوماً عن السبب، عجز البيض عن منع شكسبير من إخبارنا جزءاً واهياً من الحكاية أو سعيه لإخبارنا على الأقل (ذلك الكاتب المسرحي الغامض الذي لا يعرف عنه سوى القليل)، في ذكره للمغاربة الذكور فقط (يعرّفهم بوصفهم رجال) وما من *مغربيات إناث*؟ سأخبرك، لقد كنا هناك، وقد أصبح لون بشرتنا أفتح قليلاً مما كنا عليه

في إفريقيا، تخيل أولاد ديدمونة وعطيل. من المؤكد أننا كنا هناك، وتربينا على أن نكون بنات آبائنا، آبائنا الشغوفين بالتعلم أكثر من أي شيء آخر، ويعتنقون ديناً كان قد روعهم في إفريقيا، جابوا أرجاء العالم وتزوجوا من الغريبات والبربريات كي يتعلموا المزيد عن أساليب عيشهم الغريبة والمثيرة. آباؤنا المساكين، جريمتهم الوحيدة أنهم أحبوا أمهم، لكنهم ساهموا في النهاية، خلال سعيهم لصونها وحماية أنفسهم، في تحويلنا جميعاً إلى ذات أخرى وعرق آخر.

ذبح محققو محاكم التفتيش آباءنا وصادروا ممتلكاتهم لصالح الكنيسة، مثلما فعلوا باليهود أيضاً. التقط آباؤنا الأفارقة، الذين بلغوا إسبانيا في هروبهم من استبداد الإسلام الديني فيما كانوا يرتدون عباءته، واكتشفوا وسامتهم الرائعة ونالوا الإعجاب واستوطنها معظمهم. واصل بعضهم طريقه إلى فرنسا، وألمانيا، وبولندا، وإنجلترا، وإيرلندا، وروسيا. استقر واحد أو اثنان منهم في البندقية وكان ملهماً لمسرحية شهيرة. حسناً، ها قد وصلتك الصورة. إن لم أكن مخطئة في بولندا وحدها لا تزال سيدتنا السوداء، الأم العظيمة للجميع - إفريقيا الأم إذا شئت - تعبد علناً. ربما لهذا يوصف البولنديون بافتقارهم إلى الذكاء الكبير.

لكنهم طمسوا وجودنا في الفترة التي أتحدث عنها، تتابعت الرسالة، وبدأت رائحة شحم الشمعة فجأة تزعج سويلو، والتي حاولت محوها من ذاكرتي إذ كانت فترة رهيبة جداً. قالوا إنه من غير الممكن أبداً أن تكون والدة مسيحهم الأبيض (الأشقر ذي العينين الزرقاوين، حتى في إسبانيا التي يسود فيها الشعر الأسود) امرأة سوداء، فاللون الأسود مع جنس الأنثى كلاهما من الشيطان. كنا نعتبر ساحرات شريرات إذا ما ادعينا خلاف هذا. كنا ساحرات؛ وظيفتنا معالجة الأمراض، نولِّد أبناءهم إلى هذا العالم؛ نداوي أمراضهم؛ نغسل ونكفن أجساد أمواتهم. كنا بعيدين عن الشر. كنا في صف الحياة ولم يرق لهم هذا على الإطلاق. كلما تكشفت لهم قوتنا كلما شعروا أنهم مجردون من القوة. كانوا يشعرون

بأنفسهم أقماراً لشمسنا، مع أن القمر، كما تعرف أي امرأة، يمتلك أيضاً قوة عظيمة. إننا متصلات بأبعاد الحياة الثلاثة جميعها - الماضي والحاضر والمستقبل - وكذلك بالرجل، بيد أنه لن يسمح لنفسه برؤية هذا. أتاح لهم تلقينه بأن والدته هي الشر واعتنق الأديان التي لا دور لها فيها، بعد أن أطعمته وأحيته من دمها، بأن يخرس.

تخيل سويلو وجه الآنسة ليزي العابس.

هل يمكنك أن تصدق هذا؟ تابعت الرسالة. كأن يرغم كل رجل رجلاً آخر على الخروج ليلاً بلا شمعة، وعلى الكلام بلا لسان، وعلى النظر بلا عينين والنهوض بلا ساقين.

إذا ما شئت الانضمام إلى جماعة من الرجال، يقولون لك، عليك أن تفعل شيئاً حيال والدتك. يقول الرجل بخنوع، وما عليّ أن أفعل؟ تصطك أسنانه من البرودة التي تحدثها فكرة فقدان رفقة صديقه المقرب. أها! نريد منك أن تخرسها، يقولون له. لا تعر أي انتباه لكل ما قد توحي به لك. بالمقابل، سوف نقف إلى جانبك في الادعاء بأنك خلقت نفسك. تجاهلها وحسب. لا تنصت لها. دعها تبكي، دعها تئن، دعها تجوع. هذا ما فعلوه مع أمهاتهم؛ وهذا بالتأكيد ما اقترفوه بحق إفريقيا الأم.

أحرقونا بالكامل - نحن السمراوات اللواتي وصلن حديثاً، لنقل نسبياً، من إفريقيا - لدرجة أننا، على عكس اليهود والمثليين الجنسيين والغجر والفنانين والمتمردين الذي أحرقوا أيضاً، كيلا نذكر الثريات اللواتي نهبت أملاكهن حتى من قبل أن يبرد رماد أجسادهن، لم يتبق منا ولو أثر من دخان. انقطعت العلاقة بين النساء السود والبيض نهائياً؛ مضت رابطة الأخوية الدموية التي تقاسمتها الإفريقيات مع الأوروبيات إلى غير رجعة وكأنها لم تكن. اندثرت نهائياً في فرنسا. إن نوتر - دام. *سيدتنا* [1]لا تعني *سيدتنا* السوداء. اختفت في إنجلترا؛ باستثناء ما قد تجده في بقايا قبائل السيلت، تهتك أسلوب عيشهم المميز وتبعثره إلى

1- إشارة إلى كاتدرائية نوتردام - المترجم.

أجزاء صغيرة. انتشرت في إيرلندا الإشاعات عن بشر صغار وجميع تلك الطرائف الجاهلة عن الأيرلندي الأسود.

يوجد في البندقية اليوم، حيث كان عطيل نبيلاً من النبلاء، تماثيل لا حصر لها لمغاربة يرتدون ملابس العبيد. في إسبانيا - حسناً، هناك هندسة العمارة المغاربية، تم *تلوينها* أيضاً بألوان فاقعة ليسهل شرحها.

عندما أحرقوني على الوتد شتمتهم ولعنتهم؛ وماذا بيد امرأة سوداء أن تفعل؟ لم أكترث لطمعهم في بيتي والأرض التي ورثتها عن أبي. لكنت تخليت عنها لهم، كي أنقذ على الأقل حياة أولادي الذين جمعوهم حولي، وكانت صرخاتهم تحرق أذنيّ وتخرمهما أكثر مما تفعله النار. رفضت التخلي عن جوهري؛ ولا كنت بقادرة على ذلك حتى لو أردت. ببساطة: لا أشاطرهم رؤيتهم للواقع، لدي واقعي الخاص وأعتز به. عندما تنظر إلى عالم اليوم، تراه ينسجم مع لعنتي تماماً، مع استثناء واحد: أن المعاناة لا تقتصر على من لعنتهم؛ جميع من على الأرض، من بشر وأشياء، يعيشون عذاب المعاناة. هذا ما لم أكن أريده. استغرق تعلم هذا الدرس زمناً طويلاً: لا يمكنك أن تلعن جزءاً دون إدانة الكل. لهذا السبب ترى إفريقيا الأم، وهي الملعونة من قبل جميع أبنائها، سوداً وبيضاً وما بينهما، تحتضر اليوم، ومن بعدها سيطال الموت جميع أصقاع الأرض.

تغيرت النبرة على نحو مفاجئ، ولاحظ سويلو منزعجاً اختفاء كل سطر من السطور إثر انتهائه من قراءته؛ لم تكتب الآنسة ليزي حكايتها بحبر لا مرئي وحسب، بل بحبر لا مرئي ولا يمكن قراءته مرتين. حرك الصفحة وقربها أكثر من لهيب الشمعة المضطرب ليتأكد مما لاحظه. رفع أوراقاً أخرى أمام الضوء. كانت فارغة. تنهد، هز رأسه متبرماً ومضى يقرأ.

ظلت المرأة حتى الآن، تابعت الرسالة، بالقنص أو الاحتيال وبذاكرة وقادة عن عدن إفريقيا تحملها في بطاريتها، تحتفظ بشعور حي تجاه بقية

الحيوانات، مع أنه جرى تحجيمها للعناية بقطة منزلية صغيرة وإطعامها. حسناً، تراها في بيتها سوداء وبيدها المكنسة برفقة قطتها، وشعرها الشبيه بالقش. هل تساءلت يوماً لماذا تكون ملابس الساحرات سوداء اللون دائماً، وشعرهن منثور في جميع الاتجاهات؟ أدرك سويلو أن الآنسة ليزي كانت تضحك بملء قلبها وهي تكتب هذه الفقرة.

لم ننس مطلقاً ضرورة وجود وسيلة للتواصل مع كل ما يملك عينين كبيرتين بما يكفي! لهذا ترانا، نحن السمراوات، نهمهم بحميمية لكل فأرة أو بقرة أو عنزة نراها في الأنحاء. سوف يؤلف كتّاب حكايا الجدات الكثير عن هذا النزوع. كنا نُحشر في أسرّة رجال عجائز بعمر أجدادنا حتى، في بلدان لا يعرف أهلها الاستحمام بكل بساطة، على عكس إفريقيا؛ في أوضاع بعيدة كل البعد عن الكائنات البشرية من أي نوع كان. أصبحت حيواناتنا وأولادنا هم كل حياتنا. كنا نعتقد بحماقة أنهم على الأقل لن ينتزعوا منا الحيوانات والأولاد. إلا أن قضاة محاكم التفتيش، الذين احتلوا هذا المنصب للتحكم بنا، أعلنوا أن معاشرة الحيوانات يعتبر جريمة، يعاقب عليها بالحرق على الأوتاد! ورمي الأولاد في أيدي آبائهم، أسيادهم، الذين قايضوهم بالذهب كما قايضوا الطحين والأرض والملابس.

ادعى قضاة المحاكم أن الأبقار والماعز وجميع أصناف المخلوقات الحيوانية المشوهة قد نكحونا وأرضعونا. وحتى يغدو القياس مثالياً، ألبسوا شيطانهم - ذلك الشيء الأسود الذي يمثل أقصى احتقارهم ويتمنون النظر إليه ككائن منفصل عنهم تماماً - حوافر حادة وقروناً مستدقة وذيلاً. جعلوه يبدو ليس فقط جزءاً من الطبيعة بل أعطوا لأنفسهم الحق في قتل كل حيوان، بأكبر قدر من الوحشية ودون أي مبرر سَوى الدفاع الشهواني عن النفس، أو مخلوق أسمر تقع عليه أعينهم.

ثمة جانب في علاقة المرأة بالحيوانات وبأولادها يرضيها إرضاء عميقاً. ألا هو إثارة غيرة الرجل.

تستطيع الحيوانات أن تتذكر؛ فالذاكرة تتجدد مع كل ولادة

كالبصر. لكنها لا تتحدث بلغتنا أبداً؛ ليس بسبب افتقادها للذكاء، بل نتيجة الفروقات في تكوين أعضاء النطق. في عالم الرجال، لا بد أن يتحدث أحد ما نيابة عنهم. باختصار يا سويلو، لهذا وجدت الإلهات والساحرات.

* * *

بعد عدة أشهر من عودة أرفيدا من ترحاله برفقة زيدي وسرده لكارلوتا سيرة حياة والدتها المقطّعة لنياط القلب، انتبهت لفقدان ريش الببغاء الأحمر الذي كان يزركش الأقراط؛ لم يعد يتدلى من أذنيها سوى اللوالب الذهبية الناعمة، لعلها أسقطت الريشات وتحررت منها، كبقايا متسخة يجب تنعيمها وصقلها بمبرد الحديد. حاملة القطع الواهية الملطخة ببقع حمراء، توقفت ذات يوم أمام متجر في سان فرانسيسكو كل ما فيه مغلف بالنايلون حسب حجمه وشكله. خلال ساعات صنعوا لها قلادة تضعها حول عنقها، مغلفة بنايلون قاسي وشفاف، وهكذا عادت لتضع الريش. واصلت احتفاظها بالحصى في صندوق مجوهراتها في المنزل، إلى أن أدركت ذات يوم بأن هذه الحصيات كانت قد أمضت وجودها ككل في الهواء الطلق، عبر آلاف السنين قبل أن يعهد لها بها. أخرجتها ووضعتها بشكل عفوي حسب تشكيلها الأصلي - والذي تراه الآن كهرم أو مثلث أو شعار نساء من أجل السلام - تحت ظلال أغصان المتدلية لشجرة بلوط كاليفورنيا الحية الهائلة في محمية سان فرانسيسكو. كثيراً ما كانت تتناول طعامها تحت هذه الشجرة وتمارس تمارين اليوغا وتجري في المنطقة وهي تتأمل وتصلي.

للمرة الأولى منذ سنوات عاودتها الأحلام بعد أن بدأت بارتداء القلادة. رأت نفسها في أول أحلامها طفلة صغيرة تعيش في كهف برفقة والدتها، مع فارق يتمثل بأن الأم لم تكن زيدي بل امرأة أشد اسمراراً وأضخم جسداً منها، وكانت تلك الأم ترسم منهمكة على الجدران بألوان زاهية. تشجع كارلوتا أيضاً على الرسم، ولذا فقد لونت الجدران ورسمت نفسها. تجلت

والدتها في المنام برونزية السحنة سمراء، يهبط شعرها الأسود المتماوج كثيفاً حتى خصرها، لكن في تلك اللحظة، ارتسم من ورائها والدها في أعلى نقطة من الكهف وتقدم بهدوء، على هيئة رجل عملاق ملتحٍ وضارٍ. لكنه لم يكن مخيفاً بل باسماً. بدا أشد اسمراراً حتى من والدتها، وشعره باهت اللون. بعد ذلك، وقف ثلاثتهم عند مدخل الكهف، تماماً بالطريقة التي قد تقف فيها عائلة صغيرة من سان فرانسيسكو على مدخل منزلهم وهم يحدقون شاخصين في نهار ممطر إلى الخارج. الفرق أنهم كانوا يقفون الآن في مكان منار، أدركت كارلوتا أنهم لو كانوا في كهف، فهو ليس بكهف طبيعي؛ كانت حواف المدخل، حيث أرخت أصابعها، ناعمة وبللورية. لاحظت وهي ترفع ناظريها أن مدخل الكهف كان في الحقيقة باباً، وعتبة الباب من حجر مصقول نقش عليها صورة لبهيمة غريبة ذات رأس قبيح جداً وأنف كبير وشفاه ممطوطة وقد نحتت على الحجر بطريقة مذهلة ومخيفة. بيد أن كارلوتا لم تشعر بالخوف.

* * *

الفصل الثالث

آخر عمل قمت به عندما كنت معروفة بماري آن هافيرستوك هو تحرير زيدي وكارلوتا، تروي الكاتبة المسرحية ماري جين بريدين لأصدقائها الأفارقة والأمريكان، بعد إقامتها ثلاثين عاماً في إفريقيا. أحد أشد الأمور إثارة فعلته يوماً، وكنت صافية الذهن! قبل ذلك، عكرت المخدرات عقلي لردح طويل من الزمن لدرجة أنني حين عدت لاصطحابهما، بدا لي كل شيء، من أشجار وأجمات ونجوم وشمس، وكأنها خلقت للتو. أثناء سيرنا وسط الأدغال كنت أتأوه وأصيح عجباً كلما رأيتِ تجمعاً صغيراً من السرخس أو جدولاً صغيراً أو التماعات الضوء الحادة المنبعثة من قطرات الندى المتكاثف على أوراق الأشجار. أبتسم طوال الوقت مفتونة بكل خطوة من خطوات حذائي الزهري الجميل، براقاً كزهرة فوق التربة الاستوائية الوارفة بخضرة غامقة.

لم يصعب علينا قتل الكلاب والتسلل إلى داخل بناء المدرسة. كان انتزاع زيدي وكارلوتا سهلاً أيضاً، بسهولة بلوغنا الساحل والوصول إلى قاربي *الريكيوردو*. أبحرنا حتى سان فرانسيسكو بطريقة سلسة وجميلة. نامت زيدي نوماً عميقاً كالأموات بعد أن أنهكها الحماس والفرار بحد ذاته. رحت أرعى كارلوتا، التي كبرت وباتت أشبه بنسخة من بوذا صغير سمين على شكل فتاة. ما كنت والطاقم نتوقع العاصفة. كنا قد خططنا لعملية تخفٍّ أكثر يسراً. سنتواصل مع خفر السواحل ونخبرهم بتقصف صاري الريكيوردو. لدى وصولهم، سوف نكون قد انتقلنا قبل وقت

طويل إلى قاربي الآخر، الذي ظل يبحر خلفنا متوارياً طوال الرحلة. لكن العاصفة باغتتنا وهبت فهربنا بعد الاتصال بخفر السواحل، ولم نكن لنتخيل أن الريكيوردو، وهو من الزوارق الشراعية الأكثر قدرة على مقاومة العواصف، سوف ينقلب ويلفظ ركابه في البحر. غير أني كنت حريصة على ضمان ارتداء زيدي وكارلوتا لسترات النجاة على ظهر القارب دائماً، وهذا ما أنقذهما على ما أفترض.

قرأت في الصحف فيما بعد عن غرق قاربي، والراكبتين الغريبتين اللتين تم انتشالهما من المحيط ثم حملتا إلى الشاطئ. قرأ والداي الخبر أيضاً، فطارا قادمين لملاقاتهما. كان هذا في مقال آخر، بعد اكتشاف الصحف أن ابنتهما هي مالكة القارب. نشرت صورة ساحرة لماما وبابا ممسكين بأيدي بعضهما أثناء سيرهما عائدين إلى سيارة الليموزين. أصابتني رؤية هذه الصورة بالحزن؛ رأيتهما طاعنين في السن، وضائعين أيما ضياع. لم تفدهما الأوراق بأي شيء وأشعلت فيَّ طيش المغامرة التي ظللها عمر الشباب والأفكار المتطرفة حول التحرر والتمازج العرقي مصحوباً بغبطة ردة فعل محافظة لأفكار هيسرت[1]. كانت والدتي لا تزال هشة هشاشة عصفور الدوري نتيجة امتناعها عن الطعام لسنين، لدرجة بدت معها بحجم طفلة تقريباً إلى جوار قامة والدي المتثاقلة التي كانت تبلغ ست أقدام. لم أكن أستطيع مطلقاً، عندما عرفت طريقة ممارسة النساء والرجال للحب، أن أتحمل تخيلهما يمارسان الحب عندما يكون فوقها. كأن بي أسمع صوت خروج حشرجة أنفاسها وهو يلقي بكامل ثقل بطنه وصدره وكتفيه ورقبته فوق قفصها الصدري الضامر والضيق. مع ذلك فإنها على الأرجح لم تكن تتذمر. هذه هي حدود معرفتها. والدها أيضاً كَان ضخم الجثة وكانت والدتها أصغر وأكثر هشاشة منها حتى. كانت

1- William Randolph Hearst: صحفي وسياسي أمريكي (1863 - 1951) صاحب منهج الصحافة الصفراء وشدد على ضرورة التفات الصحافة لقضايا الناس. وهو مرشح رئاسي دون أن يفوز (1904) - المترجم.

العائلة تتندر بالقول إن وزن جدتي لأمي قد يصل إلى مائة باوند، نتيجة ابتلالها الكامل بالسوائل. خلال طفولتي كانوا يذكرونني بهذه الحقيقة تحديداً، حين أجلس إلى المائدة وأرفض تناول أي شيء عدا البطاطا المهروسة بالزبدة مع المزيد من الحليب بالشوكولا.

لم يكن لديهم من سبب ليعتقدوا أنني حية أو ليحزنوا علي حزناً كبيراً. فقد نفذت مشهداً مسرحياً مروعاً تماماً من خلال التخلي عن أموالي بعد عدة أشهر من بلوغي سناً تؤهلني لوراثتها. نظرا إليّ بتجهم واستنكار. لكنني كنت أمتلك مالاً كثيراً بحق؛ وأنتفض أحياناً لدى اكتشافي أنني كسبت المزيد في غضون أسابيع، دون التدخل في استثماراتي وتركها تسير في سيرورتها بكل بساطة، وتصل العائدات أحياناً إلى ثلاثة أضعاف المبلغ الذي تبرعت به في الفترة نفسها. انتابني شعور بغيض جداً نتيجة الزحف البطيء للنقودية[1]؛ مرت علي أيام شعرت فيها كأن العالم بأسره حقل أو غابة يغزوها الكودزو[2]. شعرت أنني سأغرق في أموالي، ولم يهمد ذعر ذلك الشعور إلا بعد أن عقدت العزم على التخلص نهائياً من كينونتي تلك.

كيف أفسر هذا بحيث لا يبدو شنيعاً تماماً؟ كنت تواقة للتخلي عن كينونتي. اخترت لنفسي اسماً جديداً، روينا رولينز، الذي لم أتمكن من استعماله بأريحية، كما أدركت لاحقاً، إلا على الورق. حين حطت رحالي في إفريقيا، أطلقت على نفسي ماري جين بريدين، وأسقطت آن الذي لم أكن أحبه البتة، وهافيرستوك الذي بدا لي مجرد اسم مستعار للتعاملات المالية النقدية، ثم أضفت اسماً حمل - أعتبره هكذا الآن - في طياته إمكانية الزواج. حسب النبوءة، في إفريقيا سأغدو عروساً، ولو بالاسم فقط. لكنني ببساطة لم أكن أعرف كيف أتنقل في العالم دون مال

1- Moneyism مصطلح ارتأينا ترجمته على هذا النحو، المقصود به الولع بالمال - المترجم.

2- kudzu نبات آسيوي معرش سريع النمو - المترجم.

كاف. هذا يقتضي أنني لم أهب كل أموالي، كما تنبأ والداي وقد رددا على مسامعي مرات عديدة أنني حين سأصبح عجوزاً وأجد نفسي مفلسة سوف أندم على تصرفي الأحمق. فتحت لنفسي عدة حسابات مصرفية أجنبية تحت اسمي الجديد وتحت أرقام طويلة وأسماء أشخاص آخرين، جميعهم أموات. احتفظت بما يسد حاجتي للعيش، بمعنى آخر، أن أفعل ما أشاء في الحياة التي قد أختارها بكل تواضع، وتركت قارب *الريكيوردو* يغرق في غياهب النسيان، كما حياتي السابقة، وانطلقت على متن *العصر القادم* Coming Age، وهو توأم *ريكيوردو* ويتميز عنه بصورة أفعى تركوازية اللون مطرزة على أشرعته. بعد سنوات من التفكير المتروي الصرف، برز هذا الرمز شعاراً شخصياً لي للتعبير عن الذات. الأفعى التي تنزع جلدها وتبقى على حقيقتها دائماً، لا يهددها الانقراض نتيجة معرفتها بخفايا الأرض، ويستحيل القضاء عليها على ما يبدو؛ واللون التركوازي، لون تطهير الجسد والروح ولون نقاء الذاكرة والشفاء التام.

أتذكر شعوري عندما هدأت العاصفة وأخذ ينقشع الضباب. كنت أرتدي طيلة تلك السنة حللاً سوداء، وفيما كنت جالسة على مقعد على ظهر القارب وبيدي كوب من البابونج الحار وأسند جزمتي الزهرية المربوطة على الدرابزين، شعرت، للمرة الأولى حسب ما أتذكر، ليس فقط بصفاء ذهني وبإحساس مميز جميل حيال المنظر الطبيعي للكون الذي أعيش فيه، وإنما أيضاً شعرت أنني *مفعمة بالحياة* فعلاً، شعرت أنني حرة.

لم أكن واعية لوجهتي بالضبط، ولذا فقد عدت إلى الماضي. إلى الماضي السحيق وليس ذلك الماضي الذي أعرفه أنا نفسي. ذهبت إلى لندن ورحت أتسكع على مدى أشهر في المتنزهات والمتاحف والمكتبات، أنصت باهتمام وأتكلم كلما واتتني الفرصة، إلى أن تحسنت لكنتي البريطانية. بعد ذلك، ركبت القطار المتجه إلى هامبستيد وإلى دار

الرعاية المقام من أجل فاحشي الثراء من المعمرين حيث هي موجودة. لم أستطع الوصول إلى قرار، أثناء انتظاري في الردهة ذات الطلاء الخفيف والمنارة بشكل يبعث على الاسترخاء، ما إذا كان يتوجب علي التعريف عن نفسي كصحفية أم تلميذة؛ من الضروري بالتأكيد تقديم مبرر منطقي لاهتمامي بحياة إلينورا بورنهام. لم أكن أضع في حسباني معرفتها بي في الماضي. الماضي السحيق. الماضي السابق لولادتي، أو حتى إن خطر هذا الماضي على ذهنها.

إيلي، نادتني مباشرة بصوتها الأجش. ها قد عدت أخيراً إلى الديار! وماذا أحضرت لي؟

كانت أكبر وأضعف وأكثر بشري روحاني المظهر رأيته في حياتي، خالتي الكبيرة إلينورا. تهيم عيناها الغائرتان المتقدتان الزرقاوان في وجهها المغضن الهزيل. ينسدل شعرها المتناثر الأبيض في جديلتين خاليتين من البريق على شكل ذيل الخنزير فوق قميص نومها الأحمر المزركش برسومات إثنية. وهو لباسها النهاري أيضاً كما أفترض، إذ عندما انحنيت فوقها كان لها هيئة ورائحة شخص، رغم نظافته، لا يبارح السرير أبداً.

لكن لماذا دعتني بـ إيلي، اسم التصغير من اسمها هي؟

إيلي بيكوك! هتفت بسعادة، بابتسامة عريضة من فمها الخالي من الأسنان. جلستُ على طرف كرسي قرب السرير.

غمزتني الممرضة. إنها تدخل في حالة الخرف وتصحو منها مرات عديدة، قالت، وهي تبتسم. تظنني أحياناً والدتها... و، قالت، وهي تنظر إلى تنورتها القصيرة، ترتدي ثياباً غير محتشمة.

رفعت بصري إلى المرأة الشقراء البدينة الوقورة. فكرت أنها تشبهني نوعاً ما – سلافية أو روسية أو نسخة من امرأة ريفية إنجليزية من القرن الثامن عشر.

أعتقد أن إيلي ولا بد هي *هذه*، قالت الممرضة، وهي تسلمني صورة قديمة محاطة بإطار فضي متسخ. فيها شابتان لهما شعر فاتح ومضفور إلى الأعلى وطافح بالدبابيس والمشابك، وترتديان ملابساً متماثلة سوداء طويلة لها أربطة عند الرقبة والأكمام، تنظران نظرة هادئة إلى عجلات دراجة هوائية من الطراز القديم مصنوعة لراكبين. كتب تحت الصورة إلينورا وإليندرا بخط يد منمق. عرفت نفسي في إليندرا على الفور.

أنا هنا منذ فترة طويلة وأظن أنني أعرف جميع أفراد العائلة، قالت الممرضة. أو - وهنا ابتسمت - لعلي أنا الوحيدة في هذا المكان منذ زمن بعيد. إذا ما أفسحت لها المجال، يمكنها في بعض الأيام أن تعود بي حتى إلى العصور الوسطى. إليندرا هي شقيقتها التوأم.

نظرت إلى خالتي الكبيرة، إلى السرير المرتب بأناقة الذي بالكاد أنشأت فيه قامتها الهزيلة تموجاً في الملاءات، إلى رتل الصور القديمة على الطاولة قرب السرير، إلى قوارير الحصى بين الصور، حصى متعددة الأحجام والألوان ومتفاوتة في خشونتها ونعومتها.

كانت تجمع الحجارة في إفريقيا، قالت الممرضة رافعة حاجبيها للدلالة على الأهمية.

مع ذلك، لم تكن إلينورا تحب التعاطف معها، حتى في حالتها تلك؛ التفتت نحو المرأة. ليس فقط في إفريقيا، أيتها الخنزيرة، همست أو أرغت إلى حد ما. بل في كل العالم اللعين الذي سافرت فيه وأنا أجمعها. كما ترين يا إيلي، لقد عرفت مثلك كيف يكون الذهب والفضة الحقيقيان. كان اللصوص على الدوام يقتحمون المنازل التي أحل فيها، إذ كنت ثرَية، غير أنهم ما كانوا يعثرون سوى على هذه. قام أحد اللصوص ذات مرة بتفريغ جميع الزجاجات ويبدو أنه تفحص كل حصية على حده! ضحكت بضجر، ثم انقطعت ضحكتها بنوبة سعال خفيفة.

حسناً، قالت الممرضة، *المعذرة*. واتجهت إلى الغرفة المجاورة،

تناهى إلي صوت كثير التشكي لمريضها التالي وهو يلقي التحية عليها أثناء دخولها من الباب.

عليك أن تتعلمي ألا تحبي سوى الأشياء التي لا يمكن سرقتها، قالت العجوز بصوت كالصفير. سألتها ولماذا. لا أدري لماذا *أقول لك* هذا؛ فقد تعلمته منك.

وكيف تعلمته مني؟

نظرت إلي، والحيرة ظاهرة على وجهها.

لستُ إيلي، قلت لها بلباقة. أنا لست توأمك.

أشرقت إلينورا. بالطبع لست توأمي. تلك التوأم الصغيرة. أخذت تمصمص لثتها كما يفعل من لهم أسنان. صدر من فمها صوت *كصوت القبلة*. صوت يصدر عن الشفاه وهي تنفصل عن بعضها بقوة وهياج.

لا أحد يتعلم شيئاً من إيلي بورنهام. لا يمكن لإيلي بورنهام أن تعود فهي لم تغادر المنزل أبداً. حسناً، لقد غادرته كي تتزوج فقط ثم أصبح منزلها الجديد شبيهاً تماماً بالمنزل الذي غادرته. ياه، أي ملل ساحق هذا! لكن عندما تكرّمت إيلي *بيكوك*، *خالتنا* إيلي بورنهام بيكوك... أتعرفينها، وعادت إلى إنجلترا للعلاج من السرطان الذي قتلها في آخر المطاف، كتبت الصحف يومها ببساطة، لقد وصلت الليدي بيكوك. وبقيت لفترة طويلة أظن أن خالتي هي طاووس. عندما رأيتها بأم عيني ذات مرة، مارة بنا في العربة بثوبها الطاووسي المزدان بأكمله بألوان خضراء وسوداء وأرجوانية وزرقاء ووجهها المنير الجميل في ظل مظلة بيضاء رقيقة، كنت ما أزال أظنها طاووسة. طبعاً لم يسمح لنا بتاتاً برؤيتها عن قرب. كانت تعتبر عاراً على إنجلترا، بل وأكثر من هذا بالنسبة للعائلة. كانت مولعة بالعرب، كما ترين. لقد أحبت العرب والخيول والصحارى، على هذا المنوال. أو لعلها أحبت الصحارى، والخيول والعرب. قرأت عنها كل ما وقعت عليه يداي، ولم أستطع يوماً أن أفهمها. كانت آنذاك تهوى الأفارقة أيضاً.

كانت تتوقف عن الكلام لتأخذ نفساً أو تغير من جلستها، حسب الحالة - تبدو أنفاسها وكأنها توقفت نهائياً بالفعل - ألقيت وثائق التعريف المزيفة وقلت لها: إنني أدرس الصحافة وأكتب مقالاً عن... وهنا لم أعرف التكملة. عن ماذا يجب أن يكون المقال؟ عن الأثرياء؟ الأثرياء المعمرين؟ أم عن ظروف دور الرعاية التي أقيمت للمعمرين الأثرياء؟ تبين لي أن الأمور تسير على خير ما يرام في هذا المكان. كانت بياضات سرير إلينورا بلا شك ملكها، أو على الأقل من اشتراها لديه خبرة جيدة بالبياضات. تعطي ملاءاتها التي حيكت من قماش فخم وطري للنوم طابعاً هانئاً، شرشف السرير محاك يدوياً بتخريمات ذات نموذج قديم. أطراف وجوه الوسادات أيضاً مخرمة. قرب سريرها، كانت هناك طاقة كبيرة من أزهار الربيع تبدو فعلياً وكأنها خارجة من مزهرية كريستال شفافة. بالطبع كانت ثرية ثراء يتيح لها أن ترسل لنفسها زهوراً يانعة بشكل دائم.

إفريقيا! تمتمت، بعد أن عادت من قيلولتها التي اضطرتها إليها كثرة الكلام. كنت أمقت إفريقيا. الحرارة والبق والعلق والزنوج.

نظرت إلي من تحت حاجبين بيضاوين متقشرين، وقد مطت شفتيها الرقيقتين، حيث تحولت التجاعيد فوقهما إلى تغضنات، نحو الأمام في استياء.

لماذا، تساءلت، يصاب المرء بهذا القدر من الذهول عندما يرى العنصريين من بين أفراد عائلته - وبخيبة الأمل.

أوه يا خالتي! قلت، بلا تفكير، مع ذلك رحت أدعي أنها خالتي. لكنها كانت قد غطت في نوم سريع.

نظرت إليها لحظتها نظرة خاصة بحق وفكرت أنها أشبه برضيعة عجوز، يسيل لعابها وتشخر، طاعنة جداً في السن.

سلمت ما في جعبتها من كتابات إلى كلية النساء في غيلدفورد، التي كان يعتبر آل بورنهام من المتبرعين الدائمين لها، وكنت أذهب إلى الكلية

في الأيام التي لا أزورها فيها. لم تعطيهم كتاباتها وحسب، بل السلال والسلطانيات والتماثيل والملابس على حد سواء. في الواقع، كانت غرفة إلينورا بورنهام المتوضعة في أحد أقسام المكتبة نسخة مطابقة عن غرفة نوم وغرفة جلوس كبيرة في أحد منازل إقطاعات الحقبة الاستعمارية. سرير العذراوات الضيق المخصص لها ومغطى بناموسية، وصوفا وكرسي مريحان من أغصان الروطان، منجّدة بقماش بيزلي أزرق فاتح، وطاولة صغيرة زرقاء للكتابة تقع تحت نافذة وهمية. ستة من الكتب أو نحوها من تأليفها، كتبتها خلال تجربة حياتها في المناطق الاستوائية، وكتب أخرى قديمة: مغامرات وورومانسيات ودراسات في الجغرافيا والتاريخ والكتاب المقدس للعائلة الذي كان فيه، من بين أسماء العائلة، قائمة تواريخ تخص إليندرا بورنهام المولودة في 29 أيار عام 1823. أما معلومات إليندرا توأم خالتي الكبيرة إلينورا فقد سجلت في القائمة بعد عدة عقود من الزمن، والتي سميت إليندرا تيمناً بتلك الخالة المغامرة، ومن الواضح أنها لم تكن تشبهها على الإطلاق. كانت جدران الغرفة مفعمة بالحياة من خلال تزيينها بأقنعة إفريقية ذات ملامح عنيفة على نحو بديع وكشاشات الذباب الطويلة المطعمة بالخرز. كان هناك أيضاً زوج من قبعات الزعيم وقد خربتها الفئران وتبقعت من العرق.

يومياتها هي التي تعنيني بالدرجة الأولى، وللوصول إليها كان لا بد لي من الحصول على تصريح منها، أو بالأحرى، تصريح من الوصي عليها. وقد اكتشفت أنه كاتب عدل في لندن فذهبت لزيارته. بما أنه لم يكن يعلم شيئاً عن وجود اليوميات - أتقصدين بأن العجوز تحتفظ بيوميات؟ ولأي هدف بحسب ظنك؟ - لم يستطع إيجاد مبرر لمنعي من الاطلاع على اليوميات. ركزت على هيئتي بعناية فلبست طقماً مزرياً من الصوف وربطت شعري إلى الخلف بشدة حتى تبدو ملامح وجهي صارمة. أكملت لي النظارة التي سببت لي الحول معدّاتي. ربما لم يكن من داع لهذا التمويه، ومع ذلك استمتعت به.

وعندئذ، وأنا جالسة على كرسي الخيزران المريح في غرفتها في المكتبة، وأشعة الشمس الإفريقية المزيفة تتسرب عبر النافذة وكلية غيلدفورد للنساء، شعرت أنني، على قدر ما كان يعنيني، في قارة أخرى وليس فقط خلف ذلك الباب الموصد (لا أحد يأتي، لا أحد يكترث بإلينورا بورنهام، بصرف النظر عن كمية المال والمشغولات اليدوية التي أوصت بها للكلية بملء إرادتها، فكان من الطبيعي بعد علم الإدارة بهذا أنهم ظلوا يتطلعون إلى موتها بفارغ الصبر على مدى سنوات)، وأنا جالسة على الكرسي المريح، وبين يدي أحد المجلدات الذي سمح لي بأخذه حينها، وقعتُ على اكتشاف مريع. بعيداً عن مَقتها لإفريقيا والبق، والعلق والزنوج، كما ادعت، فقد كانت إفريقيا هي الحب الأكبر في حياة خالتي الكبيرة.

// تعيش هنا حية صغيرة (كتبت في عام 1922) لونها كلون المرجان تماماً. لا تعيش سوى في أنواع معينة من الأشجار، وتخرج من جحرها زاحفة إلى أعلى الشجرة، قبيل الغسق. تعيش في شجرة مليئة بالعناكب والبعوض ومعروف عنها أنها تغرد. أخبرنا السكان الأصليون بأنها تغني. ادعوا بأنهم سمعوها تغني ملايين المرات، وكانوا يتعاملون مع هذا كأنه أمر عادي تماماً. استغربوا بالمقابل سبب عدم سماعي لغنائها وتساءلوا عن وجه الغرابة في الأمر.

كل شيء يغني، كما قالوا.

لكنني لم أسمعها. وهذا ما لم أكن أتحمل الاعتراف به لهم، مع ذلك.

حسناً، لقد رأيت هذا المخلوق الصغير اليوم أخيراً. أشاروا إلي بالأشجار التي علي مراقبتها على أطراف حديقتي، واليوم، عند الغسق، نزلَت هذه الرفيقة المرجانية الصغيرة، وهي تمد لسانها، كانت تنزلق عن الشجرة ببراعة فائقة بحثاً عن طعام فتعثر على **مقبلات شهية** دسمة وهي في طريقها نحو الأسفل. راقبتها تختفي بين العشب، وشعرت أنني كنت لا أزال غير قادرة على التصديق بأنها تغني، بالرغم من صحة وصف

السكان الأصليين لألوانها الزاهية. شعرت أن الهدف من قولهم هذا هو إغاظتي واستفزازي ربما //

في تدوينة أخرى:

// لا يمكنني تخيل العيش لمائة سنة، مع ذلك يعيش الكثير من السكان الأصليين حتى هذه السن. يقولون إن السبب هو أكلهم لكل ما هو حي. الحبوب التي يتناولونها مفعمة بالحياة لدرجة أنهم لو بذروها في الأرض عوضاً عن أكلها لأنبتت. يأكلون الفاكهة والحبوب، التي يعدون منها الحساء، إضافة إلى جذور النباتات. يأكلون الكثير من الخضروات والبامية المسلوقة، وكلها تنمو في البراري. اللحم قليل في طعامهم أو يمتنعون نهائياً عن أكله، وحين أطلب منهم إعداد شرائح اللحم السميكة لي ولضيوفي الإنجليز أو الأوروبيين، كانوا يقومون بهذا كأنه عمل مهين.

* * *

لكن كيف اكتمل اهتمام خالتها الكبيرة بالعيش في إفريقيا؟

بلغت إلينورا الآن المائة سنة. راحت ماري جين تتساءل إن كان هذا يسرّها. إن كان هذا يجعلها تتذكر العجائز من السكان الأصليين الذي عرفتهم. يا لها من عبارة مثقلة، سكان أصليون. بالنسبة لأمثال الخالة الكبيرة، كانت هذه العبارة تعني بشراً همجيين. لم تكن ماري جين لتتخيل أن خالتها الكبيرة يمكن أن تستعمل هذه العبارة لوصف نفسها، رغم أنها هي نفسها من سكان إنجلترا الأصليين.

ولدت خالتها الكبيرة في 23 آذار، عام 1885. من مواليد برج الحمل، الأمر الذي يفسر طبيعتها المتهورة والعنيدة. ***لعلها كانت*** ستهوى الطيران، مثلاً، قبل أن يخطر على بال أحد بزمن بعيد أن الطيران قد يصبح وسيلة آمنة. كانت قد حلقت، تغمرها نشوة عارمة، بأولى الطائرات التي سافرت إلى إفريقيا؛ مواليد الحمل أقران للطيور. كانت تتبع غرائزها

أيضاً بصرف النظر عن العوالم الأخرى، والبشر الآخرين. تُرى ما هي التجربة المحورية في حياة خالتها الكبيرة؟ أصبحت ماري جين في تلك الأثناء تذهب إلى الدار عدة أيام أسبوعياً، تجلس في أغلب الأحيان وتراقب خالتها الكبيرة نائمة، تفكر بحياتها التي عاشتها، الحياة الرفيعة للطبقة الإنجليزية العليا في سنوات ما قبل الحرب الكبرى (كما كانوا يسمونها). لسبب واحد على ما يبدو وهو أنهم أحبوا كلمة كبرى. خلال جولاتها السياحية، تنقلت بين منازل الريف الإنجليزي العظيم حتى وصلت إلى مورلي كروفتز، في وورويكشاير، منزل أسلافها القديم. مشت فوق أرضيات كرقعة الشطرنج ونظرت عبر نوافذ تتخللها الأعمدة الحجرية، وقد صممت على الطراز السلتي[1] والزجاج الملون، الذي يبدو مصرياً على نحو غريب. انتشرت فيه الأفاعي السوداء المرجانية وعصي الرعيان المعقوفة والمزينة بالحلي. يغطي منزل مورلي كروفتز عدة أكرات من الأرض وكان أشبه بقلعة من قلاع القرون الوسطى أكثر منه منزلاً. تحيط به الحدائق الفسيحة، وحين كانت تتجول في أرجائه على غير هدى مع بقية السياح - الذين كانوا يذكرونها بنعاج مثيرة للشفقة، وهم يرتدون بذلات البوليستر ويضربون (ويقرصون) أعقاب أحذية كرة المضرب الجديدة التي ينتعلونها، ويهتفون عجباً كلما وقفوا أمام برج للحمام أو غارغويل[2] أو أمام مجاز من نباتات بخور مريم أو الأضاليا العملاقة - كانت تتخيل إلينورا جالسة هنا أو هناك وسط تماثيل الحديقة، تقرأ كتاباً أو هائمة النظر في الفراغ وحسب، ترنو إلى المستقبل البعيد، إلى زمن ماري جين نفسها، وتتسلى بالمراقبة وعلى وجهها ابتسامة مرحة.

غادر جد ماري جين إنجلترا معدماً - لقد حرم من ثروة والده وجده،

1- Cletic نسبة إلى السلتيين وهم مجموعات هندو - أوروبية. تعتمد التصاميم المعمارية السلتية على أشكال زخرفية متداخلة - المترجم.

2- gargoyle هو نحت لوجه عادة يستعمل كمزراب للماء - المترجم.

التي اكتنزاها في إيرلندا على ظهور الإيرلنديين المكسورة - إنما مفعماً بحس مغامرة ورغبة قوية بامتلاك ثروته الخاصة. أصاب نجاحاً باهراً، وبات في النهاية مالكاً لمناجم نحاس في ميسوري، وحقول نفط في غرب تكساس، وأقاليم جنوبية كاملة في ألاباما وجورجيا مزروعة بالقطن الذي يجنيه سود أميّون لعله لم يرهم كثيراً أبداً. لاحظ والده وجدّه نجاحاته الشبيهة شبهاً كبيراً بنجاحاتهما، لأن الجد قد اعتاش منها باستمرار. كانت ماري جين تظن أحياناً أنها بالكاد تتذكره، وحدها الحكايات المروية عنه هي ما تذكرها: عن جشعه البغيض واحتقاره لخصومه الأضعف منه وعن ولعه بالثروة بحد ذاتها. كانت الحكايات التي رواها أولاده وأحفاده عنه تسرد بوصفها قصصاً أخلاقية وبالإمكان عنونتها بمنتهى السهولة بالـ شهوة، والجشع والشراهة، لكن على النقيض من القصص الأخلاقية، كانت القيم التي تبلغها بعيدة كل البعد عن *إدانة* تلك الصفات. في كل مناسبة، بعد رؤيتهم لنجاحاته، كان أهله يعانقونه عناقاً حميمياً كوريث حقيقي لمورثاتهم الجشعة وبالطبع أضاف إلى عائداته كمية كبيرة من مواردهم الهائلة، بعد وفاتهم.

في المرحلة التي ولد فيها والدها، وجب على المرء أن يسحب مخالبه قليلاً. لذا فقد تربت ماري جين وأخوها وأختها ليصبحوا صنفاً من الأثرياء سيلعب دوراً محورياً في استقرار البلاد كالأرض لكن لهم كالسجادة. أوه، خف الجلد الصغير المبتكر وسترات الكشمير، ومعاطف شعر الجمل الخالص التي تلامس باطن الركبة بشكل ناعم، الفساتين الرمادية الأنيقة الفضفاضة والضيقة عند الخصر، ربطات الشعر الرصينة السوداء غالباً وأحياناً مرقطة، كان هذا في الأربعينيات. ومع ذلك، عندما كانت ماري جين وشقيقتها تسيران في الجادة الخامسة بجوار الشقة التي يملكها أبواهما هناك، كانت تشعر بنظرات الناس إليهما ومعرفتهم لثرائهما بشكل غريزي. فتضحكان من ادعاءاتهم الحذرة، وتسببان لهم الاستياء.

عندما تخلت عن تلك الحياة - تمليس شعرها الأشقر الذي يلتف في نهاياته وتسريحه بتسريحة دوريس داي أو دينا ميريل، وضع أقراط اللؤلؤ البيضاء المنمنمة، ووشاح المخمل الأسود أو ذي المربعات الذي كانت تضعه على شكل قوس على كتفيها - وراحت تلبس الجينز الملون وسترات طويلة العنق غير تقليدية، وتركت شعرها يتحمص (بالاستعانة بكمية كبيرة من المواد الكيميائية) تحت أشعة الشمس الحارقة في عناد، قبل أن يصبح هذا بعشرات السنين حالة تنم عن الانضباط لدى الأثرياء وأبنائهم البيض المتطرفين في الستينيات، لقد أدركت أنه بغض النظر عن بساطة الملابس التي ترتديها وشقيقتها، وعن الأسلوب غير الواضح الذي حاولتا من خلاله تحقيق ذاتهما، فقد كانتا في حقيقة الأمر تتخليان عن ذاتيهما على الدوام. وصلت إلى قرار بضرورة أن تفوح منهما رائحة الاكتفاء التام والأمان المطلق، اللذان تفتقر إليهما افتقاراً كبيراً العوالم التي لم يعشن فيها. إنها رائحة الطبقة العليا.

قرأت ماري جين ذات يوم، في يوميات إلينورا، كلمة ماسوكتا، وقد كتبت بخط عجول عدة مرات على هوامش الصفحة. أعجبها إيقاع هذه الكلمة؛ مع ذلك، لم تراها مرة أخرى أثناء تقليبها صفحات اليوميات. في زيارتها التالية إلى خالتها الكبيرة، حملت معها بعض الصور من مجموعة إلينورا بورنهام كي تتعرف عليها. بدا واضحاً أنها صور قديمة ونادرة ولم تكن في أمثل حالاتها، لم يأذنوا لها بإخراج الصور إلا بعد أن تلقت المكتبة اتصالاً حازماً من كاتب عدل لندن. لم يلق تأكيد ماري جين لأمينة المكتبة بلا معنى هذه الصور دون توثيق مدون - أسماء وتواريخ على الأقل - آذاناً صاغية، لا بل أثار حفيظتها على ما يبدو.

كانت وجهة نظر أمينة المكتبة تقول إن مجرد وجود البيض في الصور يعتبر توثيقاً؛ على الأقل أسماء البيض كلها موثقة. وكتب على بعض الصور أحياناً اسم أول أو كنية لخادم أو دليل صيد. تشمبي على سبيل المثال، الذي هو اسم إفريقي شائع. أما خلفية العشرات من صور

الأفارقة التي لا تحوي بيضاً فهي فارغة. لامست وجوههم ماري جين في أعماقها، وجوه طيبة ومؤثرة كما في صور الهنود الأمريكان التي التقطها إدوارد كورتيس في الألف وتسعمائة. ارتدى جميع الأفارقة، بلا استثناء تقريباً، أزياء مثيرة للاهتمام وبطريقة مشهدية في معظم الصور، وهذا بالذات ما أثار دهشتها وأسعدها. كان شعر النساء، الذي تتخلله أصداف الكوري والريش خلاباً وجعلهن يظهرن، في الوقت ذاته، رائقات ومهيبات وجامحات. علاوة على القماش الذي صنعت منه عباءاتهن! في متحف قريب من شقتهما في نيويورك، كانت ماري جين قد شاهدت قماش كينتي، بيد أنها رأته على شكل شرائط أو زينة تخاط حول الكم أو حاشية الثوب. شاهدت الكثير من هذا القماش المذهل في الصور، منه في أشرطة شبيه بالكينتي، لكنه يتلألأ كأنه مشكوك بخيوط الذهب. رأت *بريق* عيون الأفارقة وبشرتهم وملابسهم. الخصوبة والذكاء *والصحة*. صحة أبدانهم هي التي استرعت انتباه ماري جين قبل كل شيء، إذ أدركت بأن حدة التدهور الذي ألم بإفريقيا جعلت من صورة إفريقي ينعم بصحة جيدة، كهؤلاء الذين رأتهم في الصور، أمراً لا يصدقه عقل البشرية. هؤلاء هم الذين افترضت بأن خالتها الكبيرة كانت على معرفة بهم، إذ أن كل العيون التي كانت تلتفت إلى الخلف نحو آلة التصوير كانت بلا استثناء تنظر نظرة ودٍّ تشي بعلاقة خاصة. حتى لو كانوا بشراً عرفتهم يوماً، ما عادت إلينورا قادرة على الحديث عنهم. نظرت من خلال عدسة مكبرة مطولاً إلى الصور التي عرضتها ماري جين عليها تباعاً، واغرورق جفنا عينيها السفليين المحمرين والمنتفخين بالدموع. عند اللوحة الأخيرة فقط، التي لم تكن صورة كالبقية، بل لوحة تصور وجهاً محطماً وسط مجموعة من البشر، امرأة إفريقية ترتدي زي قبيلتها الجميل وتقف أمام حجر رمادي في داخل ما كانت كاتدرائية على الأرجح، أفلحت إلينورا ونطقت بكلمة. وكانت الكلمة التي تفوهت بها، بنشيج حقيقي، هي ماسوكتا ماسوكتا.

حلت أمينة المكتبة الرئيسة المتجهمة المشكلة دون أن تدري.

كل هذه الصور، قالت لماري جين وهي تسلمها إياها، التقطتها الليدي *إليندرا* بورنهام **بيكوك**. لا أظنك تعلمين *عنها* شيئاً. لقد أوصت بجميع حاجاتها الشخصية لابنة أختها، الليدي بورنهام. هذا يفسر سبب وجودها بين مجموعة الليدي *بورنهام*. راحت تنشم عندما أنهت الجملة الثانية. وهي تسلمها الصور بإحدى يديها، ألقت بالأخرى أمامها بكتاب صغير. قد تجدين فيه ما يثير اهتمامك، قالت.

عندما مدت ماري جين يدها نحوه، سبقتها أمينة المكتبة ووضعت أطراف أصابعها الملطخة بحبر الصحف القرمزي عليه.

يتعين عليك أن توقعي على استلامه، قالت بفظاظة البيروقراطيين المكروهة في كل مكان.

كان عبارة عن مخطوط مغلف بمخمل أحمر باهت وقد ربط بشريط أخضر باهت أيضاً من الساتان. صفحاته مصفرة ومبقعة بآثار الماء، وكان من العسير قراءة الكثير من كلماته، التي تتداخل وكأنها نص دونته شابة على ضوء مصباح يدوي تحت الشرشف. كانت هذه اللفافة من الأوراق، على كل حال، تعود - على حد علم ماري جين - لأليندرا الأولى، ثم فردتها مع تسارع ضربات قلبها.

// كنت أتمشى في الخارج برفقة ابن عمي تي، وأضحكني لدرجة تمنيت لو لم نكن أبناء عمومة. يمتلك عينين خضراوين كبيرتين تتقدان في وجهه المتورد، وشفتين منحوتتين بدقة كشفتي تمثال روماني. كنت أمازحه طيلة الوقت عن رغبتي بالزواج منه. هي نكتة بالطبع. منذ سنِوات وأنا أتفادى الزواج. يعرف تي برغبتي في احتراف الرسم، تماماً كما أعرف أنه لا يهتم بالإناث. من بين جميع أفراد العائلة، نحن الاثنان فقط نبدو غريبي الطباع. أما البقية فهم مهرة في التكيف، بفضل قدرتهم الكبيرة على التحمل وحتى الغفران، وأجرؤ على القول، والارتقاء بحالة السأم إلى درجة سامية. اعتبرت والدتي تورّدي وتي متعة أثناء عرض

الباليه في المساء الفائت حالة جامحة ومتوحشة، أمراً صدمها لدرجة أن والدي وجد نفسه مضطراً للادعاء أنه أيضاً قد صدم، في حين لم يكن العرض الراقص يصور سوى تاريخ أجدادنا الأوائل، الذين ظلوا متأثرين تأثراً كبيراً بالسود الذين سبقوهم في هذه الجزر، تاريخ نابض *بالحياة*، كما كانوا جميعاً بلا شك قبل أن يتسلل الرومان والغال إليهم. أين هم الآن، هنود بريطانيا؟ بدأ عرض الباليه بظهور فتاة كل ما فيها ينم أنها عذراء، تغطي رأسها بأغصان التوت، وكانت تغني بالتأكيد، سرعان ما تلاشت أغنيتها وذابت معها في أشد العصور ظلمة، أو بالأحرى، أذابت الجمهور تماماً على شفا ذلك الزمن لحظة التقى المعاصرون والقدماء وجهاً لوجه بشكل مباشر في مشهد وداع أخير. كان العرض الراقص يرمز إلى تقدير واحترام كبار السن في الماضي. بغض النظر إن كان مطلوباً من العذراء الشابة الرقص لذاتها خارج الوجود؛ يدرك العالم المعاصر ما يفتقده. إنه هذا النوع من الرقص وتؤديه شابة منفردة على الخشبة وهي ترتدي زياً ضيقاً جداً، الأمر الذي تعترض عليه والدتي. أعجبنا أنا وتي بتمايل رأس العذراء الخمري وانثناء فخذيها العاجيين، فخذان كبيران كأنهما أعمدة، وبطنها المستدير الأبيض والمشدود. أمسكت بيده بكلتا يدي وأنا على يقين من أن عيني كانتا *خرزتين* من النور لحظتها.

نهضت والدتي من مقعدها، بشكل مهيب كعادتها، وسارت سيراً متهادياً في الممر، كانت ربطة القماش تتحرك على خصرها من الخلف وبدت كفراشة كبيرة. تبعها والدي، وهو يسعل بشكل مكتوم، ويلتفت مسترقاً النظر إلى الخشبة مرة أو مرتين. انتابني الرعب أن يتوقفا لأخذي معهما، أنا على يقين من أنهما كانا سيفعلان لو لم يكن تي معي. جلسنا أنا وهو بطريقة رزينة واصطنعنا التهذيب واللباقة، على أمل ألا تفضح أعيننا أو تحفز جسدينا أبداً عن استمتاعنا الهائل. لكن للأسف، فضحتنا الإثارة التي أصابتنا لدى رؤيتنا لتاريخنا يؤدى رقصاً، من قبل *الإيطاليين*، بمنتهى الحماس والتأثر. يحلو لبعضهم استنتاج

التطابق بين تاريخ أبناء قومنا القديم وتاريخهم هم. أقصد التشابه في طقوس حمل المشاعل والرقص التي تؤدى احتفاء بقدوم بالربيع وتفتح أوراق العنب والذرة!

يعود الفضل لتي بذهابي إلى جميع الأماكن الشائقة. كان الصيف قد انتهى تماماً في مورلي كروفتس! وحل الشتاء، شتاء لندن!

عرفت البارحة تجربة مخيفة مع الشتاء، مختلفة تماماً عن كل ما عرفته من قبل، وكانت هذه بمثابة هدية جديدة – مع أنها تجربة مزعزعة، لأكن صريحة – من ابن عمي، ابن عمي الحبيب. كانت تثلج والجو معتم في الداخل كما في الخارج، جو كئيب، ولم يكن أحد ينتبه لوجودنا أبداً كما يبدو. لكن والدتي تقول إن هذا ليس صحيحاً. تقول إنني أنا من أرفض مقابلة زوارانا، بالذات ذكور البلدة المحتملين كأزاوج. حسناً، حاولت أن أشرح بشتى السبل التي أعرفها بأنني *لن* أتزوج؛ إن كان يزعجهم وجودي معهما، يتعين عليهما ببساطة أن يبتكرا بديلاً لي. إذا ما وجدت نفسي مرغمة على الزواج أشعر أنني سأقطع عنقي بالتأكيد، أو عنقه، خلال أسبوعين، لكن *لماذا* يا إليندرا؟ يندب أبواي حظهما قائلين، *لماذا؟* دون استفاضة في السؤال. وأنا لا أعرف *لماذا*، ما عدا أنه ولا بد يوجد في الحياة ما هو أكثر من البذخ والراحة المادية، أكثر من الخدم والأحصنة السمينة والرجال الأكثر سمنة منها الذين يبصبصون على بنات رجال آخرين وزوجاتهم البدينات. لا يمكنني – أوه، لكن ما فائدة الاحتداد؟ سوف يجرونني ويزوجونني من تركي ثري زائر، قبل أن أفتح فمي حتى. ما من خطر، يقول تي بثقة. هو يعتقد أنه قد يكون يونانياً ثرياً يعمل في شحن السفن على وجه الدقة. هؤلاء هم معارف والدي من الأَجانب الأثرياء. لقد أحجم بشكل عقلاني عن البحث لي عن زوج بين الإنجليز. في الحقيقة، كان أولئك اليونانيون ذوو العيون والشعر الأسود يأتون أحياناً لتناول العشاء، بطبيعتهم الحميمية التي تفوق أي رجل في إنجلترا؛ لديهم مصلحة في الزواج مني على الأقل. مع ذلك، كنت أفضل

أن أخرج خلسة من الباب برفقة تي... فهو يسمح لي أن أدعوه بـتيودور؛ اسم ديني دموي، ممل جداً! يصرخ قائلاً.

كنت أهم بالكتابة عن زيارتنا لمتحف التاريخ الطبيعي حين جاءني تي. كان علينا تلفيق شتى أصناف الأكاذيب عن المكان الذي سنمضي إليه، مع أننا أينما ذهبنا فهو مكان بريء بالمطلق، على الأقل في النهار. وها هو نهار اليوم. صحيح أنه عرف عنا أننا نمضي ليلاً لزيارة منازل معينة سيئة السمعة، بيد أن هذا نابع من إصرارنا أنا وتي على تحصيل الثقافة، الثقافة جنسية حيثما وجدت. يحضر لي ملابساً - بنطال ومعطف مشابهين لملابسه - خيطت من أجلي، وأدس شعري الطويل المزعج تحت أية قبعة من القبعات لا على التعيين، ثم نخرج. لن أصبح رسامة عظيمة، كما يقول تي بأسلوب لطيف، إن لم *أر* شيئاً البتة؟ أشعر أحياناً، وتي بجواري، أنني قد رأيت الجنس بكل حالاته: رجال مع نساء، رجال مع رجال (عينا تي تلمعان!)، نساء مع نساء (أمر مثير)، رجال ونساء مع الحيوانات والخضار والفواكه. لم ندفع الرشوة أبداً، بالمعنى الحرفي. ندفع المال مقابل النظر كي ندرس ونتعمق في التفكير. تسحرني عيون تلك النسوة بنظراتهن العدائية والوقحة وأسلوبهن الجدي وكأنهن يزاولن أعمالاً. ينتقلن من حركة لأخرى بحرفية، يلتففن ويتشقلبن بحركات تشبه كثيراً حركات الأكروبات بالحركة البطيئة، رجل بهيمة ضخم يطعنهن من الجانب، أو الأمام أو الخلف - ينظرن خلال هذا بحثاً عن الرجل التالي ويحسبن إن كن هن أو المرأة التالية هي التي ستحوز عليه. يشتمل أجرهن بلا ريب على ثمن حذاء جوني وحليب سوزي. تكون النساء أحياناً في أواخر الحمل، والرجال كبار السن أحياناً، بلحية وشعر أشيب، رجال بعمر الأجداد، يدفعون المال لقاء رضاعة قضيبهم. بالإمكان مشاهدة كل هذا، وكل شيء بثمنه. لقد تبين لي أن رضاعة القضيب هي أكثر ما يمتع النساء على ما يبدو وأنا أتهيج بالمقابل جراء متعتهن، هل أجازف بهذا التخمين؟

بيد أنني اليوم أرغب بحضور الحدث المقام في متحف التاريخ الطبيعي. حسناً، وصلنا متأخرين جداً، وبالتالي حل المساء؛ بدت الأضواء الداخلية الخافقة ضعيفة نوعاً ما. سار بي تي بين الأحفوريات ومررنا برسومات لكائنات شبيهة بالبشر (كما أسميها على الدوام) وهي تشق طريقها الصاعد الشاق في تطور لولبي الشكل. لم تكن هذه المرة الأولى التي أزور فيها المتحف، وكالعادة وجدت نفسي أبتعد رغماً عني عن مجموعة المعروضات الجديدة المدهشة - معاطف الريش القديمة، التي تسمى، إن لم تخني الذاكرة، *مواس*[1]، تيمناً باسم الطائر؛ حجارة خضراء ضخمة ومصقولة وتلمع كحجر اليشم؛ زوارق الكانو مطلية ببراعة، جميلة ومخيفة - جلبوها من نيوزلندا المكتشفة حديثاً، وقد نهبت تماماً على ما يبدو بعد تعرضها للغزو. يحتوي المتحف على صور لنساء بولينيزيات شهوانيات بابتساماتهن العريضة ورجال أقوياء البنية لا يبتسمون. هيا، قال. إن كان يعجبك هذا كثيراً، سوف تحبين التالي. تبعته عبر القاعات ثم صعدنا الدرج إلى أن وصلنا قسماً من المتحف لم أره من قبل قط. أغمضي عينيك، قالها وهو يفتح الباب بهدوء.

عندما فتحت عيني، رأيت بأن تي أدخلني قاعة متوسطة الحجم (معظم قاعات المتحف كانت ضخمة)، ونوافذها مرتفعة جداً وتنبعث فيها رائحة غريبة. بدت لي في البداية كأنها صورة عن جانب من جوانب قرية إفريقية. فيها ثلاثة أكواخ، يواجه كل منها الآخر، كما تبنى في الواقع حتى تشكل حيزاً معيشياً واحداً (قرأت هذا في أحد الكتب)، لكنها كانت منحرفة إلى حد ما وينزاح أحدها عن الآخر بشكل طفيف، *مواربة عن بعضها*، ربما من أجل الخصوصية. ثم مستودع للحبوب وجدار من الطين، كبقية الأشياء الأخرى. أحاط هذا الجدار بمجمع السكن بشكل كامل عدا فتحة تركت عمداً بغية إتاحة الفرصة للناظر لرؤية نشاط القرية بشكل أوضح. لاحظت وأنا أنظر إلى الأعلى، أن المتحف مطلي

1- طائر لا يطير اكتشف في نيوزلندا - المترجم.

باللون الأزرق السماوي بقصد ضمان محاكاة هذا المكان للواقع. هيا، قال تي، وهو يسحبني ويقربني أكثر من المساكن الصغيرة، إذ ترددت قليلاً بدخول القاعة ولسبب ما أفزعني فزعاً غريباً سماع صوت اصطفاق الباب الخشبي الثقيل وانغلاقه خلفي وانتابتني رعدة خوف. شعرت فجأة ببعض الخوف من تي. ألسنا بشراً تافهين وخطيرين في النهاية؟ إلا أنه كان يبتسم، بمودة غريبة ومتكلفة بدت لي مصطنعة وموجهة لغيري؛ لم أر قطعاً هذه التعابير على وجهه الوسيم من قبل أبداً. شاهدت على تلك الأكواخ نمط ألوان وتصاميم لم أر مثيلاً لها سوى في رسومات غرب أمريكا. رسوم في منتهى التجريد، وأشكال وشخوص مبسطة بأسلوب معين ملونة بالأصفر الفاقع والبرتقالي والأمغر والأسود والأبيض اللذان يظهران للنظر بحيوية جلد حمار الوحش. كان مشهداً مثالياً تماماً من نمط لم يألفه المرء فيعجز عن الإتيان بأية ردة فعل حياله، كردة فعله وهو واقف أمام لوحة أبدعها رسام إنجليزي أو أوروبي مثلاً، مهما تكن غرابة تلك اللوحة. الأمر أشبه بعدم وجود المرجعية؛ لقد فشلت في استيعاب انطباعي الشعوري بما رأيته شكلاً ومضموناً. بدا طبيعياً، إلى حد ما، البدء بالتفكير بوجود خلل ما في كل هذا. ضحك تي من تعابير وجهي التي كانت عبوسة مستفزة بلا ريب. قال لي استمتعي بهذا وحسب! اقتربت أكثر، وكنت لا أزال أشعر بتوجس مبهم بسبب الرائحة. ليس لأنها رائحة كريهة. بل على العكس كان فيها شيء مألوف بشكل أو بآخر. شعرت أنني شممتها من قبل، لكنني قطعاً لم أشمها في الشوارع أو الشقق أو منازل لندن الكبيرة ولا في مورلي كروفتس حتماً. وبدا لي عندها أنني ربما شممتها في حلم؛ فالقاعة بأكملها تجلت لي في تلك اللحظة جانباً من حلم – زرقة السماء الصافية فوق رأسي، كما لو أنها مضاءة بنور الشمس، والأكواخ الصغيرة المريحة. هبطت إلى إحدى الشرفات الطينية الناتئة من الجدار. حذار، قال تي، فالطين هش كالغبار. كما هو متوقع، غطى الغبار الناعم تنورتي عندما نهضت. نفض تي الغبار عني وهو لا يزال يبتسم تلك الابتسامة الحميدة بشكل فظ والتي بدت لي

في غاية الغرابة. كانت عيناي مأخوذتان بأشرطة الملابس البهية المحاكة والملعقة على مشجب قرب باب أحد الأكواخ. شاهدت ما يشبه ظهراً بشرياً حياً، يستطيع المرء تبيان شكلها بوضوح تجلس على الأرضية في داخل الكوخ قرب المدخل، منهمكة بالغزل على ما يبدو.

أتدري؟ قلت لتي، هذا أكثر حضارية **بكثير** مما تفعله بعض الدول الأخرى. قرأت مقالاً في *التايمز* (لعلك قرأته أيضاً؟) عن الألمان، أو ربما البلجيكيين؟ لا يهم، الذين استوطنوا في أمريكا الجنوبية، وحملوا معهم زوجاً من كل ما اكتشفوه بلا استثناء: من الأسماك والفهود والطيور، حتى أنهم أخذوا معهم زوجاً من الهنود. بشر تحولوا إلى قطعان للعرض. لكن هؤلاء المساكين المرتجفين والذاهلين، إذ كانوا ينتقونهم من الأطفال دائماً، كانوا *يتلاشون* بحلول الشتاء، أي يموتون.

نظرت آنئذٍ إلى تي فكان ينظر إلى الشخص الذي يغزل داخل الكوخ. بيد أنها لم تكن تغزل بل تقف على المدخل!

كانت ماسوكتا صغيرة القد ولا يتعدى طولها المائة وخمسين سنتيمتراً، ممشوقة كالقصب، وأشد سواداً من أي شخص رأيته يوماً. بدت لي شخصية خالدة – طفلة صغيرة، أو مراهقة، أو عجوز محفوظة بعناية. ترتدي بطريقة خبيرة ملابساً صنعت من مئات الأشرطة التي كانت أيضاً تزين المشاجب قرب باب الكوخ، والتي رأيت أنها تحاكي غزارة الألوان والزخارف والرموز التي تغطي الجدران الطينية. شعرها مجدول في عدد كبير من الضفائر المتدلية التي تصل حتى منتصف ظهرها؛ في طرف كل منها كسرة من صدفة بحرية. تنتعل في قدميها الصغيرتين خفين مطرزين بالألوان مصنوعين من الجلد الطري. اتَجهت نحونا حاملة مغزلها وسلة كبيرة ملأى بالقطن الذي كانت تصنع منه الخيوط.

بالكاد سلمت بوجودنا. لا، لم تسلم به. كأنها عرفت بوجودنا وحسب، وهذا ما حرضها على الخروج، لتجلس أمامنا في زيها المدهش

الذي من الواضح أنها حاكته بنفسها، وتكون دليلاً على هذا الجانب من جوانب حياة قريتها. ترقبتُ ظهور باقي أفراد القبيلة، لكن أحداً لم يظهر.

كنت على وشك السقوط أرضاً.

تركها المتحف تعيش هنا، قال تي مواصلاً ابتسامته للمرأة. لم ألاحظ في السابق أبداً مدى ضحالته، واستعداده الدائم لعدم الغوص في عمق الأمور. لم تبدِ المرأة أي مؤشر على أنها سمعتنا أو رأتنا أو اهتمت لحضورنا. شعرت بتصاعد الرائحة بشكل يكاد لا يحس. إنها رائحة *الخوف*، هكذا أحسست. خافت هذه المخلوقة الصغيرة منا وكأنها طفلة! بالخوف مني! شعرت أنني أصبحت على الفور في المحور. تخاف الحيوانات في حدائق الحيوان مني بشكل طبيعي كما تخاف من أي بشري قادم للتفرج عليها، لكن الوضع مختلف هنا نوعاً ما. إن كانت خائفة مني، فمن المؤكد إذن أن وجودي برمته هو الخلل، وليس ألوان مسكنها وملابسها الصارخة.

ماذا تعني بقولك *تركوها* تعيش هنا؟ من أين جاءت؟ بدت تعابير وجه تي جواباً على سؤالي وكأنها تقول: امرأة سوداء، من أين يمكن أن تأتي؟ وأين تقيم فعلياً؟ ازدادت حدة لهفتي الآن لمعرفة الإجابة وشعرت بأن ذاتي، القديمة لدرجة لا يمكنني تذكرها، أصبحت معنية بالإجابة. ربما كانت ردة فعلي على ما رأيته مقتصرة علي أنا. *أهي* كذلك؟، ساءلت نفسي. لقد زاد خوفي من احتمال صحة ما شعرت به. أقصد، أين كان يقع *عالم* هذه المرأة؟ حتى انتهى بها المطاف على هذه الحال، معروضة *لنا*. لا يسمع صوت السود في شوارع لندن وهم قلة على كل حال. يلمح المرء بين الفينة والأخرى بعضاً من الرجال السود بيد أنه لا يرى النساء أبداً. لعلهن، كما فكرت لحظتها، يعشن في جزء من لندن لا أعرفه، في نوع من أنواع العالم السفلي. ما من سود حقيقيين فعلياً حتى في المواخير، ليس ذلك السواد الرائع بلون الشوكولا، كسواد هذه المرأة. لا ترى سوى الهنود وذاك العربي ذو البشرة السمراء من حين لآخر، والذي يبدو خجلاً من نفسه.

ابتسم تي. تعيش هنا منذ عشر سنوات، قال، وقد ظهرت أسنانه. ولاحظت كم هي ناصعة ومصقولة ومتناسقة. كانت تلمع كاللؤلؤ إلى جانب شفتيه الورديتين. ذكرتني بشغف تي بالطعام، ذكرتني به أثناء تناوله للطعام، يأكل أكثر مما يتكلم وينتابه الضيق إذا انفتح أي موضوع على المائدة. فكرت أنه سيصبح بديناً تماماً خلال سنوات قليلة. سمنة الصمت، سمنة الـ... لم يتوقف عقلي عن التفكير بهذا، حتى وأنا أضغط على نفسي لأنصت لما يقوله تي.

في البدء، وضعوها في الطابق الرئيس، لكنها أصيبت بانهيار عصبي بعد سنة أو نحوها وفارق الصبي الصغير الذي كان معها الحياة. بفعل البرد ربما، قال رافعاً أنظاره نحو السقف الدافئ البراق. هذه الأبنية القديمة رطبة ولا يدخلها الهواء، لقد شيدت فعلياً للأشباح فقط. على كل حال، بعد وفاة الصبي، الذي نسبه البعض لأكثر من واحد من بينهم، انطوت على نفسها إلى درجة ظن الجميع بأنها التالية. ظلوا يراقبونها على مدار الساعة، تماماً كما لو أنها فيل مريض. لقد تعافت عندما منحوها بعض الخصوصية - كانت والصبي معروضين في قاعة الطابق الأرضي الرئيسة طيلة أيام الأسبوع عدا الخميس، يوم عطلة المتحف، وفي فترة الليل طبعاً

ألم تحاول الهروب مطلقاً؟ سألتُ تي، وأنا أنظر إلى ذلك المخلوق الوديع منكبة على المغزل، إلى حركة أصابعها السوداء الصغيرة وهي تتنقل بخفة على المغزل، وقد لفت على إحداها خيطاً قطنياً متعدد الألوان وناعماً جداً. كانت تستعمل مغزلاً خشبياً بسيطاً، شبيهاً بتلك المغازل التي لا تزال تستعملها زوجات الرعيان العجائز في الريف المَجاور لمورلي كروفتس. هناك أنوال من أحجام مختلفة مسنودة على الجدار القريب من مكان عملها، أحدها نول يدوي صغير جداً كانت تغزل عليه الأشرطة الملونة بعرض إنش واحد.

استغرب تي سؤالي. إلى أين ستمضي إذا هربت؟، قال. كما فهمت،

فقد اندثرت القبيلة التي تنحدر منها في إفريقيا. نتيجة نزاعات قبلية وحملات رقيق، أمور من هذا القبيل. هي آخر من تبقى من أبناء شعبها. كان في صوته نأمة اشمئزاز بالنسبة لـ أمور من هذا القبيل. رحبت بها متلهفة. أنا أحب تي في النهاية. ناهيك عن أن النساء، تابع كلامه وأجهز تماماً على مشاعري تلك، كما تعلمين من هواة البقاء في المنزل. تحظى هنا بكل ما تحتاجه، بيوتها ومستودع الحبوب - حتى أنه يحتوي على الحبوب - وأعباؤها المنزلية، نفس أعبائها المنزلية التي كانت تقوم بها هناك في الأدغال. إنها موهوبة بشكل لافت، كما ترين. تحيك ملابسها، وقطعاً أخرى تبيعها، سوف يسعدك أن تعرفي هذا. نظر إلي ثم مد يده نحو شريط من القماش المنسوج معلق على أحد المشاجب. برقت عينا المرأة عندما أخذ الشريط، وهذه كانت ردة فعلها الوحيدة. ربطه على رأسي على شكل عصابة للرأس كالتي يضعها الهنود الأمريكان. وضع شلناً في صحن لم ألاحظ وجوده سابقاً. لقد أحببت الشريط فأبقيته على رأسي. انحنيت باتجاه المرأة بطريقة رسمية. فاحت الرائحة من هذا المخلوق وعلقت بي. كان علي غسلها مراراً وتكراراً/ /

هناك خربشة على الهامش في تاريخ بعده بكثير - كان لون الحبر أغمق ومختلفاً عن لون بقية الكتابة على الصفحة؛ الخط أكبر أيضاً وقد كتب بطريقة أكثر ثباتاً - حيث كانت هذه الكلمات، التي اكتشفت ماري جين من خلالها حس الدعابة الأسطوري، الذي سمعت به، لدى خالتها الكبيرة. هكذا التقيت بماسوكتا، تلك المرأة الضئيلة التي أخذتني إلى إفريقيا!

***

أصبحت ماري جين الآن تستقل القطار ملهوفة مرتين أسبوعياً إلى غيلدفورد. بدأت تشعر كأنها ملتصقة بغرفة إلينورا بورنهام. تواصلت اليوميات، وراحت تقرأ بنفاد صبر نوعاً ما.

/ / لقد أثر بي اجتهاد ماسوكتا في عزلة أسرها تأثيراً عميقاً. أحسست

فجأة أنني ضعيفة اجتماعياً على نحو مرعب. بقدر ضحالة تيودور، سطحيته وانحطاطه. كنت في العشرينيات من عمري، فاتني سن الزواج تقريباً، حتى الزواج المفروض علي. ما عاد التجار اليونانيون متوسطو السن الذين يزوروننا في لندن لتناول العشاء، ينظرون إليّ بذلك الافتتان. يذهبون بعد تناول طعامهم مباشرة، يفكرون في فتيات يافعات أكثر شباباً وجمالاً مني. هذا منحني الراحة. مع أن طيفاً من أطياف الرهبنة أخذ يلوح لي الآن. كانت والدتي تذكرني باستمرار أن هذا كان يستوجب المحاكمة في أيامها – أي الرهبنة.

كنت أتفادى المجابهة مع أبوي قدر ما أستطيع من خلال قضاء أوقات مع أساتذتي الخصوصيين. درست في المنزل على الدوام – على يد مربيات، وأساتذة خصوصيين، وأجيرات، أصبحن في النهاية، كما أظن، صديقاتي. كنت أراقب في حينها طريقة عيشهن في هذا العالم. شققهن الصغيرة، وجباتهن الخالية من اللحم ومعاطفهن البالية. شعورهن بالواجب، وبالمعنى وبالخبرة. فقد كن يملكن *شيئاً*، هؤلاء المعدمات اللواتي غالباً ما نظر إليهن أفراد عائلتي بوصفهن أعلى بدرجة من الكلاب وأخفض بدرجة من الطباخين. ومرة أخرى، ما قيمة ما يملكنه إذا كانت غايته الوحيدة إعطاء درس لشخص من أمثالي؟

لم أنتبه أبداً إلى أسلوبهم الفريد في المراوغة. كيف علي أن أعيش؟ استفهمت من إحداهن. علام يعدّني درسك؟

نظرت إلي باستغراب. رأيت الخيبة في وجهها. كانت شاحبة كحبة بطاطا. وهادئة.

لماذا يا آنسة، لعلها أيضاً قالت بصوت مرتفع، لقد أعددناك لتكوني سيَدة.

سيدة.

من الواضح أنني وتيودور كنا الوحيدين في هذا العالم اللذين يعتقدان بوجوب إطلاق النار على جميع السيدات في كل مكان.

لست أدري لم انتابني هذا الشعور، ولم يكن بأي حال من الأحوال شعوراً مستقراً. كانت هناك حالة من الزيف الهائل تتعلق بالسيدة كمفهوم أنثوي، ويشير هذا المفهوم إلى السيدة بوصفها حالة منفصلة انفصالاً تاماً عن الآخرين وعن الحياة. السيدات اللواتي يصادفهن المرء يظهرن محاصرات داخل تنانيرهن الطويلة. يتعثرن بالسير فوق الرصيف بأحذيتهن الضيقة، وقبعاتهن الكبيرة المزدانة بالريش التي تطوف فوق رؤوسهن. ينظرن إلى وجوههن في زجاج نوافذ المتاجر ويعجبن بأنفسهن. هذا لا يطاق! أدرك بأنني أكنأ كرها للنساء - بالأحرى للسيدات - وهو شعور يسحقني تقريباً. وأشعر به خاصة حين أجد نفسي مضطرة لخلع المعطف والبنطال والقميص التي اشتراها لي تي، التي كنت أشعر بسهولة نزعها عني وأستطيع فعلياً رؤية قدمي أثناء ارتدائي لها، ومن ثم ارتداء زي السيدات الذي يشعرني كأنني كلب مربوط بسلسلة ظاهرة للعيان.

لقد تعلمتِ التاريخ، تمتمت مدرستي الخصوصية، تعلمتِ الجغرافيا، تعلمتِ العلوم، والأدب واللغات. أنت حقّاً الشابة الأفضل تعليماً في لندن، ومضت بعيداً حتى تجاسرت على القول إذا ما أعملت عقلك، قلما يوجد ما لا تستطيعينه مهما بلغ من الأهمية والتعقيد.

كنت أعرف كل هذه الأمور، ومع ذلك لم تنفعني حين قمت بزيارة ماسوكتا، حيث أصبحت أزورها بشكل دوري، بعد تلك الزيارة الأولى برفقة تي. التاريخ الذي تعلمته ليس تاريخها، الجغرافيا التي تعلمتها وضعت قطيعاً من الفيلة في المكان الذي كانت فيه قريتها، لم ترشدني العلوم التي تعلمتها إلى كيفية تصنيع الأصباغ والعقاقير والأشياء الأخرى التي يمكن لماسوكتا تحضيرها؛ الأدب الذي أقرأه يتحدث عن همج وشديدي السواد، في أشد حالات هذا الأدب تهذيباً. اللغات التي تعلمتها أفشلتني تماماً حين وقفت قبالة ماسوكتا. ME TAO ACHE DAKEN SOMO TUKDE. كانت هذه العبارة محفورة على الجدار

المحيط بالأكواخ صوب باب مستودع الحبوب. لقد حيرتني في كل مرة أجيء إلى المكان. هل هي باللاتينية؟ أم بالإغريقية؟ قال تيد ذات مرة وهو يضحك بأنني أبدو مخبولة، فيما كنت أرهق نفسي لفك طلاسمها. بعدها أراني البروشور الذي حمل ترجمة للعبارة. كانت قولاً مأثوراً لدى شعب ماسوكتا، الشعب الذي كان يرزح دائماً تحت الحصار لسبب أو لآخر: **لا يمكنهم القضاء علينا فوجودهم رهن ببقائنا.** عبارة فلسفية أولية لا يتوقعها المرء من كومة الوحشية إلا بشق النفس، بحسب مقال محلي يتحدث عن ماسوكتا ويزعم عن جهل بأن المتحف هو مكتبة. انبجست في طريقي آنذاك معضلة جديدة: أي نمط من الشعوب هذا الذي يسير على هدي هذه الفكرة؟ كلما أمعنت التفكير في هذا، كلما أزداد تلغيزاً/ /

أخذتْ الآن، بشكل مفاجئ، تظهر الآثار على اليوميات بعد تعرضها للرطوبة، والعث ووجودها في قعر صناديق الشاحنات وحقائب سفر في بلاد بعيدة طيلة سنوات. صفحات كاملة استحالت قراءتها بسبب بهتان لون الحبر؛ بعض المقاطع انمحت تماماً. حاولت ماري جين أن تكظم غيظها بتذكير نفسها أنها لم تكن حتى على علم بوجود يوميات بخط إلينورا؛ لم تكن على علم بوجود إلينورا ككل. أقنعت نفسها بالامتنان على قصاصات اليوميات التي تمكنت من قراءتها.

/ / وحده مدرس الرسم (كلام، كلام، كلام - هنا كان الخط مختفياً) من أبدى نفاد صبر صريح معي. كنت على الدوام أعتقده رساماً نكداً وشخصاً لا مبالياً. كنت أندب حظي لأنني لا أملك حرية الرسم، بوصفي امرأة. ليس بمقدوري السفر إلى إيطاليا مثلاً، كما فعل هو، رغَم أنه معدم! لا ترثي لحالك، أرجوك، خاطبني بلهجة لاذعة. أتيح لي السفر إلى إيطاليا فقط لأنني أعمل يومياً مع أمثالك (يقوس ظهره عند قوله هذا!)، وأدخر جميع الأجور، وأعيش على البسكويت. لا يمكنني البقاء هناك سوى شهرين. شهران أرسم فيهما ما يحلو لي. أنت امرأة، إلا

أنك ثرية. قد يستهزئون بك لكنهم لن يسيئوا إليك إذا ما رسمت. يمكنك الرسم طوال النهار. يمكنك الرسم على مدى شهرين وحتى سنوات، إلى النهاية. بمقدورك أن ترسمي ما تشائين. و... (لم يخفف عني مطلقاً، لا بل فقد بدت نظرته إلي أشد اشمئزازاً) لديك موهبة معينة.

لكن ما هو الأمر الحسن الذي قمت به؟ سألته. رسمت نتيجة ولعي بالرسم، وليس لأن لدي حلماً في أن أصبح امرأة جيدة. ذكرني بعمل صغير قمت به والذي حيرني، بالحقيقة، حتى وأنا أفعله. هي لوحة بعنوان شاهدة قبر وفاكهة، وتختصر جميع لوحاتي. تحوي قبراً وحجراً وفاكهة تغطي الرابية كالأزهار. أخبرته أنني لا أعرف من أين استلهمت الصورة.

من داخلك. من أعماقك، في سعيك لقول شيء ما لنفسك. لقد درّسني هذا الرجل، البالغ منتصف العمر وكان جذاباً إلى حد كبير كما أرى الآن، لمدة ثلاث سنوات. لم ألاحظه فعلياً أبداً. بلون بشرته المستهجن ويديه ناصعتي البياض ورسغيه العضليين. نظرة عينيه. كان قد عمل لصالح أسرتي، *لصالحي*، بعد أن كان حلمه بالتقدم والتطور كفنان قد خبا. أعرف بأن الشهرين اللذين يمضيهما في إيطاليا هما حياته الحقيقية. هذه كانت، في حينه، القدرة التي يملكها أمثالنا. القدرة على استعباد الآخرين وتحطيم أحلامهم. ولم أكن أبداً قد أخذت رسمي على محمل الجد، بينما كانت حياته - وهو يقتات البسكويت، حسب قوله - تستنزف ببطء//

صفحة أخرى ممزقة:

//تلك الكلمات هي ما أبقاني أسير قدماً، قالت ماسوكتا بعد سنوات، عندما أفلحنا بتبادل الحيث بشكل متعثر. إنها بحق هدية أسلافي لي. لا تعني لي مجرد أغنية جميلة - وقد اعتدت ترددها طوال الوقت كي أستمع إلى لغتي - بل علمتني حياكة الملابس القبلية، السحر الكامن فيها يقول طالما أن الملابس محاكة، فإن القبيلة موجودة؛ طالما

تعرفين حياكة الثوب فأنت موجودة. علمتني هذه الكلمات كيف أتغلب تماماً على السأم (ملأت رأسي مثلما تملأ حبوب الرز القرعة) طوال السنوات التي عشتها في المتحف (مستودع حبوب إنما مليء بالبشر). حملتني تلك الكلمات إلى الماضي عندما هدد المرض والحزن (وجع في وسط الصدر) بإبعادي (تحطيم روحي). كانت معجزة (نهاية قوس القزح) بأنها ظلت موجودة هناك، منقوشة على الجدار الطيني قرب باب مستودع الحبوب، لأن شعبنا لا يقرأ ولا يكتب؛ وبدلاً من هذا وضعوا ثقتهم (بصدر رحب، كشروق الشمس) وتاريخهم (قبلات وركلات موجهة للأسلاف) في ذاكرة (مستودع حبوب الرأس) بشر (وحدهم من بين جميع سكان المعمورة يفكرون بالإنصاف - الإنصاف، يدان تحملان قدراً متساوياً من الحبوب). كانوا يعتقدون بأن كل ما حدث يوماً هو مخزّن كذكريات ضمن عقل الإنسان، أو مستودع حبوب في رأس أولئك الوحيدين على الأرض الذين يفكرون بالإنصاف. تقوم حياة أبناء شعبي على التذكر اللانهائي؛ جميع مستودعات حبوب الرأس ممتلئة. أما حياة أبناء شعبك فهي تقوم على النسيان؛ الممتلئ هو مستودعات حبوب أشيائكم (المتاحف)، وليس ذواتكم. يمكنني أن أقول لك بصدق (بعيون ثابتة وقلب هادئ) بأن لقائي بأبناء قومك أصابني بصدمة رهيبة (أطفال صغار يفرون هاربين). أقصى مخاوف شعبك هي من ماضيكم؛ لا تؤمنون بأنكم كنتم أفضل أو أكثر صلاحاً مما أنتم عليه الآن. هذا مختلف عن أسلوب تفكيرنا (مسارنا). لا يعني هذا بأننا كنا خيرين منذ البداية بقدر ما نحن عليه الآن، وإنما لأن حالنا لم يتغير أبداً (كمثل حبتي رمل، متماثلتين).

حين تفوهت بهذه، خطرت لي تلك الليلة البعيدة في لندن حين كنت جالسة قرب تي نتابع الباليه، والفضائحية التي انسحب فيها أبي وأمي. لقد ظننت في حينها أن أملي قد خاب بسبب نشاز الموسيقى الضاري وتنافر الرقص الشبيه بهدير القطعان وحسب، والذي لم يكن بأي حال

من الأحوال رقص بالية، أعني ذلك النمط من الحركات المذهلة الدقيقة المتقنة التي يعهدها المرء. كنت أظن أنها ردة فعلي على الأزياء الغريبة. قلّتها من جهة وضجيج ألوانها من جهة أخرى. أزياء في غاية البربرية والوحشية. لعلها كانت ردة فعلنا أنا وتي عندما شاهدنا أنفسنا لأول مرة قبل أن نتقولب، نحن وجميع البريطانيين والأوروبيين، وفق الأشكال التي خلقتها لنا الحضارة. ربما كانت العذراء التي رقصت ذاتها حتى الموت في زواجها من الشمس قد نقرت على وتر معين فينا. لعلها عبّرت عن شعور حيال الطبيعة لم يعبر عنه الإنجليز فيما بعد إلا بطريقة مؤدبة، بكبت، في جنائنهم وفي إصرارهم على إنشاء الحدائق العامة الكبيرة.

أين اختفت عاطفة الثناء، إذن، بين أبناء شعبي؟ بالتأكيد ليس في الكنيسة، لا في الكنيسة الكاثوليكية ولا في كنيسة إنجلترا. يبدو أن الفاتحين الرومان قد جردونا منه، ومع ذلك، فكرت أن المرء يمكنه أن يلمح في الرقص العاطفي للعذراء الشابة الرائعة جزءاً من حقيقة ماضينا نحن الشعب الإنجليزي. كنا نمتلك العاطفة والجموح قبل ترويضها. لم يتم تدجينها فعلياً، بل قمعت وانتهى الأمر، وتحولت عبادة الطبيعة إلى نقيضها، وكانت الحصيلة النهائية فساد وسلب الحالة البرية. كبل الشعب بالسلاسل، ووضعت امرأة سوداء ضئيلة ومخرسة هنا في متحف تحت سماء مزيفة.

السير هينلي روانبوثام هو الذي أوجد الكلمات التي أحيتها ماسوكتا من خلال نقشها على الجدار الطيني قرب مستودع الحبوب. خدم آمراً في الجيش البريطاني وأرسل ليدير احتياجات شركة الاستغلال الاستعمارية الملكية المحدودة. ضَمِن الرجال تحت إمرته منفذاً آمناً عبر إفريقيا لأولئك المستكشفين والمبادرين القادمين من إنجلترا الذين كانوا سيتبجحون، لو عاشوا كفاية، - فقد واجهوا فيها أموراً كالحمى، والرمال المتحركة وأفاعي المامبا - بتجميعهم ثروات سريعة في إفريقيا من خلال التجارة مع السكان المحليين، مدعين أحقيتهم

بحقول كبيرة من الأرض وكل المعادن والألماس وكل ما تحتوي عليه تلك الحقول. لم تكن تجارة الرقيق قد انتهت بعد، مع أنها كانت في محطاتها الأخيرة، حسب رغبة الغرب على الأقل، وكان لا يزال هناك الكثير من المال لجنيه.

تأثر روانبوثام تأثراً عميقاً بمغامرات السير ريتشارد بيورتون، وهو رجل عسكري آخر قام بتعيينه دليلاً شخصياً له: في الأمور المحلية. شأنه شأن بيورتون، فكر مرة أن يقيم علاقة عشق كبيرة مع امرأة محلية - إفريقية وليس فارسية - وانغمس في الحياة والشؤون المحلية مثل بيورتون، إنما بطريقة مختلفة. مثل بيورتون أيضاً، كان ماهراً في تعلم اللغات وشغوفاً بها بإخلاص، وفي فصل الصيف، أثناء الأماسي الاستوائية الرطبة في موسم الأمطار، كان ينأى بنفسه إلى طاولة تحت النافذة في النادي الاستعماري الملكي ويضع الأحرف الأبجدية المحلية.

من خلال ملاحظاته فقط، بدأت استحوذ على فهم معين لشعب ماسوكتا وتاريخهم، إلى جانب الأمور التي علمتها منها. كانت قبيلة ماسوكتا، البالاويوا أو أبابا كاختصار بالعامية، منذ زمن سحيق قبيلة تتبع نظاماً أمومياً. كان لدى روانبوثام، الذي ترعرع في شرق لندن وتربى في كنف والدته وثلاث شقيقات أكبر منه وكن يعشقنه عشقاً يفوق الخيال، تقارباً مميزاً مع الأنظمة الأمومية. هو الذي أنقذ ماسوكتا، عندما قتل قسم من أفراد قبيلتها وبيع القسم الآخر في سوق الرقيق، وقدم طلباً لمتحف التاريخ الطبيعي لإيوائها؛ ولأنها الوحيدة التي بإمكانها نقل تاريخ الأسلوب القديم لحياة شعبها، ولأن أحداً، عداها والصبي الصغير الذي كان برفقتها، لم يكن يفهم لغتها، فقد لقبها روانبوثام بـحجر الرشيد الإفريقي//

برز في هذا المكان على الصفحة دليل كبير ومثير للاستفزاز على التخريب الذي قامت به الأسنان المتناهية في الصغر. لقد التهم العث بقية الصفحة؛ في الواقع بدأت بقية اليوميات الآن تملأ الجو المحيط

بكرسي ماري جين بغمامة من الغبار. الأمر الذي جعلها تعطس. انتهت المعلومات عند هذا الحد وقتها. كل ما قيض لها معرفته عن إلينورا بورنهام بيكوك كان بخط يدها هي.

هل تعتبر قدرتك على أن تكون ممتناً على هدية منقوصة مؤشراً على التقدم الأخلاقي والنضوج الروحي؟ ترسخت هذه الفكرة في عقل ماري جين بثبات في وقت لاحق من الأسبوع عندما كانت تقف أمام سرير خالتها الكبيرة إلينورا الفارغ. لقد فارقت الحياة حين كانت ماري جين تجلس في غرفتها في المكتبة وتنقب في أشيائها.

لم يحضر جنازتها سوى ماري جين وأمينة المكتبة، وعميد الكلية، ممرضتها وكاتب عدل لندن. ألقيت كلمة رثاء مسهبة نوعاً ما، تناولت بشكل رئيس حياتها في إفريقيا - ذكرت كتاباتها بشكل منبوذ بنصف عبارة مقتضبة - إضافة إلى درجة الشبه الكبير بينها وبين ليدي بورنهام الأولى، الليدي إليندرا بورنهام بيكوك. الاسمان اللذان قفزا إلى مخيلة كاتب النعي هما لامرأتين إنجليزيتين أخريين، كانتا شائنتين في أيامهما وأصبحتا من السكان المحليين حسب تصنيف إنجلترا العظيم المناهض للفيكتورية: الليدي هيستر ستانهوب والليدي جان ديغبي إلميزراب الفاتنة وذات الجمال الخارق. ليس رحيل هذه الأخيرة عن إنجلترا واستقرارها في المنطقة العربية هو الأمر المميز المستذكر عنها على ما يبدو، وإنما زواجها من عربي.

في اليوم التالي بعد جنازة الليدي بورنهام، ذكر أنها تركت جزءاً كبيراً من أملاكها لابنة أختها الكبرى الأمريكية ماري آن هافيرستوك، التي كانت، للأسف، أيضاً مفقودة. لقد وصفت بأنها راديكالية سياسية مولعة بالسود وتعاني من اضطراب ذهني مع ولع بالمخدرات. بعد تخففه من العبء نتيجة غياب هذه المرأة النشاز، سارع كاتب وثيقة الوفاة إلى سرد المعلومات من أن أملاك الليدي بورنهام ستذهب لتمويل مجموعة أنثروبولوجية كانت قد شغفت بها في إفريقيا. فكرت ماري جين أن كتّاب

وثائق الوفيات في إنجلترا أكثر هزلاً من نظرائهم الأمريكان. لكن كيف علمت إلينورا حتى بوجودها؟ ربما في الفترة التي كانت متورطة فيها بفضيحة في الولايات المتحدة، فعلمت خالتها بها، فوقعت على شيء لتهلل له؛ انتشار الأقاويل عن قدمي ماري جين العاريتين المسودتين، وشعرها المهمل، وعن تسكعها بثياب رثة ملونة.

لدى عودتها إلى المكتبة للمرة الأخيرة، عثرت فوق الرفوف على زوج من كل نسخة من نسخ إلينورا الخمسة، ولم تكن أوراقها متلفة. أخذت مجموعة منها، ودستها في حقيبة كتفها الواسعة، وابتسمت في طريقها خارجة لأمينة المكتبة التي أصبحت مؤخراً لطيفة نوعاً ما. كانت ماري جين تعرف أنها راحلة إلى إفريقيا، وكانت تفكر بشخصيتي إليندرا، إحداهما تواقة جداً للتجربة في الحياة، والأخرى تزوجت بخنوع وضاعت في غياهب النسيان؛ سبعة عقود من الزمن فشلت في تفتير ازدراء توأمها لها. فكرت أيضاً بإلينورا التي ستتعرف عليها ماري جين، كما تأمل، من خلال مؤلفاتها، طالما أن يوميات إليندرا، الليدي بيكوك، قد عرفت ماري جين على نفسها قبل كل شيء.

في طريقها إلى حوض الميناء، توقفت في متجر لبيع أدوات الفنانين - سفينتها ستبحر في منتصف الليل - واشترت ما يكفي من الفراشي، وزيت التوربنتين وعلب ألوان تكفيها لمدة عام.

* * *

الفصل الرابع

كان ملتبساً - ولا مجال للشك في جنسه، مع أن الموضة السائدة آنذاك كانت تساهم في تمويه ذلك - في تقطيع شرائح من رأس مغربي تتدلى من عوارض السقف. كان له لون كرة قدم بالية وشكلها تقريباً، باستثناء وجنتيه الغائرتين وخصلة أو اثنتين من الشعر الخشن والجاف، الأشبه بشعر جوز الهند. كان والد أورلاندو، أو لعله جده، هو من جز هذا الرأس من على كتفي وثني ضخم الجثة برز فجأة تحت ضوء القمر في الحقول الوحشية لإفريقيا؛ وها هي الآن تتأرجح، بخفة، وبشكل دائم، في النسيم الذي لا يتوقف عن الهبوب عبر غرف العلية في المنزل الهائل الحجم للورد الذي كان قد قتله.

• فيرجينيا وولف، أورلاندو -

ضع حاضرك الذي أنجزته في عقلك على الدوام. إنه المستقبل الذي تنشده.

• آولا -

لم يكن لدى كارلوتا أية ممتلكات، قال سويلو رداً على الآنسة ليزي. كان هذا قبل أن يبيع منزل العم رافي ويقفل عائداً إلى سان فرانسيسكو. كان يوم أحد في تشرين الثاني، وأصبح الطقس بارداً صباحاً في بالتيمور الأمر الذي ذكره بشمال كاليفورنيا. كان يقرفص فوق مقعد قرب طاولة الفرم في المطبخ، ينظف باهتمام كومة من سلطعونات ميريلاند

المسلوقة. جلس السيد هول يقطع على المنضدة الطويلة قرون الفلفل والبصل وعيناه تدمعان بسبب أبخرة البصل، وكانت الآنسة ليزي تحرك بانتباه بالغ مزيج الرو[1] الذي كان لونه يزداد دكنة شيئاً فشيئاً، فانبعثت منه رائحة خبز محروق بالزبدة لم يكن سويلو أكيداً من استساغته لها. لم يستوعب كيف لمادة أساسها من الطحين المحروق أن تكون طيبة المذاق في الحساء.

تعيش في سان فرانسيسكو وفي متناولك جميع المأكولات البحرية، ولم تأكل البامية؟ قال السيد هول بلهجة ارتياب.

كان سويلو دعاهما لقضاء نهاية الأسبوع. في أعماق قلبه كان ربما يدعي أنهما والداه، ولم يكن يمانع. أول ما ظهر في ذلك الصباح داخل شاحنة السيد هول ست حقائب للمتاع مليئة ومعبأة بالبندورة، والفليفلة، والبصل، والبامية، والفيليه، ودجاجتان، وشرائح لحم الخنزير والبقر المقددة، وقطعة كبيرة من لحم الخنزير، وأصابع طويلة من السجق برائحة توابل لاذعة، وسلة طافحة تقريباً بالسلطعونات، وكيس كروكر ملون من الأرز، وأباريق من عصير الليمون الجاهز وشاي مثلج.

حالما بدأا بالتنقل في أرجاء المطبخ، يفتحان الجوارير ويشحذان السكاكين ويتذمران من أن المملحة اللعينة تلك لا تعمل *أبداً*، فهم سويلو أنهما ينتميان إلى المكان. نزعت الآنسة ليزي حذاءها وأخذت تتحرك في المنزل حافية، فك السيد هول أزرار قميصه الأبيض قصير الأكمام ليشعر بالأريحية فظهر من تحته قميصه الداخلي القرنفلي بلون الخوخ وقد طبع عليه، على الجهة الأمامية، عبارة نشوة إلى الأبد. بات شعره أكثر بياضاً وطولاً مما كان عليه عندما التقاه سويلو للمرة الأولى، وبعينيه الوادعتين البنيتين وأسلوبه الراقي، حتى في المطبخ، كان يشبه جورج واشنطن النحات المسترخي والدمث والسعيد في أغلب الأحيان.

1- Roux خليط من دقيق ودهن – المترجم.

ما أقصده بقولي إنها بلا أملاك هو أنها كلها عبارة عن صورة. كانت كلها صورة عندما رأيتها للمرة الأولى، وعندما التقيتها كانت كلها صورة، وكلها صورة...

بعد أن تقاسمت معها السرير، قالت الآنسة ليزي تتم له العبارة. أعطني قواقع السلطعون التي تنتهي منها. سوف أسلقها من أجل المرق. مررها سويلو لها.

كان من حين لآخر يروي لهما شذرات صغيرة من حياته؛ مع أنهما لم يطلبا ذلك. شعر أنه يعرفهما معرفة حميمية أكثر مما عرف أبويه - اللذين قتلا في حادث سيارة، نتيجة لإحدى ثورات غضب والده الثمل، حين كان سويلو في الجامعة - وامتناعه عن مشاركتهما تفاصيل حياته جعله يشعر بأنه لص، عدا أنه بحاجة للمساعدة بخصوص علاقته بفاني.

بعد عودة فاني من إفريقيا في تلك المرة الأولى، قال سويلو، عرفنا أن زواجنا لم يعد ينفع، ولن نبقى زوجين طالما هي لا تريد هذا. إنها *تمقت الزواج*. تكره مؤسسة الزواج. كانت تردد قائلة إن ذلك الخاتم الذي يضعه البشر في أصابعهم رمزاً للزواج ما هو إلا بقايا من قيد على ما يبدو. لم تكن *تكرهني*. أقله إلى ذلك الحد الذي بدأت أشعر به في حينه. لسبب ما، بعد رجوعها من إفريقيا، إذ بقيت هناك ستة أشهر - الفترة الوحيدة التي أمضت فيها وقتاً برفقة أبويها - بدا حبها لي لا لبس فيه. كنا نسقط فوق بعضنا في مصالحة جنسية معربدة تستمر أسابيعاً. ولم يكن هذا ليحدث إلا لأنني أخبرتها مباشرة عندما نقلتها إلى المطار بأنني أحبها وأن الطلاق يناسبني تماماً.

مممم هممم... قالت الآنسة ليزي. أمالت المقلاة فشاهد سويلو اللون الكارميلي الداكن للرو. عبر السيد هول المطبخ ويداه طافحتان بالبصل والفلفل المفروم، ثم رماها في القدر. صدر عنها صوت نشيش واحتراق، فقالت الآنسة ليزي، اللعنة، يجب أن تضع البامية أولاً. لكن بحق الجحيم، أضافت قائلة. يبدو طهو البامية كتأليف الموسيقى

المثالية، فن ارتجالي. سكبت لنفسها كأساً من النبيذ وأخذت تحتسيه فيما كانت تتابع الخفق.

لقد عرفنا أيضاً، تابع سويلو، أننا لا نستطيع العيش على الساحل الشرقي في ضواحي مدينة نيويورك. لقد عشنا، إن كنتما تصدقان هذا، في مقاطعة صغيرة للطبقة الوسطى تدعى فوريست هيلز. بيوتها جميلة وفيها أشجار ومروج عشب فسيحة، إلا أن الجميع كانوا يسعون على الدوام لجعل كل ما في الحي من منازل وأشجار تبدو عتيقة. كنت أظن بأن جيراننا يخرجون أحياناً من منازلهم ليلاً ويضربون جدران المنازل بالعصي ويشدون الأجمات والأشجار، في محاولة لإطالتها ورفعها رغماً عنها. لقد واظبوا على محاولاتهم ربط هذا المكان بولادة شخصية مشهورة لكن هذا لم ينجح، بما أن الناس ينتقلون كل عدة سنوات بشكل دوري. في النهاية اهتدوا إلى لاعب بيسبول شهير وكان قد استأجر منزلاً في الحي ذات مرة، وجرى كلام عن وضع لوحة تذكارية تخليداً له. في الواقع، كان منزلنا هو الأقدم من بينها. فلم نواجه صعوبة في بيعه. حالما نشرنا خبر عزمنا على بيعه، رغب حتى بعض من جيراننا في شرائه، ممن يرتقون في طبقتهم ويشيخون. بعناه لأسرة سوداء أخرى، إذ عرفنا بأن أحد الأسباب الكامنة وراء رغبة جيراننا في شراء المنزل هو إبعاد السود عن الحي.

لكن أين سنذهب؟ أمضت فاني الصيف في أيوا قبل ذلك، وأيقنت أن جو الغرب الأوسط البعيد جداً عن مياه المحيط يخنقها، حسب تعبيرها. وتلك التفاهات حول شبه البراري بالمحيط كلام لا ينطلي على العصافير. ثمة ما فيه الكفاية من البراري للتبول فيها.

أمضيت ذات مرة خمس دقائق في ويومينغ. وخمساً أخرى في مَونتانا، ولم أنزل من الحافلة حقيقة في كلتا المرتين. كنت في طريقي إلى سياتل لحضور زفاف أحد أصدقائي، أمضيت خمس دقائق في كل من هاتين الولايتين الشماليتين الغربيتين. أحسست أنهما شديدتا العزلة. تفتقران إلى الألوان وحتى كمية البيتون فيهما قليلة.

إذن أوكلاند هي التي كانت تستدعينا فعلاً وليس سان فرانسيسكو. لأنها بعلم الجميع مليئة بالشاذين، والمنحرفون يغزون متنزهاتها، عدا مناخها المعتدل صيفاً. لكننا نعرف سكان أوكلاند، وكلما سافروا شرقاً كان يبدو عليهم دائماً الفرح الحقيقي باحتمال عودتهم إلى أوكلاند. أبهرنا هذا الأمر. كنا دائماً تقريباً نتهيب الذهاب إلى المنزل في نيويورك؛ فالمشاة وقحون، سائقو سيارات الأجرة لا يطاقون، ونشعر حال خروجنا من باب المنزل أننا على حافة الهاوية في كل لحظة.

ماذا جرى في أوكلاند؟ فشلنا في العثور على شقة. لم تكن فاني تحب الحر والشوارع، كما قالت، فهي تذكرها بلوس أنجلوس التي زارتها مرة ***واشمأزت*** منها. عبرنا ونحن نرتعد ذعراً باي بريدج[1]. كان الضباب يلتف منقشعاً عن المدينة، كما لو أن يد عملاق تجره. سطعت أشعة الشمس على الأبنية البيضاء لدرجة أنها أعمتنا فعلاً. الماء يحيط بنا من كل الجهات. الطقس فيه برودة منعشة والنهار مشرق بطريقة استثنائية. نظرنا إلى أيدينا وبدت أيدينا جديدة، وكذا بدت أقدامنا حين نظرنا إليها! أنشد سويلو هذه الكلمات عن النجاة لهذه العجوز السوداء بأسلوب كنسي، مما دفع كلاً من الآنسة ليزي والسيد هول للضحك.

وجدنا شقة كبيرة في شارع بروديريك، مرتفعة جداً وتطلُّ من زاوية صغيرة على غولدن غات بريدج ***الأحمر***. ومن الجهة الخلفية، تشرف على مشهد ضبابي مؤقت، ثم اكتشفنا أنها ليست في نطاق سان فرانسيسكو وإنما في مارين كونتري. سرعان ما رحنا نفكر بنشاطات لم نفعلها من قبل قط: تمارين تاي تشي[2]، التنزه سيراً على الأقدام وتعلم الإبحار في بحيرة ميرسيد. بقي ظلّ طلاقنا جاثماً طيلة الوقت، وكنا سعداء إلى النهاية. ثم دخل حيز التنفيذ وأصبح نهائياً ودخلت أنا في بحر الاكتئاب.

1- جسر الخليج – المترجم.

2- تمارين صينية للصحة والدفاع عن النفس – المترجم.

لم يعد لدي زوجة! بكيت.

لديك صديقة، قالت. وها هي صديقتك تسير نحو غرفها الخاصة.

ماذا؟ قلت.

أتذكُر مدى قلقك عندما أردتُ أنا الطلاق؟ قالت.

أجل! قلت.

حسناً، قالت، كل ما عانيته كان بلا جدوى، أليس كذلك؟

لكن، لكن، لكن، قلت.

لكن ماذا؟ سألتني وهي تبتسم.

هل يعني هذا أننا لن ننام مع بعضنا أبداً؟

دائماً هذا على رأس اهتماماَتك، تنهدت. وأردفت، لا. أتمنى أن يعني هذا بأننا حين *سننام* مع بعضنا، لن ننام متباعدين.

إلا أنني كنت غاضباً، كنت مرتبكاً. كنت أشعر بإساءة شديدة وقاسية. شعرت أنها خدعتني. شعرت أنني منبوذ.

حاولت حملها على القول بأنها لن تنتقل إلى غرفاتها حتى تفطمني - لقد أخذت الغرف الثلاث الخلفية من المنزل، تاركة لي الغرف الأكثر شمساً ووحدة في المقدمة -. ضحكت. كنت أحاول أن أجعل منه موقفاً مضحكاً.

حتى *تفطمني* تماماً، قلت وأنا أنسل بين ذراعيها ويداي تتسربان تحت بلوزتها. كنت أحب نهديها. رفع سويلو نظره إلى الآنسة ليزي، التي كانت مطرقة بعبوس في طنجرة البامية. لم أكن أطيق التفكير في بعدي عنهما.

أخذت الآنسة ليزي بقية من قواقع السلطعون واللحم. راح سويلو يراقبها وهي تضعها في وعاءين منفصلين. كان السيد هول الآن يمرغ مَكعبات لحم البقر في تلال صغيرة من الدقيق. أعطت الآنسة ليزي سكينا لسويلو وأنبوباً من السجق. وقام بقطع جزء منه بطول القضيب.

تبدو بريئاً رائعاً، قالت الآنسة ليزي.

ماذا قصدت بهذا، فكر سويلو محتاراً. هل تعني أن هذه القصة تعطي

انطباعاً كأن فاني لم تحبه؟ لم ترغب البقاء معه؟ وأنه كان ضحية بريئة؟ هل جعلت طريقة سرده للحكاية من فاني تبدو كأنها سحاقية؟

السحاقيات في كل مكان حولنا، كما تعلمين، قال سويلو بنبرة من يواجه تحدياً مطلقاً. معظمهن نساء في غاية الحسن، مع أن بعضهن لا يظهرن حاميات إلى هذه الدرجة. مجرد رؤيتهن يتنزهن ويتسلقن التلال، ويتشمسن في الحدائق العامة، ويتناولن الطعام سوية في ضجيج أصواتهن العالية على أكبر طاولات مطاعم بيركلي، كل هذا جعلني أود البكاء. لقد *تخلّين عنا!* أولئك العاهرات بمنتهى القسوة، اللعنة، لقد تخلّين عن *الله*! حدث هذا عندما اكتشفن الإلهة المرأة للتو، من خلال الأحاديث التي تدور طوال الوقت عن هذه الإلهة أو تلك. سألت ذات مرة امرأة سوداء عن موقع موقف الحافلات الجديد في الشارع – كانت سلطات المدينة تقوم بترميم موقف الحافلات القديم في ذلك الجزء من الشارع الذي كنا نقطنه – نظرت إلي وحسب، ثم رفعت كتفيها باستهجان وقالت بلا عناء الإلهة أعلم. أذهلني ردها وأطاح بي.

هاه، قالت الآنسة ليزي.

كذا خشيت من أنها تتخلى عني من أجل امرأة، قال سويلو. اسمعا، أنا لست الرجل الوحيد في هذا الوضع. إن كنتما لا تلاحظان فهو شعار هذا العصر. الرجال الوحيدون الذين لا يعتريهم هذا الخوف هم قاطنو الكهوف والأدغال برفقة نسائهم اللواتي يربطن ليلاً من خواتم أنوفهن إلى الأرضية.

ضحك السيد هول.

انتبه سويلو إلى انفعاله. استوى بجلسته إلى الخلف، أخذ رشفة من البيرة التي كانت الآنسة ليزي قد صبتها له، وحاول أن يضبط أنفاسه. ضاقت أنفاسه حين استرجع ما قد كابده.

كثيراً ما كانت فاني تخرج برفقة هؤلاء، قال.

برفقة من؟ سألت الآنسة ليزي، وهي تقلي مكعبات لحم العجل في

الزيت، والذي وضعت فيه شرائح الثوم من قبل. بالتأكيد ليس برفقة ذوات الخواتم في أنوفهن.

هنا قهقه السيد هول.

الآن، يا ليزي، قال. *الآخرين*. الذين قصدتهم بكلامي عن خواتم الأنف السخيفة تلك.

أوه، هم، قالت، مبتسمة.

كانت هذه هي المرة الأولى، على نحو غريب، التي شعر فيها سويلو أن الآنسة ليزي والسيد هول يودّانه، ليس بصفته قريباً للعم رافي وإنما لذاته.

اتخذت حكايته منحى أكثر دعابة إلى حد ما في عقله.

بدا أن السيد هول قد سلم بصحة الحكاية فعلاً - وكان يأمل ألا تجعل الواقعية منه شخصاً كاذباً - لكنه فكر بأن هذا لا يحدث إلا إذا كانت... سيجارة حشيش معه.

لكنه لم يتمكن من إيجادها لحظتها.

أوه، حسناً، قال، متوجها لسويلو، أكمل العملية دون تخدير.

ما عنيته بوصفي إياك بالبريء، قالت الآنسة ليزي، هو ما الذي كنت تفعله أثناء وجود فاني في إفريقيا؟ إن كنت رجلاً - نطقت بـ رجل تماماً كما قد تقول كلب - هل كنت تلهو.

شاهدت أفلام البورنو، أجاب سويلو فوراً. كنت *وحيداً*. ذهبت إلى العاهرات. بيد أن قلبي رقيق. كنت دائماً أرغب في معرفة كل ما يتعلق بحياة العاهرات - تلك التي فضلتها على جميعهن كان لديها خمسة أطفال - فأصبت في النهاية بجرعة رهيبة من السيلانات. راقه أن يقول جرعَة رهيبة من السيلانات؛ بدت كأنها العبارة التي قد يقولها السيد هول والآنسة ليزي.

أوو ويي! قالا في وقت واحد.

وفكر سويلو: متى كانت آخر مرة سمع فيها أحدهم يقول أوو ويي!

لم يسمع هذا التعبير منذ طفولته الباكرة. شعر وكأنه تلقى هدية ثمينة - صورة أو رسالة قديمة، أو عطراً آتياً من زمن ما عاد موجوداً.

بالطبع لم أخبر فاني. وما المغزى من إخبارها؟ لحسن الحظ شفيت قبل عودتها إلى المنزل بعدة أسابيع. توقفت عن لقاء العاهرات. أو بالأحرى، تخلى عضوي عنهم لمصلحتي: يأبى أن يؤدي عمله في أرض يخشى أن تكون ملوثة. إلا أنني كنت مدمناً على المجلات النسائية، نساء عاريات في أقفاص زجاجية لا تتيح لك النظر إليهن من خلالها إلا بجزء منها، وأفلام استعباد وممارسة جنس حي على الخشبة. عندما تساءلت عما قدمته لي فاني بوجودها في إفريقيا لمدة ستة أشهر، عرفت أنها متعة متابعتي للأفلام الإباحية دون أن أعاني من مشاعر الذنب. تركتني امرأتي، كما تريان، نازعة مني جوهري الخام الصحيح ومضت إلى قارة أخرى، بعيدة كل البعد عن قضيبي، وتركتني معلقاً ومثاراً. حسناً، لقد عرفت كيف أشبع رغبتي بدونها. العالم يحتوي على عدد هائل من النساء. هكذا كان موقفي.

هل أسكب لك المزيد من البيرة، قالت الآنسة ليزي باقتضاب فظ.

لقد تعافيت من هذا الفسوق، قال سويلو. لا تقرفوا مني كثيراً. استغرقني زمناً ـ لكنني...

ما يقتلني، قالت الآنسة ليزي، هو أن الرجال يعتقدون أن النساء لا يعرفن أبداً.

فاني *لم* تعرف، قال سويلو. لو قيض لكما معرفة فاني... فاني - فكر سويلو طويلاً وبجهد بطريقة لتبسيط وصف شخصية فاني، بحيث يستطيع هؤلاء العجوزان تخيلها - فاني، حسناً، فاني، قال، أشبه برائد فضاء غر.

كانت الآنسة ليزي تقطع إحدى الدجاجتين وكدست دهنها الأصفر قرب يدها. كما دائماً، تبدو أشكال الدجاجات المنتوفة لسويلو أشبه بالرضع العراة، فأشاح بعينيه عنها.

أنت روح سكنت الكثير من الأجساد، وترتحلين بروحك عبر الزمان والمكان، قال سويلو. أما فاني فهي جسد متعدد الأرواح تنطلق إلى عوالم مختلفة كل يوم تقريباً. إذا ما وقعت في هوى شاعر روسي توفي وهو يقاتل دفاعاً عن ثورة 1917 في روسيا، ما كانت تهتم لخروجي برفقة الفتيان ليلة في كل شهر. مع ذلك لم يكن هناك أي فتيان، أردف قائلاً بسرعة. كنت على الدوام أخرج لوحدي وأعود خلسة في موعد عودتها، وكأنني ارتكبت جرماً. لقد قرأت جميع أعمال النساء في السياسة وعن *الرجال*. كنت أعلم بأن ما أقوم به مثير للاستياء. اللعنة، حتى أنني كنت أعرف أنه خطيئة. نعم، لقد شعرت بفداحة الخطأ. ذات ليلة كنت فيها غاضباً من انصراف فاني الذهني غضباً شديداً لدرجة أنني تحرشت بشابة في أحد أقفاص الزجاج تحرشاً فعلياً. لاحظت أنها لم تكن تلقي بالاً لي، حتى وهي تتلوى وتتأوه وتزم شفتيها. عرفت بأنها لو رأتني فعلياً، لشاهدت فيَّ رجلاً عجوزاً أسود وضخم البنية ولارتعبت مني، بما أنها كانت مجرد طفلة نصف بيضاء يافعة وتمضغ علكة وعارية ومدمنة بلا شك، تقبع في قفص ملطخ صغير. رحت أهز القفص وأكشر عن أسناني مثل كينغ كونغ. فقدت صوابها وأظن أنني جعلتها تبلع العلكة.

وكارلوتا أيضاً كانت رائد فضاء غر، لكن على طريقتها، قال سويلو، وهو يرتشف رشفة أخرى من البيرة. كانت فائقة الأنوثة، وعلى الطراز القديم لدرجة أنها بدت وكأنها لم تلاحظ يوماً وجود نمط آخر من المظاهر لدى النساء. كانت تنتعل يومياً حذاءها ذا الكعب العالي بطول ثلاثة إنشات. كما أقول لكم، أجل كعب مدبب كالخنجر، لا بل وكانت تطبخ – رأيت هذا بعد أن أتاحت لي مرافقتها إلى المنزل – وهي تنتعل حذاء له ذات الكعب. كعب حذاء نسائي بطول ثلاثة إنشات صمم ليهيج رغبة عارمة في الرجل بولوج المرأة برفق من الخلف. كعب بطول ثلاثة إنشات يقول انكحني. كانت كارلوتا تدرّس أدب المرأة – الذي راحت فاني تتساءل إن كانت قرأته يوماً – وهي تنتعل كعب الثلاثة إنشات.

ترتدي سترات تبرز جميع تكويرات جسدها اللذيذ الشهي. سترات طويلة. تنانير تلتصق بجسدها. تنانير قصيرة. مكياج. أقراط. رموش صناعية أحياناً. هجرها زوجها الموسيقي - لم تطلعني على اسمه أبداً - وغادر البلاد. لا أقارب لها ولا أصدقاء. عدا طفلين، صبي وفتاة. كنت أصطحبهما في النزهات وحفلات الباليه ومباريات كرة القدم. سرعان ما أصبحا يعتمدان علي حقاً. سافرت فاني إلى إفريقيا مجدداً. كنت أعرف أن كارلوتا راغبة بالزواج مني، وعلى علم أنني كنت متزوجاً آنذاك، لم نكن قد فتحنا أنا وفاني موضوع الطلاق آنذاك بعد؛ ما المغزى؟ هي مسألة خاصة. وهي تعلم بشأن فاني. كانت الجامعة التي ندرّس فيها أنا وكارلوتا مكاناً شديد التوتر. بعد الصراخ والهياج عن حجم التوتر السائد في جو الجامعة، استقالت فاني من عملها الإداري بدوام جزئي فيها وافتتحت صالون تدليك في الشارع نفسه. أخذ الجميع، طلاباً ومعلمين على حد سواء، يذهبون إليها. حتى كارلوتا ذهبت. لم تكن فاني تعلم أبداً بعدم ارتياح كارلوتا لها. غرقت فاني في تلك السنة في نظرية فحواها أن يسوع كان محترفاً للتدليك، ما يرمي إليه الكتاب المقدس عن قدرة يسوع على شفاء البشر شفاء مبرماً بلمسة واحدة من يده هو هذا! كانت منهمكة في تعلم طريقة بسط اليدين. تلقت دروساً في التدليك في مدرسة سان فرانسيسكو للتدليك وتعلمت أيضاً العلاج بالإبر.

كانت كارلوتا تمقت نمط فاني من النساء. لقد تخلت فاني عن الكثير مما لا تزال كارلوتا متشبثة به؛ تخلت عن العمل المحترم والفساتين والتنانير وصالون التجميل - قصت فاني شعرها قصيراً جداً - والأحذية ذات الكعب العالي وأحمر الشفاه. كانت ترتدي قميص تي شيرت وخفاً من القماش وسراويل تشي[1] الفضفاضة. انتقل عقل فاني إلى القدس، إلى البحر الميت وكانت تتجول في الجليل. ظلت تتصرف على مدى سنة ونصف كأنها المسيح. أو مسيحا، كما سيحلو لها أن

1- ماركة ثياب - المترجم.

تصف حالتها، يمكن لأي كان أن يتلبسه. استمتع الجميع بتدليكها إذ كانت تمتعهم من خلال وضعها للكثير من ذاتها في التدليك. لم تعد تكفيهم الساعة الواحدة وهي مدة الجلسة، بل يمضون المزيد والمزيد من الوقت، ثمة أجساد ظلت تدلكها حتى جعلتها تشعر بالإلهام على حد تعبيرها. موسيقا عذبة تصدح في المكان - لن تعرفوا أبداً من يكون هؤلاء الموسيقيين؛ كل ما تعرفونه أنكم لم تسمعوهم في أي مكان آخر قط ما خلا في الصالون - دخان بخور يتصاعد، القاعة دافئة ويدا فاني حانيتان ولزجتان بسبب الزيوت الفواحة التي تستعملها. كانت الحلوى التي تقدمها هي ما أفضله. اعتدت الذهاب أنا نفسي إليها، خاصة بعد اجتماعات الجامعة التي أصبح بعدها في حالة من التوتر كأنني طبل. جميع أولئك الذكور البيض من رؤساء الأقسام، أولئك المدعون، ينالون كل شيء بجدارة، و*بالطبع* لم تكن الجامعة عنصرية لمجرد أن أحداً فيها لم يسمع يوماً باسم جورج واشنطن كارفير؛ كيف يمكن لامرئ أن يفكر على هذا النحو؟

بالفعل، تخلت فاني عن كل شيء لفترة طويلة. تخلت حتى عن ولعها بالقراءة!

أتعلمان ماذا قالت؟ أفضل قراءة الأشجار. ليس حرق الكتاب هو ما يتوجب على البشر القلق بشأنه؛ بل حرق الأشجار المهددة بالانقراض.

تخلت عن سماع الموسيقى، ما عدا أثناء قيامها بالتدليك. حتى عن معشوقها موزارت. اكتشفت أنني أهوى الصمت، قالت. إنه موسيقى بالنسبة لي. أحب طبيعة الصمت السرمدية. يمكنك أن تشعر بموسيقاه حياً أو ميتاً

بعد ذلك، عادت إلى إفريقيا حين توفي والدها. عاشت مرحلة عصيبة حينها. كانت قد تعرفت عليه للتو، وعلى شقيقتها على حد سواء، وقد أحبته. رجل مرح وخفيف الظل إضافة لكونه متمرداً. جعلها تضحك. كانت والدتها، والتي عملت في صباها مبشرة في إفريقيا على

مدى سنوات حسبما أخبرتني، تقول لها على الدوام بأن الأفارقة شعب ذو طبع حزين إلى حد ما. شعرت بالشبه البعيد بينها وبين والدها، لقد دغدغها أن ترى جزءاً من ذاتها في شخص آخر موجود في موقع مختلف من العالم. وهو والدها أيضاً! لم تكن تعرف حتى أن لديها أباً.

لم تستوعب كارلوتا فكرة ترك فاني لي وحيداً لفترة طويلة. قالت إنها ترثي لحالي. رفعت شعرها عن نظارتها الملونة، حيث كان ينزل دائماً فوقها، ورفعت ثدييها. لمست بإصبعها الثلم الوردي ما بين نهديها. مدت ساقيها وحذاءها ذا كعب الثلاثة إنشات. رأيت في المجلات وعلى الخشبة نساءً على شاكلتها، نساء رشيقات وسمراوات، ذوات بطون نحيلة مسطحة وأثداء عارمة. وكنت كلما نظرت إليها، أرى فيها أولئك الأخريات بشكل أو بآخر. في أول مرة قبّلتها فيها مرغت كامل وجهي بأحمر شفاهها.

لكنني اعتدت على هذا. ظللت أشتاق للمكان الذي اشتهيتها فيه أول مرة بعد أن شممت رائحة عطرها، شهوتي التي كانت ملحة إلحاح طارق على باب نحاسي. كنت أذهب إلى شقتها الصغيرة البائسة بعد المحاضرة وأراقبها وهي تطقطق في المطبخ، تعد العشاء منتعلة كعبها العالي، فأمسك بها أحياناً من دون مقدمات وأشدها إلى جسدي وينتهي بنا الأمر على أرضية المطبخ. لا أظنها كانت تستمتع بذلك على الإطلاق. مع أنني في حينها كنت أظنها تستمتع قليلاً. كانت سلبية فاتنة؛ خطر لي ذات مرة أثناء المضاجعة، أنها ترسم بأحمر الشفاه شكل ابتسامة كانت لها عادة، إلا أنني أبعدت الفكرة وولجت فيها عميقاً. لم يكن لدي أدنى فكرة عن مدى صعوبة استرخاء النساء في الجنس في ظل وجود أولادهن في المنزل. وكان ولداها في الردهة آنذاك. أوصدنا باب المطبخ، ووصلتُ سريعاً؛ لا بد وأن الأمر كان تعذيباً لكارلوتا مع ذلك. كانت تحب أولادها حباً عميقاً ومتدينة حتى العظم. وينظر أولادها بالتأكيد إليها كامرأة متدينة ومحتشمة وتقية أشد التقوى، فقد كانت، من

بين الطقوس الأخرى التي تزاولها، تصلي دائماً وتشعل الشموع وتلوي يديها في الهواء وتبكي. لكن هل أسرّت لي يوماً بمتاعبها؟ لم تفعل، يا جوسي.

أخبريني عن شعبك؟ سألتها مرة فيما كنا مستلقين عراة بعد جنس كنت حرفياً قد استدرجتها لممارسته في السرير.

ليس لدي شعب، قالت والدموع تسيل على جانبي أنفها.

مستحيل، هيا، قلت. لكل امرئ قومه!

أما أنا فلا، قالت.

أخبريني عن والدك، إذن، قلت لها. بصراحة كان من العسير تحديد قوميتها. ربما لم يكن لديها شعب.

ليس لدي أب.

بدا لي هذا بعيد الاحتمال.

أخبريني عن والدتك. حتى الله، قلت ممازحاً، يشاع أن له أماً.

ليس لدي أم، هكذا ردت على سؤالي.

أخبريني عن والد أولادك، قلت وقد نلت منها.

ليس لديهم أب، قالت.

كانت لحظتها مجرد جسد. يناسبني أن تبقى هكذا، جسداً صرفاً. بعد انتهاء ممارستي للحب معها كنت دائماً أفكر بفاني مع ذلك. ألاحقها في خيالي إلى جميع الأماكن في إفريقيا، وأحاول تصور الأشياء التي تراها.

لو تزوجت كارلوتا لكانت أخبرتني بحقيقتها ربما. من هم شعبها، من يكون والدها ووالدتها. من هو زوجها. لم أكن أعلم حتى إن كانا مطِلقين. إنها الصفقة التي أبرمتها في دخيلتها. إذا ما تزوجتها ستتمكن من الوثوق بي وإطْلاعي على خفايا حياتها. إلا أنني صنف من الكينونات التي تُحَبُّ بغير زواج. كينونة تُحَبُّ بغير زواج بالنسبة لفاني تحديداً. من الغريب القول إنني شعرت بحرية أكبر من خلال علاقة الحب. وليس لمجرد أنني كنت أضاجع كارلوتا.

الرجال **كلاب**، قالت الآنسة ليزي بلهجة فاترة، وهي تقلب البامية في القدر الأسود بملعقة خشبية. بدأت رائحة الطعام تصبح لذيذة. كان السيد هول قد عثر على سيجارة الحشيش وأخذ كل منهما مجّة.

سوف تحبان كاليفورنيا الجنوبية، قال سويلو. لقد زرعنا هذه المخدرات في فناء منزلنا.

فناؤهما. كان أصدقاؤهما يعيرانهما خيمة مستديرة صغيرة من القماش وخمس أكرات من الأرض خلال فصل الصيف. سرعان ما أصبح لديهما حديقة مزروعة بالفلفل والبندورة والبصل والكرنب الأخضر والماريجوانا. جرَّا المياه للجنينة من الحديقة العامة المحلية وجلبا الروث من أغنام جيرانهما. كانت النباتات التي يزرعانها طويلة ويانعة الخضرة ومذاقها قوي لاذع. يطلقان عليها لقب نساء ضخمات. سوف تعي للوهلة الأولى بأنك موجود حيث يفترض بك أن تكون أنت وجميع الأشياء الأخرى. يانعة. كان سويلو وفاني يرددان هذه الكلمة كثيراً.

إفريقيا ليست بيانعة، كتبت له فاني في إحدى رسائلها. المخدر المحلي هو عبارة عن خمر منزلي مزبد يتركك ذاهلاً، ويدخن الناس هنا سجائراً أمريكية رهيبة تلوث الهواء تجعل رائحة فمهم كريهة وتصيبهم بالأمراض. أشعر أنني لم أتنفس منذ ثلاثة أسابيع.

* * *

كانت جنازة والدي حدثاً مؤثراً وهي الأولى من بين ثلاث ستقام له، كتبت فاني. أقيمت في كنيسة لم يكن يؤمّها سوى البيض فيما مضى في العاصمة، تقع على بعد ثلاثة مَبانٍ من وزارة الثقافة. لم تكن لدي أدنى فكرة عما سأرتديه في مثل هذه الجنازة الإفريقية رفيعة المستوى، إلا أنني حين هاتفت والدتي في الديار في جورجيا – التي عبرت عن رغبتها في المجيء بنفسها لولا أن حالة الروماتزم في وركها ازدادت

سوءاً - وأخبرتها عن مكان الجنازة، قالت لي سوف ترتدين الأسود طبعاً. حين أخبرتها عن الجنازتين الأخريين اللتين سوف تقامان في قرية والدي، أخبرتني أن إحداها، وهي مخصصة لرجال القرية، لن يكون بوسعي حضورها، ويتعين عليَّ ارتداء ملابس بيضاء في الثالثة وهو لون الحداد بالنسبة للأولينكا، كما أنني سأطلي وجهي بالأبيض أيضاً. إضافة إلى يدي وكل الأجزاء الظاهرة من جسدي. لسبب أجهله، أبهجتني المعلومات عن هذه الجنازة الأخيرة في القرية، مع أن الملابس البيضاء التي جلبتها معي، بلوز بسيط وتنورة، بدت غير ملائمة لحدث رسمي كالجنازة. ولم يكن لدي ألوان كي ألوِّن بها جسدي بالأبيض.

حضرت تأبيناً مهيباً، حدث وطني وعالمي بالفعل، (حضرته شخصيات شرف من الكثير من البلدان الأجنبية - من كوبا، نيكاراغوا، أنغولا، ألمانيا الشرقية، السويد، والدنمارك، وغيرها - جاؤوا تعبيراً عن تقدير بلدانهم) وأنا شاردة الذهن طوال الوقت أفكر في التأبين التالي، ومن أين سأحصل على الطلاء الأبيض.

جلست أختي نزينغا بقربي، وإلى جانبها زوجها ميتودهي. التفتت نحوي خلال إحدى مدائح التأبين المسهبة إلى حد ما وابتسمت. بادلتها الابتسام. وضع تابوت آولا على المنصة أمامنا. تحفة فنية صممها بنفسه، كان ضخماً ومصنوعاً من قطعة خشب ماهوغني مصقول وملمع حتى أدق تفاصيله، حوافه ترتفع ثم تنحني نحو الداخل كمقدمة شِبْشِب الخليفة؛ غطاؤه البيضوي المستطيل يتراكب بإتقان في الخشب كما يدخل الغطاء في القدر.

في ماضي الأيام، كان جسد آولا سيلف في كفن من لحاء الأشجار وَيترك تحت شجرة في الغابة. أما الآن فقد أصبحت الجثامين تدفن، لكن ربما ليس عميقاً جداً. لم أكن قادرة على تحمل فكرة أن يضغط أي شيء على والدي نحو الأسفل، كما يقول أتباع الراستافارية[1].

1- Rastas جماعة تدين بالإبراهيمية - المترجم.

وحيداً في شقة شارع برودريك التي يتقاسمها مع فاني، كان سويلو يترقب بشوق رسائل فاني، التي يقرؤها وكأنها سلسلة في مجلة مغامرات إفريقية معاصرة. هما في عالمين متباعدين، ومع ذلك فقد شعر أنه قريب منها كل القرب. جالساً على مقعده قرب النافذة المطلة على شارع سان فرانسيسكو المزدحم، يرفع ناظريه من حين لآخر عن كلماتها ليريحهما على ركنهما الصغير من غات غولدن بريدج وقد لفه الضباب المبترد. أما عالمها في تلك الأثناء فكان حاراً ورطباً، كما تخيل، ويحتوي على جميع الألوان والدراما التي يفتقدها عالمه. حاول استحضار وجه فاني نزينغا كي يجد مكاناً لنفسه في جنازات آولا.

عندما كانت خطب الرثاء تمضي برتابة، تساءلتُ إن كانت نزينغا تتذكر يوم عرَّفنا والدنا فيه على بعضنا كيفما اتفق، كتبت فاني. إنها مساعدته في وزارة الثقافة، وحين اصطحبني ووالدتي إلى هناك في المرة الأولى، أخبرني أن لديه مفاجأة سارة جداً، شخص يشبهني شبهاً استثنائياً. من تكون؟ سألته. رد قائلاً، معاونتي الشابة. حال دخولنا من الباب عرفت إلامَ كان يرمي، مع أن نزينغا كانت ترتدي، كما كان يجدر بي أن أتوقع أنها تفعل على الدوام، ثوباً تقليدياً فضفاضاً وغطاءً على رأسها يتناسب معه. كانت لها عيناي وأدركت للمرة الأولى، بسعادة، أن عيون الجيل الإفريقي الجديد، ما بعد جيل والدي، أكثر صفاء من الأجيال السابقة، أقل اصفراراً والذي كان بفعل النار التي يشعلونها في أكواخ الصفيح وأكواخ القش، وأقل احتقاناً بالدم. أنفها أيضاً يشبه أنفي تماماً، أنف قبيلة الأباتشي الذي جعل زملائي في المدرسة، يدعونني كوشيزي[1] في المرحلة الثانوية. لديها أيضاً شيء من حركاتي وتعابيري، مع الفرق أنها بدت فخورة، كما لاحظت لاحقاً، بنوع من الصلف المدروس الذي صدمني كأمر مخالف للطبيعة. كانت تعطي التعليمات لأحد مرؤوسيها لحظة اقتربنا منها – هذا هو الشعور الذي ينتاب المرء لدى سماعه لها.

1- كوشيزي: قائد هندي قاوم سلكة البيض – المترجم.

لم تكن توجه كلامها إلى شخص بمقام سكرتيرتها أو مساعدتها، امرأة قد تكون ببساطة مكافئة لها بكل المعايير عدا درجة التعليم والراتب، وإنما لشخص أدنى منها، أو خادمة، بذات الأسلوب الاستعماري القديم.

بعد إصدارها التعليمات الطويلة إلى حد ما والمفصلة للمرأة والمتعالية إلى أقصى حد كما شعرت، والتي تنصت إليها مطرقة برأسها دون أن تنظر في عينيها، رفعت نزينغا رأسها ولَفَّتْهُ لتتلقى قبلة آولا التي أصدرت صوتاً كمصّة مدوية، وتحملتها هي.

نزنغاي الاثنتان! صاح قائلاً، وهو يباعد ذراعيه ويهزُّهما من فرط سعادته. ألم يشعر بأثر من الارتباك أو الندم، تساءلت بعد تعريفه لنا على هذا النحو. أخيراً التقيتما!

مدت يدها ببرود، إذ كانت معتادة على الترحيب بكبار الشخصيات الأجنبية. كان لنا لون البشرة نفسه تماماً، بني وافر كلون حبة البن. صافحتها.

بينما كانت تنظر إلي، فوالدتي ثم إلى والدي وتبتسم بانشراح لنا نحن الاثنتين، تشكلت تقطيبة خفيفة بين حاجبيها.

آه، قال آولا، الذي يلقَّب بلقب آخر هو القيبر، أطلقه عليه الناس واستحقه بجدارة، إنها عبسة التعارف!

من الجلي أننا كلتانا كنا في حالة ارتباك. نظرت إلى والدتي. كانت تبتسم رابطة الجأش. يبدو أنها توقعت أمراً كهذا. أجل، فكرت، من المستبعد تماماً ألا يكون والدي متزوجاً، وألا يكون له أولاد آخرون. إنها إفريقيا. لعله تزوج مرات عدة، ولديه زوجات عديدات وأولاد كثر. استحوذت علي فكرة أنه قد يكون لدي دستة من الأخوة والأخوات. كيفَ شعرت حيال هذا؟ لست أدري. في الوقت نفسه، تشبثت يدي بيد نزينغا، كما تشبثت يدها بيدي. شعرت أنني امرأة إفريقية – أمريكية (ترتدي سروال جينز وبلوز مهلهلة وخف)، تنظر في مرآة بيد أن هذه المرآة لم تعكس سوى صورة الإفريقية.

أنتما أختان، ابنتاي، قال والدي. فاني نزينغا، سلمي على نزينغا آن. تلك هي مفاجأته الكبيرة لي، وقد سرَّ بهذه المفاجأة، كما تفعل جميع المفاجآت والحفلات والتبادلات الشفهية غير المتوقعة بالبشر على ناصية الشارع.

بادرتني بفتح ذراعيها وعناقي، الأمر الذي فعلته بمنتهى الحرص، كأننا قطعتان قابلتان للكسر ومغلفتان بالمناديل الورقية.

بعد لحظة، وبعد دعابات عن زيارتنا للبلاد وإطراءاتنا على طقم والدتي الأزرق الأنيق، اعتذرت نزينغا وغادرت القاعة بشكل مهيب. روت لي فيما بعد أنها ذهبت إلى دورة المياه وجلست على المرحاض وبكت.

لقد سعت لأن تصبح كل شيء بالنسبة لوالدها: فتاة جميلة، وتلميذة سريعة البديهة بلا مشاكل تستوجب التأديب ومهتمة بإحياء ثقافة البلاد؛ حتى أنها تزوجت باكراً على أمل أن تمنحه أحفاداً. ثم اكتشفت عجزها عن أن تكون كل شيء بالنسبة له مهما فعلت، إذ كان لديه والدتي، المرأة المتعلمة، وأنا، ابنته الجميلة والمتعلمة. نحن موجودتان قبلها هي وأمها؛ من ناحية الزمن وليس التعلّق.

لم أستوعب هذا.

بروية شرحت نزينغا لي هذا، ذات ليلة ونحن أمام المشروب في شقتها الملونة والحميمية، الواقعة بالقرب من وزارة الثقافة، حيث جميع الجدران مزدانة بمطرزات ورسومات أبدعتها نساء القرى.

كنا قد أنهينا وجبتنا، ووضعت الصبيين، ولدَي أختي الصغيرين، في السرير. لاحظت حجم تعبها برعايتهما وعدم معاونة ميتودهي لها. تناول طعامه وتمتم بشيء عن اجتماع ما أثناء خروجه من الباب.

عملنا على إعادة إحياء وعي البشر بضرورة وجود الأبوين لتربية الأولاد، قالت، وهي تنزع حذاءها بضجر بركله من قدميها وتغوص في الأريكة. وهذا أحد المعتقدات الكثيرة التي فقدها الأفارقة. لم يكن ما يحدث في هذا القرن ليخطر على بال أحد في الماضي؛ الرجال يمنحون

هؤلاء النسوة أطفالاً، وهذا كل ما يمنحونه. لا ينفقون سنتاً واحداً على الطعام أو الملبس أو التعليم. يا لها من فضيحة. يعتقد رجال من أمثال ميتودهي حتى بأن المساهمة المالية أمر كاف؛ يتركون جزءاً من راتبهم قبل خروجهم من الباب. هنا يعتبر الرجال الذين يقدمون شيئاً ما، *مهما بلغت تفاهته*، رجالاً *صالحين*. جميع النساء تتمنى الاقتران بأحد هؤلاء اللُّقى.

كانت نبرة كلامها خلابة. الأسلوب الذي سردت فيه حتى هذا الأمر المحبط جعلني أبتسم.

أجل، لن ينفع التباكي، كما أفترض قالت نزينغا، مع ذلك مرت أزمنة كانت فيها الأمور كما أشتهيها تماماً. وأشعر أنني **مخيبة**، فالرجال يمكنهم على الدوام الهرولة حتى النهاية نحو القدرة التدميرية للرجل الأبيض ومع ذلك ليسوا بقادرين على إمعان التفكير في أسرهم وحياة أولادهم كي يروا بأن ما يجري هو بالضبط التدمير الذي خطط له الرجل الأبيض. في الوقت نفسه، أصاب التصدع النساء بفضل النجاح الباهر الذي حققه الرجل الأبيض وغياب مساندة رجالهن.

حدث لنا الأمر ذاته في الولايات المتحدة، قلت، مع الفرق، أنها حالة عامة هناك؛ إن أعداد النساء البيض وأطفالهن اللواتي يتلقين الإعانة الحكومية تفوق النساء السود مثلاً. رغم محاولات الحكومة ووسائل الإعلام إظهار الأمر على خلاف هذا.

لقد شوّه النظام الرجل، كما شوهنا، قالت نزينغا.

أجل، قلت. الفرق هو أنهم ساهموا في خلقه. أو على الأقل بخلق جزء من ذاك الذي يضطهد النساء.

هذا صحيح، قالت. وقد فهمت هذا من خلال حياة والدتي.

توجهت نزينغا إلى الغرفة وأطفأت الأنوار. لن تري القمر ما لم تره في إفريقيا، قالت، وكما هو متوقع، بدأ القمر الأصفر العملاق يبزغ وملأ على الفور النافذة ثم الغرفة بنوره الأصفر المنعش.

والدتي من عبدة القمر، قالت وهي ساهمة، وقد عادت لتجلس من جديد. كانت تعبده منذ طفولتها؛ وترى تحت ضوء القمر بالوضوح الذي يرى معظم الناس فيه تحت نور الشمس. أمر مثير للسخرية، كان هذا معناه أنها أصبحت مقاتلة عظيمة في حرب العصابات في شبابها، دائماً هي من يمضي طواعية لتنفيذ المهمات الليلية. سأسترسل في حكاية والدتي. أتودين المزيد من القهوة؟ سألتني، وهي تسكب لي القليل في فنجاني. نحن نزرع هذه، كما تعلمين، قالت رافعة فنجانها، المحصول الداعم لمنتجات بلادها في جميع أنحاء العالم.

سحرني شكل الفنجان المصنوع يدوياً من حجر الكوبالت الأزرق، وحوافه مزينة برؤوس التماسيح. رحت أقلبه مرة إثر مرة في يدي فيما كانت أختي تتحدث.

والدتي، قالت نزينغا، من سكان القرى، من الأدغال. امرأة أمية تؤمن بالماورائيات. أقصد أنها لم تكن تنطق أية لغة عدا لغتها وكانت لا تعرف أي أسلوب للعيش عدا نهج أبناء شعبها. لم تكن تعرف الإنجليزية أو المسيحية، أضافت بكلام مشدد. بعدما بلغ القمع مبلغاً لا يحتمل، هربت وانضمت إلى المبيليز، الحركة السرية الإفريقية، كانت مقاتلة بارعة – اسمها الحركي هو هارييت، كما توبمان[1]؛ ألا يدفعك هذا للضحك؟ مع الفرق أنها لم تكن معلمة ولا مفكّرة ولا حتى شخصية اجتماعية. كانت امرأة هادئة جداً ومنعزلة، تتكلم ببلاغة من خلال أفعالها أكثر من كلماتها القليلة التي تنطقها في سأم. لقد أنقذت حياة والدي وحياة الكثيرين، لكنها تاهت دون بندقية في يدها أو قنبلة في حزامها. بعد عودة الناس إلى البلاد، لم يعد لها سوى القليل لتقوم به بما أن المجتمع التقليدي ما عاد موجوداً. أو هكذا بدا لها. تزوجها والدي في الفترة التي كانا فيها لا يزالان خارجين على القانون؛ حملت بي وسط المعارك.

1- Tubman امرأة سوداء عملت جاسوسة للجيش الأمريكي في الحرب الأهلية واسمها هارييت توبمان – المترجم.

بعيد سقوط نظام البيض، ارتفع رصيد والدي ارتفاعاً كبيراً، إذ كان قد تعلم جزئياً على الطريقة الغربية على يد المبشرين. أرسل إلى السويد حتى يواصل دراساته. لا بل فقد أرسلوه إلى روسيا! أجل، سافر إلى روسيا وعاد بعد أسبوعين. آولا وحده من يقدم على هذا، العودة بهذه السرعة. الطلاب الذين نرسلهم اليوم يخشون خشية شديدة من فقدان هكذا فرصة؛ بصرف النظر عن طقسها البارد، أو جلافة الروس معهم أحياناً؛ لن يفكروا بالعودة إلى الوطن قبل الحصول على ما قد سافروا في سبيله. وهذا جيد؛ تحتاج البلاد للمهارات التي يتعلمونها هناك. مع ذلك، فالبرد لا يطاق، قال آولا. لقد تجمد عقله وكل ما فيه. ابتسمت. أرسلته الحكومة إلى السويد وبقي فيها عدة سنوات، يدرس ويتعلم لخير بلادنا. كانت أمي ترعاني وتنتظر هناك في الكوخ الصغير الذي تركها فيه، الكوخ الذي بنته بنفسها. لدى عودته، كان قد نسي بطولاتها وإنقاذها حياته. عندما يتذكر ما جرى، يتذكره على طريقة تذكر الكتّاب للأحداث، كأنها حدثت لشخص آخر وليسوا مضطرين لتقييد أنفسهم *بالحقائق*. توقفت قليلاً. كنت أفكر أحياناً كيف كنا نبدو له ولا بد بعد سنواته في السويد. السويد أيضاً بلاد شديدة البرودة، قال آولا، بيد أن نساءها جميلات ودافئات القلب.

توقفت نزينغا قليلاً، وضعت يديها تحت ذقنها وفركتهما كما لو *كانتا* باردتين، وعبست بشكل طفيف. لم تنل والدتي تعليماً لكنها كانت روحانية إلى أقصى درجة، تابعت، بل وحتى روحانية من الناحية السياسية، وهذا أمر نادر. أدركت أنه بغض النظر عن التعليم الذِي حصّله والدي، في تقليده لبشر من ثقافات أخرى أو تمظهره من ناحية أخرى بمظهر شخصية «معاصرة»، فسوف يكون على الدوام في خلاف مع حكومتنا، حتى لو أنها هي التي أرسلته مع شباب آخرين إلى الخارج. حكومة ساهمت والدتي بنفسها - عبر مخاطرة كبيرة وتضحية شخصية - في وصولها إلى السلطة، لكن هذه الحكومة

نسيت وجود والدتي ببساطة بعد تقلدها زمام السلطة. ينطبق هذا على جميع النساء اللواتي تم نسيانهن. كان هذا قبل أن يمتلك رجالنا أدنى فكرة عن وجود أسلوب مختلف للعلاقة مع المرأة، عدا ذلك الذي مارسوه بحكم العادة. بالطبع، يوقف الرجال دائماً سلوكهم التقليدي خلال أزمنة الحرب، فالمرأة كانت من أجل التكاثر والجنس، هي امرأة - حسناً، في لغتنا كلمة امرأة مرادفة لكلمة مستودع الحبوب. شعرت النساء من أمثال والدتي بالغضب الشديد والجرح العميق. عاد والدي من السويد ثم نظر إلينا. ما زلت أتذكر تلك اللحظة بوضوح، مع أنني لم أكن قد تجاوزت الخامسة أو السادسة من عمري. جاء في سيارة كبيرة، مع سائق. أحضر الهدايا. ولأمي أحضر طقم فناجين شاي صينية باللونين الأبيض والأزرق الناصعين، وسترة مبطنة، وأحضر لي دمية شقراء كبيرة تسمى هيلديغارد.

كان كوخنا أنيقاً وفي منتهى الجمال، كما كنت أظن، فقد طلته والدتي بطريقة تقليدية، بألوان جريئة وتصاميم هندسية، لكنها بالغت في هذا ورسمت الزرافات في مختلف أنحائه - زرافات صغيرة تبدو كأنها تطفو في فضاءات تجريدية.

بدا والدي مرهقاً. جلس وأمي على مقعد في الفناء وأخذا يتحدثان بالأولينكا، لكنه بين الفينة والأخرى كان يتفوه بشيء بلغة مختلفة - إنجليزية، كما أدركت لاحقاً - التي بدا أن السائق وحده يفهمها. بدا كأنه يتحدث بها لإظهار جدارته؛ السائق أيضاً كان من معارف والدي خلال حالة الطوارئ. لعبت بالدمية ذات العينين الزرقاوين الكبيرتين والشعر الأصفر، ويمكنني القول بأن أمي أيضاً كانت مفتونة بها - لم تحصل أبداً في حياتها على دمية - أكثر بكثير من فناجين القهوة. لم نكن قد رأينا لعبة كهذه قط. لقد التقت بالبيض سابقاً، إنما ليس الكثير منهم، عندما كانت تقود عمليات تفجير أبنيتهم أو محطات الطاقة فقط؛ لم تر أي منا بياضاً ببياض وفخامة هذه الدمية.

لاحظت أنهما ينظران إلي من حين لآخر وقد ظهر الاستياء على والدي.

أدركت فيما بعد أن سبب استيائه عدد الثقوب في أذنيّ - ثلاثة في كل منهما - وعدم ارتدائي للكنزة. لكن أيّاً من النساء أو الأطفال لم يكن يرتدي كنزةً في الحياة اليومية. ما الداعي لها؟ معلوم لدى الجميع أن العري يريح البشرة في المناخ الرطب.

تابع عمله بعد ذلك بشكل منتظم. في تأليف مسرحيات مناهضة للإمبريالية. كان محبوباً من الحكومة آنذاك فعلاً، وكان يبدو متنعماً بمحاباتها وراضياً تماماً. مقتنع بأن عمله قد يكون وسيلة من وسائل التغيير على الأقل، تغيير سوف تشجع عليه الحكومة وتهلل له وسوف يسعى معظمنا لتحقيقه. كان رجلاً بلا أولاد، مع ذلك، على حد علم أصدقائه في الحكومة؛ لم يكن زواجه معروفاً بالتأكيد، وبدأ هذا يضايقه بلا شك. تفاقم حزن والدتي أكثر فأكثر في كل مرة يتركنا ويذهب. كنا ننام على الحصيرة نفسها وأستيقظ أحياناً في الليل وأراها تبكي. والدتي من ذلك النمط من النساء اللواتي بإمكانهن القتال في الجبال أو الكهوف أو الممرات الضيقة على مدى أشهر، بل حتى سنوات، جنباً إلى جنب مع الرجال في تفجير محطات الوقود، وبذات الوقت يرضيها، بامتنان ظاهر، ملاذ ليلي بين ذراعي ابنتها ذات الخمس سنوات.

جاء والدي ذات يوم وأخذني مع هيلديغارد. لم تصارع والدتي لإبقائي معها، الأمر الذي لمتها عليه. أخبرتني أن هذا لمصلحتي - بالطبع لم أستوعب ذلك! - وأنه يتعين علي الدراسة بجد وتعلم خدمة بلادنا. كانت امرأة وطنية وأحبت بلادنا، رغم قناعتها بأن حكامها الرجال هم جميعاً مجرد ملامح عديمة التأثير.

توقفت نزينغا فجأة وفركت عينيها اللتين بدأتا تلمعان وقد اغرورقتا بالدمع. تركناها هناك في القرية لتتعفن، قالت أخيراً. في البداية كنت أشتاقها اشتياقاً رهيباً. لم أكن أعرف والدي مطلقاً، وأرهقني عندما

لاحظت، حال وصولنا إلى العاصمة، أنه معروف من قبل الجميع. رجل مشهور وشعبي ويعيش في منزل كبير يتناسب مع السيارة الكبيرة. وضعني في مدرسة داخلية تديرها راهبات من البيض، ممن لديهن فضول شديد لمعرفة مواطني بلادنا الجديدة، التي أرى فيها من البيض الآن بقدر ما فيها من السود على ما يبدو. هذا في المدن وحسب. كان والدي آنذاك غافلاً عن التناقض الكامن في إقامتي مع الراهبات، أو لعله ادعى ذلك. رغب بضمان تعلمي التحدث بالإنجليزية. تراه يردد باستمرار أن مستقبل بلادنا يتوقف على قدرة مواطنيها إتقان لغتين. بالنسبة لوالدتي كانت هذه نظرة خالية من أية وجاهة. في إحدى زياراتي النادرة للقرية بقصد رؤيتها، نطقتُ ذات مرة بضع كلمات معها بالإنجليزية، استشاطت غضباً وأخذت ترمي الأغراض - ليس بسبب وجود الكثير من الأغراض في الكوخ وينبغي التخلص منها - وتركل الأرض هنا وهناك في الكوخ. اعتقدت أنها سوف تضربني. كانت تحتسي بيرة تخمرها في المنزل وتعدها للبيع وتدخن سيجارة. رأيتها بعيدة كل البعد عن الأم التي تركتها! كانت مذهلة فعلاً. عيناها محمرتان وشعرها مجنون وجامح. رأيت خشونة في سلوكها وسوداوية في تقاسيم وجهها لم أعهدهما أبداً ولم أعتقد مطلقاً أن والدتي الوديعة يمكن أن تمتلك مثلهما. ولا حتى استوعبت حجم التغيرات التي يخلفها الغم على الشخصية. كانت مهملة الملابس ولا مبالية. أزال المطر أحد أركان الكوخ، وبهت لون الزرافات التي لطالما واظبت على إعادة رسمها باستمرار كل سنة في بداية موسم الجفاف، إلى درجة بدت معها وكأنها أشباح حيوانات، مجرد ظلال تطوف على جوانب الكوخ.

عدت مرة واحدة فقط بعد ذلك خلال حياتها. ذهبت إليها لكنني لم أنزل من السيارة. جاءت لمقابلتي وجلست على مقعد خشبي قرب باب السيارة. سلمتها بعض الأشياء التي أرسلها والدي. أحدها، حسبما أتذكر، كان كتاباً عن ثقافة سكان الكاميرون الأصليين؛ يحتوي على

الكثير من صور البيوت - التي شيدت من الطين وزينتها الألوان - وصور لملابس وآلات موسيقية. استرعى اهتمامها على الفور، وقلبت في عدة صفحات قبل أن تطرحه على الأرض بسأم. كانت هيئتها منتفخة وقذرة ومسرفة كهيئة بشر ليس لديهم من وسيلة لرؤية وجوههم. لا أظن أنه كان لديها مرآة حتى. لم أعد أعرف *هذه* المرأة.

توفيت بعد مرض طويل حين كنت أنا في السادسة عشرة. لعله السرطان. أو فشل قلبي. أو نتيجة الحسرة. لم يكن سبب موتها معروفاً بين أبناء القرية. مجرد أسباب. كانت متعبة ووحيدة جداً، كما قال القرويون. لم يكن لامرأة من أمثالها ما تفعله، إذ كان السلام قد حل آنذاك، وأصبحت البلاد تحت حكم الرجال السود. لا يقولون هذه العبارة بالسخرية التي قد تقولها والدتي.

أصبحنا أنا ووالدي آنذاك زملاء في جميع المناسبات؛ عهدنا هو الكفاح لتحسين وضع البلاد. راح يكتب مسرحيات فكاهية عن السلوك الملائم للعمال في أماكن العمل وعن أهمية رفع مستوى الإنتاج. كنت أرافقه إلى المصانع التي تؤدى فيها أعماله المسرحية. لأنه رجل مخلص وعمله سهل المنال - ومغفل جداً، في حينها - فقد أحبه العمال. حظي بشعبية كبيرة وسط موظفي الحكومة والعمال على حد سواء. وكنت آنذاك محبوبته الصغيرة. كنت شديدة الاعتزاز به!

لكنه بدأ يتغير حتى قبل وفاة أمي. أصبح يتأفف من عشق الناس له. ما عاد التقاها أبداً، عدا مرة أو مرتين بالصدفة ربما حين كانت الأعمال تحمله إلى القرية. عيَّن والدي مسؤولاً عن إقامة خط المياه الذي مد من النهر إلى القرية؛ أثنى سكان القرية، الذين كانوا على الدوام ينقلون الماء من النهر على رؤوسهم، عليه ثناء كبيراً على هذا العمل. مع ذلك، أعتقد يقيناً أن قوة حضورها قد ازدادت مع مرور الزمن في حياته بعد غيابها. لعلها شيمة الكتّاب بكل بساطة. يشعرون بأهميتكِ عندما لا يرونكِ. عندها تعنين لهم شيئاً بطريقة تتيح لهم امتلاكك امتلاكاً

كاملاً. تصبحين من صياغتهم. يتحكمون بك. تصبحين نسخة مبالغة عن نفسك عموماً.

بدأت نزينغا، المسترخية في جلستها إلى الوراء على المقعد وتمد ساقيها إلى الأمام، ترتعش، فأرجعت ساقيها وجلست عليهما. أخذت الغرفة تصبح باردة. طويت ساقَيَّ أنا أيضاً وغطَّيتهما بتنورتي الطويلة. مدت يدها إلى وشاح كبير من الصوف، له شرائط تنسجم معه ومزركش بألوان أرضية كان مسجى على مقعد من جذع خشبي بالقرب منها - مما تنتجه التعاونيات التي تديرها وزارة الثقافة ويباع للسياح في المتاجر - وفردته فوق ركبتيها. كانت القهوة قد جعلتني أتنشط، لكنني أشعر بالهدوء الشديد والتكاسل في ظل نبرة صوتها العذب الأليف. شعرت أحياناً وكأنني أحدث نفسي.

الكتّاب، قالت مستغرقة في التأمل. هل يسبب أحد سواهم هذا الكم من المتاعب على المدى البعيد؟ سأخبرك بماذا سيجيب والدي: الكتاب لا يسببون المتاعب بقدر ما يصفونها. حالما يصفونها، تقوم هذه المتاعب بكشف الحياة أمام الجميع، وإلى أن يتم وصفها وتتكشف، قلة قليلة فقط يمكنهم رؤيتها. مع ذلك، ثمة أمر بشأن الكتّاب... قالت نزينغا ضاحكة. كما اكتشف الروس، وهو أنهم ملتاثون وأصعب مراساً من أن يتم تدجينهم. أظنها لفيفة مميزة موجودة في أدمغتهم. يأتون إلى العالم حاملين استشرافاً معيناً ودافعاً لتقاسم هذا الاستشراف. هذه اللفيفة غائبة تماماً لدى بقية البشر؛ لست أدري السبب.

العمل المسرحي الذي ألفه والدي عن والدتي هو الذي بدد ثقة الحكومة به وفصل الحكومة عن الشعب. ربما لأن الشعب يشتمل على الرجال والنساء؛ أما الحكومة فهي من الرجال فقط. هذا لا يعني عدم نشوب خلاف بين أبناء الشعب حيال القضايا التي أثارتها المسرحية، سواء في المدن أو القرى. بل حدثت الكثير من الخلافات والجدالات والمشاجرات. مع أن العمل وجه انتقاداً لاذعاً لأساليب البعض،

لكنهم لم يعتبروه هجوماً عليهم، بوصفهم بشراً، بسبب إساءاتهم وسوء معاملتهم. عدا أنهم كانوا يعرفون أعمال والدي معرفة تؤهلهم لتبني وجهة النظر هذه. رأوا أنفسهم في عمل والدي المسرحي، لقد شاهدوا أنفسهم للمرة الأولى بشكل أو بآخر على حقيقتهم، بعيداً عن صدأ الثورة أو شعارات مناهضة الإمبريالية أو أي اعتبار لنظام توزيع حصص الإنتاج (الكوتا). ردة فعلهم كانت فعلياً نوبة هستيريا، وكأن شخصاً يعرفونه جيداً ويحبونه كثيراً صرخ في وجههم وصفعهم. الأشياء التي كشفت عنها دواخلهم آنذاك كانت مثيرة للاهتمام إلى أقصى حد. مثلاً، بدا أنهم لم يفكروا يوماً بالنساء أو باحتمال أن تكون المرأة كائناً بشرياً جديراً بالحياة. إنها اللسعة الأشد إيلاماً لصفعته. لقد جعلت رؤى والدي حول اضطهاد النساء، النساء السود من قبل الرجال السود، اللواتي لا بد فهمهن أكثر، بعد أن كان قد انتقد تجاهل الرجل الأبيض في تعاطيه مع السود لوقت طويل جداً. الكثير من أبناء الشعب يشعرون بالضيق، إلا أنهم في آخر المطاف تحرضوا على التغيير أيضاً. كانت أعمال والدي المسرحية دائماً ذات بعد وعظي إلى حد ما؛ لم يكن ليتردد لحظة واحدة في اقتسام كل المعرفة التي اكتسبها في حياته. شاهدَ الجمهورُ – كما رأى والدي نفسُه في النهاية أيضاً – كفاحَ والدتي حتى أصبحت جندية في جيشٍ يحارب ضد سيادة البيض والاستعمار، ثم معركتَها التي لا تقل صعوبة في الزواج والإنجاب، مع افتقارها لكل نماذج أساليب الحياة الجديدة والتي كانت هي نفسها تساهم في إنشائها، وبعد ذلك خيبتها الكاملة بحكومة الرجال الذين تسلموا مقاليد حكم البلاد بعد الانتصار. لم يرحم والدي نفسه في تصويره لإخفاقاته هو. كان لديه عشيقات سويديات اللواتي ترك إحداهن ومعها طفل، على سيارته ومنزله الفخم على الطراز الأوروبي. وقام بتصوير أصدقائه المقربين في السلطة واستغراقهم في احتساء البيرة ونساء وكرة قدم. صوّر خادمته الفتاة القروية الوديعة، التي تعامله كأنه الله واستحضرت في ذهن الجمهور زوجته المنبوذة. لقد آلمني بقسوة

المشهد الذي يصور طفلاً ينتزع من والدته المدمَّرة كلياً، والتي كانت قد حملت به أثناء حماس الثورة. كانت قدرته على كتابة هذا، إضافة إلى المشهد الذي يصور انهيار الأم وموتها، لغزاً بالنسبة لي. المفارقة أن سروره وتمرده الهادئ تصاعداً تدريجياً أثناء تأليفه لهذا العمل ومن ثم تأديته على المسرح بعدها، وغدا شخصاً مفعماً بالألق.

كان العمل مكرساً لوالدتي التي أفصح في النهاية للعلن أنها زوجته. شعرت للمرة الأولى بإمكانية تخيلهما معاً، في غرفة واحدة، يتناولان الطعام على الطاولة نفسها وينامان في ذات السرير. بدأت أدرك أنهما ربما كانا متحابان فعلاً.

حسناً. كان هذا أول عمل مسرحي لأبي تحظره الحكومة.

عندما سمع بالنبأ ضحك ملء أشداقه حتى اغرورقت عيناه بالدموع. كانت ردة فعله الدائمة على تعرضه للأذى هي الضحك وكأنه معتوه. بعدها حمل المسرحية إلى القرى وبدأ يعرضها لليلة واحدة في كل قرية إلى أن قبضت الحكومة عليه. حبسوه أسبوعاً في زنزانة وجردوه من المنزل. كانت هذه بداية النهاية. لكنها *بداية* على الأقل، حسب تعبيره.

عندما أنهت أختي هذه الحكاية كان الوقت متأخراً جدّاً، ولهذاً فقد ارتجلت لي سريراً على المقعد. وضعت وسادة مطرزة تحت رأسي وغطت لي ساقاي بوشاح من الصوف المتعدد الألوان. الأحلى من كل هذا، عندما همت بالمغادرة إلى غرفة نومها، انحنت فوقي وقبلتني على جبيني. كأن قبلتها قد سحرتني، غططت على الفور تقريباً في نوم عميق ومريح، لم يقطعه سوى عودة ميتودهي في وقت مبكر من الصباح. بعد أن توقف عن الحركة، استغرقت في النوم ثانية ولم أدرِ بعد ذلك إلا وقد أصبحت الساعة العاشرة صباحاً وكنت لوحدي في الشقة. الصبيان في المدرسة ونزينغا وميتودهي كانا قد ذهبا إلى أعمالهما.

* * *

ارتكب والدنا الكثير الكثير من الأخطاء الفادحة، نتيجة جهله بالدرجة الأولى، قالت نزينغا، إلا أنه في أعماق ذاته كان لا يعرف الخوف.

كانتا في ذلك اليوم تتنزهان على شاطئ بحيرة وانزا. تلوح من البعيد تلال واطئة لونها ضارب إلى الزرقة، وتتمايل في البحيرة متكاسلةً قواربُ الصيادين المتآكلة بفعل عوامل الطقس والريح تتلاعب بأشرعتها الملونة. كان نهاراً دافئاً ومنعشاً، والطيور الكبيرة تحوم فوق الرؤوس وصوت السكون ذاك كأنه همهمة.

تحدثت فاني في وقت سابق عن معنى أن يكبر الإنسان بلا أب، ودون أية إشارة حتى إلى وجوده. عن جدَّتَيها، الماما الكبيرة سيلي والماما شوغ؛ عن الألفة التي تستشعرها لأنها محبوبة من قبل امرأتين بمثل هذا العطاء العاطفي. ضحكتا من سرد فاني لطريقة تسميتها كما روتها لها والدتها. وكيف أسمتها الماما سيلي فاني، لأنه الاسم الذي كانت ترغب به لنفسها؛ كانت تشعر أنهم لو أسموها فاني لعاشت حياةً أكثر جرأة، حياة مليئة بالسفر والمغامرة. كانت تظن بأن إيقاع اسم فاني يعد مغامرة بحد ذاته[1]. أما فاني فاعتبرته اسماً يحتوي على الكثير من الفضائحية والتمرد. هذا التحويل لفانيها إلى شخص ما أو ارتعاش فانيها في وجه شخص ما، كان عملاً تتوق للقيام به دائماً، خاصة في طفولتها وشبابها، بسبب معاناتها من إساءات كل من حولها. لهذا فقد نطقت بـفاني! عندما ولدت فاني. وقالت أليفيا والدة فاني بأنها كانت في غاية الدهشة والخوف من أن تخرج عليها باسم غريب آخر تطلقه عليها، مثل لو أو جين، لدرجة أنها نسيت شعورها بالضعف جراء الولادة بعد أن صاحت باسم نزينغا! فردت عليها ماما سيليا وماما شوغ، بَصوت واحد، في *ماذا*[2] فأخبرتهما أوليفيا فيما بعد عن آن نزينغا زعيمة أنغولا التي حاربت البرتغاليين على مدى خمسين عاماً؛ امرأة رفضت

1- Fanny قد تأتي بمعنى لوطي أو فرج – المترجم

2- سمعاها إن زينغا in Zingha – المترجم.

لقب ملكة وطالبت رعيتها بمناداتها بالـ ملك؛ امرأة كانت على الدوام، شأنها شأن جان دارك، ترتدي ملابس الرجال وتسير في مقدمة قواتها خلال المعركة. في آن معا، امرأة ورجل، ملك وملكة، خبيرة استراتيجية ومقاتلة، ابنة وأم، وثنية وكاثوليكية، حاكمة رفيعة وأنثى ماكرة. من بين جميع الحكايات التي تصلهم حول إفريقيا، كما أخبرتها والدتها فيما بعد، كانت حكاية المحاربة نزينغا من أكثر الأخبار إثارة لسيلي، مع أنها لم تتعلم نطق اسمها بشكل صحيح أبداً. كانت تدعوها زينغا حين كانت تستعمله في حالات نادرة عندما توبخها فقط، الأمر الذي نادراً ما كانت تفعله وبألطف نبرة ممكنة. لطالما خاطبتها بـفاني. تقول لها فاني، حبيبتي، تعالي إلى ماما الكبيرة. أين كنت يا عفريته؟ أعطيني بعض السكر! وهذا قد يتبعه عناق وقبلة ماصة بصوت على الخد.

سمعت أن بعضاً من السود في الولايات المتحدة يتحدثون بهذا الأسلوب، قالت نزينغا. هل هذا صحيح حقّاً؟

أكدت لها فاني ذلك، وراحت تؤدي حواراً بصوت ماما سيلي.

لقد جعلتني أراها أمامي، قالت نزينغا ضاحكة. أسلوبها في التعبير عن الأمور فيه الكثير من التميز. كانت والدتي مثلها، عندما تتكلم، تشعرين أن سلامة نطقها للغة لا مثيل له في أي مكان. كانت قد فتحت زجاجة مبردة من خمر النخيل المصنّع محلياً، وأكدت لفاني أنه المسكر الوحيد في إفريقيا الذي تشعرين بحالة ممتازة بعد احتسائه، من دون أي احتمال لشعور الدوخة المقرفة.

ذهلت فاني لهذه المعلومات.

كان لدى والدي أفكار معينة بشأن موضوع التعليم، كما تعلمين، تابعت نزينغا، وهي تأخذ رشفة من خمرها وتتلمظ شفتيها بتقدير مخلص، ولم يستوعب أن تعليمك على يد أناس يحتقرونك هو أيضاً ضرب من ضروب الغزو. كان يفهم هذا بدرجة معينة فيما يتعلق بحياته هو، إنما عندما وصل الأمر إلي - حسناً، كما يقول، يتعين عليه دائماً الانتقال بين

البدائل، ويفتقر إلى التعليم بعد المرحلة الثانوية هنا في الأولينكا إلى الكثير. لقد لمست هذا بنفسي. *مع ذلك*. لن تعرفي مطلقاً معنى البؤس إلا حين تصبحين تلميذة إفريقية يقومون بإرسالها للدراسة في الغرب.

تخيلت فاني أختها، فتاة صغيرة وسوداء ووحيدة ومتجهة إلى ذاك المكان الخيالي. لعل أياً من الملابس التي حملتها معها لم تكن تدفئها كفاية. ازدردت جرعة كبيرة من خمر النخيل لتطرد هذا المشهد من مخيلتها.

أرسلوني إلى فرنسا، قالت نزينغا، إلى باريس، إلى السوربون. وهنا تبدلت ملامح وجهها. قد أكون المرأة الوحيدة في العالم التي تكره باريس! إنها مدينة باردة، من عدة نواح وليس من ناحية واحدة، قاطنوها سئمون جداً وبعيدون كل البعد عن العالم الروحي. لا يبدو وأن شيئاً بقادر على إثارة انفعالهم. وحدها المناسبات المصطنعة تثيرهم بحيوية - مسرحيات مجردة بائسة مفعمة بأفكار مفرطة في التجريدية، على سبيل المثال. الأزياء تثير حماسهم. لا شيء يجعلهم يبتسمون مهما كان. أتذكر أنني كنت أسير ذات يوم في الشانزيليزيه وأتفحص جميع الوجوه بحثاً عن ابتسامة في أحدها. عبثاً، بعد أن مررت بالمئات؛ وكان نهاراً دافئاً ورائعاً بشكل مثالي. لم أكن أحتمل الرمادية، حدة الطراز المعماري وغياب الأشجار البرية. لم أستطع تحمل رؤية ذوي ***الأقدام السوداء***[1] في المتاجر أو بقية الأفارقة المرتجفين الهزيلين يبيعون الحلي في الحدائق. أصبح لدي أصدقاء قلائل من أبناء قبيلة الدوغون. كان هناك مطعم صغير دوغاني بالقرب من شارع الثلاثة أبواب رو دي تروا بورتي ليس بعيداً عن نوتردام. اعتدت الذهاب إليه كلما استطعت. عثرت فيه على الابتسامات والدفء والكياسة والطعام الصالح للأكل الذي أتيت باريس متوقعة إيجاده. لأنني، صدقي أو لا تصدقي، لم أستسغ الطعام الفرنسي! والذي كان جميع أهل بلدي، خاصة أولئك

1- pieds noirs وردت بالفرنسية في الأصل - المترجم.

الذين لم يتذوقوه يوماً بل سمعوا عنه ممن عاش في فرنسا، يتحدثون عنه كما لو أنه طعام للآلهة. كرهت الصلصات الكثيفة وحتى تلك الخفيفة. لم يتحمل جسدي أي طعام يدخله الحليب أو القشطة. هذه ميزة إفريقية على كل حال؛ ومع ذلك لم أكن أعرف هذا. ما عرفته أن كل ما أتناوله يسبب لي الإعياء ويشعرني بلزوجة في أحشائي طيلة الوقت. وكنت! آخ! ناهيك عن الموقف الاستعلائي الذي يتخذه النذل عندما تطلبين الطعام. جلست في الكثير من المطاعم الباريسية غاضبة لدرجة أني كنت أبتلع اللقمة بصعوبة.

أعادت نزينغا ملء الكؤوس في هذه الأثناء، أخذت رشفة من كأسها وابتسمت لمذاقه الوطني.

كرهت كل شيء، قالت متجهمة، وقد خرجت من مزاجها الرائق. تعذر إرضائي بقدر ما يتعذر إرضاء طفلة ذات ثلاث سنوات. كرهت اللوفر! جميع الغنائم المنهوبة من الدول الأخرى معروضة فيه، هذه هي الغاية الحقيقية لوجود معظم المتاحف. في حين يسرق اللصوص من أجل أنفسهم أو منازلهم فقط، يسرق هؤلاء لمصلحة بلدانهم وقاراتهم وعرقهم. لم أستطع تحمل هذا. تهت في اللوفر. لم أتمكن من العثور على طريق الخروج، ولم يكن الحراس متعاونين شأنهم شأن أي باريسي آخر. في النهاية وجدت نافذة مفتوحة في الطابق الأعلى، وتسلقت خارجة منها إلى الحافة وكنت أهمّ بالقفز نحو الأسفل. لم أكن أطيق البقاء في الداخل ولو لثانية أخرى. إلا أن أحد السياح كان يتمشى في الممر، رَجلٌ أمريكي، فيما كنت واقفة ملتصقة على الجدار وأنظر إلى الأسفل، مد رأسه من النافذة بعدم اكتراث تام وقال، الحق معك، هذا المكان ينقصه الهواء النقي بالتأكيد. تنبعث منه رائحة كريهة، إضافة إلى جميع الأمور الأخرى! جميع تلك المخلوقات الميتة. جميع تلك الأرواح المجهضة التي لم تحلم يوماً أن ينتهي المطاف ببقاياها المادية في باريس وتحت الزجاج. كانت رائحة اللوفر شبيهة برائحة:

القبر. لهذا ضحكت. تابع قائلاً وهو يبحث عن سبيل لمشاركتي المكان، كيف خرجت إلى هناك؟ لم أكن قطعاً راغبة في مشاركته تلك الحافة أو القفز، ولذا قلت له، دعني أدخل أولاً. كان واحداً من أولئك الرجال طوال القامة ورشيقي السيقان الذين ترينهم في الأفلام الأمريكية التي تدور أحداثها في تكساس أو مونتانا. لكن تبين أنه من جورجيا، في الجنوب، التي لم أكن أعرف عنها شيئاً سوى ما فهمته من متابعتي لفيلم ذهب *مع الريح* في السينما. لكنها ليست جورجيا التي يعرفها هو. كان فقيراً أباً عن جد. يصعب على الأفارقة تصديق هذا، كما تعلمين – وجود بيض جنوبيين كانوا وما زالوا فقراء. عندما يخبروننا بهذا نحدجهم بنظرة غريبة، ونشرد في أفكارنا: *ماذا؟ فقراء؟* بعد كل هذا!

ضحكت فاني. شعرت بحالة رائعة جدّاً بفعل الخمر، ولم يحدث أن فكرت بالعبودية أبداً من هذا المنظور.

كانوا على الدوام، أقصد عائلته، أناساً *محترمين*، أرداني أن أعرف بهذا، قالت نزينغا، وقد بدأ كلامها يتداخل ويتلعثم إلى حد ما حاملاً تلك النبرة الجدلية التي تميز الأفارقة حين يشربون برفقة من يحبونه ولديهم حكاية لا تروقهم ويفترض بهم سردها. هذا هو معنى *الاحترام* لدى الملونين، بالنسبة ***لأبناء شعبك***. كان يدرس في جامعات باريس بعد حصوله على منحة دراسية. تقابلنا بعد ذلك مرات عدة. لقد راقني جيف حقّاً. شعرت بنوع من التعلق الذي يشعر به المرء تجاه طفل أو شخص يطوف حول العالم ضائعاً تماماً لكنه قادر على إيجاد الطريق بثقة، وبوسعه أن يكشفه للآخرين. كان ثمة الكثير مما لم يكن قادراً على استيعابه.

لدى مغادرته لمسقط رأسه في جورجيا، كانت البلدة قد تغيرت تغيراً تاماً – بالرغم من عدم تغير الملونين الذين كانوا جميعاً محترمين معهم! – ولم تعد تجلب له البهجة. ومنذ يوم وصوله غمرته سعادة كبيرة بكل شيء. كانت عفونة اللوفر أسوأ نحس له في زيارته. ما كان قادراً على فهم إسقاط إفريقيا من حالة التعذيب الطبقي تاريخياً، كأنه لم يكن يوماً

موجوداً؛ فإذا ما ألمح بروفيسور ما مثلاً بأمر عن بونت أو سيرين معرفاً عنها بوصفها أمماً إفريقية تبادلت التجارة مع العالم القديم، كان دائماً يشير إليها على أنها شعوب «خرافية» أو «غامضة»! بدا مستعصياً على البروفيسورات الاعتراف بأن سكان سيرين وليبيا القدماء، أو المصريين القدماء كانوا من السود. بدا من الصعوبة بمكان بالنسبة لهم على حد سواء أن يستوعبوا بأن صحراء صحارى لم تكن صحراء على الدوام، أو أن مصر بلد إفريقي. لست أدري من أين جاء الملك توت حسب اعتقادهم، بقده الأسود الضئيل! عندما يناقشون إفريقيا، يتحدثون عنها من باب مشاكلها و«تخلفها»، وليس من باب مساهماتها أبداً أو تعرضها للاضطهاد على مدى قرون على يد البيض، بمن فيهم الفرنسيون أولئك المعتدِّين والمعجبين بأنفسهم، الذين كانوا يحاولون تمرير فقرة المقاومة الجزائرية بأقبح الأساليب الممكنة نتيجة الخزي الذي يسببه ذكرها، لا بل ويعلموننا تاريخ إفريقيا خالياً من أية إشارة إلى الاستعمار الفرنسي.

شابَ صوت نزينغا غضب فاق كل ما سمعته فاني طوال الوقت الذي أمضته في الأولينكا. راحت تتساءل، ولم تكن المرة الأولى، عن غضب المرأة الإفريقية المحتقن والمكبوت والمخرسة لزمن طويل. فكرت في هذا الغضب خزاناً ضخماً للطاقة وتساءلت إن كانت النساء يعرفن بامتلاكه. قد يكون الغضب أيضاً شكلاً من أشكال الثروة، هكذا فكرت.

لا أزال أتذكر يوم طفح كيلي، تابعت نزينغا، وقد أصبحت تشرب الآن بطريقة سريعة مرعبة، وحاولت إعادة ملء كأس فاني حتى تجاريها. حدث ذلك في محاضرة تاريخ الفن، وكان البروفيسور يناقش الأسس *الإغريقية* للحضارة والفن الغربيَّين. عرض علينا شريحة فيلمية، على الجدار الأمامي للقاعة، تصور بيرسوس وهو يذبح ميدوزا. *حسناً*. هذه جزء من منحوتة على جدار في مكان ما - في ميلوس حسبما أظن - واقتطع النهابون الجزء الذي يعنيهم فقط من الجدار والذي بوسعهم حمله. ضحكت هي وفاني من تخيل هذا المشهد. حسناً، على أية حال،

كان بيرسوس في عربته ماداً يده التي تحمل رأس ميدوزا المقطوع إلى الخارج، نحتت جدائل شعرها الشبيهة بالأفاعي كي تبدو أفاعٍ حقيقية - رمز الخصوبة والحكمة من كل صوب وحدب من إفريقيا - لا بل فقد طافت اثنتان منها على طرفي فمها. رأسها مقلوب ووجهها يتلوى ألماً بشكل رهيب، كما قد يلتوي رأسك أيضاً إذا ما قام أحدهم بانتزاعه. كان باقي جسدها النسائي الكبير لا يزال جاثياً على ركبتيه، وكانت تبدو حتماً، إذا ما قرأتِ المنحوتة بطريقة مغايرة لقراءة الغربيين، كأنها ملاك. فهي ملاك. هي *أم* الملائكة المسيحيين. هي إيزيس والدة حورس، هي شقيقة وعشيقة أوزيريس، هي ربة مصر. الإلهة التي كانت معروفة - قبل أن تغدو إيزيس بزمن طويل، في طول إفريقيا وعرضها - بالأم العظيمة، خالقة الجميع وحامية الجميع وحافظة الأرض. الإلهة بكل بساطة.

كنت أعرف كل ذلك في حينها - انفجرت نزينغا بضحكة جامحة تماماً من المفارقة في الفكرة - من الراهبات في الوطن. وبدأت أعي، خلال دراستي في السوروبون، السبب الكامن وراء السماح لأولئك الراهبات بالبقاء في بلادي، في حين يتم حضّ الكثير من البيض على الرحيل. راحت نزينغا تكشر وتلوي قسمات وجهها بشكل عنيف وهي تمثل إيمائيا محاولة إبعاد موضوع معند، ثقيل وكبير. أعجبت فاني بالمشهد الذهني الذي كانت تبتدعه عن اضطهاد البيض، وضحكت كلتاهما إلى أن طفرت الدموع من عيونهما.

استهزأت هؤلاء الراهبات، تابعت نزينغا، وهي تستعيد اتزانها بقدر ما يمكن لشخص ثمل إلى حد ما أن يستعيد اتزانه، بعد معرفتهن لسلام وعزلة إفريقيا ووجودهن بعيدات جدّاً عن تلقين تعاليم الكنائس في أوروبا، من جميع النظريات التي تعلمنها، المعوقة للروح والمناهضة للأنثى والمؤمنة بسيادة البيض.

ألم تتساءلوا يوماً من أين تأتي الملائكة؟ توجهت إحدى الراهبات - الأخت فيليستي، وكانت الأثيرة إلى قلبي - بالسؤال إلى تلاميذ صفنا

بطريقة لطيفة. حسناً، عندما تدرسين الفن والحياة المصريَّين ستعرفين من أين يأتون. من آلهة إفريقيا وإلاهاتها.

أوه، *هكذا!* إذن! لم تملك فاني منع نفسها من إطلاق هذه الآهة، يغمرها السرور.

الملائكة الأفارقة، بالطبع! هذا بالضبط ما تفتقده حياة جميع سكان المعمورة، أليس كذلك؟ قالت نزينغا، ويدها على وركها وعيناها السوداوان متقدتان.

تخيلتهم في الحال، تابعت قائلة، والدتي كانت من بينهم، ليس في آخر أيامها، وإنما حين كنا نتقاسم الحصيرة نفسها. بوجهها الحنون وأنفاسها الطيبة وصوتها العذب الهادئ. قدرتها على الاتصال النفسي بأحداث وأشخاص بعيدين عنها مئات الأميال. كنت أعلم بأن نوتردام قد شيدت في موقع ضريح إيزيس وأصبحت تدعى فيما بعد مادونا السوداء، هرعت إليها حال وصولي إلى باريس، لأن معلماتي الراهبات أشرن عليَّ بوجوب زيارتها. بالطبع لم يعد من أثر لإيزيس في الموقع، ولا في أي موقع آخر من باريس؛ ولا حتى في أرواح سكانها الحاليين بلا شك. لكنني وقفت في نوتردام على الأقل، حيث وقف أيضاً عبدتها القدماء وما قبل القدماء على الأرجح، الفارق أنهم كانوا يقفون تحت الأشجار وأقدامهم تطأ أرضاً عارية، والشعور الذي افتقدته هو التواصل المباشر مع الكون. لا فرق بين نوتردام واللوفر بالنسبة لي. فقد شيدت لذات الغرض. مع فرق أنها أقيمت بغرض السطو على البقايا الروحية للإلهة، وأقيم اللوفر بغرض السطو على البقايا المادية للثقافات المدمرة.

من باب الطاعة، أرسلت للراهبات بطاقة بريدية تحمل صورة هذا الصرح المكفهر، فكتبوا لي رداً يذكرنني فيه بأن الإلهة ليست حبيسة نصب تذكارية بناها الرجال ليسكنوها فيها، وقد شيدوها من أجل أنفسهم بالحقيقة. إنها – روح أمومة، روح خلق وروح تنعم على كل شيء وتصونه – تعيش في داخلنا، لا تقيدها أضرحة ولا عصور.

لكن، قالت نزينغا، دعينا نعود إلى البروفيسور. تحكي القصة التي كان يرويها عن قباحة وجه الإلهة الإفريقية، وشعرها المضفور في جدائل - كالأفاعي، ومقزز، أليس كذلك؟ - وميلها أن تحيل الرجال إلى حجارة. وهكذا قَبِل ذاك الرجل الأبيض المقدام، بيرسيوس الإغريقي، التحدي وذبحها، كما قد يذبح أي «تنين» آخر، إذ يبدو أن الدعوة الوحيدة التي يلبيها الرجل الأبيض من أي كائن قوي هي الحضور لقتله على الفور. وهكذا فقد فصل لها رأسها، ويصف في جميع رواياته قماءة وجهها والتواء شعرها كالأفاعي، ويقول إنه لا يرتجى منها أي شيء.

علت وجه نزينغا مسحة من حزن دفين. من ناحية أخرى، قالت بصوت مبحوح، إن كنت إفريقية فسوف تعرفين أن جناحا ميدوزا هما جناحا مصر، وأن رأس ميدوزا كأنه رأس إفريقيا؛ وما تدركينه لدى رؤيتك لها هو تخليد ذكرى، من قبل العالم الغربي، مرحلة ما قبل التاريخ تلك عندما جز عالم الذكر الأبيض في اليونان رأس تقاليد وثقافة إفريقيا عن الإلهة/ الأم الأنثى السوداء وأبادها. توقفت للحظة، حيث شردنا في الأفكار، في الواقع، قالت متفكرة كان شعر أقدم «أثينا» معروفة شبيهاً بالأفاعي، على الرغم من أنها يونانية. ولم يمنحوها إلا في مرحلة لاحقة من التاريخ تلك الخصلات الشقراء المسترسلة التي لا يزال حتى اليونانيين ذوي الشعر الأسود في وقتنا الحاضر يدّعون امتلاكه. أخذت نزينغا آخر بلعة من كأس خمرتها في يدها ورفعت كتفيها استهجاناً، وبدت لبرهة فرنسية خالصة. شكل لي تحدياً تقريباً، قالت، الانتقال إلى محاضرة الأدب الغربي لأسمع فيها أن أثينا الإلهة قد خلقت لتصبح خادمة إمّعة للنظام الذكوري الذي خلقها. وأن أَحد أول قوانينها، بحسب *الأوريستيا*، هو إنكار وجود أي رابط بين الأم وولدها، بخلاف العلاقة بين الرسالة ومظروفها. وفقاً لها، أثناء محاكمة أوريستيس على جريمة قتله لوالدته، الأم مجرد حاملة للبذور ويعتبر الطفل ثمرة والده بالكامل. لم يكن لها هي نفسها والدة، كما

تصرح، ولم تكن بحاجة لها البتة، إذ انبثقت في كامل بهائها من جبين والدها، الإله زيوس!

طوت نزينغا نفسها واعتدلت ثم لفت ذراعيها بإحكام حول ساقيها. بدت للحظة شبيهة شبهاً كبيراً بآولا. لم تكن فاني تعتقد أن أيّاً منهما قد بلغت دوار السكر بعد، وإذا ما كان من نشوة ناجمة عن الخمر فلم تدم طويلاً. دفعتها رواية نزينغا إلى التفكير بجامعات الولايات المتحدة، وبكل تلك الأكاذيب التي سمعتها في الأكاديمية واضطرتها لمزاولة التدليك.

«إذن ما كنت أحاول نقاشه»، قالت نزينغا بضجر، وقد زاد الشبه قليلاً بينها وبين آولا، «هناك في السوربون، أحد معاقل الحضارة الغربية المتقدمة: السبب في انبثاق أثينا «بكامل بهائها» من عقل زيوس هو أنها فكرة، قدمها الرجال الإغريق إلى إلههم؛ وتسببت تلك «الفكرة» بتحطيم الإلهة الإفريقية إيزيس وانسلاخها ومن ثم تحولها إلى الإلهة الإغريقية أثينا. بما أن إيزيس مجهولة ولم يدرسها أحد، بات من المستحيل الربط بينها وبين أثينا. لا بد وأنني كنت أبدو ببساطة مثل معربدة إفريقية أخرى».

غادرت فرنسا تلك الليلة. رفضتُ تلقيني بأن إفريقيا السوداء - إفريقيا الزنجية كما يلقبونها - منفصلة عن إفريقيا الملونة، أقصد مصر، أو بأن الحضارة التي أرسيت على أنقاض المرأة السوداء بوصفها إلهة في عالمها هي أكثر رفعة من حضارة وطني، مهما بلغ تخلفه أو إفقاره.

وكنتِ على حق، قالت فاني بنبرة قاطعة، وهي تقبلها على وجنتيها.

أصيب الوالد بخيبة أمل كبيرة، قال نزينغا بندم، وهي تضع أصابعها على موضع قبلات فاني. كانت لديه أحلامٌ كبيرة بشأني! لن أتعلم الفرنسية والإنجليزية وحسب، لا بل والألمانية أيضاً. ثار غضبه بشدة عندما أدرك أنني لن أعود أبداً. تعلمت تثقيف نفسي بطريقة أنا على يقين بأنها ولا بد قد اتبعت في أيام القدماء. كلما قابلت شخصاً بدا وأنه يعرف الكثير عن موضوع معين، ويبرهن، علاوة على هذا، على سعادة معينة بمعرفته أو معرفتها هذه، وإذا ما كان هذا الموضوع يثير اهتمامي، طلبت

منه إطْلاعي على ما يعرفه. قلت لوالدي ذات يوم: «أرني كيف تؤلف المسرحيات. اصطحبني معك إذ أستطيع تعلم تمثيلها على الخشبة. أخبرني بما يتعين علي دراسته كي أساهم في تطوير ثقافتنا». دعوت القرويين قائلة: «أخبروني عن الحرب، أخبروني عن الأيام الخوالي؛ أروني كيف تصنعون مشغولاتكم؛ اسردوا لي الحكايات حتى لا تنسى». أمر واحد أعرفه، قالت نزينغا بلهجة قاطعة. التعلم من العجائز يبعدنا عن التشاؤم. شقاؤك على الدوام أقل شقاء من أيامهم. تنظرين إليهم، وهم في غاية الجمال والحكمة، فتعجزين عن مقاومة محاولة محاكاتهم. هذه شجاعة تنتقل بالتناضح، حسب ظني. لاذت بالصمت لبضع دقائق، وهي تحدق في البحيرة التي اكتست بلون كستنائي بفعل خيوط الأشعة الحمراء الحادة لغروب الشمس.

أنت تمدينني بالشجاعة، يا نزينغا، قالت فاني، بعد قليل.

تنهدت نزينغا، نظرت بنظرة خالية من أي شكل من أشكال الضغينة تجاه أختها المفقودة منذ زمن بعيد والتي كانت فاني قد لمحتها في عينيها أكثر من مرة، وابتسمت.

عمل آولا المسرحي الذي يروي سيرة والدتك هو الذي أعاده، قالت. لقد تذكَّر قيمة ما تعلمه على يد المبشرين، لكنه تذكر أيضاً كيف أن التعلم على يدهم وليس من أبناء شعبه هو ما جعله يشعر بالدونية. أصبح عدوانياً أحمقَ جراء هذا، مع الإناث تحديداً، مع الذين يمارس سلطته عليهم بسبب حجمه وبوصفه رجلاً. حين باشرت العمل معه، في الفترة الأولى كمتدربة على تأليف المسرحيات ومن ثم كمساعدة له في وزارة الثقافة، أخذت بمناداته، شأني شأن الجميع، بـآولا.

جمعت نزينغا بقايا الطعام وعدداً لا يحصى من زجاجات الخمر الفارغة وأعادتها إلى سلة النزهات. نهضت فاني عن حصيرتها وأخذت تطويها.

إيزيس وأثينا. مصر واليونان. هناك على ضفاف بحيرة وانزا الشاسعة كان من السهل التفكير بهم، يتلألؤون فوق الأفق تماماً، مصر نفسها

موضع للملائكة بشكل أو بآخر، لم تهلل مطلقاً لأولئك الباحثين عن الاطمئنان على جمالهم وجدارتهم وطيبتهم. عن مكانهم في التاريخ. ومع ذلك، كما قالت فاني لنزينغا، فيما كانت كل منهما تنفض تنورة الأخرى، لا علاقة للوقائع التي تشعر المرء بعلاقته الوطيدة مع المصريين السود والمتمازجي العرق بحكامهم، ولا حتى بآلهتهم أو بدينهم، بل بفنَّانيهم. قبل كل شيء، الفن هو الأسمى، غمغمت قائلة، ومما لا شك فيه أن موسيقاهم كانت عذبة أيضاً.

لم تشعر بالقلق حيال الطلاء الأبيض. ارتدت ثياباً بيضاء وغير رسمية بسيطة من ملابسها واستقلت السيارة برفقة نزينغا وميتودهي نحو قرية والدها. أخذتهم نساء القرية بالأحضان لدى وصولهم، وفي غضون دقائق تلطخ وجه ويدا وساقا فاني بالحوّار الأبيض.

في الولايات المتحدة، قالت لنزينغا، اعتادت جدتي تبيض الموقد بهذه المادة.

بدت الحيرة على نزينغا، واستطاعت فاني أن ترى بأنها لم تقوَ على تخيل هكذا أمر.

لا يهم، قالت.

استغرق التأبين وقتاً طويلاً بالترانيم والغناء كما استغرق ذلك الذي جرى في العاصمة بكلمات المتحدثين. فضلت فاني هذا التأبين أكثر من الجلوس بلا حراك وقتاً طويلاً فيما كان موظفو الحكومة المداهنون يصعدون المنبر تباعاً، يمدحون آولا على عمله الثوري المقدام. أحست بأن معظمهم يشعر بالارتياح لأنه كان لبقاً بموته إثر نوبة قلبية أثناء وجوده في المنزل - في غمرة استهزائه المناهض تماماً للحكومة وكان لفاني علم مسبق بالوضع - وليس نازفاً على أرضية أحد سجونهم.

إنني على يقين، همست لنزينغا، أن ليس هناك من حكومة واحدة على وجه الأرض تروقني أو أثق بها. إنها جميعاً، على حد علمي، عبارة عن بنى غير طبيعية ونوادٍ خاصة لمن يؤمنون بسيادة الذكر.

تثاءبت نزينغا. أجل، قالت، دون أن تقوم بأي مسعى لمواراة نفاد صبرها، وبلغنا من السأم حالياً درجة لا نتمنى معها الانضمام لها بأي شكل من الأشكال.

***

أثناء ابتراد عصيدة البامية، قام السيد هول بترتيب المائدة بأغطية كتانية جميلة، ووضع فوقها الكريستال والسكاكين والملاعق والشوك التي تخص كلها العم رافي، والتي لم يكن سويلو قد رآها قط. تحتها كلها وضع مفرش للطاولة سميكاً وناصعاً كبياض الثلج؛ وفوقه قطعة قديمة مربعة بلون الكريم من مخرمات مشغولة يدوياً إضافة إلى مناديل ذات أطراف مخرمة حتى تنسجم معه. بعدها رتبت أطقم مرصعة بالعاج الصيني الشبيهة بالمرمر والتي تصدر رنينا كلما ارتطمت بها ملعقة. أخذ سويلو ينقر مرة بعد أخرى على كوب الشاي بالملعقة، مفتوناً وعلى محياه تعابير طفل مبتهج. توزعت على الطاولة أيضاً أقداح الكريستال كلٌّ في مكانها. كانت الفضة تتلألأ بوفرة في كل مكان عاكسة لهيب الشموع في شمعدان فضي كبير وضعته الآنسة ليزي بأناقة رشيقة على الطاولة من قبل.

جلس سويلو على كرسي يفترض أنه موقع العم رافي في مثل هكذا مناسبة، على رأس الطاولة. وجلس على جانبيه كلٌّ من الآنسة ليزي والسيد هول. رفعوا أقداح الشاي المثلج والليمونادا وفاءً لروح العم رافي، لقد اجتمعوا في تقدير حقيقي ولباقة لا تكَلُّفَ فيهما. كان رافي نفسه مغرماً بالبامية التي خصتهم بها الآنسة ليزي.

البامية، التي أكد السيد هول أن مذاقها سيصبح أطيب في الغد، وما بعد غد وما بعده و... كانت لذيذة جدّاً لدرجة أن سويلو لم يصدق أنها المرة الأولى التي يتناول فيها هذه الوجبة. لها تلك النكهة التي تجعلك تشعر وكأنك تتذوق كل ما في الحياة؛ فيها نكهة جنسية إلى حد ما.

أعجبته لزوجتها الزلقة ووفرة توابلها. لم يعد ممكنا تمييز نكهة واحدة من النكهات التي ذابت وامتزجت أثناء إعدادها.

بعد ساعة من الوقت جلس الأصدقاء في غرفة المعيشة يحاولون قراءة مقاطع متفرقة من الصحيفة، بعد أن غسلوا الصحون وكانوا لا يزالون يطلقون عبارات الاستحسان حيال البامية، وأن ما أكسبها تميزها هو أنهم هم الثلاثة قد ساهموا سوية في إعدادها. قرؤوا تقارير معتادة عن جرائم وحالات الاغتصاب والتعذيب، حروب وأطفال مهجورين، شقق مدمرة وسيارات جديدة. كانت الآنسة ليزي أول من رمى بالصفحة التي بين يديها أرضاً.

لست مستعدة اليوم لأي من هذا الجنون، قالت. وأعاني من عسر هضم لمجرد التفكير فيه.

أنت على حق، قال السيد هول، وهو يطوي الصفحة بأناقة ثم يضعها بجانبه على الأريكة.

أفضل مواصلة الاستماع إلى حكايتك وحكاية فاني.

أجل، قال السيد هول، إذا ما كانوا سوف ينسفوننا، أو يجمدوننا حتى الموت ويجوعونا في الظلام، فلا بد لنا من الاعتياد على إمتاع أنفسنا بالاستماع إلى حكاية مفرحة.

وجد سويلو نفسه في مقعد مجاور لجهاز التلفزيون. في حركة أدرك الآن أنها طقوسية، لف كرسيه لفة خفيفة وجذب زوايا الشال الأزرق الذي لم يكن فعلياً بحاجة لتسوية. استوى في جلسته وانطلق.

اعتقد سويلو سابقاً بأنه إذا ما جلس يوماً في الموقف الصعب بجوار التلفزيون، فلن يفلح في سرد حياته كما يفعل السيد هول والآنسة ليزي عن حياتهما. تبدو حياته معاصرة جداً، وراهنة جدّاً – من يدري كيف ستنتهي حكايته وفاني؟ – وشخصية... جدّاً. شعر بشيء من خجل عانى منه وهو صغير حين يطلب منه الكبار التعريف عن نفسه، وشعر

بانكشاف لم يعهده أثناء مساهمته في إعداد العشاء في المطبخ. راح يوجه كلامه إليهما بطريقة غير مباشرة نوعاً ما. كانوا جميعاً منغمسين بالمهمة المنكبين عليها. بدا وكأنه يوجه معظم حديثه إلى السلطعونات التي تولَّى مهمّة تنظيفها، ولم يكن السيد هول والآنسة ليزي يسمعانه إلا عرضاً. تنحنح ومسَّد بأصابعه الطويلة أعلى وأسفل فخذه المغطى بسروال قصير. بدت عيناه، وقد غادرتهما نظرتهما غير التأملية، صادقتان ومفعمتان بالإحساس.

كانت خيمة اليورت التي أعارها لنا أصدقاؤنا أنا وفاني، قال بصوت واضح وثابت، والأكرات الخمسة، كلها تقع في أعلى تلة مشرفة على وادٍ من مراعي الخراف وحقول العنب. مدخلها مواجه للشرق، لذا فقد كنا نستيقظ مع شروق الشمس. مع أننا في فرجة صغيرة من الأرض، إلا أن الأحرج كانت تحيط بنا من جميع الأنحاء، وكنا نتقاسم الأرض مع الغزلان والسناجب والأرانب والراكون وطيور من كافة الأصناف. صقور هائلة في السماء تلعب - باحثة عن طعامها حقيقة، لكنها تحوم فتبدو كأنها تلعب - ضد مسار الرياح، إضافة إلى النسور الأعظم رشاقة، بانفراجات أجنحتها الهائلة، والبوم - التي تشبهني على حد قول فاني على الدوام، ولهذا فربما يكون طَوْطَمِي هو البومة - كنا نرى النوارس من حين لآخر، إذ لم نكن بعيدين عن البحر كثيراً. إذا ما ذهبتما يوماً نحو الغرب، وكلي آمل أن تفعلا، سيكون من بالغ سعادتي أن أطلعكما على ذلك المكان. إنه بحق مكان مميز. لسنا أول من اعتقد بهذا؛ كنا نعثر على قطع صغيرة منحوتة من حجر الصوان وعلى كسرة فخار من حين لآخر.

كانت فاني تظن بين الفينة والأخرى أنها رأت هنوداً. المرة الوحيدة التي رأيت أحداً منهم أبداً كانت عندما جرينا نحوهم جميعا لنتفرج عليهم وهم ينصبون خيامهم في متنزه الولاية. إلا أن هؤلاء ليسوا هم الذين رأتهم فاني. على الأقل ليس في أعلى التلال حيث كنا نعيش.

هناك بمحاذاة التيار، في مكان ليس بالبعيد، قالت لي مرة حين نزلنا إلى النهر لنسبح وقد أخذت تنقب في الغابات خلفنا بغية العثور على منهل الماء الصغير الذي يغذي النهر. ما الذي بالضبط تظنين بأنك رأيته؟ سألتها. اتخذت لحظتها تلك الهيئة المنتشية، المتصلبة إلى حد ما إنّما المرحة التي كانت لها غالباً جدّاً، دون أي مبرر كما بدا لي. أو دون أي مبرر استطعت تلقفه، ينبغي أن أقول. أشارت بيدها إلى مجرى النهر. هناك على الضفة تماماً، كان ثمة صبيان هنديان من البومو، يرفعان الرماح لاصطياد السلمون. فصل غير ملائم، قلت لها بحذلقة. كان صيفاً والجو شديد الحرارة وفقد النهر الكثير من مياهه؛ لم يعد مناسباً للسلمون، الذي هو نوع كبير من الأسماك ويحتاج لمياه عميقة. لم تُلقِ بالاً لردة فعلي. كانت معتادة عليها. حين أستعمل هذه اللهجة، كانت تكف عموماً عن مواصلة السرد مهما كانت التجربة التي عرفتها. إنما ليس في هذه المرة. راحت تصفهما: بشرتهما سمراء وشعرهما طويل أسود ووجهاهما شديداً الاستدارة «كالقمر»، حسب وصفها. جلد الأسد. «*جلد الأسد*؟»، مازحتها. أومأت برأسها. «رابضان كغزالين»، أقرت قائلة، «ومن الصعب رؤيتهما».

لم أفهمها أو أشاركها تحليقات خيالها، لكنني عندما لم أكن أشعر بالامتعاض من استحواذها على هذه الهبة المريبة أي - ماذا عساي أسميها؟ - «البصيرة الثانية» أو «الدوختين»، أيّاً يكن اسمها، فقد كنت أستمتع بهذه التجربة من خلالها. إحدى الصفات التي سحرتني في فاني. وفي فصل الصيف، حين أتخفف من أعباء التدريس ويغدو بمقدورنا «التواري» عن أنظار العالم، كما يروقها القول، كانت حكاياتها جزءاً حاسماً في تسليتنا. بحق كان ذلك - أقصد «التواري» - هو أسعد أوقاتها؛ «حين تشعر بعدم وجودها بالنسبة لأي كان عدا لنفسها وحتى أمام نفسها لم تكن موجودة أحياناً. لم أعرف أحداً قط أشد سعادة من فاني بفكرة الزوال والاختفاء في ظل الفطر». ضحك سويلو من صورة

فاني هذه، والتي استحضرها بشكل مثالي. تجلس هناك تحت الفطر البني الصغير، سعيدة كالضفدع، وبانتمائها لنفسها.

أراها تتلقف المعلومات بأساليب لم أستوعبها أبداً. سوف تأبى القراءة بطريقة ممنهجة؛ المعلومات التي تصبو إليها تصلها بمنتهى البساطة. قد تزور صديقاً، أو شخصاً بالكاد تعرفه مثلاً، وتقوم بإسقاط إحدى المزهريات. ينساح الماء فوق كومة من الكتب على الأرض. فتقوم فاني بتجفيف جميع الكتب بمنتهى الحرص، بيديها وهي جاثية على ركبتيها، وهي تسرف بالاعتذار طوال الوقت. بعدها سوف تتجلى لها المعلومات بشكل غامض، أو مهما يكن ما تبحث عنه، في أكثر الصفحات تبلُّلاً من أحد الكتب. قد تجفف هذه الصفحة أمام النار وسيظهر لها ما تودّ معرفته بالضبط. تتوقف عيناها على الصفحة لدقيقة واحدة وحسب، تتشرب المعلومات ثم تمضي في طريقها. لقد شهدت حدوث هذا مئات المرات؛ وكان مثيراً للجنون بحق أحياناً. بالمقارنة معي، كان عليَّ العمل بجهدٍ مُضْنٍ للغاية لبلوغ كل ما أريد تعلمه، أمضي أسابيعَ، أو أشهراً حتى، رهين مكتبةٍ عفنة تعجُّ بمجلَّدات متحلِّلة تتكدَّس فوق رأسي تماماً.

أو أمنيات! يمكن لفاني أن تتمنى أي شيء تقريباً - طعام، ملابس، تجربة معينة، تذكرة إلى أي مكان، مكالمة من صديق، أي شيء؛ المزيد من القنادس في النهر، مشاهدة ذكر وعل بقرنين هائلين - عندما يبدأ فصل الغزلان في شهر أيلول، تتم مطاردة ذكور الوعول بشكل دوري وذبحها، مع ذلك لم تر فاني أياً منها بقرون كبيرة، عدا اثنين! - حتى أن قرونهما أطول منها. في الواقع زاد طولها بمقدار بوصة بعد حضورها دروس فنون القتال مرتين أسبوعياً... ومهما يكن ما تتمناه فسوف يحدث. أمنيتها هي التي جعلتنا نمتلك خيمة اليورت، خيمة مصنوعة يدوياً وأصلية قامت بتصنيعها ساحرة ألمانية معاصرة من أمستردام، والله يعلم كيف وصلت إلينا، الخيمة التي لم أكن يقيناً يوماً لأحلم بالعيش

فيها. في النهاية، الخيم الوحيدة التي كنت أعرفها هي تلك الموجودة في صور ملتقطة في منغوليا البعيدة التي رأيتها في مجلة ***ناشيونال جيوغرافيك*** والتي صنعت من جلود ثور التيبت. أما خيمتنا فهي مختلفة، كانت مستديرة إلى حد ما، أجل، وقد صنعت من الخشب. تحتوي على موقد صغير مع فتحة «شيمينيه» تخرج من جانبها، وقبة صنعت من ألواح خشبية رقيقة متراكبة. فيها نوافذ من جميع الجهات. لقد سافرت إلى مكان ما ونامت في إحداها ذات مرة وظلت بعدها على مدى أشهر تحلم بإحداها. أعجبتها. يتعين علينا امتلاك خيمة، قالت لي. لم يمض أسبوع إلا واتصل بنا أصدقاؤنا وقدموا لنا هذا العرض. كانوا قد شيدوا منزلاً معاصراً، ذا شكل مربع تقليدي، وكانت فاني تعتبر هذا النمط من المنازل قبيحاً لدرجة لا توصف وخالٍ من الروح، وكانوا على وشك التخلص من الخيمة بتخريبها. دخلنا إليها. احتوت على حجرة بالكاد تكفي لإيواء قطة، كما قالوا، لكنها كانت تناسبنا طالما نقضي الصيف فقط هناك ونمضي معظم أوقاتنا خارج المنزل. في الليل كانت تعتبر حجماً مثالياً لعناق حميمي على حصيرة الفوتون رافعين أنظارنا إلى النجوم.

عند هذه المرحلة من روايته للحكاية توقف سويلو فجأة عن الكلام، نهض عن كرسيه، وصعد الدرج. ثم عاد حاملاً ألبوم صور صغير، مرره لصديقيه وراحا يتصفحانه بهدوء. شاهدا صوراً لسويلو، يبدو فيها كأنه في قبر، جالساً على الأرض ومن الواضح أنه يعد خضروات برية لأكلها؛ داخل مسكنٍ ذي مظهر مضحك ذكَّرهما بالمنازل الصغيرة الكروية كما في حكايا الجَدَّات للأطفال؛ وبرفقته امرأةٌ مسمرّة من الشمس، متناسقة الملامح، وفي عينيها نظرة تشي بترقُّبٍ حادٍّ جداً للأمور الحسنة. ذلك النوع من الوجوه الذي يأمل أن ينكشف كل ما في الطبيعة أمامه، دون أية مقاومة. وجه لا يقول أجل لمرة واحدة فقط بل مراراً. ملامحها شبيهة بتلك التي تظهر على وجوه الناس بعد تلقيهم لقبلة مشبعة كما الأطفال الصغار جداً والأولاد الصغار. مع أن يديها كانتا على جانبيها في

الصور، ينتاب المرء إحساسٌ بأنهما ترتفعان وتنفرجان، تعرضان عناقاً أو تبادلانه.

هل يمكنكما أن تصدقا بأن وجهاً كهذا يمكن أن يكون متشائماً أو مقهوراً؟، سأل سويلو، مقهقهاً. لم يكن هو نفسه ليصدّق هذا في أغلب الأحيان، مع أنه شاهده مراراً وتكراراً.

أرغب بحديقة، قالت فاني. لكن ما من قطرة مياه واحدة تهطل على الأرض من أيار حتى تشرين الأول. ظهر الماء، الذي لم نكن قد جررناه من المتنزه بعد، من العدم في خرطوم بلاستيك أسود طويل قمنا بوصله إلى بئر عاونتنا في مده امرأتان تقطنان على الجرف فوقنا، وتملكان حقلاً من الكرمة.

شعرت أحياناً أنني أنجرّ وراءها في تجارب متسارعة تبدو خيالية على نحو خطر. بدأت أؤمن بأن كل ما تتمناه فاني مهما يكن سوف يتحقق، وأن ما تعارضه حتى عن بعد سوف يفشل. أثار هذا بطريقة ما خشيتي من أية مجابهة غضب معها. تعرفان التعبير القائل مصعوقاً بنظرة؟ أظن أن فاني قادرة على أن تصعقني بنظرة. لحسن الحظ، لم يكن لديها أدنى اهتمام بالصعق. أبداً، وكان أسلوبها هو التجاهل والانسحاب. فجأة تصبح بكل بساطة غير مستعدة للتفاعل مع أي جهل تستشعره. يكون نأيها واضحاً لدى عودتها، يخرج منها شعورٌ معيَّن قائلاً حسناً، في النهاية نحن مختلفان. لي طريقي، ومن الواضح أن لك طريقك أنت أيضاً. سوف نتعايش. إن كنت أستطيع مشاركة المكان مع الوشق وذكور الوعل والقنادس والأفاعي، فبالتأكيد أنا قادرة على العيش معك. يمرُّ أسبوع على هذه الحالة. نتحدث بعدها. قد نضحك. وقد نقرر بأن سلوكي السيِّئ وعنادها اعترضا سبيل احتفالنا بالإشراق الوشيك للقمر المكتمل. ما كنا قادرين على الاحتفال! وسارت حياتنا قدماً.

أشعر أنني على وشك الضحك حين أتذكر ما رويته لكما سابقا: من

أن فاني لم تكن تعرف عن لهوي هنا وهناك لأنها رائدة فضاء. ليس لأنها رائدة فضاء، بل لأنها تثق بي. ثقتها بي، أي أنها ببساطة لم تنصت للكثير من الإشارات التي تصلها وفقا لأسلوبها في التقاط الإشارات. علاوة على جميع الإشارات الأخرى التي كانت تلتقطها من كل حدب وصوب تحاول ربطها ببعضها. ما كان يعني هذا، مثلا، يسير عصفور ذات يوم ببطء إلى الخلف ثم يحط بتؤدة من على شجرة سنديان مزروعة في الفرجة التي نقطنها، يسير متقافزاً نحو فاني، ينظر إليها نحو الأعلى ثم يتسلقها ويجلس على رأسها؟ يذكرها هذا بالملكة نوت. ***بالطبع يذكرها!*** وبرمز النسر المرسوم على رأسها. من المحتمل أن نوت تسعى لأن تبثها رسالة ما؟ من يدري؟ حسنا، في هذه الحالة، كانت نوت تحاول إخبارها أمراً، وتكشف لها بعد كلامها مع إحدى أصدقائنا من عبدة الإلهة وعالمة في المصريات. قالت صديقتنا ذات يوم ونحن جالسين نتمعن في إحدى لوحاتها المرسومة على ورقة تارو بأن مقولة نوت المفضلة لديها هي: كل ما أعانقه يتحول إلى. هذه هي! صاحت فاني. ما هي هذه؟ سألتها. لم تفسر لي آنذاك. لكنني أظن الآن بأن ما رمت إليه هو أنه يتوجب علينا، بلا استثناء، التوجه صوب ما نبتغيه أياً يكن، في حياتنا وفي أحبابنا خلال وجودنا على هذا الكوكب، والابتعاد عن كل ما لا نريده دون جروح. غير أني لم أدرك هذا في حينه.

أتذكر عندما حاولت حملها على ارتداء ملابس داخلية من نمط فريدريك هوليوود. لفاني جسد جميل. لكنكما لن تلاحظاه أبداً. شعرت أنها ستكون بجمال أو إثارة النساء اللواتي أتخيلهن. بيد أنها تسربل نفسها من رأسها حتى أخمص قدميها بثياب غير جذابة إلى أقصى درجة. عباءات طويلة، وعباءات ***سميكة*** وطويلة في الليل. ملابس تحتية من الفانيللا ذات قبات عالية. ترتدي ملابس داخلية طويلة. ***طويلة***. على الأقل كانت هذه الملابس تجلب البهجة. تصبغها بمختلف الألوان. بالأحمر والأصفر والبرتقالي. ومع ذلك، تبدو جذابة أكثر منها مثيرة أثناء ارتدائها.

لكنني أشعر بالبرد بتلك الأشياء التي تروقك، قالت. وأشعر بأنني مضحكة. هي أرقُّ من أن ارتديها. لماذا تريد مني هذا؟ سألتني، وهي تنظر إلي نظرة ثاقبة لدرجة أنني وددت أن أتراجع عن كل طلبي.

ارتدت على مضض بعض الملابس الداخلية الحمراء من الساتان والشبك كنت قد اشتريتها لها وخرجت من الخيمة ثم وقفت أمامي.

أشعر كأنني لوحة ضوئية، قالت.

لا بد أن أعترف بأنها، هناك في الغابة ووسط اللامكان، كانت تبدو كإحداها.

لكن الشهوة تهوى أضواء النيون، هذا كان شعوري.

بعد ذلك، كما يقولون في روايات أوائل القرن العشرين، شعرت بالاستحسان، فكرت أنني شعرت بالاستحسان على الأقل. أما هي فقد شعرت بأحاسيس مريعة. بكت وقالت إنها شعرت بالمهانة. لم أر الشبك والساتان الأحمر ثانية أبداً.

لقد استمر ذلك الجدال بعينه، الذي افتقدته أنا - الجدال لإجبارها على ارتداء ملابس داخلية مثيرة، والاستمتاع بها وهي ترتديها كما استمتعت حينها - على مدى سنوات. في حياتي الخاصة مع فاني كنت متأثرا بحياة جنسية متوارية أعيشها في مكان آخر. لا بد أنها أدركت هذا، وأنا على يقين من أنه جرحها. ذات مرة، جلست باستقامة في السرير بعد أن استيقظت من نوم عميق، أو هكذا بدا لي، وهي تصرخ، من هم هؤلاء النساء اللواتي معنا في السرير؟ من هم؟ من يكنَّ؟ وأخذت تضربني بالوسادة، وتنشج باكية. لكننا جعلنا من هذا الموقف نكتة. إذ لم يكن مفترَضا بها أن تهتم بما أفعله، ولم يكن يفترض بي أنا أيضاً أن أهتم، على حد علمي.

طفح كيلها في آخر المطاف. اسمع، يا سويلو، أنت تحب الملابس التي ترتديها، قالت. وكانت قد اشترت لي بكيني صغير أحمر على مقدمته

لصاقة مطوية، وصلة صغيرة، وأخذت أتبختر فيه في المنزل بسعادة. وعندها بدأت أرتدي ملابس داخلية ضيقة ملونة وقليلة، إذ كنت أهوى هذا، وتحسن حالها إلى حد ما عندما أصبحت تشتري ثيابها بنفسها، وظلت خياراتها مذوقة ومقلّة ومترهبنة على الدوام. كان علي مواجهة حقيقة أن اهتراء الملابس الداخلية أو العباءة لم تكن تشكل أهمية كبيرة بالنسبة لفاني. تميل إلى الملابس المريحة والمدفئة والمتينة المصنوعة بإتقان. لأكن صادقا، كانت تحبذ أكثر شراء السترات والجزمات والملابس الشبيهة بتلك التي نجدها في بيوت الرجال؛ قالت إنها تصنع بإتقان أكبر وتقص بسخاء أكبر مما تصنع به ثياب النساء. تشتري من حين لآخر قطعة تعجبنا نحن الاثنان؛ ثمنها مرتفع في العادة، ومثيرة جدّاً، لكن لا صلة لها بتاتا بتلك التي قد يثر ضوء النيون أي اهتمام نحوها.

أجل، أظن أنها كانت تعرف بعلاقاتي. من خلال معرفتي بفاني، كانت تعرف ربما من قبل أن أفعل أنا. لعلها ظلت في إفريقيا لردح طويل من الزمن بغية منحي حرية العبث هنا وهناك.

فترة من الحرية لم أعهدها. أنا الذي ترعرعت على مجلات *البلاي بوي*، حيث يكون الهدف الوحيد لكل رجل أصيل هو ولوج أكبر عدد ممكن من النساء، والتفكير في عقولهن، والهدايا المبتكرة، وإمكانياتهن المهنية كمحفز جنسي إضافي. راقتني تلك الدعابة المستوحاة بلا شك من ذهنية *البلاي بوي* والتي تقول: كيف تكافئ عالمة أنثى اكتشفت دواء للزكام؟ تضاجعها. قه، قه.

لا يعني هذا أنها لم تكن حرة في ممارسة الجنس أيضاً حيثما شاءت. كانت كذلك. وتقع في غرام شتى أصناف البشر من أول نظرة، ليسوا جميعاً من الأرواح. إنما لا يبدو وأن النوم معهم يشكل لها أية أهمية. حاولت أن تفسر لي هذا، باستعارة علاقتها مع النباتات، أجل، *النباتات*، كمثال. أعيش على هذه الأرض، قالت. أحبها؛ أرى أنها تحتاجني بحق، سواء عرفت هذا أم لم تعرف. ابتسمت. أعلم الآن

بوجود الكثير من النباتات الجميلة في مكان ما من هذا الكون المترامي الأطراف، ولعلها تفوق نباتاتنا إدهاشا، لكنني أعيش على هذه الأرض، وكلما طالت علاقتي بها، كلما أصبحت أكثر إثارة وإمتاعا لي. نحن لا نعرف شيئاً تقريباً عن الأرض. أنت تعرف هذا، أليس كذلك؟ وهذا ما جرى، اعترفت فاني لأول مرة أنها لم تصل أبداً إلى الرعشة الجنسية أثناء ممارستنا للحب، وكنت في حينها أتخيل نفسي عاشقاً *مثالياً*، لا ينقصنا سوى أن تلبس ثياباً ملائمة لدورها؛ مع أنها عرفت بشكل منتظم ما أخبرتني به لاحقا ووصفته بشكل من أشكال النشوة الوجدانية. وليس رعشة جنسية. بالتأكيد أنا لا أعرف الكثير عن الأرض ويجب علي الخروج في محاولة لبلوغ باقي الكواكب.

المرأة لغز، علق السيد هول، بنبرة تشجيعية. كان هذا هو الرد الوحيد المناسب، كما شعر سويلو.

ظلت الآنسة ليزي صامتة.

والأمر الغريب الآخر، تابع سويلو، وقد غمرته السعادة بحديثه معهما، هو عدد عشاقها السابقين الذين لا يزالون حولها. حتى ذاك الغارق في حادثة القوارب خارج ساحل كارولينا الجنوبية أثناء درستها في الثانوية. لا أظن أن أياً ممن تهتم بهم قد غادر فاني أبداً؛ لم تكن تشعر بالحزن أبداً على موت أحدهم. حزنها هو على *الطريقة* التي يموت فيها الناس أو على مرضهم أو أي شيء، لكن موت الأحياء والأموات بالنسبة لفاني متشابه، مهما تعددت أساليب موتهم، ويمثل لها موتهم الأمر نفسه تقريباً.

يبدو أن هذا أدخلني في حالة من عدم الأمان. مرت علي لحظات شعرت فيها بغيابها وتأكدي من أنها غير موجودة مع أن جسدها يجلس هادئا قربي على الكرسي، وأنني غير متيقن من *كينونتي*. كنت أبدو على الدوام وكأنني أطارد فاني حتى وأنا أقفل عليها ذراعاي بإحكام. لم تفهم كارلوتا هذا؛ ومن ذا يمكنه أن يفهم؟ كنت أمازح فاني باستمرار قائلا إنها أعطت بعدا جديدا تماماً لمعنى العبودية. كنت أشعر أحياناً بخيبة

أمل كبرى، تملأني الشفقة الذاتية واللاجدوى، *متزوجا* زواجا كبيرا - يسير بطريقة تختلف اختلافا مطلقا عن الزواج المتعارف عليه - لدرجة أنني أصبحت سقيما. ليال طويلة مرت أمضيتها وأنا أفتش في أرجاء هذا المنزل - رفع سويلو نظره نحو الدرج - وأتأمل في طبيعة هذه العلاقة! يتزوج بقية الرجال ويواصلون التعبير عن محبتهم لزوجاتهم في السنوات الخمس الأولى، وتلاحظان بعدها أنهم فصلوا أنفسهم انفصالاً تماماً عنهن مع أنهم يعيشون سوية. لم يعد يجمعهم اتصال روحي ولا حتى جسدي صادق. نرى علاقتهم أصبحت مقتصرة على نفقات المنزل والسيارة ورعاية الأطفال والنفعية السياسية، أيّاً يكن. لم نتقاسم أنا وفاني يوماً أيّاً من هذه الأمور. ولذا فإن طلاقنا لم يتعد نزحا أوليا لأية علاقة غير أصيلة. أصبحت علاقتنا بعد ذلك وكأننا مجبران على ترقب مدى قدرتي على التحمل. إن كنا في كل مرة نتقابل فيها قادرين على التصرف وكأننا شخصان يلتقيان للمرة الأولى. قالت لي مثلا: لا أطيق شعوري بالسأم لدى رؤيتك قادما، كذلك أنا، لم أكن لأحتمل فكرة ضياع الاستقلالية والحرية الذي سيجعلها تفقد سحرها. إذ غدوت أثمن وأحب هذه الخصلة فيها أكثر فأكثر.

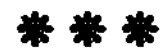
انتقلت من غرفة النوم وأقامت في الجانب الخلفي من المنزل. وهجرت بعدها كلا المكانين. اعتقد بعض من أصدقائنا بأن هذا يعني أننا منفصلان فعلا. وما كانوا يعرفون شيئاً عن الطلاق. حدث العكس، لقد زاد تباعد الأمكنة بيننا من انسجام *في آخر المطاف*. لا أقصد أن أبسط نمط علاقتنا أكثر مما هي. إذ كانت جحيما على الدوام. بدأنا في حينها نشعر ببريق نمط من الحياة خلصنا من الظل ومنحنا وهج شمس مباشر، إن جاز التعبير. لم يكن أيّاً منا يرغب في حجب الآخر. مع ذلك كنا نرغب بدرجة من الاستقرار والراحة. كنا نرغب في أن نكون الغابة والشجرة. تطور منفصل يدعّم كل ما كنا نبتدعه منفصلان أو مجتمعان في...*رحلتنا*؛ هكذا أصبحت حالنا فيما بعد.

ببساطة لم يكن الزواج مناسبا لنا. ولعله غير مناسب لأحد حسب اعتقاد فاني. اعتقدت بأنه مناف للطبيعة. لم أكن أكيدا جدّاً من كلامها هذا فأنا رجل يحيا وسط نظام بطريركي. كنت أستطيع تلمس بعض الميزات في الزواج. اعتقدت أنها غير قادرة على استيعاب عبارة لا تسمحوا لأي كان أن يفرق من وحدهم الله التي تقال في الزفاف، الزواج رباط بين روحين وهو رباط أبدي على أية حال؛ لذلك، فقد افترض الجميع مسبقا إمكانية فصم عراه. ثم يأتي الواعظ الذي يقف أمام الجمع في حفل الزفاف، زاعما أنه ممثل لله، لكنه في الواقع يمثل الدولة. كانت تشعر بالمهانة من حجم النفاق. ناهيك أن الالتحام بالآخر، من وجهة نظرها، هو تلك العلاقة الغرامية المقدسة التي ما من طريقة تقريباً لإقامتها في حضرة الآخرين، العديد منهم غرباء وأقارب لا ترتاح لهم وآخرون لا يمكنهم ربما تقدير أهمية اللحظة.

يمكنكما أن تتعرفا بسهولة من خلال ما قلته كيف أنني وفاني لم نعدم مواضيع المحادثة أبداً. أحياناً كل منا كان في واد بأفكاره، الأمر الذي يصيبني بسخط تام. بدت وكأنها على الدوام تحط من شأن الناس، وتهزأ من أعرافهم وعاداتهم البسيطة. وترى مؤسسة وراء كل عرفوك عادة بسيطة، ومؤسسة لن تسمح لنفسها أبداً أن تغدو على مقاسها. ما هي مسوغات حبك لي، هذا إن كنت تحبني؟ فأبكي. تفكر هي للحظة وتقول، إنا أحبك من أجل أنفاسك. أنفاسي الأقل أهمية من بين صفاتي الأخرى! والأقل استعمارا، ستقول بعذوبة. أمر لا يرى، محتجب وغير ملموس. ليس عقلي، ولا طبخي ولا قلبي – لا. بل أنفاسي التي لا تمثل سرِ حياتي وحسب، باعتقادها حسبما قالت، وإنما أيضاً طاقة الحياة نفسها؛ وما جعل علاقتنا تختزل إلى تفاصيل الحياة اليومية هو أنها تمكنت من تقبيلي طوال الوقت. كنا نتبادل القبل لساعات. ساعات. قد تأخذ لساني في فمها وتشفط أنفاسي بارتعاشة لذة تجعلني أتهيج هياجا لا يفتر تقريباً بعد هذه الحالة. ومن ثم تبث أنفاسها الطيبة والحلوة،

الخلاصة الكاملة لحيوية روحها، في جوفي. قبل معرفتي بفاني، لم يكن لدي أدنى فكرة عن مدى الإثارة المتزايدة والثابتة التي يمنحها هذا النمط من تبادل القبل. في البداية كنا نقبل بعضنا لمدة دقيقة أو اثنتان في كل مرة كما يفعل الجميع، لكن بعدئذ...أصبحت القبلة رابطة أساسها الهواء، *اللاشيء*، لا شيء مما يستطيع المرء رؤيته، أو الاحتفاظ به أو نزعه أو ارتداءه في أية مناسبة؛ وقد وجدت أنه أقوى رباط على الإطلاق. حالة مضحكة بالفعل، وكنا نضحك من مدى شغف كلَينا بالتقبيل. إن اختلاط أنفاسنا أثناء القبلة، كما يروقنا أن نمزح، يوشك أن يوصلنا إلى...آه... الرعشة بعد أول نصف ساعة.

سمع البعض منا بهكذا حالة، قالت الآنسة ليزي بشيء من السخرية، وضحك السيد هول.



الفصل الخامس

إنجيل شوغ

طوبى لمن يعادون أبناء جلدتهم: مرغمين على العيش بانسجام مع سكان هذا العالم، وليس مع الذين من عالم أسلافهم، العالم الذي اندثر ولن تقع عليه أعينهم ثانية أبداً.

طوبى لمن ولدوا حصيلة الحب: يولدون من حنان آبائهم ورعشة أمهاتهم الجنسية، إذ إن أرواحهم – سوف يدعى عدد منهم أبناء زنى – لن تحدها القيود، حتى بين السماء والأرض، وستظل تسطع في أعينهم شرارة الحب الذي ولدوا منه. لسوف يعرفون سعادة على قدر معاناتهم وسوف يقودون الجموع في الرقص والسلام.

طوبى لمن يمنعهم انشغالهم بالعيش عن الرد لدى تعرضهم للهجوم ظلما: يتعثرون في مسيرهم بأحجيات مضللة ضلالا يلهيهم عن رد أية ضربة.

طوبى لمن يجدون في كل برهة شيئاً في الخلق يستحق الإعجاب. ستفيض أيامهم بالجمال وستقدم لهم العطايا أشد الزنازين عتمة.

طوبى لمن لا يتلقون شيئاً إلا ليهبوه؛ تنتشر في منزلهم دائماً طاقة من الكرم؛ وفي قلوبهم بداية عصر جديد على الأرض: عندما لا تكون المفاتيح ضرورية لفتح القلوب فلا حاجة للأقفال على الأبواب.

طوبى لمن يحبون الغرباء؛ وبهذا يتجلى قلب الخالق وقلب الأم.

طوبى للقانعين بأنفسهم؛ لن يعدموا الغموض في حياتهم وستتواصل أفراحهم باكتشاف الذات.

طوبى لمن فاقت محبتهم للعالم بأسره محبتهم لبلدهم أو مدينتهم أو مزرعتهم الصغار، لسوف تتجلى أمام أعينهم إلى ما لانهاية سيرورة الحياة المتقطعة ومعنى الأبدية.

طوبى لمن يعيشون في سكينة، لا علم لهم بالعلامات التجارية أو البدع الزائلة؛ تراهم يعيشون كل يوم من أيامهم وكأنه أبد، وستمتلئ كل برهة بقدر مدتها.

طوبى لمن لا تنفصم محبتهم للأخرين عن أخطائهم؛ لسوف تمنحهم وضوحا في الرؤية.

طوبى لمن يبتكرون أي شيء على الإطلاق، إذ أنهم سيعيدون إحياء لذة تصورهم المسبق لما ابتكروه، ويدركون شراكتهم في خلق الكون الذي يبقيهم مسؤولين ومسرورين.

طوبى لمن يحبون الأرض، أمهم، ويتوجعون بملء إرادتهم كيلا تموت؛ يريقون أنهارا من الدم في حزنهم على ألمها، وفي غمرة سرورهم من مبادلتها الحية لهم بالحب، سوف يتحدثون مع الأشجار.

طوبى لمن كان كل تصرف من تصرفاتهم ابتهال في سبيل تناغم الكون، إذ أنهم هم من يعيدون التوازن لكوكبنا. هم من سيحصلون على هبة المعرفة بأن كل فعل صالح ينجز في أي بقعة من بقاع الكون هو ترحيب بقدوم حيوان أو طفل.

طوبى لمن يخاطرون بأنفسهم في سبيل الآخرين؛ هم من سيمنحون فرَصا متزايدة لخوض مخاطر أكبر بكثير. مجازفاتهم هي منظار الحياة التي من خلالها لا تضيع عطية أحد أو تزدرى.

طوبى لمن يناضلون لكبح جماح غضبهم؛ مكافأتهم أن أول ما يخطر في بالهم، في أية مواجهة، لن يكون البتة عنفا أو حربا.

طوبى لمن كل تصرف من تصرفاتهم هو ابتهال للسلام؛ عليهم يعتمد مستقبل العالـم.

طوبى لمن يغفرون؛ مكافأتهم هي نسيان جميع الشرور التي اقترفت بحقهم. بالتالي، سيكون في وسعهم اجتياح الأرض الجديدة.

طوبى لمن تجلى لهم وجود سحر الخالق في الكون؛ سيعرفون التجلي والدهشة بلا انقطاع.

طوبى لمن يضحكون بنقاء قلوبهم؛ سيكون لهم رفاق من الصالحين المرحين.

طوبى لمن تستهويهم جميع الكائنات البشرية بألوانها المتنوعة، كما تستهويهم جميع أصناف الحيوانات والنباتات؛ لن يحتجب عنهم أولادهم، ولا أسلافهم ولا أي جزء من ذواتهم.

طوبى لمن يحبون السحاقية واللوطي والمستقيم كمحبتهم للشمس والقمر والنجوم. لن يحتجب عنهم أولادهم، ولا أسلافهم ولا أي جزء من ذواتهم.

طوبى لمن يحبون المحطم والسليم؛ لن يُحتقر أولادهــم، ولا أسلافهم ولا أي جزء من ذواتهم.

طوبى لمن لا ينضمون إلى الغوغاء؛ هم وحدهم من يعرفون أن الضرب في ساعة غضب يساوي القتل في لحظة تشوش العقل.

طوبى لمن يملكون الشجاعة لمساعدة كينونة أخرى، حتى ولو من خلال أمر تافه جدّاً يوميا على الأقل - نبات، أو حيوان، أو نهر أو بشر. سوف ينضم إليهم عدد كبير من المترددين.

طوبى لمن لا يهابون الموت؛ لهم قوة اجتياح المستقبل في ورقة من أوراق العشب.

طوبى لمن يحبون تنوع الحياة ويدعمونه بقوة؛ أمانهم في اختلافهم.

طوبى للذين *يعلمون*.

***

قرأ أرفيدا كراسة *إنجيل شوغ* وأعاد قراءتها عدة مرات. جلست كارلوتا صامتة بجواره. لم تكن تظن بأنها ما زالت تحبه؛ لم تكن تريد أن تفكر في هذا حتى. أحست أنها مفتونة بما عرفه وطريقة معرفته؛ وبموسيقاه دائماً. كانت في زيارة له في منزله الجديد الذي اشتراه بعيد عودته من وسط أمريكا الجنوبية: منزل رحب واطئ من القش، ناتئ من التلال فوق بيركيلي وقد استلهم من المنازل التي يصممها فرانك ليويد رايت. يحتوي على حجرة عازلة للصوت، استديو تسجيل يعتبر تحفة فنية ويقع في الطابق السفلي، جميع نوافذه مطلة على جسر غولدن غيت بروعته الضبابية، ومنظر غروب الشمس يطل بروعة من أطراف المنزل الثلاث. بالمقابل، منزلها بلا أية إطلالة، فوضوي ومهلهل وصغير بشكل لا منطقي بالنسبة لثلاثة أشخاص. لا بل إنه أدنى مستوى أيضاً من طراز منازل أوكلاند. دعاها للانتقال والإقامة معه برفقة الأولاد، لكنها رفضت سماع هذا العرض. وجدت أنها مستمتعة بالعيش في فوضاها، وفوضى أولادها.

من تكون شوغ؟ سأل أرفيدا. رفع قدمه عن ركبة ساقه الأخرى. كان لديه عادة أرجحة القدم المرفوعة، مما يجعله يبدو نافذ الصبر.

خلعت كارولتا حذاءها ثم رفعت إحدى قدميها وجلست عليها. كانت تستمتع بهذه الزيارات الشبيهة، كما تخيلت، بالتي يقوم بها المرء لوالده أو أخيه الأكبر. على عادته، قدم أرفيدا مكاناً فاخرا وطعاما صحيا طازجا. يرتاد الطفلان المدرسة من الساعة الثامنة والنصف إلى الثالثة والنصف، وهي منقطعة عن التدريس بسبب العطلة الانتصافية.

أثناء سفرك، قالت، كنت أذهب بشكل دوري إلى مكان يدعى صالون فانَي للتدليك. يقع بجوار الحرم الجامعي. تجري فاني تدليكا ممتازا.

تنهدت عميقا؛ لكن لم عليها أن تتردد أو تشعر بأدنى خوف؟ متزوجة من رجل أثار اهتمامي، ذاك الذي تساءلتَ ذات مرة عن وجوده، ويدعى سويلو.

سويلو؟ قال أرفيدا. مثل الروني؟[1]

أجل، قالت كارلوتا. روني الكمال. لكنني لا أظن أن هذا ينطبق على سويلو – ليس عندما عرفته، بأي حال من الأحوال.

لماذا تقولين هذا؟

لأنه كان مشتتا.

نظر أرفيدا لها نظرة تهكمية بدهاء، تجاهلتها كارلوتا. قد تخبره، في الوقت المناسب، بكل تفاصيل *تجربتها* الحميمية مع رجل آخر. لكن ليس الآن.

شوغ هي جدة فاني أو ما شابه، حسبما فهمت. وأسست كنيسة، كما والدتك. ما معنى هذا بالضبط، تساءلت الآن. حاولت أن تتصور والدة أرفيدا في مخيلتها، والتي أطلقت عليه هذا الاسم تيمنا بقالب صابون. هل كانت امرأة سوداء ضخمة مثل بعض النساء السود المسنات اللواتي تصادفهن في الشارع؟ لم تكن كذلك، فقد أخبرها ذات يوم شيئاً عن تأنق والدته. وماذا في الأمر، النساء السمراوات الضخمات هن غالبا الأكثر أناقة من بين الجميع. هل كان لها كنيسة، كنيسة حقيقية، بنوافذ ذات زجاج ملون كما كل شيء فيها؟ لم تدخل كارولتا أية كنيسة بمشيئتها. اصطحبتها زيدي في طفولتها إلى كنيسة كاثوليكية عند ناصية الشارع بعد منزلهم. لم تفهما سوى القليل من الشعائر فتوقفتا عن الذهاب إليها تدريجيا. لم تعترف زيدي أبداً بوجود كثر من الوثنيين. هذا يفوق طاقة تحمل امرأة كاثوليكية.

كان أرفيدا يبتسم لها وهي تستذكر تلك الأيام.

حسنا، قال، إلا أن والدتي لم تدون تطوبياتها أبداً!

ذهبت إلى فاني إذ كنت على معرفة بها في الجامعة. لم أعرفها معرفة

1- Sowilo rune المقصود حرف حجر الطاقة، علما أن كتابة الاسم مختلفة عن اسم بطل الرواية – المترجم.

كبيرة، بل كنت التقيها من حين لآخر. انتقلت مع سويلو إلى منطقة الخليج في نيويورك. كلاهما مدرسان. هو يدرّس التاريخ الأمريكي، وهي تعلم دراسات تتعلق بشؤون المرأة. لكن نمط التدريس أحبطها فيما بعد وانتقلت إلى الإدارة. ما الذي حدا بها للظن أن العمل في الإدارة أسهل، لا يمكنني تخيل السبب. بالطبع لم يكن كذلك. تسير بهيأة تشي بمحنة لا لبس فيها، وكانت مشيتها هزلية إلى حد ما. عرفت بعد ذلك أنها استقالت من الجامعة نهائياً والتحقت بمدرسة سان فرانسيسكو للتدليك. افتتحت صالون تدليك صغير خاص بها في نهاية الشارع الذي تقع عليه الجامعة، وأصبح العديد من زملائها السابقين الرازحين تحت الإجهاد الذي تخلت عنه زبائنا لها.

عانيت من صداع نصفي منذ اللحظة التي علمت فيها بأمرك أنت وزيدي، وأمسى جسدي بأكمله أشبه بعقدة محكمة الشد. قالت كارلوتا هذا ببطء شديد، بصوت يكاد لا يسمع. وهنا أخذت تسرع بالكلام وأصبح صوتها حازما وتلقائياً. في البداية لم يكن لدي أية نوايا حيال زوجها – في الواقع لم يعد زوجها آنذاك، إلا أنني لم أكن أعلم. كانا سوية طوال الوقت. حيث ترى أحدهم سترى الآخر على الدوام تقريباً. قهقهت كارلوتا. كنت مفتونة بمدى قربهما. أرى هذا الآن. ما أشد عبثية هذه الحياة! معاً كانا يمثلان لي منزلاً وأسرة ودفئاً، مكاناً للانتماء. كان صالون التدليك مكاناً يبعث على الاسترخاء، مضت في حديثها بأسلوب رصين، وأسعارها مقبولة. تقدم قسائم مجانية لأصدقائها ورواد الجامعة. ذهبت إليها. تعاملت معي كما تتعامل مع البقية. بعد أول ساعتين من التدليك التي تشتمل على خمسة وأربعين دقيقة من العلاج بالإبر، أصبحت مدمنة على الجلسات.

كانت تقطن في كوخ ريفي، كوخ الحماة، في مؤخرة منزل أحدهم. تصل إليه عبر مجاز مرصوف ببلاط منحوت وسط جنبات وعرائش مزهرة – من الهيبسكوس والياسمين، على ما أعتقد. أتذكر ألواناً زاهية

وعبيراً لذيذاً؛ مع أن هاتان النبتتان قد لا تزهران في الوقت عينه. لا خبرة لي بالأزهار. لكن أعجبني وجود هذه النباتات في جوارها. تحيط بطاولة التدليك نباتات خضراء منتشرة وتشكل ستارة حية استحضرت في ذهني المدى المفتوح، الشلال. ثمة موقد حطب في الزاوية كانت من حين لآخر تضع فيه مقدارا من بخور خشب الصندل أو تقحم فيه جدلة من أعشاب عطرة. تضع بللورة هائلة على رأسك وأخريان أصغر منها على قدميك. لم أكن أعرف شيئاً عن البلورات آنذاك، وعندما تحدثت عن ميزاتها الشافية أو المهدئة حملتني هذه المعلومات إلى ماضيَّ الغابر. كنت منفصلة عن كل شيء، كما ترى. ما كنت متصلة بجسدي ولا بأولادي، ولا، يقيناً، بأي قطعة من قطع الجماد. عندما تتحسن حالك، قالت لي، وهي تضع بلورة صغيرة من الجمشيت في يدي، ستشعرين باهتزازها. بدا هذا النوع من الكلام لي ثرثرة ساحرات كبيرة. لم نغدو صديقتان أبداً، ولا حتى تعاملنا بشكل خاص كصديقتين. كنا نتبادل الود، أخمن أنك فهمت هذا. ما كان بمستطاعي أن أستوعب لم اتخذت هذا العمل قليل الاحترام وذو المنحى الخدمي في حين أنها حاصلة على شهادات أكاديمية مرموقة. سألتها عن هذا ذات مرة بشكل لبق، بعيدا عن فظاظة حيرتي. رفعت كتفيها استهجاناً وقالت، *أوه، أكاديمية*. هذا كل ما ردت به.

لماذا اتخذت هذا العمل تحديداً؟ سألتها في يوم آخر حين وهي تعمل على إرخاء أوتار ساقاي المتشنجة.

بدا جوابها لا يحتمل، بالنظر إلى صفاء كل ما يحيط بها وملامحها الوديعة: لقد اتخذته كي أضرّ أجساد البشر بشكل طفيف، حتى أولئك الذين قد لا أستهويهم، وأجبر على التسليم بحقيقة وجودهم الجسدي كما العقلي كبشر. وإلا، قالت، أخشى أنني قد أبدأ بقتلهم.

لا بد أن جسدي قد اختلج بشكل ملحوظ. ومن ذا لن يختلج؟ كنت عارية على الطاولة بين يديها. حاملة نوايا معينة تجاه رجلها؛ هذا لا يعني

أنها كانت تشك في سويلو. لكن من يدري؟ لعلها ارتابت في أننا كنا قد بدأنا نلتقي لقاءات عرضية عند براد الماء.

بغض النظر، استمرت في العمل على ساقاي وحاولت أن تثني أصابع قدماي المتيبسة تقريباً. كانت أصابع قدمي المعوجة في منتهى القباحة. لم أنتبه إلى هذا سابقا قط.

على فكرة، يتعين عليك التخلي عن هذه الأكعاب، قالت.

لكنها نصحتني بهذا سابقا.

أعلم، أجبتها كما أجبتها في المرة السابقة.

تكفرين عن ذنوبك، هاه؟ سألتني.

لم أفهم إلام ترمين، قلت لها. ما الذي كانت تقصده؟ لم تكن تعرفك أو تعرفنا. لم تكن تعرف زيدي. ولم تكن لتحلم بما قد جرى. ومع ذلك، لم أكن متأكدة. يخامرني أحياناً شعور بمعرفة الناس لما جرى من مجرد النظر إلي. شعرت أنني تعرضت لحادث رهيب خلف علي ندوبا لا تمحى؛ كنت أؤكد لنفسي في أغلب الأحيان بأنها ندوب غير مرئية على الأقل. ترى ما هي الندبة التي رأتها تلك المدلكة؟

عجبا، قالت، ترتدي النساء ملابسا مؤذية للتكفير عن خطيئة الوقوع في غرام رجل يتمنين لو أنهن لم يفعلن. رجل ربما يعتبرنه في الواقع غير جدير بهن. هذا يدعى أحياناً إغواء، أضافت قائلة بوجه متجهم.

لعلها على حق، فكرتُ. كنت أنتعل الحذاء الذي سيعجبك أن أنتعله، مع أنه يضايقني ومع أنك تخليت عني من أجل والدتي، التي كانت ترتدي أحذية مستوية على الدوام. حالة مثيرة للسخرية، وضحكت كارلوتا. أشبه بحلقة في *مسلسل*، قالت. وانتعال الحذاء ليس له أي معَنى. كان هذا حذائي مميتا من التعب. رغم أنه يشوه قدماي ويشل ساقاي، كنت أعرف بأنني لن أتخلى عنه. لطالما استهوتني الطريقة التي يرمقني الرجال بها بالكعب العالي. نظرات عيونهم تجعلني أنسى مدى وحدتي. وكم كنت منبوذة.

وماذا ترين حين تلتفتين إليهم وراءك؟ اقتحم أرفيدا الحديث بسؤاله، بنبرة متأسفة.

أوه، يا إلهي، قالت كارلوتا، لم أفكر في *ذلك*...حالما تجري لك فاني تدليكا، ستشعر بأنك تستعيد جسدك. وسيظهر عليها الرضا، كأنها ظفرت بنصر لذيذ، ولو كان عابرا، وسيساورك الشك إن كنت حقّاً قد سمعت هذه المرأة سابقا تتفوه بكلام يتعلق بقتل الناس.

فيما بعد، استفسرت من سويلو ذات مرة عن هذا الأمر. تهرب من الإجابة. قال إنها تذهب إلى معالجة أخصائية، لكنها بالأساس ضحية من ضحايا العنصرية ونتيجة حساسيتها المفرطة فقد ازداد وعيها لما حدث لها بشكل كبير. بات شعورها بالاضطهاد العنصري يغشي عينيها كهالة أو شبكة تراها حيثما وجهت طرفها. لقد حولت العنصرية أفكارها نحو العنف. وقد أعياها هذا العنف وتسعى للتعافي منها.

بكل الأحوال، كانت تضع كدسة من الكراريس على طاولة مجاورة للباب. تحضُّ كل من يدخل على اقتناء أحداها. شعرت بالأسف عليها، إذ بدا واضحا تقهقرها وسقوطها في ديانة جدتها. وما كانت قادرة على معرفة السلام الداخلي إلا من خلال مزاولة عمل يبدو عملا مهيناً بعض الشيء، وفي أصغر حيز ممكن. أجل، أشفقت عليها؛ إن كنت أكفّر عن ذنب معين بانتعالي لحذاء عالي الكعب، فهي تفعل هذا من خلال التعويض، أثناء تدليكها لأصابع قدماي وساقاي المتشنجة. ومع ذلك، أعجبت ببعض مقاطع إنجيل شوغ؛ على الأقل هي لم تقل إن الله لا ينعم سوى على الفقراء. أحب ما جاء في السطر ما قبل الأخير، حين تقول عن أن المباركين هم الذين يحبون ويدعمون التنوع لأنهم، عبر اختلافهم، لا بد سيشعرون بالسلام. لكن السطر الأخير يحيرني. طوبى لمن *يعلمون*. *ماذا يعلمون*، أسأل نفسي. ثم أفكر كم أنني، في الحقيقة، لا *أعلم*؛ وأتساءل إن كنت يوماً قد علمت. قالت كارلوتا هذا بمشاكسة طفولية تقريباً.

نظر أرفيدا إلى زوجته التي أعادت إليه غموض والدته بغير عمد؛ وشعر بأنه لم يمارس الحب معها أبداً رغم وجود الولدين؛ وأيقن باستحالة فشلها، لمجرد السحر الذي أدته للتو، باستحضارها لكاثرين ديغوس التي كاد ينساها.

ها أنت تبدئين *بالمعرفة*، يا كارلوتا، قال، بصوت حنون لدرجة أن كلاهما قد تورد وجهه. ثم: *كيف ستغدو طبيعتك*.

في كراسة شوغ، المزينة بصور على الجانبين لعدة فيلة كبيرة متأهبة ومطمئنة، الكراسة التي حملتها كارلوتا معها إلى البيت قبل عصور مضت من صالون تدليك تديره امرأة أصبح زوجها عشيقا لها، وكانت تقدمها له بإهمال ويقرأ هو بذات الإهمال، تعرف أرفيدا على قريبة روحية لوالدته هو. والدته. أي ذكرى عنها تؤلمه. لذا فقد حاول ألا يفكر فيها أبداً. إنها المرة الأولى التي يقرأ فيها *الإنجيل* منذ لقائه القديم جدّاً بزيدي حين لم ير فيها ما يثير فضوله، أم أنه كان يفتقد شيئاً من روحها في هذه الحياة. لماذا كانت والدته مغرمة بصورة؟ ولمن تعود تلك الصورة؟ والدك، كانت تقول باستمرار؛ لكنه عرف الآن بعد أن غدا أبا أنه كلام مبالغ فيه. لماذا نقلتها من جانب سريره؟ لماذا تحولت إلى درويشة مولوية؟ لماذا لم تستطع أن تؤكد له أبداً من يكون صاحب الصورة؟ لماذا أنشأت كنيسة وأدارتها؟ ولماذا كانت تلك الكنيسة على هذا النحو، كما كراسة شوغ، ليست ببناء ولا نموذجا من نماذج النصب التذكارية، بل مجرد بضع عبارات استقتها، كأنها حبات أرز روحانية، من عبورها الدنيوي؟

***

ثمة ملصق خوان فونتيس الإعلاني عن نيلسون مانديلا على نافذة متجر يبيع إطارات الصور بالقرب من عيادة معالجتها الأخصائية. ملصق جميل ونابض بالحياة يحتوي على العديد من الصور الصغيرة لرأس مانديلا المهيب وهو يبتسم، مطبوعة على وشاح أحمر كبير. نفس نوع

الوشاح الذي تضعه فاني فوق معطفها من قماش الدنيم، تضامناً مع الصراع الدائر في جنوب إفريقيا. قررت شراء الوشاح ذو الملصق في طريق عودتها إلى المنزل.

تدعى معالجتها روبين راميريز، وكانت فاني تحبها. امرأة ضئيلة وهادئة وصلبة – شعرها غامق اللون، وهذا عامل مساعد. حين أخبرتها إحدى صديقاتها عنها، أول تساؤل تبادر إلى ذهن فاني هو: هل شعرها أسود أم لا؟ إذ لم تكن فاني، في خيالاتها القهرية التي تدفعها للجنون، قد جزت رؤوس داكني الشعر.

قالت هذا لروبين في أول زيارة.

حسناً، أظن أنني محظوظة لأنني من التشيكانا[1] في النهاية، قالت روبين، وطلبت منها المضي في الكلام.

ليس لدي الكثير بهذا الشأن، قالت فاني. دعينا نقول فقط أن الشقر لا يتمتعون بالكثير من الظرافة في خيالاتي.

لم الشقر؟ سألتها روبين، التي كانت قد اعتزمت تشقير شعرها غير مرة. ألا يبدي الناس احتراماً أكبر لما يقوله أو يفعله ذوو الشعر الأشقر؟ إنها بالتأكيد حالة الغالبية الساحقة من التشيكانو الذين تعرفهم؛ حالة باقي مرضاها على سبيل المثال.

السبب، حسب ظني، هو أن الشعر الأشقر يمثل البيض بالنسبة لي، البيض الحقيقيين، وبالتالي فهو يمثل اضطهاد البيض.

تقصدين الهيمنة؟

أجل. أقصد النازية، الكلان[2]، البيض وأولادهم الذين ينبغي على المرء الاحتراس منهم في الشارع.

1- Chicana ذوو أصول مكسيكية – المترجم.

2- klansmen حركة KKK في جنوب الولايات المتحدة التي تدعو إلى العنصرية وسيادة البيض – المترجم.

هل عرفت طفلا أشقرا في صغرك؟

الغريب في الأمر، عندما فكرت فاني بالسؤال، أدركت أن الشقر الوحيدين الذين تذكرت رؤيتهم وهي طفلة كانوا من الأطفال. جميع من تذكرتهم من البيض الكبار شعرهم بني اللون.

عرفتُ تانيا، قالت. لا أذكر الكثير بخصوصها. كانت تقطن في طرف الشارع الذي يقع فيه منزل جدتي، الذي سكنا فيه أنا ووالدتي ردحا من الزمن في طفولتي. كنا نلعب سوية أحياناً. كانت فتاة لا بأس بها. رفعت فاني كتفيها استهجاناً.

هل كان لتانيا أخ؟ أبوان؟

أعلم أنه كان لديها أهل. كان والدها مزارعا ويقضي معظم وقته في الحقل أو في البلدة، أيام السبت. وكانت والدتها تلزم المنزل طيلة الوقت. تخبز الكعك المحلى وتقدمه لنا في الخارج. كان بمقدوري اللعب مع تانيا في الفناء ولم يسمح لي بدخول المنزل. كان لدى تانيا جدة.

بماذا كنت تشعرين؟ أقصد بسبب عدم السماح لك بدخول منزل تانيا.

بشعور قابض، قالت فاني، على ما أذكر. لا أذكر أنني انشغلت كثيراً بالأمر. كل ما أذكره أنني لم أكن مخولة للدخول، مما يعني أنني قد انتبهت إلى هذا بالتأكيد.

أنا على يقين من أنك فعلت، قالت روبين. هل يمكنك أن تتخيلي السبب في عدم السماح لك بدخول المنزل؟

فكرت فاني بهذا. هناك مفارقة مضحكة في الأمر، أتدرين. كان منزل جدتي أكثر أبهة من منزلهم. منزل راقي رغم طرازه البسيط. حسناً، عاشت فيه ثلاث نساء مبدعات، موهوبات وناضجات - والدتي وجَدتاي - لا بد له أن يكون منزلاً راقياً. أما قوم تانيا فكانوا فعليا ممن يمكنك أن تلقبيهم بـرعاع البيض الفقراء. إنما ليس تماماً. كانوا يطمحون نحو الأفضل. ضحكت. أتعلمين، أظن أن بيض الجنوب ولا بد قاموا بحملة سرية فيما بينهم للترفع من خلال حرصهم على ضمان

طلاء جميع منازل البيض - بالأبيض إن أمكن - وعلى أن تبقى منازل السود بلا طلاء على الإطلاق. أظن أن جزءا من السبب الكامن وراء عدم دفعهم للسود إلا ما يسد رمقهم هو خشيتهم من أن يقوم السود، إذا ما حصلوا يوماً على عائدات زائدة ولو بحدها الأدنى، بطلاء منازلهم. فهم يعرفون مسبقا مدى ولع السود بالألوان ومدى جمالنا لدى ارتداء الملابس الملونة. وهذا ما حصل، فقد ابتكر السود الطلاء من الحوار الأبيض ونيلة الغسيل. منزلان فقط من منازل السود في المقاطعة كانا مطليين. أحدهما منزل جدتي.

هل كانت تانيا...بالمناسبة، لماذا أطلق عليها اسم تانيا؟ فهو ليس باسم جنوبي، أليس كذلك؟ سألتها روبين هذا السؤال بنبرة تشي بالقول، لا أعرف شيئاً البتة عن تلك الأرض العجيبة. إلا أنه يبدو اسما غريبا بالنسبة لي حتى.

لا ليس جنوبيا، قالت فاني، هو اسم روسي كما هو اسم فلاديمير. لكن قلة قليلة من الناس كانوا يلفظونه بشكل صحيح. أنا كنت أفعل دائماً. معظم الناس كانوا يقولون تان - يا، مثل اللون البرونزي[1]. كانت والدتيها تمقتان هذا عندما يحدث، وتتذمران من خطأ الآخرين في لفظ اسمها. اقترحت عليهما استبدال الحرف (ا) في كلمة (تان) بالحرف (و)، لكنهما ظلتا تحبذان عادة التصحيح للناس مدى الحياة. كلما فكرت في هذا فيما بعد، في ذلك العناد، بدا لي عنادا جنوبيا نمطيا. سمة شائعة بين السود والبيض على حد سواء.

في المرحلة الثانوية، تابعت عملية الدمج التي حصلت في جامعة جورجيا على التلفزيون، واصلت فاني حديثها. وبقيت طيلة الليل أتابع تصاعد ألسنة اللهب من الحرم الجامعي، واحتدام البيض ضد تسجيل اثنان من أشد السود نحافة وشحوبا على الإطلاق. تابعت الدمج في سينترال هاي في ليتل روك. رأيت فرسان الحرية، سودا وبيضا، يتعرضون

1- tan تقصد المقطع الأول من اسمها يلفظ بمعنى برونزي - المترجم.

للضرب في الميسيسيبي. لا يزال وجه أحدهم، وهو شاب أبيض، ماثلا في ذاكرتي وقد فارق الحياة. شاهدت الكثير من السود ومناصريهم من البيض يتعرضون للإذلال، أو يضربون بوحشية أو يقتلون. بدا وأن كل من يتمتع بنزاهة كبيرة يتعرض للاغتيال. كبرت وأنا على قناعة بأن البيض، بصفة عامة، لا يطيقون رؤية الكمال والصحة الجيدة في الآخرين، تماماً كما لا يطيقون أن يعيش بينهم بشر مختلفين عنهم. بدا لي أن لا شيء، بما يشمل أي بشر آخرين، يمكنه العيش أو التمتع بصحة جيدة وهو بينهم. أصبح ضرورة بالنسبة لهم ظهور بقية البشر في حالة سيئة - فقراء وثيابهم رثة وقذرين وأميين. يبدو أنهم لا يرون أنفسهم على أحسن حال إلا في هذه الحالة فقط.

وهل هذه طريقة تفكيرك منذ نعومة أظفارك؟

لا، قالت فاني. كانت طفولتي في غاية الدعة. عشت مع جدتاي اللتان كان لديهما أصدقاء شائقين كثر. كنت قرّة أعينهم. لا أذكر أنني رأيت بيضا في منزلنا أبداً.

ما خلا علاقتك بتانيا لم يكن لك أية تجارب معهم؟

ليس بشكل مباشر. لكن ماما شوغ كانت سقيمة معظم الأحيان جراء تنازعها معهم. قد تسير في البلدة، وتدخلها مهرولة - بدا ذلك لا مفر منه - يلازمها أحد متخلفي الجنوب هؤلاء فتدخل المنزل وهي تكيل سيلا من الشتائم العاصفة. ضحكت فاني ضحكة مكتومة. لكنها كانت تحاول في ذات الوقت، كما كان يروقها أن تقول، تثبيت قدميها فوق ذاك المسار اللعين.

أي مسار؟

أوه، قالت فاني، أقامت جدتاي كنيسة خاصة بهما؛ هو تقليد موغل في القدم بين النساء السود. مع فارق أنهما لم تسميانها كنيسة. كانتا تسميانها عصبة.

عصبة؟

تارة عصبة صلاة وطورا عصبة ملائكة، وأحياناً عصبة شياطين. كلمة عصبة هي التعبير الذي يطلق تقليديا على كنائس النساء السود المرتدات؛ تدل على مجموعة من البشر يجمعهم رباط وهدف عام ويختلف مفهومهم عن الواقعية الروحية اختلافا راديكاليا عن المفاهيم السائدة أو العامة. كانت ماما شوغ مغنية عظيمة وعضوة في عصبة موسيقية. أمر طبيعي بالنسبة لها أن ترغبي بأن تصبحي جزءا من عصبة روحية.

أليس أمراً غريباً أن تعيش جدتاك سوية وتقومان على تربيتك، في منزل واحد؟

إحداهما جدتي البيولوجية، أي أم والدتي. الأخرى كانت صديقتها المفضلة.

رفعت روبين حاجبها.

ضحكت فاني. لا أستطيع أن أخبرك عن عدد الحواجب المرفوعة التي واجهتها حين أتحدث عنهما.

كان هذا في الشمال... في الخمسينات؟ هل تقصدين القول إنهما عاشتا سوية كـ....

أقران، قالت فاني. كانتا في منتهى السعادة، رغم خلافهما الحاد في الرأي وبعدهما الكبير عن بعضهما. وكانتا تدخلان في شجارات مروعة تثير في ذاكرتي صورة العواصف. يروق لهما التقاذف بالأغراض؛ بروق الصواعق على شكل أواني صينية تسطع في أرجاء المنزل دائماً. من الناحية المزاجية كانتا في غاية الاختلاف - شوغ، صريحة ومباشرة؛ أما سيلي، فماكرة إلى حد ما. عاشتا حتى سن متقدمة جدا وتوفيتا في السنة ذاتها. توفيت جدتي سيلي أولا. انكبت شوغ في آخر أشهر حياتها على العمل على تدوين مقاطع التطويب، وأعانتها والدتي في تحويلها إلى لغة أكثر إنجيلية من لغة ماما شوغ إلى حد ما. كانت لغة ماما شوغ تبدو أكثر شبها كقولنا: القاعدة رقم واحد: لا تعبث يا حبيبي مع أي كان مطلقاً، وبالنتيجة فلن يعبث معك أي كان مطلقاً! ضحكت فاني. إنها تشعر

بأن الروحانية، بالدرجة الأولى، أثمن من أن تترك لتأويلات الرجال المشوهة لها.

لعلها هي من وضع السيف في يدك؟

ربما، قالت فاني. وكيف عرفت أنه سيف؟ إنه فعلا سيف، ذو مقبض ذهبي كبير ونصل لامع. إنما في نظرة عيني لا في يدي. أنظر إلى رأس أشقر الشعر فترينه يسقط بسرعة البرق في البالوعة.

وماذا بعد؟ سألتها روبين. هل يحسن هذا من حالك.

لا، قالت فاني. حالتي على الدوام تكون أحسن قبلها. إضافة إلى هذا، الخطوة التالية هي العمل الشنيع حد الإقياء.

ما هي؟

أنزل في البالوعة ممسكة بالرأس وأمد يدي إلى الجسد الذي لا يزال يسير بشراسة، بالمناسبة، ثم أعيد تثبيت الرأس في مكانه بقوة. لا أريد أن أكون عنصرية، قالت فاني متجهمة. لا أريد أن أكون قاتلة. لا أريد أن أفعل بهم ما فعلوه بالسود. لأمت قبل ذلك.

لسوف تموت قبل ذلك. (ومرت عليها أوقات شعرت فيها أن هذا يحدث بالفعل). سيف نظرتها سوف يعميها هي أولا قبل أي أحد آخر. لا شيء يمكنه منع هذا الكثير الذي عرفته من التدحرج في بالوعة رأسها هي. حدث ذلك بعد أن زادت معرفتها غير أن هواجسها لم تتغير على الإطلاق، لا بل فقد بدأت تنتابها نوبات الهلع.

مرت لحظات كانت تجيء فيها إلى سويلو وتنسل إلى سريره قائلة، أرجوك أحضني. تلك الأوقات التي كان يعتقد فيها أنهما سوف يمارسان الحب. لكنها لا تفعل. ترقد بين ذراعيه وهي ترتعد وتبكي.

ما الأمر؟ يسألها ملاطفا إياها في محاولة لانتزاع ردها.

سيمر وقت طويل قبل أن تفلح في الرد. وعندها ستقول: أخشى أنني سأقتل أحدا ما.

وبخها في البداية على كلامها هذا. كل هذا بسبب سفلة الجامعة؟ ما بالك! ليسوا جديرين بالقتل.

ليسوا هم فقط، تهمس، ودموعها تنهمر على رقبته.

حسناً، من؟، يسألها. لن تقتليني أنا على ما أعتقد.

لا، ليس أنت، قالت.

قالت ذات مساء: إن كان صحيحا أننا نرتكب الزنا لمجرد التفكير به، ألا ينطبق الأمر على الجريمة أيضاً؟ ماذا عن سهولة تخيلك، وأنت تراقب إقلاع الطائرة، لها تتحطم وتتشظى إلى أشلاء متطايرة؟ هل يؤخذ هذا في الحسبان؟ هل نحن مسؤولون بشكل جماعي عن الكوارث لأننا نتصورها في مخيلتنا ثم نقوم بتجسيدها في وعينا؟ هل يقتل جميع بني البشر هذه الأيام بواسطة عيونهم بشكل تلقائي؟

لماذا تفكرين في هذه الأمور؟ قال لها وهو يضمها بشدة إلى صدره، وقد تلاشت رغبته الجنسية.

ألا ينطبق هذا على الجميع؟ لدى اكتشافهم بأن الحرية التي ناضلنا في سبيلها بكل ما أوتينا من قوة على مستوى العالم هي حرية بعيدة المنال.

لا، قال. هذا لا ينطبق علي. حسناً، تخالجني هكذا مشاعر أحياناً. إلا أنني أعرف أنها مجرد هواجس. هواجس لا قيمة لها.

لا أظن أن الهواجس لا قيمة لها. إن لها قوة ومعنى شبيهة بالأحلام.

إنك في غاية الرقة، قال.

أخشى أنه في الظاهر فقط. تنهدت. ووراء هذه الرقة يكمن هذا الهوس الهذياني. أرى نفسي أحياناً في وجوه النساء الباكيات، الصارخات والمجنونات تماماً اللاتي نشاهدهن يومياً على شاشة التلفزيون. قذيفة سقطت من خلال سقف منازلهن؛ أطفالهن ينزفون حتى الموت؛ ما من سيارة إسعاف كي تسعفهم. أكره البيض، قالت. أتصورهم ينزلقون عن الكوكب، فيقول الكوكب، يا للراحة، ها إنني أستطيع التنفس مجدداً!

لكنك لا تستطيعين دحرجتهم عنه. هم يوشكون على التسبب بهذا لأنفسهم في الواقع، يوشكون على التسبب لنا جميعاً بالسقوط عن الكوكب وهذا أقرب بكثير مما يمكنك أن تفعليه. هم، وليس أنت، من يتوجب عليهم الشعور بالأزمة التي تهجسين بها.

إذن لماذا أتخيلها أنا؟

من الواضح أن السبب يكمن في أننا نتقاسم الكوكب.

هم لا يريدون تقاسم هذا الكوكب؛ لا يريدون مشاركتنا حتى في القرى والبلدات والأنهار والشواطئ ومواقف الحافلات، قالت.

حتماً، لا يريدون، قال سويلو. لكنهم سيرغمون على ذلك. ما من خيار أمامهم، إما تقاسم العالم أو خرابه.

أعتقد أنهم أذكى من أن يدمروا أنفسهم عمدا، قالت فاني. لكنهم لا يملكون قدرا كافيا من الذكاء يؤهلهم لتجنب تدميره عرضا.

ونحن نمضي معهم، قال سويلو.

ونحن نمضي معهم، رددت فاني ما قاله. ***لا يمكنني احتمال هذا!*** في النهاية تدبرنا أمرنا وعشنا الحياة – وهنا تذكرت تعليق نزينغا عن جيف، الشاب الجنوبي الأبيض: ماذا؟ *فقير*؟ وبعد كل ذلك! – أن تموت ميتة مروعة نتيجة غطرستهم الفرعونية. أشعر أنني مهجورة جدّاً، قالت فاني. كأن أعماق ذاتي تغادرني.

العالم بأسره في حالة من الذعر، قال سويلو، لست الوحيدة ولسنا الوحيدين. كنا نعتقد في زمن سابق لهذه الحقبة التاريخية أن لدينا مستقبل نتطلع إليه على الأقل، وأن أولادنا سيشهدون الحرية، حتى ولو لم نعرفها نحن قط. لقد جعلوا الآن يقيناً أن ذريتنا لن تعرف مطلقاً حياة حرة وسليمة والتي حلم بها لأنفسهم عدة أجيال من المقهورين. وقاتلوا بضراوة في سبيلها. كثيراً ما أفكر بالعنف، لكن مهما يكن العنف الذي قد آتي به في هذه الآونة سوف يبدو، ويكون، واهيا جدّاً.

جسدك ضخم، قالت. فأنت رجل. إذا ما شهدت عنفا يمارس ضد شخص ما، بمقدورك أن تفعل شيئاً بهذا الخصوص. بمقدورك أن تكون أكثر مباشرة. وأنت تمنح نفسك الإذن بأن تشعر به. لا تمنح النساء مثل هذا الإذن.

أوافقك على مسألة الدفاع عن النفس، قال سويلو.

أوليست دحرجتهم وإخراجهم من الكوكب هو دفاع عن النفس؟ سألته. شاركت في مظاهرات كثيرة حتى الآن وقد أوقفت عدة مرات، أنا فعلا مرهقة تماماً.

ضحك سويلو. تهب رياح رقيقة ولطيفة من جهة غير معروفة. فيفقد الأشرار إحساسهم بالجاذبية الأرضية ويبتعدون هائمين في الفضاء. إضافة إلى، تعلمين كما أعلم أنا تماماً أن ليس جميع البيض مسؤولين عن ارتفاع تكلفة البلوتونيوم في السوق النووية السوداء، من بين مواد أخرى، أو عن الطريقة التي يتسرب فيها رويدا رويدا إلى مياه الشرب... ماذا عن أصدقائك؟ ماذا عن كارين وجاكسون وجون...

أجل، أعرف. جورجيا أوكيفي وفان غوخ وجميع الأوكيفات والفان غوخات القادمين. بيتي سيغر والدكتور شارلي كليمينتس يقلبون الموازين بالتأكيد. لا بد من التخلص من العنصرية والجشع. ليس من البيض. لكن هل بوسعهم تحييد ذواتهم عن عنصريتها؟ تنهدت فاني هل أستطيع أنا؟ وكم لدينا من الزمن؟

لكن مساوئك يا فاني، على عكس مساوئهم، كلها في رأسك. هم لا يعانون من الهواجس، أو بالكوابيس أو الأحلام. لا يكفي خيالك وحده لوقف الاضطهاد العنصري والإرهاب النووي. أنا آسف، مجرد تخيل انفتاح أبواب سجن بولسمور لن يجعل مانديلا يخرج منه.

هل يمكنني أيقاف الاضطهاد العنصري من قبل أن يبدأ في ذاتي؟ وكانت حددت أول موعد لها عند روبين، في صبيحة اليوم التالي.

كانت أوقاتا عصيبة لكليهما. في ظل مخاوفها من القاتل المتواري في داخلها، انسحبت فاني من الاحتكاك مع البشر إلى أقصى حد ممكن. هجرت قاعة التدريس؛ المستفزة جدّاً. تتدحرج فيها العقول يوميا. عقول غبية وبريئة وطفولية، بشر لم يعلمهم آباؤهم شيئاً عن آلية عدم السماح للآخرين بكرههم في هذه الحياة. انتقلت في المرحلة التالية إلى الإدارة. حيث امتزجت البيروقراطية والعنصرية خليط قاتل. ظل نصل سيفها الفضي مشهرا دائماً في الهواء. اعتقدت أنها عاجزة تماماً عن تنظيف ركبتيها من الدم. بلغ ضغط دمها، شأنه شأن ضغط أغلب السود، إلى مستويات حرجة. اتصلت والدتها، بعد تقييم سويلو لوضعها، بشكل مفاجئ بفاني ذات يوم وحثتها على الانضمام إليها في رحلة مفرحة مريحة وهادئة إلى إفريقيا. سوف تلتقي والدها، الذي لم تره قط، والذي ساهم في نيل بلاده لاستقلالها من خلال القتال.

***

إنها مسألة مثيرة، قال آولا مستغرقاً في التفكير، بعد عدة أشهر من زيارة فاني ووالدتها، فيما كانوا يجلسون ذات يوم بكسل يحتسون شاي الظهيرة.

ما هي المسألة المثيرة للاهتمام؟ سألته فاني، التي شرد ذهنها صوب سويلو وهي ترشف الشاي، ونسيت عما كانت ووالدها يتحدثان. نظرت إليه نظرة عميقة بعد كلامه، بشيء من الانزعاج. ظل طيلة الصباح يساوم على إحدى مسرحياته مع مراقب مطبوعات حكومي أمّي؛ تسببت له هذه المناورة بالكآبة والانسحاب، كأنه لم يعد قادراً على تحمل هكذا غباء لفترَة طويلة.

إذا كان أفضل من يحارب الرجل الأبيض هو من يعرفه معرفة مباشرة حقة، قال آولا. عرفت مرة مقاتلة عظيمة لم تقع عينها على شخص أبيض البتة ومع ذلك كانت تتلمس ظلمهم في كل جانب من جوانب

حياتها، ولذا فقد قطعت آلاف الأميال سيراً على الأقدام بغية الانضمام إلى المعركة ضدهم. وقد أبلت بلاءً رائعاً. أظن أنها كانت تشعر بفضول كبير حيالهم كبشر، إذ كانت دائمة السؤال عن بياضهم وأطفالهم وعن أساليب عيشهم. إلا أنها ثابتة كالصخر في الهجوم عليهم في ذات الوقت. تهاجمهم بلا رحمة.

ماذا تعني بقولك، بلا رحمة؟

قطب آولا جبينه. كما لو أنها تقوم بتطهير وتنظيف سفح شديد القذارة والوعورة.

وما عدا ذلك، كيف كانت هيئتها؟

أوه، هادئة جدّاً. لطيفة. شخص رائع بحق. حتى في تعاملها مع الحيوانات؛ أكثر حكاية تروقها من بين الحكايات التي يرويها الثوار حول نار المعسكرات في الجبال والخنادق والكهوف في منفانا هي تلك التي تحكي قصة ساندينو والقردة. أتعرفينها؟

هزت فاني رأسها نفياً.

حسناً، قال آولا، كان رجال مجموعته في حرب العصابات يقبضون على صغار القردة التي تعيش في الغابة حيث يختبئون ويلتهمونها. ألَّف ساندينو خطبا عاطفية مؤثرة دفاعا عن القردة؛ منوّها أن زعيق القردة، من بين محذرات أخرى، هو الذي كان على الدوام ينجي الرجال من هجوم العدو المباغت. إنهم أخوتنا الصغار، قال ساندينو، رفاقنا المخلصين. كيف يمكن أن يخطر لكم التهامها؟ توقف آولا قليلاً، وهو يفكر بالمرأة. هام الصغار بها. وأنا أيضاً همت بها. كانت رؤيتها للمستقبل، بعد سقوط نظام البيض، رحبة للغاية؛ لسوف يستوعب الجميع من بشر ومخلوقات. هذا هو سبب محبتها لساندينو؛ مع أنه كان يتضور جوعاً شأن بقية رجاله، فقد حافظ على رؤيته للمستقبل الذي يصبو إليه، مستقبل سوف يتسع حتى للقردة.

ألم تكن تخيفك تلك المرأة؟ سألته فاني.

لم تُخِفْني، قال آولا. ربما كان علي أن أعي بأنها *أنا*. كل منا كان انعكاساً لصورة مطابقة تقريباً للآخر. أنا أيضاً لم أكن أرغب في أن أصبح قاتلا. لم أرغب في أن أكون عديم الرحمة. بدا أنه ما من سبيل آخر، على كل حال. لقد اقترف البيض بحقنا أموراً رهيبة؛ سوف يزعم الكثير منهم فيما بعد أنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل، لمجرد عدم علمهم به. الأدهى مما كانوا يقترفونه بحقنا، نحن الكبار، هو أنهم أبادوا أولادنا. الذين كانوا يموتون جوعاً - جسدياً وعقلياً وبأحلامهم - على مرأى منا. حاربنا الرجل الأبيض كما حاربنا الأوبئة.

لعل أصدق أصناف القتال هو الأسلوب الذي حاربت فيه أنت، قالت فاني. إن سعار وهم الحرية في الولايات المتحدة حالة شكلية خالية من الجوهر. ليس متماسكاً أبداً، وهم قاطع ونهائي. أمور كثيرة تبقى رهينة رجال السياسة الكريهين الذين تنتخبهم الأغلبية الساحقة من البيض. لدى السود شعور، باعتقادي هو الأغرب، يتمثل بالهرولة اللانهائية في المكان.

أومأ آولا برأسه موافقاً. بالطبع، قال، هذا ببساطة معناه أنك لا تزالين تحافظين على حقيقتك. وهذا ليس بأمر سيِّئ.

لست أدري إن كان كذلك، قالت فاني. يبدو أننا بدأنا نفقد حقيقتنا من وجهة نظري. إننا لا نفهم البيض؛ هنا يكمن جوهر المسألة. ليس لأننا لم نعد نرغب في الفهم؛ هذا مخيف جدّاً. نحن عاجزون تماماً عن فهمهم. نزعم من حين لآخر أننا نفهمهم، إنما هذا فقط كي نطمئن أنفسنا. إذا ما جابهنا مخاوفنا يوماً واكتشفنا أننا محاطون بكم هائل من البشر لا يمكننا استيعاب أساليب عيشهم، لست أدري ما الذي قد يحدث. هم لا يفعلون أي شيء بالطريقة التي قد نفعله نحن بها. تشييد تلك الأبنية الشاهقة التي تميت التراب من تحتها، مثلاً (هنا تذكرت الهنود الذين يعتبرون وزن الخيمة متعب جدّاً للتراب، وكان لديهم ترانيم تحتوي على موعظة تحضُّ على ارتحل بخيمتك، مع أقاربك، حتى ترى أمنا الأرض ضوء الشمس!)

أو احفر ونقب وازعم أن كل شيء مدفون تحت التراب. عظام البشر والمواد المدفونة مع الميت من ذهب وألماس وفضة، يعلم الله وحده ماذا أيضاً - يورانيوم، بلوتونيوم. لم يعثر الملونون على معظم ما هو مدفون تحت الأرض، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنه أبداً. قالت فاني مستهجنة. لكننا همجيون، كما وصفنا شيف سياتل، أنّا لنا أن نعرف؟

إليكِ نظرية للتطور سوف تنال إعجابك، قال آولا، الذي كان يعلم بأن كثيراً من الأميركان ذوي الأصول الإفريقية لا يحبذون الفكرة القائلة بأن الصناعيين الأوائل كانوا من الأفارقة القدماء. أول مرة عُرف فيها صّهر فيها الحديد كان في إفريقيا؛ لهذا وُجِدت، نظرياً على الأقل، اثنتان أو ثلاث من الحفارات في هذه المنطقة، طالما أن مكونات صنع الحديد تستخرج من باطن الأرض. لم يكن من يفعلون هذا أشخاصاً مقبولين في المجتمع، مع ذلك. شأنهم شأن شعب الهوبي في بلادك، كان معظم الأفارقة القدماء يعتقدون الأرض جسداً يحتاج إلى جميع أعضائه وعظامه ودمه كي يؤدي وظيفته على أكمل وجه. أرغم عمال مناجم الفلزات على الرحيل، هكذا تقول النظرية. وتوجهوا شمالاً.

أجل، قالت فاني، عابسة، وللأسف في حوالي عام 1492 تابعوا طريقهم باتجاه الغرب.

كتبت لسويلو:

ينتابني شعور كشعور الطفلة، وأنا أسأل والدي ما الذي علي القيام به. لكنني أعترف أنه شعور في منتهى الراحة، شعوري أن لدي أب لأسأله.

أتعلم بما نصحتني والدتي؟ قالت لي، اغفري لهم يا فاني، هل تظنين أنهم يعرفون ما هم فاعلين، حين يعاملوننا بهذا السوء؟ هل تظنين أنهم يعرفون ما هم فاعلين حين يشفطون النفط من باطن الأرض حتى آخر قطرة منه في أحد طرفي العالم ويتذمرون من حدوث الزلازل في الطرف الآخر؟ هل تظنين أنهم يعرفون ما هم فاعلين عندما يملؤون السماء بالصواريخ الفضائية والخردة، أسمى مهماتها هي التجسس على

الكواكب الأخرى، التي لا تعني شيئاً بالنسبة لتسعة وتسعين بالمائة من الشعب وبلا ريب لجميع النباتات والحيوانات على سطح الأرض؟ هل تظنين أنهم يعرفون ما هم فاعلين حين اخترعوا مخترعاتهم ثم فرضوا تلك الاختراعات المتعبة والقاتلة على العالم؟ بالذات على عوالمنا. لا، يا حبيبتي. هم لا يعرفون ما هم فاعلين. أما أنت فمحظوظة، تعيشين في عصر تكتشف فيه الحقائق.

عندما كنت صغيرة، تقول، كانت كلمة الرجل الأبيض - مدعومة ببندقيته - قانوناً. رؤيته ملهمة للعالم. لم نكن لنجرؤ على معارضته حتى عندما قال بأن المبرر الوحيد لوجودنا على هذه الأرض هو أن نصبح عبيدا. كان يمتلك القوة المطلقة. نراقبه بجزع ورهبة من مجمعاتنا السكنية التي كانت هي كل عالمنا. كان البعض منا جشعاً. واعتقدنا، كما تجلى لنا في حينها، أنه يستقدم لنا أشياء أفضل مما لدينا. لم يحدث هذا *مطلقاً*. بقينا على الدوام في فقر مدقع، بوجهة نظر سيئة حيال أنفسنا. أقام قطيعة بيننا وبين أجدادنا، بيننا وبين أساليب عيشنا؛ لم تكن أساليبا مثالية بالمجمل، إنما كان يتوجب تغييرها وفقا لمنارتنا نحن. كي يشعر بمدى سطوته، كان لزاما عليه أن يبقينا مروعين وبائسين معدمين. ما من إنسان يشعر بأمان في دخيلته ويركز كل هذا التركيز على محو شخصانية الآخر وإشعاره بعدم أهليته. ألفى نفسه عاجز عن محاكاة أصواتنا أو حركاتنا أو ملابسنا أو طعامنا. كان الحر مزعجا له. الحر هو الذي أجبر قبيلته قبل آلاف السنين على مغادرة إفريقيا اتقاءً له.

الرجل الأبيض أخ لنا؛ كنا على الدوام نقول هذا. هو أيضاً ولد إفريقيا الضال. تعرفنا عليه بسهولة لدى عودته وأعددنا له عجلاً سميناً. لكنه لم يَكتفي به أبداً. كان شديد الخواء، نهما لكل ما نملكه ولا يملكه هو، لدرجة أن العجل السمين بالكاد كان بمثابة مقبلات. مضى قدما والتهمنا وأولادنا، التهم عقولنا وعظامنا. هذا ليس بسلوك يأتي به بشر أسوياء. لا بد من التماس الأعذار للمرضى.

رحت أفكر حتى في خضم حديث والدتي: وماذا عني؟ إنني أول من ينطبق عليه الحالة المرضية. لقد أصبت بعدوى عنصرية العالم؛ أصبت بالعدوى مذ كنت طفلة، قبل معرفتي بما يعنيه مفهوم العنصرية حتى. أصبحت مهيأة الآن، في هواجسي، لكَيل الضربات. إذا ما فعلت وضربت، إذا ما انقلبت هواجسي إلى وقائع، هل سأجد من يلتمس لي عذرا؟ والأهم، هل يمكنني أن ألتمس الأعذار لنفسي؟

نحن متسامحين جدّاً، قلت لماما. بدأت أكره الكلمة ذاتها.

لا، همست لي (كنا نتبادل هذه الأحاديث في السرير غالبا)، هذا لا يجوز. المغفرة هي الركن الأساسي للصحة السليمة والسعادة، تماماً كما هي الأساس لأي تقدم دائم. بغير التسامح لن يحدث نسيان الشر؛ بغير النسيان سيتواصل تهديد العنف. والعنف لا يحل العنف أية مشكلة؛ يطيل أمد نفسه ليس إلا.

كيف استطاعت امتلاك هذه الرؤية، التي بدت غير ارتدادية ومنفصلة عن الواقع. على النحو الذي تسير به الأمور في الولايات المتحدة، قلت، سرعان ما سيفوق عدد نزلاء السجون من السود منهم في الشوارع. جميع المواطنين السود في جنوب إفريقيا محصورين في غيتوات وأرض للسود يحتقرونها. أنظري إلى ما حدث وما زال يحدث للهنود. أنظري إلى سكان أستراليا الأصليين، وشعب الماوري في نيوزلندا. أنظري إلى أندونيسيا تحت انتداب الألمان. أنظري إلى الأنديز الغربية. لا يملك التسامح رحابة كافية تؤهله استيعاب حجم الجريمة.

ما الذي يحطم الإنسان؟ همست والدتي بنبرتها التي تميز البعثة التبشيرية في إفريقيا. أتدرين؟ حينما وصل آبائي الثلاثة (هكذا كانت تشير بالقول إلى والدها ووالدتها بالتبني، كورين وصامويل ونيتي) لأول مرة إلى إفريقيا قاموا بتعليم الإنجيل الموروث من اليهود، الذين هم أوائل المسيحين، ولذا فقد كانوا يؤمنون بإدارة الخد الآخر وإعطاء قيصر ما له، إلى آخر ما هنالك. مع مرور السنين شاهدوا خدوداً ورؤوساً وأجساداً

بأكملها كلها مدماة ومحطمة، حسبما طالب قيصر واستولى على كل شيء. استولى على الأرض، ما فوقها وتحتها؛ استولى على المياه. ادعى بأحقيته بالفضاء الجوي المحيط بتلك الأرض. أخذ الأولاد للعمل في حقوله ومناجمه. دمرهم وبالتالي سلبهم ثقافتهم، وعلاقتهم بأسلافهم وبالكون – والأخطر من أي شيء آخر. سلبهم مستقبلهم.

كان آبائي شهودا على موت البشر طوال الوقت. توقفت والدتي قليلاً عن الكلام. هل تذكرين، على سبيل الصدفة، ما قالته هايدي سانتا ماريا لحارس السجن الذي نقل لها نبأ مقتل أخيها المحبوب وهو أحد أشد الثوار الكوبيين شباباً ووسامة، بعد أن أحضر لها عين أخيها هابيل وخصيتي حبيبها؟ قالت له – تلك المرأة التي سوف تقدم على الانتحار بعد عشرين عاما – هو لم يمت فمن يقتل في سبيل بلاده يظل حياً أبد الدهر.

كلام جميل، قلت. لا أذكر إن كنت قد قرأته يوماً، أو لعله من الألم لدرجة توجب علي نسيانه.

بالمحصلة فقد كبرنا أنت وأنا يا سويلو في ظل خلفية اغتيال قادتنا. حبن قتل هابيل سانتا ماريا كنا للتو قد ولدنا، على ما أظن، وغاب باتريس لوممبا من نشرات الأخبار، والكثير من أمثاله. أم أنه قتل بعد هابيل؟ أو أزيل شأنه شأن الكثير من النفايات عن جسد الإمبريالية الداعر، كما يحلو لمغامرات المخابرات المركزية الأمريكية أن تصفه على شاشة التلفزيون. لكنني وأنا أفكر – وأنا بحق لا أطيق التفكير بها – بجميع حالات القتل، وكل هذا الضياع والألم، كل هذه *النفايات*، كانت والدتي تواصل همسها.

راح آبائي يعتنون بالكثيرين أثناء احتضارهم، قالت. لاحظوا أن بعضهم يموت موتاً نهائياً. يمضون ويغادرون ويخلون المكان. لا يبقى شيء منهم. لم يكن هذا يصح على الجميع.

ما الذي تقولينه؟ سألتها.

مات بعضهم بشيء من النشوة. هؤلاء كانوا غالباً من الذين تعرضوا

لأسوأ أنواع المعاملة. بعضهم مات بذات الشغف الذي عاشوا به، وبدا في لحظة النهاية كأنهم يرون، قادمة لترحب بهم، جماعة الأرواح الأثيرة التي كانوا مواظبين على الإيمان بها، وتابعوا العمل الصالح على وجه هذه الأرض مسنودين بذكراها.

يا ابنتي الحبيبة، قالت والدتي، مات بعضهم، لا بل الكثير منهم، وهم على حقيقتهم *بأفضل ما كانوا*. كشعب بأكمله. ما من كلام من ذلك النوع الذي نشاهده على التلفزيون يقال على فراش الموت عمن سوف يحصل على الفضة، ومن سيرث السيارة، من أشير له في الوصية ومن أهمل منها؛ تلك أمور تشغل بال بشر لا يملكون أدنى فكرة عن علة وجودهم على الأرض. صحيح أن هؤلاء الناس، هؤلاء الثوار كهيدي وأخيها هابيل، قد منحوا حياتهم، لكنهم حافظوا عليها أيضاً؛ لأن حياتهم ظلت ملكاً لهم حتى الرمق الأخير، حياة معافاة وغير ملوثة. هذا ما تركوه لنا.

ما كان هابيل ليدري حين قتل أنني سأهمس بعد سنوات بحكاية موته لابنتي الوحيدة، على أمل أن تتعلم من هذه القصة وتلهمها، كما حدث لوالدتها. لستُ بوطنية، قالت والدتي، لذا فإن موت امرئٍ في سبيل بلاده ليس هو ما تأثرت به تأثراً شديداً في عبارة هايدي سانتا ماريا. لا، ما أثر في هو انبعاث طاقة بهية في العالم لدى موت البشر بكليتهم؛ يطلقون جسارة رائعة قبيل موتهم، والتي بالمقابل تبث في البقية ابتهاجاً عميقاً جدّاً حيال الحياة. هذا ما يعرفه كل من تعرض للتعذيب، وهذا هو سبب وجود التعذيب، حسب اعتقادي. تخيلي نفسك بلا عينين أو ثديين أو خصيتين، تحت رحمة أولئك الذين بلغ انكسارهم حدا لا يترك لهم خيار عندما ستحين ساعتهم سوى الموت نهائياً، دون أن يتركوا ذرة من الإلهام أو التشجيع أو الفرح، وترفضين الكلام أو إعطاء المعلومات أو إفشاء أسماء الآخرين أو لعق الجزم أو قبول ما يعرضونه من ذهب أو مهما يكن ما يحاولون إجبارك على القيام به. حتى لو نجحوا في تحطيم إرادتك ولعقت جزماتهم، فأنت تفهمين مدى اعتلالهم لدرجة

حاجتهم أن تلعق جزماتهم. تفكرين بهم كأنهم أطفال ربما، أطفال صغار وليس لديهم من يحميهم من الكبار، هؤلاء الكبار الذين أرغموا سابقاً على لعق البوط، لا أحد أحبهم حباً مُرْضياً وقوياً بما فيه كفاية كي يشعرهم بالأمان. إذا ما اقتلعت لسان أحدهم، يظل هذا اللسان في يدك طيلة حياتك الباقية. ولهذا فأنت مسؤولة ربما عن كل ما نطق به ذلك الشخص. وحدهم الذين تعرضوا للتعذيب يفهمون هذا، وحدهم الذين يتغيرون. البعض يفعل، كما تعلمين. سألتها، أتقصدين أن الشر برمته، كالعنصرية أو التمييز الجنسي مثلاً، ناتج عن حالة مرضية؟

ليس هذا وحسب، همست، بعد أن يكبر، سوف يقترف الطفل بحق الآخرين كل ما كان قد تعرض في طفولته. هكذا جبلنا، بوصفنا بشراً. اقشعر بدني وأنا أفكر بما كانت عليه طفولة هتلر، قالت. يمكن لأي شخص أن يلاحظ بأن الفلسطينيين وأولادهم يعيشون هذا الواقع ثانية تحت سلطة الإسرائيليين في الوقت الراهن.

لكن لحظة، قلت. لا ينسحب هذا على الجميع. أعني، عانى البعض من طفولة رهيبة ولم ينقلبوا إلى أشرار بعد بلوغهم.

وما أدراك؟ سألتني.

حسناً، دعينا نأخذ والدتك ماما سيلي الكبيرة كدليل A. شخص فاقت محبته ولطافته الخيال.

مر صمت طويل قبل أن تعاود ماما كلامها.

أحد أشد الأمور المقلقة التي لاحظتها لدى السود في الجنوب، لدى عودتنا إلى الديار قبيل انتهاء الحرب، هي سوء معاملتهم - بطريقة مؤذية وشريرة وعديمة الإحساس - للحيوانات. ولم تكن جدتك استثناءً في سلَوكها. كان لديها كلب - الجميع يقومون بتربية كلاب الصيد - أطلقوا عليه اسم كريغتون، لا تضحكي. كان يعبدها، وعبدها الذليل تماماً. لم أر يوماً عينَين بانكسار وألم وحزن عينيه وقدرتها على التعبير تعبيراً كاملاً. لم تنظر أمي إليهما يوماً بالتأكيد. ظلت تعامله بازدراء قاسي ومحتقر. لم أرها

مطلقاً تلاطفه. لم أسمعها يوماً تتمتم ولو بكلمة واحدة باتجاهه. معاملتها لكريغتون هي الأمر الوحيد الذي يسبب الشجار بين والدتي والسيدة شوغ، على ما أذكر. أغرمت السيدة شوغ بالحيوانات على قدر حبها للبشر. لم تكن لتحتمل أن تضرب سيلي، وهي التي وقفت في وجه ألبرت زوج سيلي ومنعته من ضربها، الكلب المتذلل ضربا لا رحمة فيه وظل يحاول بلا جدوى أن يلحس يدها، حتى وهي تلوح له بأحد أحزمة زوجها القديمة أو بحزام قديم لشخص ما. ترفسه ليبتعد حتى ولو لم يكن في طريقها.

لقد راقبت هذا التصرف الغريب قبل وقت طويل من إدراكي لمبعث مراقبتي. قبل أن أستوعب أسبابه. أخبرتني أمي وماما نيتي عن مدى الألم الذي كابدته في حياتها. تعاملت معي ومع آدم وتاشي *وولدها* بيني بطريقة رائعة. كانت امرأة ظريفة وممازحة ومبدعة ومفرحة. امرأة مسالمة. غالباً ما كان الناس يتساءلون عجباً، لماذا لا تؤذي السيدة سيلي ولو ذبابةً! حسناً، لقد قتلت أعدادا هائلة من الذباب، كما يفعل كل من يعيش في المناخ الحار. معاملتها لكريغتون هي التي يبدو أن أحداً لم ينتبه لها. بل على النقيض تماماً. في الواقع، وبسبب سوء تعاملها مع كريغتون، فقد حذا الآخرون حذوها. جرت الكثير من الدعابات المقرفة على حساب كريغتون؛ كل ما يفقد يفترض أنه هو من سرقه، حتى ولو كان هذا الشيء مشطاً للشعر أو كبة خيوط أو حتى خيط! كل ما يتحطم أو ينسفح يكون ذنبه. يعتبر غبياً وكسولاً وأخرقاً وقبيحاً ودونياً. كان كلباً مشرداً جيء به ببساطة إلى هنا، حسبما قالوا. لا أحد يعلم من أين جاء. ولست أدري حتى كيف حصل اسم كريغتون.

ماذا جرى له؟

حررته السيدة شوغ، همست، وابتسامة إعجاب في صوتها.

حقّاً، قلت.

أجل، لقد فعلت. حملته معها وذهبت إلى ميمفيس. كان لديها منزل خاص بها هناك، دائماً، كما تعلمين.

وماذا فعلت به؟

ظلا هناك طيلة الصيف. لست أدري ما فعلت به. إنما حين عادا، كان كريغتون قد أعيد تأهيله.

حقّاً، قلت.

أجل، قالت ماما. ما عاد كريغتون عبداً؛ غدا كلباً. ليس هذا وحسب، فقد تعرف كريغتون على الفرق. في المرة التالية التي حاولت ماما سيلي أن تضربه، عضها. وضحكت السيدة شوغ. لم تعد ماما سيلي تجرؤ على محاولة ضرب أو تحقير كريغتون ثانية. ضحكات الآنسة شوغ هي التي حالت، حسب اعتقادي، دون حدوث ذلك مجدداً.

الضحك عليها، من قبل شخص تحبه بكل جوارحها، هو الذي مزق نياط قلب ماما سيلي. بدأت تشعر ***بكل الكائنات***: النمل والخفافيش وعلجوم هوبي المدهوس على الطريق.

* * *

ما السبب في تسميتك روبين؟ سألت فاني.

حتى لا يبدو مكسيكيا. والدتي تدعى إسبيرانزا. عندما أتينا وراحت تعمل لصالح الغرينغات - كما كانت تلقبهم؛ هذه الكلمة التي ينبغي علي، كمحللة محترفة، الامتناع تماماً عن استعمالها - كانوا يتظاهرون بعدم قدرتهم على تذكره أو لفظه، وبكل الأحوال فمعناه **الأمل**. أليس كذلك؟ لهذا ما كانوا يدعونها به. اسمي الخاص الذي تخاطبني به هو آلامو، الذي يعني شجر الحور. وآلامو هو الاسم الذي لا يزالون يخاطبونني به في المنزل. كفانا حديثاً عني، قالت روبين. هل جربت يوماً التنويم المغناطيسي؟

أجل، أجابت فاني. أحد أنواعه. ذهبت إلى أوهايو ذات صيف بحثاً عن عمل - كان ذلك أثناء دراستي الجامعية - ولم يكن ثمة الكثير من فرص العمل لأمثالي. قرأت إعلاناً في إحدى الصحف تعرض فيه كلية

الطب المحلية طلباً لعدة متبرعين كي يخضعوهم لتجارب حول تأثيرات التنويم المغناطيسي.

رائع؟ قالت روبين. وماذا حدث؟

أعادوني إلى عمر ست سنوات. طلب مني أن أكتب بالطريقة التي كنت أكتب فيها آنذاك. عندما عدت إلى الوعي، بعد خضوعي للتنويم المغناطيسي، رأيت اسمي مكتوباً على قطعة ورق كانوا قد أعطوني إياها، وشاهدت خربشاتي وأنا في السادسة من عمري، خطي في الصف الثاني في المدرسة الحكومية.

وهل كانوا يعرفون انتقاء الأسئلة التي يجب أن يطرحوها عليك، عندما أخضعوك للسحر؟

بالطبع لا، قالت فاني. إنهم من الشبان البيض ممن، ربما، لم يتحدثوا يوماً مع امرأة سوداء ما خلا أولئك اللاتي ينظفن منازلهم.

شعرت في هذه اللحظة بسقوط سريع في داخل ذاتها؛ كأن صدرها من الداخل وظهرها أشبه بتلك الجدران النيلية الباهتة والمرجانية لمنحدرات الأخدود الصحراوي. هناك في أعماق ذاتها راحت تفكر بشكل حالم، إنني لون الصحراء. *ما أجمل هذا الشعور*. هبطت حيث لا قرار. مجرد فراغ. ظلمة وفراغ مريح.

ما رأيك بالبيض؟ سألها صوت روبين. لكنه كان صوت الله، كما أحست فاني.

أما صوتها هي فقد بدا أنه لم يعد ينتمي لها. بالكاد كان يفرُّ من شفتيها، على كل حال. *أكانت* تتكلم؟ أخشاهم، هذا كان ردها.

كيف تبدو لك هيئتهم عندما تنظرين إليهم؟ قال لها الصوت.

في منتهى البدانة، قالت. إنهم يأكلون على الدوام. حيثما تذهبين، ترينهم جالسين ويأكلون. في باريس، يأكلون. في لندن، يأكلون. في روما. يأكلون ويأكلون. يخيفني هذا.

لماذا تشعرين بالخوف؟

أشعر أنني أعاني من مجاعة لدى رؤيتهم يتناولون الطعام. وأنني من جلد وعظم. أشعر بأسنانهم على ساقي. حين أخفض بصري على جسدي، أحياناً لا أرى أسنانهم على ساقي، وإنما سلسلة باردة فقط. أشعر أنني هدأت لدى إدراكي أنها ليست أسنانهم، بل مجرد سلسلة. أعتقد أنهم يسقطون حالهم علينا عندما يلقبوننا بآكلي لحوم البشر.

ما هي دواعي خوفك الشديد هذا؟ إن كانت مجرد سلسلة تلك التي على ساقك، وليس أسنانهم؛ سلسلة يمكن كسرها ونزعها.

أرى نفسي أحياناً أنضم إليهم على الطاولة وآكل آكل وآكل كثيراً جدّاً. ننتفخ جميعاً ونصبح بدينين. تتدلى ذقوننا حتى قفصنا الصدري وعيوننا مغلقة بإحكام نتيجة السمنة. لكن ذاتي التي كنتها لا تزال حاضرة، مع ذلك. هناك على الطاولة وتشتمُّ رائحة الطعام. وهي من الفقر والهزال كما كانت دائماً. لا شيء فيها هي وصغارها سوى العيون والجلد والعظم. وأنا جزعة، لأنني أحبها كثيراً ولأنها الذات التي قد فقدتها. نهم يمضي بنا إلى اللامكان. نهم لا حدود له يمضي بنا إلى اللاغاية أيّاً تكن هذه الغاية. وأنا خائفة، أوليست *أسناني* هي تلك التي على ساقيها؟

* * *

لا تخطئي، قال آولا، فالشعب نفسه سيقف إلى جانب من يناضل في سبيل القضايا السرمدية المحقة. لهذا السبب تعتبر حركة المقاومة حركة لا غنى عنها. كان هو وفاني يجلسان على الشُّرفة يتناولان الفطور: عِصير البابايا وفاكهة وقهوة وخبز بالزبدة، إضافة إلى عدة أصناف من المربيات؛ يبدو أن آولا، كما تبينت سابقا، يطرح أعمق أفكاره وهو على المائدة. تصوري أنك تقيمين في كهوف قاسية ومتوارية، كما تأملين، في الريف وتتناولين فطائر الأعشاب وتشربين شاي السحالي البري؛ آثار لسعات البعوض باقية على جلدك وحذائك مهترئ بفعل الرطوبة،

لكن سعادة كبيرة تغمرك أحياناً إذ يطرح الجميع ذات الأسئلة بالضبط أو تشعباتها التي تشغلك حول نفس القضية. هل تعرفين ما يفعله مقاتلو حرب العصابات أكثر من أي أمر آخر؟ تحتل المناوشات القتالية والمعارك جزءاً صغيراً جدّاً من وقتهم. إنهم **يتكلمون**. توقف آولا عن الكلام زمناً كافيا ليتناول ملء ملعقة من الفاكهة. الكلام، أردف قائلاً وهو يمضغ اللقمة ويبتلعها بسرعة، الكلام مفتاح التحرر، لسان المرء هو منجل الحرية المشحوذ. نحن البشر الصنف الوحيد، كما يزعم البعض، الذين اخترعنا الكلام. لم نخترعه إلا نتيجة حاجتنا إليه، طالما أننا أقل ذكاء بكثير من معظم الحيوانات وأكثر عرضة لارتكاب الأخطاء الفادحة الكارثية في علاقاتنا مع الآخرين.

عضت فاني على كعكة مستديرة صغيرة وقاسية فانفرطت وانهمر فتاتها على بلوزتها.

قبل أن نصل إلى السلام العالمي، لا بد لنا من التوصل إلى لغة عالمية، قال آولا، وهو يمد يد كي ينفض عنها الفتات، مما جعل فاني تشعر كأنها طفلة صغيرة. يمكنك أن تتصوري ضراوة الحروب التي ستنشب بين الشعوب بسبب اللغة الجديدة! ضحك. بالطبع، ستكون ولا بد لغة راقية وبسيطة نسبياً، ويجب ألا تحتوي على عبارات من قبيل أنا أحتقر نوعك، أو أنا لا أحترم إلهك؛ باختصار، يجب أن تكون لغة أولينكا. أنا أمزح. قال آولا.

لا، أنت لا تمزح، قالت فاني مبتسمة.

هذا *الإحباط* من البيض، قال آولا متفكراً، وليس ردا على ابتسامتها، هو رد فعل تلقائي على ما اقترفوه بحقنا بشكل جماعي وليس ببساطة كأفراد، إنما كشعب وثقافة وعرق. إن غريزة الدفاع عن النفس والحفاظ على الذات هي غريزة فطرية، مع أن البحاثة البيض أجروا مؤخراً جدّاً دراسات تثبت، حسب وجهة نظرهم، بأن هذه الغريزة موجودة لدى جميع الشعوب ما عدانا. لقد وضعونا في أسفل السافلين، كما ترين،

لدرجة ظنوا معها أننا لن ننهض مجددا أبداً، ولذا فقد اجترحوا نظريات تقول بأن ولعنا لأن نظل قابعين في الدرك الأسفل إن هو إلا ولع فطري خالص. أخذ رشفة من قهوته، ثم أضاف لها مقدارا من القشدة، وتابع حديثه. كنت مسؤولاً عن قتل بعض البيض، قال آولا. هذا لم يحررني من الناحية النفسية، كما ألمح *فانون*[1] على ما أظن. ولم يزدني تظلماً من ناحية أخرى. كنت ببساطة أخلي نفسي من الزنزانة التي يمثلونها بالنسبة لي، وأحتل حيزاً في هذا العالم أيضاً، من أجل أولادي.

وفكرت فاني: هذا صحيح. حتى قبل خمسين عاماً خلت، ما كان بمقدوري السفر إلى هنا. ما كنت أستطيع السير أو القيادة في طرقات بلاد والدي بأمان. ما كان قادراً على ملاقاتي على أية بوابة من بوابات المطار. ولا كان يستطيع حمايتي من وحشية البيض في الشارع.

أما أنت فيجب أن توائمي قلبك، قال آولا. ستنجحين؛ الأمر مختلف بالنسبة لكل منا. وبعدها تتكيفين، قدر ما يمكن من التكيف، مع محيطك. فكر لحظة وتنهد. مهما حصل، قال، ابتعدي عمن يشفقون على أنفسهم. شكواهم الدائمة هي نزوع مروع في شخصياتهم لبذر متاعبهم في مؤخرة بقية البشر.

ابتسمت فاني على هذه العبارة.

يجب عليك الكف عن اشتهاء الأشياء، أيضاً، قال آولا، فالتشييء أحد أقسى المعيقات التي تعترض مسار السلام. إذا ما رغبت أن تصنعي من كل شجرة تصادفينها **شيئاً** ما، سرعان ما سينفذ الهواء من الأرض ولن يبق منه لأي بشري. وحدها الأشجار اليابسة هي أشجار رائعة لصنع الأشياء منها، أضاف. الخشب العتيق المستخرج من الطين خشب ممتاز. ضحك بصوت مكتوم، كما لو أنه يضحك على نكتة خاصة.

اصنعي أمنك برفقة من تكنّين لهم الحب ومن يبادلونك إياه أو

1- فرانز فانون (1925 – 1960) المناضل والمفكر المعروف صاحب معذبو الأرض وبشرة سوداء أقنعة بيضاء – المترجم.

مع الذين ترغبين في محبتهم. هؤلاء رفاقك، على قول الأمريكيين اللاتينيين. بادئ ذي بدء، قاومي إغراء التفكير بأن ما يصيبك هو أمر يقتصر عليك وحدك. آمني أن باستطاعتك نقل ما في وعيك إلى وعي الآخرين. وهو موجود بالفعل، في كثير من الحالات.

حتى في وعي أولئك الذين سقطوا في برميل من المخدرات؟ سألت فاني، بارتياب.

بالذات هؤلاء، قال آولا. الصراع مع الأسئلة السرمدية، تلك التي لم يجب عليها المتمرد أو الثائر في سني مراهقته أو مراهقتها أو في أوائل عشرينياتهم جوابا نهائيا، في سن يظن المرء فيها أن لا مشكلة إلا ولها حل - كلما أزعجتك هذه الأفكار، كلما ازداد التذمر ضراوة بشكل لا نهائي - هي ربما التي أودت بالكثير من أبناء شعبنا نحو الهاوية. لكن بالإمكان إصلاحهم. إذا لم يقضوا نتيجة الإدمان - محاولاتهم لعدم التفكير نهائيا بكل ما يحدث حقّاً في هذا العالم، عبر استنشاقهم لرائحة اللوتس العفن خلاصهم - سوف يتعين عليهم أن يروا بأنهم يقتلون أنفسهم. أسنانهم تقضم سيقانهم.

* * *

أتى سويلو أخيراً من سان فرانسيسكو لرؤية فاني. كانت حينها تقيم لوحدها في كوخ اليورت الصغير الذي عاشا فيه سابقاً خلال فصل الصيف.

طلب مني *والدي*، قبيل وفاته، قالت فاني، وهما يدفئان نفسيهما قرب موقد النار الصغيرة، والتي تفرقع فيها أكواز الصنوبر من حين لآخر، ترتيب علاقتي معك. كلما فكرت بآولا كانت ترى نفسها في زيندزي مانديلا ابنة نيسلون مانديلا، التي سمعت مؤخراً في الإذاعة، عن سعيها للمحافظة على حيوية كلمات *والدها* السجين منذ خمسة وعشرين عاماً. بالطبع التكيف يلزمه شخصان، قالت بصوت جادّ وعيناها شاخصتان في

النار. يتعين علي أن أكافح معك للاقتناع بإمكانية التكيف. هذا لا علاقة له بمسألة إن كنا ننام مع بعضنا أم لا.

تنهد سويلو. ما أصعب هذه المرأة!

وما رأي *والدتك*؟ سألها ساخراً. بدت فاني شابة وأصغر مما هي بكثير، على الرغم من الخيوط الفضية التي ظهرت على صدغيها منذ آخر مرة رآها فيها.

ابتسمت فاني. كما تعلم، والدتي تنصح بالتسامح. ينبوع زيت الخروع المقوي للروح.

ولماذا يتحدثان بطريقة ملغزة ومشفرة عن طريق رسائل غير مباشرة؟ سألها سويلو ينتابه بعض الأمل. لماذا يتحدثان بهذا الأسلوب بدلا من إعطائنا نصائح بسيطة وقابلة للتنفيذ؟

رفعت فاني كتفيها. دعنا نواجه هذا، يا سويلو، قالت؛ لأننا على حقيقتنا ولا نشبه البقية. لسنا بيضا، على سبيل المثال. هذه الرسالة ليست فقط من والديّ، لكنها الرسالة التي بعثت لنا منذ البداية. يمكننا اقتفاء أثر هذه الرسالة من أول تواصل لنا مع الشمس.

بلا مزاح، قال. مع *الشمس*؟

لم نكن نعتبر الشمس عدوا، تابعت فاني بنبرة رزينة، وفي البداية، كانت مجرد إلهة أنثى. وأصبحت بعد ذلك إلهاً، جراء تكثف خيالنا وتمدده إلى أقصاه بلا شك. لم نعرف البرد مطلقاً حتى فترة قريبة، قبل أقل من ألف عام. كنا نؤمن في أعماقنا، بسبب علاقتنا مع الشمس، أننا محبوبون لمجرد أننا موجودون. لا مبرر لنا لكره أنفسنا. كما قال أحدهم: يمكنني التعمق في عبادة الشمس، إذ أنها تبادلنا التعبد. علاقتنا مع الشمس هي حجر الأساس لأماننا ككائنات سوداء. لدينا الميلانين، لدينا هذه اللبدة من الشعر الصوفي. إننا جاهزون للشاطئ البحري. يمكننا تحمل أشعتها وحرارتها. ابتسمت فاني.

لكن، ألا تخشين، قال سويلو، من احتراق جلدك؟ في النهاية، حتى الشمس ما عادت كما كانت. ما كان يسأله فعليا هو إن كانت تملك الشجاعة على محبته أم لا، بشخصيته المتقلبة.

الشمس لم تتغير، قالت، وهي تنظر في النار. لا زالت كما كانت وستبقى على هذه الحال على مدى أجيال لا تحصى على قدر ما ينتبه بني البشرية. نحن الذين تغيرنا بالعلاقة معها. ولد الرجل الأبيض الإفريقي بلا ميلانين، أو بكميات صغيرة جدّاً. دون وقاية من حرارة الشمس. لا بد أنه شعر بأن لعنة الله قد حلت عليه. سوف يسقط شعوره هذا فيما بعد علينا ويسعى لجعلنا نشعر بأننا ملعونون لمجرد أننا سودا؛ لكن الأسود هو لون الشمس المفضل. لم يكن الإفريقي الأبيض بقادر أن يلقي باللائمة على الشمس جراء محنته هذه دون أن يغدو محطا للسخرية، إلا أنه نجح آخر المطاف في إيقاف البشر عن عبادتها. نجح في إحلال إله جديد محلها وجعله شبيهاً شبهاً بعيداً: بارداً ومنعزلاً وميالاً لنوبات وثورات عنف تحرضها الغيرة. وجد لزامًا عليه أن يخلق إلهاً جديداً، طالما أن الإلهة التي يتعبدها البقية كانت قاسية معه. تحرق بشرته. يا لحسن حظه فقد وقع صدفة على أوروبا في البحر المتوسط. لا بد وأن البرودة خلفت لديه شعوراً رائعاً.

ولا، قالت، لا أخشى محبتي لك. على الأقل أراك على حقيقتك. أرى فيك الطفل الذي غدا رجلاً وها هو الآن يتحول بسرعة إلى إنسان. خطاياك ليست مميتة أكثر من خطاياي. انغمست في هواجسي العنفية لسنوات قبل أن أحاول التغيير؛ كما انغمست أنت في العلاقات الاستغلالية العقيمة مع الأخريات. يمكنني أن أرى لماذا لا يتوجب علي أن أكون الشخص الذي لا ينشد الانتقام، لماذا لا يجب على وعل العنف الوقوف إلى جانبي. علاوة على، هل كان من الضروري أن أكون ذلك النموذج الفريد الذي كنته حتى أصبح المخلوق الذي أنوي أن أكونه؟ ثمة بطاقة في أوراق التاروت، البطاقة التاسعة، تحمل الرسالة القائلة: ما تصبو إليه بكل جوارحك، هو أيضاً ما تهابه. هكذا كانت حالي.

لم أشعر بتعرضي للخيانة كإنسان تحديداً بسبب علاقاتك مع الأخريات؛ أو بسبب علاقتك بالذات. كلانا يقوم بصياغة حياته؛ لا بد أن يكون للآخرين أهمية معينة في حياتنا. لا أؤمن بالزواج... على كل حال، لقد شعرت بالخيانة بوصفي امرأة.

الخيانة، بوصفك امرأة؟ لكنني أعلمتك، قال سويلو، كارلوتا لا تعني لي سوى القليل. إنها...

أعلم، قالت فاني. ما قلته لي، أنها لا تعني لك شيئاً من جميع *النواحي*؛ عدا أنها فاقدة للمضمون أو الجوهر. كرهتك عندما قلت لي هذا. كرهتك بوصفك رجلا.

لماذا؟ صاح سويلو. حاولت ألا أجرحك. أن أجعلك ترين بأنني لا أهتم لامرأة سواك. توقف قليلا عن الكلام، ثم أردف بذات النبرة المريرة، غاب عن بالي أنني كنت أتحدث مع مدافعة نسوية.

لا، قالت فاني، بل فقد غاب عن ذهنك أنك كنت تتحدث مع مدلكة كارلوتا.

ماذا؟ سألها.

في تلك الفترة كنت أحاول أن أخلصها من تشنجات ساقيها، وأفك لها تيبس مفاصل ركبتيها، أن أزيل لها التشنج العضلي في ظهرها، وأرخي فكيها، وأقوم اعوجاج رقبتها وأعيد لأصابع قدميها حرية الحركة. كنت أحاول تخليصها من الصداع النصفي الذي امتد لعام. كان جسدها ضئيلا، إنما كثيفا وثقيلا كالرصاص. كنت أعرف جسد المرأة الذي وصفته وقلت عنه :بلا جوهر. إن جوهر كارلوتا العميق هو الألم. ما جعلني أحتقرك هو أنك لم تعرف هذا، وحتى لو عرفت ما كنت لتكترث.

لم تعرف تفاصيل ما عانته في حياتها. وأتساءل أحياناً إن كنتَ قد عرفتَ أي شيء عن حياتها قط. في كل مرة أدلك لها جسدها كنت أذهل بدرجة ألمها الذي أستشعره، وكأن يداي ترتطمان بأمواج من الجليد، ألم حديث ومتكرر قد أصاب هذا الجسد. جسد منكمش على نفسه.

شرعت فاني بالبكاء، ومسحت أنفها بحركة غاضبة بواسطة كمها. كان سويلو يعلم كم تمقت البكاء وهي غاضبة.

يجب على الرجال أن يشعروا بالرحمة تجاه النساء يا سويلو، قالت ببرود. يجب عليهم أن يشعروا بجسد المرأة كما تشعر به المدلكة؛ لا أن يحضنوه بطريقة سطحية ويستعملوه كما لو أنه صور عارية على روزنامة، أو نجمات أفلام إباحية أو دمى ورقية. من هي المرأة التي يمكنها الوثوق برجل عائد من بين ذراعي امرأة أخرى ليروي على مسمعها ما قلته أنت؟ أنا ببساطة لم أستطع.

كرهتك لأنك هجرتني، قال سويلو، وهو يعطيها منديله. لِمَ لَمْ تشرحي لي؟

لقد أعياني تفسير كل شيء، قالت فاني، بضجر وإرهاق هائلين. في محاضرة دراسات المرأة وفي مكتب الإدارة في الجامعة كان علي أن أشرح عن السود؛ لك ولبقية الرجال كان علي أن أشرح عن النساء. لا يبدو لي أن أيّاً منكم بقادر على استعمال عينيه أو مشاعره من تلقاء نفسه كي يحاول استكناه الأشياء والبشر. حتى لو فعلتم، ما كنتم لتفهموا على كل حال.

صحيح، قال سويلو، جميع الرجال بلهاء. بالطبع. *وما أدراك* أنني لن أفهم؟ هل النساء هن نصف الجنس البشري الوحيد الذي يملك دماغ؟

حاولت مرارا وتكرارا، قالت، حين كنا لا نزال نعيش سوية. حاولت عبر الكتب والتسجيلات الموسيقية. لم تشأ أن تقرأ، لم تشأ أن تنصت. كنت تبدو مصدوما بكل جديد، وبدت جهودي عديمة الجدوى.

عديمة الجدوى، قال بصوت مرتفع، وشعر فجأة بتحفز كامل في كيانه؛ ولم يعد الضباب يغشي عقله كعادته أثناء نقاشاته مع فاني، بعد كل ما عايشناه؟ اللعنة، نجونا معاً من الاختطاف، نجونا في منتصف الطريق ومن تجارة العبيد. لعلمك، انقلب عليها، كنت أنا والدتك في يوم من الأيام.

كنت من في يوم من الأيام؟ قالت فاني مصدومة. أستميحك *عذراً* أيها الزنجي.

أو على الأقل حليب أم بالنسبة لك. اللعنة، قال، وهو يفكر في الآنسة ليزي والسيد هول وكل ما قد تَعَلَّمَهُ منهما لدرجة كان لا يطيق انتظار مشاركة فاني له بما تعلمه، لقد نجونا في العيش في نيويورك. هيا، تشاجري معي، قال. اصرخي. لديك بأسنان كبيرة جميلة؛ **عضيني**؟ راح فم فاني الجميل يردد كلماته برعب، **عضيني**؟ ولا تغوري وحسب في داخل ذاتك زاعمة أنني ثقيل لدرجة أعجز معها عن اللحاق بك. من تظنينني على أية حال؟ كم راقه شعوره بالنقمة! كأنه امتلك الحق، الذي بدا له حتى اللحظة وقفاً على النساء، بالدفاع عن نفسه. لكي يمعن في إرضاء تعبيره عن الذات، نهض على قدميه متوثباً وسار بخطوات واثقة سريعة نحو الغرفة الصغيرة. اعترته حرارة متقدة وانطلقت في جسده، ولم تكن داخل سرواله؛ بل...في صدره. أنا من لحم ودم، قالها بلهجة حاسمة. وللمرة الأولى شعر بحق أنه من لحم ودم. *إنسان*، مثله مثل النساء. لا، أنا لست سجيناً مثالياً عاش قبل مائة عام بوسعك عشقه دون أن يطالبك أحياناً بمناقضة نفسك. لكنني جاهز لأي شجار لعين في أي يوم لعين من أيام الأسبوع تكونين أنت مستعدة له.

تابعته فاني بنظراتها وكأنه فقد صوابه. ما الذي أثار غضبك إلى هذا الحد؟ سألته.

لست غاضباً، قال سويلو. أنا مجنون. يصيبني الجنون نتيجة الخراب الناجم من عدم قدرة المتحابين على تبادل الحديث فيما بينهم.

الكلام، هو أول تعابير إغراء الحب الإفريقية. قال، مذكراً فاني كثيراً جدّاً بآولا.

ضحكت ثم وضعت يدها على ذراعه. عادة ما تتلعثم حين يغضب سويلو وتغمغم دون أن تظهر أي انفعال. إذا بدأ الجدال في السيارة وكان هو السائق، فمن المرجح أن تنحرف السيارة عن الطريق.

ويفترض بي أن أعتبر هذا... اممم... *اعترافاً*، قالت فاني، بأن هذا الرجل الموجود هنا هو إفريقي يهفو للعودة إلى المنزل والمبيت فيه؟

أجل، قال، وقد شاطرها الضحك. ها هي يدي في حالة شجار. دعينا نتصافح على هذا.

* * *

حضرت معرضاً للفنانة فريدا كالو في متحف مكسيكي، قالت فاني. أنا معجبة بفريدا شأني شأن الكثيرين. كان المتحف في ذلك اليوم مكتظاً بالنساء، وفي جعبة كل منهن الكثير لتقوله عن كل لوحة من اللوحات، ومع ذلك فقد تحدثن عن الصور التي تجمع فريدا ودييغو المعلقة إلى جانب اللوحات أكثر بكثير مما عن اللوحات نفسها. في زيارتي الأولى للمعرض، جلست على مقعد في وسط صالة العرض، تاركة لروعة لوحات فريدا أن تغمرني ببساطة.

أوه، أوغ، يا للقرف، أتاني الصوت من مجموعة متجمهرة عند صورة لفريدا ودييغو وقد التقطت في يوم زفافهما. إنه ضخم جدّاً! قالت إحداهن. وشديد الجلافة. وهي ضئيلة جدّاً، قالت أخرى. أكره أن أفكر بـ... قاطعتها أخرى. لا تقولي! قالت شريكتها. مؤلم جدّاً! أنّت قصيرة القامة وشعرك داكن، بصراحة ذكرتني بك يا روبين.

أشعر بالإطراء لأنك تذكريني بعد مغادرتك هذا المكان، قالت روبين.

أوه، قالت فاني، بلى أفكر بك كثيراً.

لقد زرتُ المعرض، قالت روبين. أنا أيضاً متعصبة لكاهلو. أنا نفسي وقفت أتمتم وأتأمل متفكرة أمام تلك الصورة. أتعلمين ما كان والدها يلقبهما؟ الفيل والحمامة.

كيف وافق أبواها على زواجها منه؟ قالت فاني. وهما يعلمان حالة حوضها المكسور. لا أحد، كما أظن، وليس فقط والديها، يمكنه التصدي

لتصميم فريدا على الحصول على ما تبتغي أيّاً يكن، وكانت تريد دييغو. والسؤال فقط لماذا رغبت بدييغو؟ السبب حسب اعتقادي هو أنها كانت تنشد أن تزاول الرسم.

ألأنها تنشد أن تصبح فنانة؟ تتزوج من رسام، قالت روبين. أجل، أعتقد أن ثمة سر في هذا. لا بد أنها رأت فيه أكثر من مجرد فظاظته، حتى عندما لم يكن يرسم. كانت مأخوذة بأساليب تعبيره الصبيانية. شخص مباشر في التصريح بآرائه، سواء في مواجهته للحزب الشيوعي المكسيكي، أو آل روكفلير أو عشيقاته اللواتي لا حصر لهن. بالطبع، لم يكن قادراً على الصراحة مع زوجته كما معظم الأزواج. تجد النساء صعوبة في استيعاب هذا الأمر ويسبب لهن جرحاً عميقاً. لم تشف فريدا أبداً من أذيتها هذه. كانت تعتقد، في الوقت نفسه، بأن إعاقتها ربما تكون هي السبب الكامن وراء حاجة دييغو للطيش الجنسي.

حسنا، بكل الأحوال، قالت فاني، جلست في أرض المعرض، وأسلمت نفسي لعبقرية فريدا كي تغمرني. كأن أشعة الشمس تتدفق وتهبط علي من خلال عدد كبير من النوافذ ذات الزجاج الملون – ما أقل ما تمكنت من رؤيته في أعمالها كما فعل ذلك الحشد من النساء، وقلة من الرجال، اللواتي يسرن بخطى وئيدة يتابعن اللوحات على الجدران. تناهى إلي صوت من أمام إحدى اللوحات. تلك التي تحمل وجه فريدا وأما جسدها فهو جسد غزال، وقد طعن بعدد هائل من السهام. أخذني الرعب، مذهولة باللوحة للمرة الثانية، الكامن في عيون فريدا والصوت الذي سمعته أيضاً. صوت امرأة بيضاء تتكلم دون انقطاع بلكنة جنوبية وبصوت ناعم يشي بمزاج فرح. كانت برفقة والدتها، التي من الواضح أنها آتية من مكان آخر وليس من سان فَرانسيسكو. ترتدي طقماً من البوليستر الزهريّ الفاتح وتنتعل خفاً أبيض اللون مع جوارب، حاملة حقيبة يد بلاستيكية بيضاء هائلة. شعرها أشيب، وتضع نظارات وتغمض عينيها نصف إغماضة في تركيزها على التفاصيل الصغيرة في اللوحة كما لو أنها تجد صعوبة في النظر إليها ككل.

لست أدري الآن ما أقوله لك عن هذه اللوحة، قالت الابنة.

ولماذا، لست مضطرة لقول أي شيء يا بريندا، قالت الأم. انظري إلى تلك الدموع على وجهها. لقد شعرت بمشاعرها.

وهكذا ذهبت إلى المنزل، قالت فاني، واتصلت بوالدتي مباشرة طالبة منها أن تعرف لي من والدة تانيا مكان إقامتها. عاودت الاتصال بي في اليوم التالي وأخبرتني أنها تعيش في أوكلاند.

حقّاً؟ قالت روبين.

أجل. عندما اتصلت بها خاطبتها قائلة، هل أنت ***تونيا***[1] روكر من هارتويل؟ فقالت، نعم معك ***تانيا***. بلفظ مختلف لاسمها.

كنت في منتهى التحفز في طريقي إلى منزلها. أدخلتني زميلتها في السكن، وهي أمريكية من أصول يابانية عرفت عن نفسها باسم ماري. جلست على الصوفا، أمام ما هو من المفترض أنه طاولة تعج بصور فوتوغرافية مؤطرة. معظمها لطفلين ذوي بشرة سمراء، صبي وفتاة، تتبعهما الصور منذ الطفولة المبكرة وحتى سني المراهقة، مع صورة تخرج من الجامعة لكليهما وقد باتا بالغين.

لنختصر حكاية طويلة، بدت تانيا شبيهة تماماً بوالدتها. اختفت تلك الصغيرة التي كانت رفيقتي في اللعب. حتى عيناها تبدلتا. أصبحتا بلون رمادي داكن، وليس أزرقا كما أذكرهما. شعرها أصبح بنياً، وقد وخطه الشيب. بدينة وأمومية، وهي تقدم لي الشاي أو أي شيء لأتناوله كل بضعة دقائق.

تناولت صورة وأنعمت النظر فيها.

والدهما أسود، قالت، كما لو أنها قالت هذا مرات عديدة من قبل. هما الاثنان في مرحلة التخرج الآن. لا أعلم عن مكان جو. لعله لا يزال في أطلنطا.

1- المقصود أنها خاطبتها بتغيير اللفظ كما كانوا يدعونها وهي صغيرة - المترجم

لم أكن أنا أيضاً أكترث بمكان وجود جو.

لطالما تساءلت عما حدث لك، قالت تانيا. كيف أنت. والدتي تستعلم من والدتك عنك باستمرار، وأحياناً تخبرني بما قالته والدتك. عرفت أنك تخرجت من الجامعة وأصبحت مدرسة. أنا أعمل في شركة لصناعة الحواسيب، قالت. أتولى مهمة اختبارها في المرحلة النهائية، قبل وصولها إلى المستهلك. إنه عمل أجهد عينيَّ إجهاداً كبيراً، لكن الشركة تلقت الكثير من الشكاوي من موظفين من أمثالي وأنا على أمل أن تقوم بإجراءات معينة لمعالجة هذا الأمر قريباً؛ من قبيل تصنيع شاشات أو أدوات وقاية لنضعها أمام أجهزة الحاسوب، أو تصميم نظارات خاصة للعمل.

كنت أشعر بمعاناة كبيرة من عملي ولذا ما كنت قادرة على إجبار نفسي على الحديث عنه. قلت لها صراحة أنني أتلقى علاجاً، وأحاول الوصول إلى منابع سخطي على البيض. لم أقل لها إن حقدي موجه بالذات ضد الشقر من البيض. أخمن أنني خشيت من أنها قد تقول، شأنك شأن الكثيرين: حسناً، الجميع يكره النازيين. هذا ما يظنون أنني أرمي إليه. يذكرهم كلامي بعرق هتلر الآري كما يجسده الممثلون ذوو الشعر الأشقر الخالص على التلفزيون. أنا أكيدة من أن هذه الصورة هي مجرد جزء صغير من الحالة.

لك كل الحق في حنقك من البيض، قالت. أنا نفسي غاضبة منهم. لم أكن أعرف تماماً مدى غضبي حتى لمست ما فعلوه بأولادي. ناهيك عما فعلوه مع جو سابقاً.

جو، قلت لها. لا بد وأن أبويك قد جن جنونهما بزواجك منه.

ثوران هستيري، قالت. حين اكتشفا علاقتنا كان الأوان قد فات على فعل أي شيء. بعد ما يقرب من خمس سنوات، بعد زواجي من جو وانتقالي إلى كاليفورنيا وإنجابي للطفلين وقد بدا أن الأمور تسير على ما يرام، توفي بابا بكل بساطة وهو في غاية الإحباط. انتقلت ماما بعد وفاته

وأقامت معنا. أحبت الصغار وأصبحت في النهاية قادرة على ود جو. من ثم رحل جو وحصلت على الطلاق. وبعدها أخبرتها أنني شاذة.

توقفت تانيا لوقت قصير عن الكلام وأردفت. لا تزال تستعيد تلك اللحظة.

لكن كيف حدث كل هذا؟ سألتها، كنتِ مبرمجة حتى تكوني السيدة ليلي وايت.

أعلم، قالت تانيا. لكنك تعرفين ما جرى. انطلقت حركة الحقوق المدنية. انطلقت حملة سيلما[1] أحداث جامعة جورجيا. وظهر الدكتور كينغ. لقد هالني ذات مساء ما شاهدته على التلفزيون خلال تغطية إحدى مسيرات الحقوق المدنية؛ كان النظام العالمي، بالشكل الذي عرفته وتخيلت أنه سيصمد إلى الأبد، نظاماً *خاطئاً*. شعرت بأنه خاطئ حتى في أصغر ما فيه، مجرد بنيان من صنع الرجل الأبيض. وقلت لنفسي يجب إخراس كل من لا يستطيع احترام أولئك السود الذين شاهدتهم على شاشة التلفزيون وأولئك البيض القلائل المثيرين للشفقة برفقتهم.

لكن، تابعت تانيا، لم أكن لأجرؤ على الإجهار بهذا. شأني شأن الكثير جدّاً من الشباب الجنوبيين آنذاك، ولم أفعل شيئاً. وعندها ظهر جو - التقيته خلال رحلة بحرية قمت بها هنا مع مجموعة كنيسة والدتي. تقابلنا على رصيف ميناء فيشرمان! وهنا ضحكت. وكنت عازمة على الزواج منه. ما كان لديه من خيار. حجتي هي إنجاب الأطفال. كان سيعرف حتماً، أعني جو، أن زواجي منه هو نوع من الطريق السياسي المختصر الذي اخترت المضي فيه، إذ أنني لم أكن أعرف بوصفي جنوبية كيف أتواصل وأنضم لأي من المظاهرات الطويلة. ألقى إدراك جو لدوافعي بظلاله على زواجنا مع أنني أحببته كرجل، لم أكن أجزع من ثقافته التي ما كانت ثقافة جنوبية سوداء على الإطلاق، بل ثقافة شارع مدينة خاصة بالسود في معظمها، رغم أن أبوا جو من الأفراد الأصليّين في حاضرة

1- Selma: حملة لحماية حق المساواة في الاقتراع - المترجم

المدينة، *سكان ضَواحٍ* فعليين من الطبقة الوسطى السوداء. يقيمون في تلال إل سيريتو، بحقّ الله! من أشد الناس طموحاً عرفتهم يوماً. كانوا من عشاق نيكسون. ويمقتون الهبيين. صوتوا لصالح جيرالد فورد.

كنت أظن أن جميع السود يعيشون كما يعيش أفراد عائلتك بدرجات متفاوتة. ضحكت تانيا. حيث هناك على الدوام نشاط معين يمضي بهمة وحيوية. موسيقى أو حفلات أو عبادة الشمس أو شيء ما. يمر بكم الكثير من ذوي الطبيعة الجذابة من حين لآخر. مجانين مثيرين للاهتمام بحق، لديهم غالباً مهارات خلاقة مذهلة. ولديكم أشهى طعام في العالم. وكان القوم في منزلك يتبادلون القبل على الدوام.

هل كنت تأتين إلى منزلنا بانتظام؟ سألتها.

بالتأكيد، قالت. ألا تذكرين؟ كنت أنسل من المنزل لأذهب إلى منزلكم. يأتي أقاربي، تحديداً جدتي، وتعيدني إلى المنزل. كنت اختبئ باستمرار تحت سرير الآنسة شوغ! كيف لا تذكرين هذا؟

وكانت جدتك أحياناً تكذب على جدتي قائلة، ليست هنا، لم نرها. أحببت سماعها تقول هذا. ونكون كلتانا مختبئتان تحت حاشية سرير الآنسة شوغ. قطعة فضية ضخمة كالماموث وله شكل ملعقة وهو أشبه بالسفينة، وكانت تخريمات غطاء السرير تتدلى أمام وجهينا كالشبكة. نأكل كعك الشاي وقتها.

نسمع في البداية صوت وقع خطى ثقيل، وقع خطوات جدتي قادة عبر الفناء. وبعدها قد نسمع صوت خبطة قدمها الثقيلة وهي تضعها على أول درجة. لم تكن لتدخل المنزل أبداً، بالطبع. ولم تكن حتى لتصعد على الشرفة أبداً.

- لقد جئت في طلب تانيا، تقول.

وتخرج السيدة سيلي، تانيا؟ لماذا؟، لم نرها.

فننخفض أنا وأنت وحسب، في مكان اختبائنا، ضاحكتان.

كيف كانت هيئة جدتك؟

سمينة تماماً، قالت تانيا. وتسير متكئة على عكاز. لم تكن تبتسم أبداً تقريباً وتبدو على الدوام كأنها تتذكر أمراً غير مريح لها. توفي جدي منذ زمن بعيد ولم يكن لدينا حتى صورة له في المنزل. الصفة الوحيدة اللطيفة فيها كان شعرها الأبيض كبياض الثلج.

كيف لا تذكرين تلك اللحظات؟ سألتني تانيا. لا أنساها أبداً. لم أعرف أبداً سعادة كتلك في حياتي.

أتذكر وجودي في منزلكم، قلت. بشكل غير واضح. أو في الفناء الخلفي بالأحرى.

لم أستوعب لِمَ لَمْ يكن مسموحاً لك الدخول، قالت تانيا. وكلما كنت أسألهم، والدي أو والدتي أو جدتي، يجيبون، لعلها لا ترغب بالدخول، يا حبيبتي. لا تطلبي منها هذا؛ مراعاة لمشاعرها.

إيذاؤك كان آخر شيء أرغب التسبب به. لذا فقد كنا نلعب خارجاً في الفناء الخلفي - حتى أنه لم يكن يجدر بنا اللعب في الجهة الأمامية؛ قد يرانا أحدهم! ولم أطلب منك البتة الدخول. وأنت لم تطلبي مني هذا أيضاً مطلقاً، ولم يبد عليك أنك معنية بالخطو إلى داخل منزلنا، الذي كان أشبه برواية *طريق التبغ* بالمقارنة مع منزلكم على كل حال، لذا كنت أعتقد أن أبوي وجدتي على حق.

روبين، قالت فاني، عابسة بطريقة كوميدية. أنا لا أذكر أيّاً من هذا. تانيا تذكره بشكل كامل. كيف هذا؟

إن تذكر لحظات السعادة لدى البعض أسهل من تذكرهم للألم، قالت روبين. لقد تعين عليك كبت ونسيان ألمك كي تواصلي اللعب مع تانيا. مع أنني أعتقد أن اللعب كان قد غاب عن علاقتكما في حينها.

أجل، هذا ما أظنه أيضاً، قالت فاني. كل ما أذكره عن أيامنا سوية له مستوى غير واقعي، كما لو أنها حدثت في فيلم، أو جرت مع شخص آخر.

أصبحت تنفرين من جسدك أنت، ومن ذاتك، قالت روبين. تحولت إلى كينونتين في علاقتك مع تانيا. الفتاة الصغيرة التي تلعب بمرح ويراها الآخرون وتلك المجروحة التي أصابتها أولى مواجهاتها مع النبذ اللامنطقي بالحيرة.

تابعت فاني. وانتهى الأمر بعد ذلك، قالت تانيا. بالتأكيد تذكرين ذلك؟

ماذا جرى؟ سألتها. هل حاولت والدتك أن تعطيني بعضاً من ملابسك القديمة؟

ليس تماماً، قالت تانيا. كنت ترتدين على الدوام ثياباً كالأميرات. أنا من أتوسل دائماً ارتداء شيء من ثيابك! لم أكن قادرة على ارتداء فساتينك ووضع ربطات شعرك وقلاداتك - وجواربك الحريرية! - سوى في منزلكم. أي قطعة جميلة، مهما بلغت من الصغر، تقدمينها لي أنت أو أيّاً من معشرك كانت تختفي على الفور إذا ما حملتها إلى المنزل.

وماذا بعد؟ سألتها.

هل أنت واثقة من عدم تذكرك؟ كنت أظن أنك طيلة هذه السنوات تجلسين في مكان ما تتذكرين وتكيلين اللعنات لنا.

أوه، اللعنة، فكرت، قالت فاني، وهي تميل نحو روبين. حالما تفوهت تانيا بهذا داهمني الصداع. أخذت أصرّ بأسناني وأحفر في السجادة بكعبي حذائي. رحت أنظر إليها جزءاً جزءاً بعينين نصف مغمضتين - إلى قدميها في خف منزلي بلون البيج، إلى كاحليها البدينين، إلى بطنها الذي يتدلى ثدياها فوقه. إلى ذقنها. عينيها الرماديتين الغامقتين. شعرها البني وخيوط الشيب العريضة التي تتخلله.

تنهدت تانيا. جدتي هي المسؤولة، أخبرتني قائلة. بكل الأحوال فقد ماتت في النهاية. تبعاً لطبيعة الحياة. وليس بسبب ما اقترفته بحقك.

جدتك، قلت. ارتكبت شيئاً بحقي أنا؟ بدأت لحظتها أشعر بذلك الشعور الذي انتابني وأنا تحت تأثير التنويم المغناطيسي. كأنني أسقط في هوة سحيقة داخل ذاتي.

لقد صفعتك، قالت تانيا.

وهل رأيتُ نجوما؟ سألتها.

أجل! قالت تانيا. ها أنت تذكرين!

لا، قلت. أحاول أن أكون ظريفة وحسب.

أجل، في منزلكم يتبادل الجميع القبل. القبلة هي تحية الترحيب والوداع المتعارف عليه فيما بينكم. نادرا ما تتصافحون؛ إلا إذا كان زواركم غرباء تماماً. لقد أعجبني تبادل القبل بين الجميع. بالتأكيد لم يكن هذا أمر يفعله أي منا في المنزل. حين أخبرت عائلتي عن هذا، لم يرق لهم هذا لا من قريب ولا من بعيد. لم يعجبهم تحديداً أن يسمعوا عن تبادل النساء السمراوات للقبل. أدرك الآن أنهم عقدوا اجتماعاً بهذا الشأن واتخذوا قرارا بشأني. طالما أنني كنت وسط جو من التقبيل - لا بل فقد بدأت أقبلهم - فباستطاعتي، بوصفي شخصاً أبيضَ، تقبيل أيّاً منكم. أما أنتم فمن المحظر نهائياً أن يقبلني أحدكم. أرسلوني حاملة لهذه الفتوى وجلسوا في الخلف متوقعين مني أن أكون أمينة لها. لم أحاول تغيير الأمور مجرد محاولة.

إلا أنني أخبرت قومك فانقلبوا بسرعة. توقفوا ليس فقط عن تقبيلي، وإنما عن ملامستي أيضاً لفترة من الزمن. سرعان ما اكتشفت أنهم أفردوا لي صحناً وكأساً خاصان بي حينما أجيء إلى منزلكم.

الفرق أنك لم تسمعي ما قلته كما فعلت والدتك وجدتك. كنت تقبّلين وتتلقين القبل على الدوام. هلا أعطيتني بعض السكر؟ هل ترغبين ببعض السكر؟ بدا كأن هذان هما السؤالان الرئيسيان في حياتك. قبلتني على خدي ذات يوم ونحن نلعب في فناء منزلنا الخلفي. كانت جدتي تراقب من أعلى الدرج، حيث كانت ميالة للوقوف خلال لعبنا.

هل ظهر عليها السخط؟ سألتها.

استشاطت غضباً، قالت تانيا. أصبحت تزن طناً مبللاً، هبطت نحونا بحركاتها المتثاقلة ثم صفعتك صفعة قوية أردتك أرضاً، وعندما نهضتِ

كنت تمسكين برأسك بين يديك كما لو أنك تخشين انفصاله وسقوطه. وقلتِ، أرى نجوماً.

وقالت هي، إذا ما أمسكت بك ثانية تضعين فمك الأسود على تانيا، سأكسر رأسك الأسود الصغير هذا. ثم التفت وصعدت الدرج بنفس الحركات المتثاقلة.

لقد بكيتِ بكاءً مريراً. كنتِ في غاية الاستياء. وبكيتُ أنا أيضاً بحرقة. وكنت أيضاً في غاية الاستياء. لسبب أو لآخر كنت أتهيب محاولة التخفيف عنك؛ في النهاية، أنت من قد تعرض الضرب. وقفتُ متسمرة الجسد في مكاني، كأنني تحولت إلى حجر. قلت إنك ستعلمين جدتيك؛ وكنت أعلم إذا ما وصل الخبر إلى الآنسة شوغ فقد تقضي علينا جميعا. رجوتك ألا تفعلي. كنت أشعر بعار مشين؛ وانتابني حقد كاسح على جدتي؛ بيد أن خوفي من إفشائك لما حدث كان أكبر.

لا أظنك أخبرت أحداً، قالت تانيا، لكنني لست أكيدة، إذ كانت تلك آخر مرة لعبت فيها معي.

حسناً، قالت روبين، عندما فرغت فاني من كلامها. كيف تشعرين حيال ذلك؟

ما زلت لا أشعر به، قالت فاني.

أتريدين محرمة؟ سألتها روبين.

وشعرت فاني بدموع هول تسيل على وجهها.

* * *

الفصل السادس

التذكر مفتاح الخلاص.
عبارة منقوشة على نصب تذكاري
تخليداً لذكرى ضحايا معسكرات الاعتقال من اليهود
في الحرب العالمية الثانية، وهو موجود في لاندس
إيند، سان فرانسيسكو.

عزيزي سويلو، كتب السيد هول في كلمات مخربشة كبيرة وراعشة، أمسك القلم بيدي الممانعة لأكتب لك وأنبئك بخبر سيِّئ مفاده أن حبيبتي ليزي، رفيقة عمري كله تقريباً، قد غادرتنا قبل أسبوع في الثالث من حزيران. سوف يسعدك أن تعلم أنها توفِّيَتْ من دون أن تعاني من أي مرض. في الواقع ظلت ترسم حتى الليلة التي رقدت فيها وفارقت الحياة. كانت تشتكي منذ فترة من حالة عدم استقرار، وتتحرك طوال الوقت في أرجاء المنزل وهي تفتح النوافذ المغلقة. مع ذلك، لم تكن ترغب خلال الشهر الأخير من حياتها أو نحوه في قضاء وقت طويل داخل المنزل. أرادت العيش خارج الأبواب. حمدا لله، كان الطقس مناسباً في أغلب الأحيان (بالطبع كانت تحب العواصف أيضاً)، فأخرجنا لها فراشها ووضعناه في الشرفة، وثبتنا لها المرسم في الزاوية، كانت تستلقي قليلاً ثم تنهض من جديد لتعاود الرسم.

آخر لوحة رسمتها كانت مذهلة، ولا مثيل لها في كل لوحاتها السابقة؛ ما أرمي إليه هو أن موضوعها بحد ذاته كان غريباً. ها أنا أرفق لك بعضاً من الصور لترى بنفسك. لست أدري ما أفعل بها.

وأرسل لك أيضاً أشرطة الكاسيت التي سجلتها لك ليزي؛ ولفاني أيضاً حسب ظني. كلانا أصبح معجباً بوجه تلك الشابة.

قبل أسبوع، لم أكن لأعرف كيف أعيش بدون ليزي. حسبت أن العيش بلا أنفاسي أسهل من العيش بدونها. توفيت وأحرقت جثتها، ثم ذرونا رمادها قبل مرور أربع وعشرين ساعة، حسب وصيتها بالضبط، إنما بسرعة كبيرة. دخلت الفناء بعد نثر رمادها مباشرة وهممت أناديها لأسألها أين يتوجب علي وضع جرة الرماد الفارغة. حالما فتحت فمي لأسألها، عرفت أن هذا ليس بذي أهمية. وكانت هذه أول إشارة على أن الحزن على فراق ليزي سابق لأوانه إلى حد ما.

ليس لأنها حاضرة أو لأنها شبح، يا سويلو. لقد ماتت. ذهبت. لكنها ما زالت موجودة، في أعماقي. أدركت أن ليزي كانت في أعماقي على الدوام، مع فارق أن غيابها الجسدي لم يعد يشتت ذهني ولذا فقد تجلى لي هذا بوضوح أكبر الآن.

تخيل حالي وأنا أثرثر في أرجاء منزلنا الصغير قائلاً إن أزهار نجمة الصباح الزرقاء تدفن نفسها وشجرة جوز البقان تختبئ من أشعة الشمس. يبدو هذا شعورا مؤلماً جدّاً، مع فراش ليزي الذي أبقيت عليه في الشرفة. أنظر إليه من النافذة، فلا يعدو سوى غمامة من بياض كبيرة ومنفوشة.

لقد أحبتك ليزي حباً كبيراً، يا سويلو. لا لأنك من ذرية رافي وحسب. لقد أحبتك بذاتك. أعجبت بكفاحك ضد الاضطراب. ما كانت ليزي تطيق صبرا على الذين حياتهم معقدة كتعقيد كرة من الخيطان.

إذا ما عدت يوماً إلى بالتيمور، يتعين عليك زيارتي. سوف أعد لنا فنجاناً ممتازا من القهوة وأحدثك عن نفسي. اكتشفت أنني من الكبر لدرجة لا أستطيع البقاء وحيداً، وأهفو لرؤية وجوه أصغر. ذكرياتي ترافقني وتكرر فيضها بزخم أكبر. أتذكر سنواتي برفقة ليزي، عندما كنا نعيش في الآيلند. أتذكر أمها وذاك الحانوت الصغير العابق برائحة الأسماك. لكنه كان فردوساً. أتذكر الجدة دورسي تلك الساحرة العجوز. وجاك الصغير. ولولو. لما لم

تعد لولو من أوروبا نهائياً، لم نعِ ما حل بنا أنا وليزي ورافي. أحاول عدم التفكير في هذا الجزء. بقينا ننتظر على مدى سنوات، في كل دقيقة من دقائق اليوم، أن نسمع ولو كلمة واحدة عن ابنتنا. لم نسمع عنها قط. ضاعت جميع تلك الأمنيات وكل ذلك الحب.

حين استدعي والدي للمشاركة في الحرب، شعرنا جميعاً بالارتياح. ليذهب إلى الجحيم مع الألمان. ظننا أن باستطاعته العثور لولو. لكنه لم يعثر عليها؛ لم يقع سوى على الرعب والوحشية الكافيان لجعله يفقد جزءاً من صميم روحه، فضلاً عن فقدانه لذراعه.

لا، أنا لا أفكر بتلك الأمور. أتذكر لولو وهي رضيعة. أتذكر إلباسها وإطعامها. تعليمها القراءة ومراقبتها تخطو أولى خطواتها في الغابة. كانت تبتسم وتمعن في الابتسام بضحكتها العريضة لدى اكتشافها أنها صغيرة جدّاً تحت الأشجار، وقادرة مع هذا على الوقوف على قدميها كما الأشجار.

لدي سيل من الذكريات وتعاودني الآن أكثر من أي وقت مضى. إن كنت ترغب بالاحتفاظ بلوحات ليزي بعد موتي، فهي لك. أرسل لي بطاقة، وسأذكر هذا في وصيتي. أنا على يقين أن منزلنا هذا سينهار بعد موتي. ما يبقيه صامداً هي أنفاسي وأزهار نجمة الصباح الزرقاء. أرغب أن أتركها لك أيضاً. بحكم الواقع، أظن أن جيراننا، الذين لديهم الكثير من الأطفال، سوف يستعملون الفسحة الخالية ملعباً لأطفالهم. لهذا سأتركه لهم. أعلمني عن استلامك للوحات.

صديقك.

هارولد (هول) دي. جينكينز، إسحاق.

ملاحظة: عبقريتك معناها أنك متصل بالله. وتتعرف عليه.

أفكر في هذا النمط من المقولات التي دأبت ليزي على النطق بها على الدوام. هذه هي العبارة التي استحضرها عقلي اليوم. وها أنا أرسلها لك، لعل فيها عزاءً لنا.

مقولة أخرى: يخوض الرجال الحروب بهدف جذب الانتباه.

مقولة ثالثة: جميع حالات القتل هي تعبير عن كره الذات.

وعبارة كانت تحب أن ترديدها كلما سخر منها الناس: هول، لقد سخر مني أكثر الناس *طرافة*!

* * *

ضمن الإمكانيات المتاحة، قال آولا ذات يوم فيما كان وفاني متمددان فوق العشب بعد أن عملا صباحاً في تعشيب حديقة الخضروات، يتعين عليك العيش في عالم اليوم كما تتمنين للجميع أن يعيشوا في العالم المقبل. قد تكون هذه هي مساهمتك. وإلا، فلن يتشكل العالم الذي تنشدينه مطلقاً. لماذا؟ لأنك تنتظرين من الآخرين أن يفعلوا ما لا تفعلينه أنت؛ وهم ينتظرون منك، وهلم جرا. حالة الكوكب تسير من سيِّئ إلى أسوأ.

هل هذا هو دافع زواجك من امرأة بيضاء؟ سألته فاني، وهي تقضم نصل عشبة قطفته قرب قدمها.

لا، قال آولا مستغرباً. كيف علمت بخصوص هذا؟ رفع كتفيه استهجاناً. تزوجت من ماري جين بحثا عن المتاعب؛ هذا هو السبب في زواجي من ماري جين. لطالما حاولت تفسير هذا بلا طائل، إذ لا أحد يرغب بسماع وجهة نظر مخالفة.

سحب منديلاً كبيراً متدلياً من جيبه الخلفي وأخذ يمسح بعناية وجهه المتعرق. أخذته فاني منه عندما انتهى، قلّبته فوجدت إحدى زواياه لا تزال جافة، ومررته على جبينها بعناية فائقة.

ماري جين؟ قالت. ليس اسماً سويدياً خالصاً، أليس كذلك؟

ماري جين ليست سويدية، قال آولا، وهو يستعيد المنديل ثم يلقيه على الأرض. أوه، لقد فهمت الأمر الآن. كنت تقرأين مسرحياتي! كوني حذرة لئلا تفترضي أن كاتب المسرح يكتب عن نفسه. رفع أصبعه وهزها بحركة تحذير. أجل كان لدي عشيقات في السويد - هي بلاد باردة لعينة وكنت وحيداً. وحيداً لدرجة لا تصدق. بالتأكيد ما من جريمة في رد اللطف

للغرباء. أمضيت سنتين برفقة امرأة تدعى مارغريت. حملت مني ذات مرة، إنما لأنها براغماتية بقدر ما كانت جميلة، وبدينة على كل حال، فقد أجهضت الجنين. فشلت في إقناعها الاحتفاظ به؛ في النهاية، أنا الذي كان يأبى وضع الواقي الذكري، حتى عندما تحضره لي. كنت أرى أن إلحاحها يتسم بعنصرية شديدة. أنا من سيغادر بلادها ويعود للديار. لم أستطع اصطحابها. لم أكن ستريتسو خاماً ابن بوتسوانا، وما كانت هي روث ويليامز ابنة إنجلترا. تعرفت بعد علاقتنا على النظرة العنصرية لدى البيض، حتى في السويد. لم تكن تطيق التفكير بالمعاناة التي سيكابدها ولدها. الأمر الذي يدعو للسخرية، قرأت مؤخراً مقالاً يقول بأن الأطفال السمر وذوي البشرة الذهبية هم محل ثناء هناك في هذه الأيام. وجدت هذا مشكوكاً فيه. تخيلت أنهم يعتبرونهم...

عجيبة، قالت فاني. أشبه بهيلغا كران في رواية *رمال متحركة*.

رمال متحركة؟ استفسر آولا.

أجل، قالت فاني. هي نوع من الرمال يمكن أن تغرق فيها، كما لو أنها مياه إلى حد ما.

أوه، قال آولا.

أتحدث عن رواية كنت أوظفها خلال تدريسي لأدب المرأة؛ من تأليف نيلا لارسون، هي نفسها ثمرة اقتران بين أم دنماركية وأب ينحدر من جزر الهند الغربية.

لاحظت اهتمام آولا بهذه الكاتبة المغمورة.

ولدت في شيكاغو، تابعت فاني، وعندما كبرت ذهبت في زيارة لأقارب والدتها في الدنمارك. كانت والدتها آنذاك قد تزوجت من رجل أمريكي أبيض عادي، فعانت هيلغا، بوصفها طفلة سمراء وسط العائلة، من أوقات صعبة جدّاً بسبب سمرتها.

بالطبع، قال آولا.

لدى وصولها إلى الدنمارك استغربت الاحتفاء الحقيقي بها. أحبها

الجميع. رسم لها صورة أحد أشهر الرسامين المحليين، وكان يود الزواج منها. لكنها لم تحتمل أن تكون أداة لتوقعات الدنماركيين عما يجب أن تكون عليه مثل هذه المرأة ذات الهيئة العجيبة. لم تتحمل الفساتين الإفريقية المبهرجة التي اشتراها لها أقاربها وأصروا عليها ارتداءها.

ولا استمتعت بكونها معروضة أمام الغرباء للإعجاب بها. علاوة على أنها وجدت الناس والبلاد مختلفين كلياً عنهم في ديارها في هارلم. وأدركت أنها تفضل سكان هارلم. شعورها هذا بالقرف مثير للاستغراب. كان ثمة مسحة خاصة بهارلم القديمة، هارلم العشرينات، ألا وهي التماسك الكبير في إخلاص الناس، استغرقت فاني بالتفكير. أظن أنها الموسيقى الخالدة، والحفلات. إعلان تحرر العبيد الذي كان قد أخذ حيز التنفيذ أخيراً.

قرأت عن هارلم، قال آولا. في أعمال لانغستون هوغز. وهذا صحيح، إذ يتألق عشقه للمكان في كل سطر كتبه.

لو لم تتزوج السويدية، قالت فاني في حيرة، من كنت ستتزوج؟ ومن هي ماري جين؟

أمريكية، قال آولا. وامرأة شائقة. يتعين عليك أن تجعلي من لقائها شغلك الشاغل قبل عودتك.

لم أقطع كل هذه المسافة إلى إفريقيا كي ألتقي بأمريكيات بيضاوات، قالت فاني بطريقة جافة.

ضحك آولا ضحكة خافتة، واتكأ إلى الخلف على كوعه. علي الاعتراف أنني شعرت بالارتياب أيضاً في المرة الأولى التي قابلت فيها ماري جين. كان ذلك في زمن يحثون فيه البيض على الهجرة، ليس جميع البيض، كما تعلمين، وإنما فقط أولئك الذين لم يكن لديهم سبل ظاهرة للعيش عدا عبيدَهم من الأفارقة. ثمة عدد ضخم من الطفيليات وقد وجب التخلص منها. أولئك الذين دخلوا البلاد بوفاض خالية حين كانت تدار من قبل نظام البيض، ثم أصبحوا ملاكاً لإقطاعات زراعية كبيرة، أو أقله كان لديهم منازل فخمة وانتقوا الأعمال ذات الأرباح الجيدة. أصبح عرفا في البلاد، وإحدى

المواد الدعائية التي تتصيد البيض للاستيطان هنا فعليا، طمأنة كل رجل أو امرأة أو طفل من البيض بأنه سيحصل على خادم إفريقي واحد على الأقل. أغلب الأسر كان لديها اثنان أو ثلاثة من الخدم. أما ماري فكان يخدمها خمسة من السود. يدفعون لهؤلاء الخدم أقل من واحد بالمائة من أجورهم المستحقة، ويكملون لهم باقي أتعابهم من الملابس البالية وبقايا الطعام.

بعض الأطعمة كانت تأتينا من أميركا على كل حال. أقصد طعام *السكان الأصليين*. أجل. لقد رأيت بنفسي أكداساً من الحبوب الأمريكية في كومات هائلة على رصيف الميناء. كتب على كل كيس منها هدية من الشعب الأمريكي. ألا تعلمين البتة أنكم كنتم تطعموننا؟ سأل آولا فاني. كان الناس باستمرار يتندرون سرا بطرفة حول أكداس الحبوب تلك، الذرة بشكل رئيسي؛ يقولون إن أميركا وبقية دول البيض يقدمون لإفريقيا كيس من الذرة المليء بالحشرات الطفيلية مقابل كيس من الذهب والألماس، ويعتبرونه مقايضة عادلة.

ضحكت فاني.

لهذا طلبنا من البيض الرحيل، تابع آولا. إذا ما شاؤوا البقاء، وقد فعل الكثير منهم، فعليهم تقديم تعهد ملزم قانونياً ورسمياً بتولي جميع الأعباء المالية المتعلقة بالتعليم والرعاية الصحية والسكن لعمالهم السابقين وأبناء عمالهم. وجب عليهم تطبيق هذا بخطة تدوم سبع سنوات؛ ولا بد في نهايتها من التأكد أن الذين كانوا قد خدموهم على مدى سنوات طويلة مقابل لا شيء قد غدوا في صحة جيدة، وتلقوا تعليماً حسناً، أو هم على المسار الصحيح نحو الحصول على التعليم، ولا بد لهم من إسكانهم في منازل لائقة كالتي يملكونها. تم تشكيل فريق مصادقة دولي يتنقل من منزل إلى منزل. من ولاية إلى ولاية. من مزرعة إلى مزرعة. وهلم جرا.

شكل هذا إهانة لمعظم البيض، بالطبع، وشعر الكثير منهم بالدهشة ليس فقط لأن حكومة القردة الجديدة، كما لقبها بعضهم، هي التي طالبت بهذا – والذي كان بحق مطلباً معقولاً جداً، آخذين بعين الاعتبار الثروة غير

المستحقة التي اكتنزها البيض، الثروة التي كانوا آنذاك يسعون بكل ما أوتوا من القوة لتهريبها من البلاد؛ بذريعة مصادرة منازلهم وممتلكاتهم بأكملها، وهو ما زعموا أنهم يخشونه منذ سنوات - بل من رغبة الأفارقة في أمور من قبيل الصحة الجيدة والتعليم والسكن اللائق! صدم بعضهم لدى إدراكه أن الإفريقي الذي يطهو لهم طعامهم ويسهر على أولادهم يبتسم لهم، وكان هو أو هي يبتسم لهم على الرغم ممن يكونون، وليس بسبب من يكونون.

كانت لحظة زمنية حافلة. ثمة من فككوا منازلهم الكبيرة قطعة قطعة، وشحنوها إلى بلدان أخرى. نشروا أشجار الحدائق. أحرقوا جوارهم بأكمله، تماماً كما فعل المتظاهرون السود في الولايات المتحدة في الستينات.

تصاعد القنوط لدى آلاف البيض إلى حد تفعيله؛ حدثت حالات انتحار، خاصة بين الشباب. منهم من ساوره الاعتقاد بأن سيادتهم على السود في مكان ما على هذه الأرض هي ببساطة قدرهم، كبيض. أطنان من ممتلكاتهم هاجرت إلى أستراليا ونيوزلندا، حيث السكان السود صغار وضعفاء.

لكن دعينا نعود لماري جين...ظهرت ذات يوم في مكتبي في قسم الترفيه والثقافة - كان لدى من يديرون هذا القسم قبل أن نستولي عليه شغف خاص بالفنون الشبيهة ***بعرض القوارب، وسيدتي الجميلة، وكسارة البندق***، وفي الجانب الإباحي، ***الكبريه***. كان هذا أيضاً قبل أن يتم إحداث وزارة الثقافة. كنا ملحقين بوزارة الداخلية، التي كان يرأسها، في الوقت نفسه بعد الاستيلاء عليها مباشرة، رجل عاش خارج البلاد أثناء حرب الاستقلال، والذي أصبح الآن، بعيد عودته، يقوم بجميع الأعمال بدافع إحساسه بالذنب. عاش في أمريكا، مختبئاً في إحدى جامعاتها - يروقني أن أقول هذا؛ وهو ليس كلاماً منصفاً أبداً - ومناضلاً مناهضاً للبيض. كان يكره النساء البيض تحديداً. جاءَتني ماري جين غاضبة لأن هذا الرجل أبلغها بأنها، ***بلا شك***، واحدة من أوائل البيض المطلوب منهم مغادرة البلاد، حسب قوله.

شرحت لي أنها أسست مدرسة ماسوكتا للفنون وهي الآن تديرها. لعلني كنت قد سمعت عنها؟

سمعت بهاّ؟ قال آولا، ونهض فجأة ثم خلع صندله. لم تكن أفضل مدرسة فنون لدينا في أولينكا. بل كانت مدرسة الفنون الوحيدة. يقينا أنني سمعت عنها. كانت ترعى سبعين صبياً وبنتاً في المدرسة، كما قالت، ويقيمون فيها أيضاً. كان طموحها بالنسبة للعمل أن يغدو الفنانين بعد تخرجهم جزءا من ثقافة الأولينكا المعروفة بها، حتى أنها فكرت بحصول طلابها على المال أيضاً من خلال عملهم مستقبلاً، ويجلبون المال للبلاد.

وفي جميع الأحوال، قالت إنها تنذر حياتها لطلابها وللمدرسة وللبلاد، ولأنها لم تعد شابة، ولا رغبة لها بالعودة إلى أميركا أو الهجرة إلى نيوزلندا أو أستراليا، لم تكن ترى ما يمكن أن تقوم به سوى هذا. أنفقت جميع المال في المدرسة التي، كما أنبأها رئيس القسم، سوف تصادرها الحكومة. لتفادي هذا، لا سبيل أمامها سوى تسجيل المدرسة باسم جميع العاملين فيها.

سوف تحصلين على شيء بالمقابل، أكدتُ لها.

أجل، قالت. هذا ما قيل لي. ما يكفيني ثمن تذكرة ذهاب إلى إنجلترا. لا بأس، ولكنني لست من إنجلترا.

خرجت في ذلك المساء لألقي نظرة على المدرسة، مدرسة ماسوكتا. كانت تقع في أطراف البلدة وبسيطة جدّاً. ينام الصبيان والبنات في ثكنات منفصلة، وفيها استديو مشترك ضخم معظم جدرانه فيها نوافذ. الأسرة مرتبة بعناية فائقة، وعند قوائم السرير طويت بطانية من الصوف المنسوج، شبيهة ببطانيات بيندلتون الأمريكية التي استوحت تصاميمها من الهند. كانت المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى مدى التشابه بين الرموز والتصاميم الإفريقية الأصلية والأمريكية الأصلية. انتصبت بجوار كل سرير خزانة صغيرة مطلية بألوان زاهية يضع فيها الطلاب حاجياتهم.

كان معظم الأطفال في حالة مأساوية. لم أدرك هذا حتى التقيتهم. عدد منهم فقد أهله في حركات العصيان ضد نظام البيض. بعضهم فقد التفكير المنطقي بعد الضرب الذي تعرضوا له أثناء فترة الاحتجاز. عدد لا بأس به منهم كان لديه إعاقات جسدية صارخة. منهم الأعرج، ومن يتنفس بشكل

غريب، والذي يغمض عينيه أو يرفرف بجذعه أو ذراعاه التي لا نفع لها. كانوا الأكثر مقتاً وحرماناً من بين أبناء شعبنا المدنيين وقد جمعتهم ماري جين من الشارع. بالصورة التي كانت عليها - أقصد شوارعنا - في القسم الذي نسكنه من المدينة.

أخبريني، سألتها، هل أنت راهبة؟

كانت تدخن سجائر مصنوعة من أوراق الأوكالبتوس. أخذت مجّة من السيجارة ثم نفخت الدخان.

لماذا؟ سألتني. هل أبدو كراهبة؟

في الحقيقة، كانت تبدو أشبه بعشيقة قاطع طريق على شاكلة أولئك الذين نراهم في أفلام هوليوود عن الثلاثينات. لكن الراهبة وحدها من قد تقدم على هذا الصنف من الأعمال. بلا شك.

كنت على وفاق جيد مع الراهبات اللواتي علمن نزينغا، قال آولا. مجموعة راديكالية، ممن يؤمنون بكل جوارحهم أن يسوع كان ثائراً حامياً وأن مريم ومارتا ليستا بأفضل منه. لم تكن أيّاً منهن لتطلق النار أبداً، لكننا اعتمدنا عليهن بنقل الأسلحة في مرحلة التخفي. هذه كانت فكرتي عن الراهبات.

كنت ثرية جدّاً ذات يوم، قالت ماري جين. وكذلك فقيرة جدّاً. وهذا كان كل ما قالته.

لماذا أطلقت عليها اسم مدرسة ماسوكتا؟ سألتها. فكلمة ماسوكتا ليست كلمة من الأولينكا، وإنما من قبيلة الأبابا، قال آولا موضحاً هذا لفاني. تعتبر قبيلة الأبابا قبيلة شقيقة لنا. وشرعت ماري جين تروي لي حكاية في منتهى الغرابة عن امرأة من الأبابا اقتيدت إلى إنجلترا ثم سجنت قرابة خمسة عشر عاماً في متحف التاريخ الطبيعي البريطاني. كانت تمضي جل وقتها فيه بالحياكة. أنقذتها خالة ماري جين الكبيرة - لم تكن ماري جين حتى متأكدة كيف حصل هذا - وأعادتها إلى موطن الأبابا. للأسف، كانت الناجي الوحيد من أفراد قبيلتها. لقد ورثت خالة ماري جين الكبيرة يوميات خالة

خالتها التي تتحدث عن هذا الموضوع. جاءت الخالة الكبيرة أيضاً جاءت في صباها إلى إفريقيا. عاشت بين الأولينكا ونفذت العديد من الأعمال الرائعة: علمت عدداً من النسوة اللواتي أصبحن طبيبات وأخصائيات اجتماعيات ومهندسات زراعيات وما شابه. قتل عدد مذهل من أولئك النسوة في الصراع ضد نظام البيض. كانت تقيم هنا في الوقت الذي دك فيه البيض قرانا وأرغمونا على العيش في محميات. كما القبائل الهندية لديكم، كما تعلمين. مثل حيواناتنا البرية.

ورثت ماري جين جرعة ضخمة من روح النباهة والاستطاعة. جاءت إفريقيا وعلمت نفسها الرسم. كانت ترسم في السابق كهواية، على حد قولها، لمجرد القيام بأمر نافع، لكنها كانت في تلك الأثناء تعمل بشكل جدي. حصلت على المال، حيث اشترت أرضاً بعيدة عن المدينة إلى حد ما - التي بدأت بالزحف وابتلاع أرضها للأسف، وفق تعبيرها - وشرعت ترسم في عزلة تامة، بلا خادمة ولا صبي خادم. أكثر من اثنتي عشرة ساعة يومياً أحياناً. كان لديها حصان تركبه وتتجول في الأيام التي لا ترسم فيها. تعرفت على سكان الريف، وعلى سكان المدينة نفسها، معرفة جيدة. بدأت لوحاتها تبعث فيها السرور.

كم تتحدث عنها بإعجاب، قالت فاني، يخالجها شعور ممض إلى حد ما. كانت قد بدأت تنفيذ أوضاع اليوغا أثناء استماعها لآولا. شكلت جسدها الآن على هيئة محراث ومطت ظهرها على آخره.

أجل، قال آولا، وهو يتابع مناوراتها فوق العشب، انتظري حتى تلتقي بها. تبدو شبيهة تماماً بتلك الممثلة التي لديكم في أمريكا، صاحبة الصوت الرخيم والشعر الأشقر، ذات العينَين الرماديَّتَين التي تزوجت من رجل يبدو كتوأم لها. ليست أشد بياضاً منها. لطالما فكرت أنني إذا ما التقيت يوماً بشبيهة تلك الأمريكية، سينعقد لساني وأعجز عن الكلام. لم يحدث لي هذا. بالطبع، كان لديها آنذاك طاقم من العمال يقف إلى جانبها في تسيير شؤون المدرسة. أثاروا انبهاري. ترسلهم إلى هذا البلد أو ذاك - إلى روسيا،

أو العربية السعودية أو برلين - لدراسة الفن وعلم النفس، وكيفية تشغيل مدرسة داخلية بأرقى مستوى لاحتواء اليافعين المضطربين. كانوا جميعاً يتعاملون بحنان مع التلاميذ ومع مديرتهم بعيون تواقة، ومشرقة تلمع كالبنسات. منذ الوهلة الأولى أخذنا نفتح الأحاديث ونتكلم بسرعة. وجدت على الفور دوافعَ خفية تجذبني لمساعدتها على إنقاذ المدرسة. رأيت فيها مكاناً خرافياً للتدريب على بروفات مسرحياتي وتأديتها!

لم أر قط بناء كهذا. هل أخبرتك أن كل بوصة في جدرانه الخارجية والداخلية كانت مغطاة باللوحات الفنية؟ عندما ينفذ الورق وقماش الرسم، الأمر الذي كان يحدث دوريا كما أخبرتني ماري جين، كانوا ببساطة يدهنون اللوحة الجدارية القديمة بالأبيض على أحد الجدران ويشرعون برسم لوحة جدارية جديدة فوقها. أخبرتني أن الطلاب كانوا في البداية يتذمرون لأن ثكناتهم وقاعة الرسم العامة جدرانها من الطين وسقفها من القش، إذ تعيد إلى أذهانهم أكواخ القش العقيمة التي أقامها نظام البيض لذويهم وأجدادهم في المحميات. قالت ماري جين: تتحدث خالتي الكبيرة، التي جاءت إفريقيا بهدف تأليف الكتب، في كتبها عن الفن الذي أبدعه البشر هنا قبل تهديم قراهم. الفن الذي أبدعوه بشكل عفوي عبر طلاء منازلهم كل عام بعد موسم الأمطار، بنفس العفوية التي يعيشونها داخل هذه المنازل. لهذا كانت تشعر بأن تشييد المساكن وتزيينها بالديكور هو أمر صائب.

لكي نجعل من حكاية طويلة مقنعة منطقياً، قال آولا، رحنا ماري جين وأنا جنباً إلى جنب مع الطاقم المؤلف من سبعة أفراد، والطاهي والجنائني وبعضاً من أمهات الأطفال، لأكون دقيقاً، وأخ أكبر أو أب أو اثنان، جميعاً نفكر ونطرح الأفكار على مدى عدة أيام ثم قررنا أن ليس أمامنا في سبيل إنقَاذ المدرسة سوى أن نتزوج أنا وماري جين.

واجهنا المشاكل نتيجة لهذا بالتأكيد. ها أنا ذا، أحد أفضل وأبرز رجال الأولينكا السود وخريج الجامعات الغربية وأمتلك منزلاً جميلاً وسيارة وما إلى ذلك، أتزوج من امرأة تعيش في الأحراش، الكثير كانوا يشكّون بالأمر،

والقليل في الواقع علموا به؛ ها أنا ذا، زعيم البلاد بلا منازع، من يشير إلى حاجاتها وأمجادها وتعدياتها يميناً ويساراً، ويهاجم من حين لآخر الرجل الأبيض وامرأته بقسوة يستأهلونها. كيف لي، في نظر الجميع، أن أقترن بامرأة بيضاء؟ وهي ليست شابة حتى، كاللاتي في مجلات البنات التي أغرقت على حين غرة الريف والتي يراها المرء حتماً حيثما يمم طرفه.

إنها إحدى الألاعيب الوداعية التي طبقها نظام لبيض المهزوم. توظيف جسد المرأة البيضاء. فجأة غدا جسد المرأة البيضاء، المحظور علينا لفترة طويلة، معروضا في كل مكان. عرضت أعضاءها الحميمية جدّاً أمام الجميع. كان الفتيان يحملون المجلات الملفوفة في جيوبهم الخلفية. وأصبح هذا رمزا للمكانة الاجتماعية، مثل التي شيرت والجينز الأزرق. وجزءاً من حس الأناقة. أما آباؤهم وأعمامهم فقد كانوا يخبئون رزم المجلات تحت مراقبة شديدة في المنزل تحت الأسرّة، أو في المكتب. تشجع هذه المجلات على تجارة السوق السوداء المحمومة. وحثت نساءنا على تفتيح بشرة وجوههن بواسطة مساحيق التبييض، لتصبحن شقراوات. فجأة لم تعد فكرة التعري دلالة على الهمجية. قيل لجميع النساء اللواتي رشقن سابقاً بالحجارة بسبب سيرهن بدون البلوزة تحديداً بوجوب خلعها الآن كي يصبحن عصريات.

وفي الوقت نفسه، قررت الحكومة، بعد إلغائها لمعظم قوانين الرجل الأبيض لأنها تضطهد السكان المحليين، المحافظة بثبات على قانون وحيد يحظر الزواج بين الأعراق. هذا يبرهن على أن صلفهم العرقي لا يقل عن مثيله لدى الرجل الأبيض، كما ترين. في المقابل، أعادوا العمل بقانون تعدد الزوجات الذي كنت أعارضه، وكذلك النساء. يعتبر تعدد الزوجات من التباشير الواضحة لظهور نظام المزارع، يكون فيه الزوج سيدا والزوجات عبدات. حسناً، ما من حكومة تصغي لصوت المرأة. الجميع كان يعرف هذا في حينها.

لو أعلنت زواجي من ماري جين، لدخل المشرعون القانونيون في عقدة قانونية مزدوجة.

لا يوافقون على الزواج بين الأعراق لكنهم يوافقون ويشجعون على تعدد الزوجات. سأتخذ زوجة ثانية، إلا أنها بيضاء.

ومع ذلك فقد كان السبب العميق لزواجنا هو حصول ماري جين على المواطنة وبالتالي يصبح ترحيلها غير قانوني، وللإبقاء عليها وعلى المدرسة في أولينكا.

شعر أعضاء الحكومة بالنكبة بسبب قراري. لم أبالي. هم بحاجة للمسرحيات التي أقوم بتأليفها. بحاجة لشعبيتي بين الجماهير. من خلال مسرحياتي فقط استطاعت الحكومة التوجه للشعب وتعليمهم أسلوب الحياة الذي تناضل بلادنا لبلوغه، دون أن تثير فيهم هلعاً قاتلاً.

بقيت ماري جين في أولينكا؛ ازدهرت مدرستها. تغاضى الناس عن تصرفي وبالضرورة غفروا لي، كما هو شأنهم على الدوام. عدا أنهم تلمسوا مساهمة ماري جين في مستقبل أولادهم وبلادهم. زار أعضاء الحكومة، بالأحرى وزير الداخلية الأبله فقط، مدرسة ماسوكتا وأصدر تعليماته بوجوب تشييد أجزاء المبنى من مواد حديثة. من القصدير والخشب المعاكس. كان هذا ردّه الفاسد على مناوراتنا الناجحة. مُحيت جميع لوحات الأطفال الجدارية، ومعها الطابع التقليدي للمدرسة. لكن ماري جين وطاقمها لم يهابوا. يا للهول، ظلوا يبكون، بكينا جميعاً، على مدى أسابيع. شعرت أن لديهم استشراف لما ينبغي أن يكون عليه المستقبل الذين هم بصدد صياغته. بدت لهم حالة فظيعة لكنهم خبروها جيداً في عملهم اليومي. يستحيل قهر تلك الأرواح. كم سرّني أنني كنت طرفاً صغيراً في هذا.

وهكذا، قال آولا أخيراً، مع تنهيدة عميقة أثناء نهوضه، في اللحظة التي نِهضت فيها فاني بثبات من جديد على قدميها، بعد أن أنهت وضعية النسر، تزوجت من امرأة بيضاء بالكاد أعرفها، وسرعان ما أصبحت أراها أقل بياضاً. بتنا صديقان مخلصان وحليفان، وبقينا على هذه الحال حتى يومنا هذا.

وأنت ألم... تحاول أن تفعل شيئاً؟ سألته فاني، مبتسمة، إنما بفضول نهم تجاه حياة والدها.

أحاول أن أفعل شيئاً! قال آولا. لم أكن لأجرؤ. تتمتع ماري جين – انتظري حتى تلتقيها – بنظرة تجعل المرء يخر على ركبتيه.

***

كانت ماري جين برايدن – المعروفة للجميع بالسيدة بي – نسخة طبق الأصل عن جوانا وإدوارد كما ظهرت في آخر فلم شاهدته لها فاني – يروي حكاية زوج يقع في غرام فتاة شابة، ويعيش وإياها حياة سرية، ثم تنجب طفلاً ويموت هو تاركاً زوجته مع هذه الخيانة. لديها ذات الفم الواسع، والأسنان المتناسقة ونبرة صوتها مضبوطة رتيبة. يمكن لمن يسمعها أن يشتبه، مع ذلك، بوجود طبقة أو اثنتان من الهستيريا. عيناها رماديتان لطيفتان، وقصت شعرها الأبيض بتسريحة البوب الذي بدا شبيهاً إلى حد بعيد بشعر مستعار، مسترسل وغير مصفف وتصبغه بلون أزرق كزهرة الجنطيانا تقريباً.

لم أحضر جنازة آولا، قالت السيدة بي. ما كنت أحتمل الجلوس هناك بينما يسهب جميع أولئك الذين يكرهون شجاعته في الكلام عن مدى تقديرهم افتقادهم له مستقبلا! سوف يفتقدونه كالجحيم، قالت، وهي تحتسي جرعة ويسكي من قدح ماء بين أصابعها. سوف يفتقدونه، هذا رائع. لن يعد هناك من يرفع صوته بوجه الحكومة الآن. لا أحد ذو سلطة على أية حال؛ سوف ترغم النساء أنفسهن باستمرار على الاستيقاظ كي يعلمن الصبيان عن الوقت خلال النهار... لم أكن في حاجة للذهاب إلى الجنازة؛ لقد تودعنا أنا وآولا مسبقاً. ألا تعلمين أنه توفي هنا، في منزلي؟

لا، قالت فاني، لم أكن أعلم.

وهو في غمرة تحضيراته لمسرحيته الجديدة التي تتحدث عن الأولينكا، عن السود والبيض والطبقة الوسطى. التي تتحدث كيف أجاز الشعب، بمباركة الحكومة، انقسام البلاد طبقياً كانقسامها تماماً حين كانت تحت سلطة البيض على أساس اللون. توقع لها أن تكون أول نقد مباشر يوجهه، حسب تعبيره. وضحكت. كان يزعم باستمرار أن الطبقة الوسطى ليست

مادة مناسبة للدراما؛ إنما للكوميديا وحسب، ولا حتى للكوميديا بل للهجاء والهزل.

هذا ما كان يقوله لحظة أصابته النوبة القلبية. وقصد بهذا شكلاً من أشكال التعليق اللطيف غير المؤذي، بيد أنني أفترض أنها عمل وضع حياته الخاصة موضع الشك.

حين أعدناه إلى المنزل بعد ذلك - كانت البروفات تؤدى في صالة المدرسة الرياضية - ووضعناه على الأريكة - أجل، حيث نجلس الآن - كان لا يزال يحاول الكلام والمزاح. لكنه قال لي في النهاية، وللممثلين المتحلقين حوله، أمراً في منتهى الاتزان والصحو. قال إنه في اللحظة التي يتحدث فيها باغته تجلٍ معين عن شكل النضال اللانهائي. نضال شبيه بطبقات البصلة وله ذات الرائحة أيضاً، كما قال، ويجعل العيون تدمع، وأنه كلما جلس لكتابة نص مسرحي كان يصاب بالدهشة، وشيئاً من خيبة الأمل، لدى اكتشافه أنه لم يفعل سوى بلوغ طبقة جديدة من المعاناة المقززة التي يكابدها البشر. أخبرنا أنه كان لديهم أحلام كبيرة عندما مضى وأصدقاءَه للانضمام إلى المبيليز. كانوا يعتقدون أن إزاحة البيض عن السلطة سيكون آخر أعمالهم لضمان مستقبل زاهر لبلادهم. على النقيض، فقد تبين أنها البداية وحسب. لم تكن بداية صغيرة على كل حال؛ لهذا كان ممتناً. لكنها تبقى بداية رغم ذلك.

لم تكن العنصرية آنذاك، كما يرى، هي وحدها التي ينبغي مكافحتها، وإنما الغباء والجشع أيضاً، تلك الخصال التي هيمنت على التاريخ البشري ردحا طويلاً من الزمن، مع كل أسف. توقفت السيدة بي عن الكلام قليلا.

كان مستاءً تحديداً، قالت، وقد زمّت شفتيها على بعضهما كما لو أنها ترغب بألا تتابع كلامها، لكنها واصلت الحديث، قبل أسابيع من وفاته، تناَهت إلينا الإشاعات ببيع أوروبا الغربية والاتحاد السوفييتي سراً ملايين الأطنان من النفايات المشعة لعشرات الدول الفقيرة، بما فيها الأولينكا، بهدف طمرها في إفريقيا. تنهدت عميقاً، ثم زفرت. نظرت نظرة مطولة إلى فاني لترى ردت فعلها المصدومة.

تأوهت فاني وطفرت دموع التأذي والحنق من عينيها. لم يخطر لها مطلقاً أن هذه الأنباء قد تكون مجرد شائعات. تأكدت من صحتها حالما سمعت بها، تماماً كما تأكد آولا.

شعر آولا بالغضب جراء مساهمة الأفارقة في هذا التخريب بعيد المدى - تخريب أبدي في الواقع - لقارتهم وذريتهم، قالت السيدة بي. إذا ما تأكدت صحة الإشاعات، كان يعتبر شراء وطمر هذه المادة جريمة ترتكب بحق إفريقيا أكثر فداحة من جريمة بيع الأفارقة على يد الأفارقة خلال مرحلة تجارة الرقيق. نظرت السيدة بي إلى فاني وأردفت، إن دوافع حكومات البيض المتورطة هي دوافع خسيسة بلا ريب، كما عهدها دائماً.

بسطت فاني أصابعها فوق طرف الأريكة التي تجلس عليها، صوفا مخملية لونها ضارب إلى الصفرة، بلون لبدة الأسد. تخيلت آولا يتكلم راقداً عليها. ولعله كان يتنفس بصعوبة كبيرة.

بأي اتجاه كان يدير وجهه؟ سألتها.

نحو النافذة، قالت السيدة بي. كان يزورني باستمرار ولديه جلساته المفضلة هنا. هو زوجي شرعاً؛ هل تعلمين بهذا؟

أومأت فاني برأسها إيجاباً.

يمكنك بسهولة رؤية جبال دغورو عن هذه الأريكة. يحلو له الاستلقاء عليها والنظر إلى الجبال، متفكراً في مسرحياته. كنت أعد الشاي ونجلس نحتسيه، صامتين.

مسحت فاني دمعة تدحرجت على خدها.

لون شعرك، قالت لها كي تتفوه بأي شيء. من أشد درجات الأزرق إثارة للدهشة.

أعرف هذا، قالت السيدة بي ضاحكة. أؤكد لك أنه ليس طبيعياً على الإطلاق. أبداً. هو لون أحببته طوال حياتي وتعلمت مزجه بنفسي، بوصفي رسامة. الأمر الوحيد الذي كنت أحبه في حياتي الماضية في أمريكا هو لون أزهار الديلفينومز الأزرق الغامق في حديقة منزلنا. حسناً، الدلفينومز لا

تنبت هنا، إلا أن اللون يبدو لائقاً جدّاً على شعري. يمنحني شعوراً معيناً أنني زهرة دلفينومز. ضحكت ثانية. ويستهوي تلاميذي، خاصة الصغار الجدد والخائفين، الذين لم يعرفوا يوماً سوى الأزقة والأجمات. تعجبهم غرابته. بالنسبة لهم هو نوع من حمار الوحش البشري. إن كان ثمة من شبه دقيق بيننا كبشر وبين الدمية، فهو شعرها حسب اعتقادي، قالت.

أشكرك على كل ما كنت تمثلينه بالنسبة لوالدي، قالت فاني. لم يكن لدي أدنى قناعة أن شخصاً أبيضَ، بالذات امرأة، يمكن أن يمس حياتي الخاصة بهذا العمق - وبشكل مؤثر.

ردت السيدة بي على نظرة فاني المتفحصة بنظرة باحثة تميزها. لعلها استطاعت أن ترى، كما خطر لفاني، مدى قصور الإدراك الذي علمتها إياه أمريكا الشمالية حيال بقية البشر، حتى لو أنهم من البيض.

نحن جميعاً نمس حياة كل منا الآخر بأشكال لا يمكننا تخيلها، قالت السيدة بي بنبرة جافة.

أجل، قالت فاني وهي تنهض عن الصوفا المصفرة، تهم بالانصراف. شعرت فجأة في خلفية ركبتيها بحركة ساقي والدها الهزيلتين. نظرت إلى الخارج نحو الجبال التي أحبها، وتعبدها بعينيه.

كأن بها ترى فجأة آولا نفسه جالساً أمامها، عانقتها السيدة بي. كانت فاني ذاهلة ومسرورة في آن معاً.

إلى متى ستبقين في إفريقيا؟ سألتها.

يتعين علي السفر قريبا، قالت فاني. أنا على علاقة برجل يعيش في كاليفورنيا. لكنني سأعود. ربما يرافقني. ترغب أختي نزينغا بإنتاج مسرحيات آولا، وتأليف مسرحياتها الخاصة حسب توقعي. طلبت مني العَودة لمساعدتها. اثنتان من آلت، كما ترين، أفضل من واحدة. تقسم أنها تتوقع اضطرارها لمحاربة هذه الحكومة أربعين عاماً، تماماً كما اضطرت من نحمل اسمها أن تقاتل البرتغاليين.

هي تعلم عم تتحدث، قالت السيدة بي.

أتظنين أنهم قد يلحقون بها الأذى إذا ما أنتجت مسرحيات آولا، سألتها فاني متجهمة وهي تتراجع عند الباب.

تفكرت السيدة بي بهذا. ربما لا، قالت، بنبرة أمريكية شمالية متقنة. في النهاية، آولا نفسه قد توفي؛ سوف تنتفع المسرحيات التي كتبها مؤخراً في انتقاد الحكومة من غيابه. كي يبرهنوا على مصداقية حزنهم على وفاته وبغية التأثير في المجتمع المحلي الذي أحبه، قد يتوسلون نزينغا أن تعرض بعضاً من أعماله المسرحية إحياءً لذكراه. بعضها **لا *يتحدث*** عن تحصيل الضرائب دون بيان قانوني، ولا عن اضطهاد النساء، **ولا** عن العنف المطبق من قبل الحكومة ضد الشعب، **لا *يتحدث*** عن الطبقة الوسطى المتعجرفة، ***ولا*** عن معاملة الفقراء بوحشية، **لا *يتحدث*** عن همجية العسكر، **ولا** عن إلقاء النفايات النووية...ممم، قالت، سيكون ممتعا بالنسبة لهم مشاهدة ما يتوافق معهم من الأعمال.

ضحكت فاني. تخيلت آولا بالضبط وهو يعدد هذه القائمة ويعطي ذات الملاحظة.

الأعمال التي من المرجح أن تثير استنكار لجان الرقابة - الذين لم يقرأ أي منهم، بلا شك، عملاً مسرحياً قط - ستكون مسرحيات نزينغا نفسها ربما. أو أعمالك أنت، إذا ما اعتزمت العودة وتأليفها. ليس هناك ما هو أقسى على رجال السلطة من تصور ما تعرفه امرأة إفريقية. فما بالك أن يكون لديهم امرأتان إفريقيتان تقولان ما تعرفانه! ضحكت.

حسناً، قالت فاني. وهو كذلك على ما أظن! السؤال الوحيد المتبقي هو: إذا ما كتبنا وبعد أن نكتب أنا ونزينغا أبناء وبنات مسرحيات والدنا المغضوب عليها، فهل يمكننا عرضها صالتك الرياضة؟

بالتأكيد، قالت السيدة بي باسمة ولوحت لفاني مودعة أثناء ابتعادها في إحدى السيارات الحكومية الصغيرة رمادية اللون. راحت تفكر أنها هي أيضاً قد تؤلف عملاً مسرحياً، عندما تقوم نزينغا وفاني بإنتاج أعمالهما. بهدف تسلية نفسها، من أجل طلابها ومن أجل نفسها. فقط لكي تدهش نزينغا

وفاني. لسوف تضع لها عنواناً قريباً من ريكويردو، أو العصور القادمة، أو إليندرا وإلينورا، أو قد تعنونها بماسوكتا، أو همجي في المكتبة أو ربما زيدي وكارلوتا أو - كارلوتا وحسب.

* * *

مرحبا يا ولدي.

إنه صوت الآنسة ليزي، لكنه بدا أشد عمقاً وأوهن وأكثر هرما منه في ذاكرة سويلو. قام بتعديل صوت المسجلة ثم جلس على الأريكة قبالتها. كان قد ثبت جهاز العرض على الطرف الأيسر من الصوفا ولقمه بشرائح أعمال الآنسة ليزي التي أرسلها له السيد هول. سوف يقوم بمشاهدة الشرائح بعد استماعه لكلماتها.

في الوقت الذي ستتسلم فيه هذا التسجيل، تابع صوت الآنسة ليزي العميق، سأكون قد أصبحت في مكان آخر وغدوت شخصاً آخر. طلبت من هول ألا يرسله لك إلا بعد موتي، الذي أترقبه وأنا على يقين أثناء انتظاري أنها ليست النهاية، بل سأكون كائناً مستمتعاً بتسكعه في الجوار، رغم تعدد ذواته. أشعر بالأسى على رحيلي عن هول، وباللهفة كذلك لاحتمال اجتماعنا مجدداً؛ هذا كل ما آسف عليه، وكلي ثقة أننا سنلتقي ثانية، في القريب العاجل بلا شك. هناك الكثير الكثير من القضايا التي بيني وبين وهول لا بد لنا من حلها، ومع أننا كنا نفعل ذلك طيلة سنوات، وكان عملا مرهقا، فلم نتخطى البداية.

هل تذكر تلك الأغنية؟ وصلت إلى قناعة أن الأغاني التي يؤديها البشر تعد خلاصة إبداعاتهم الصادقة، في حال كانت أغانٍ واقعية وليست أغاني باب[1]. وتخبرنا بالحقيقة أحياناً مع أنها باب، بيد أنها ليست الحقيقة التي يتوهم المغنون أنهم ينطقون بها. قبل أن أتحدث عنا أنا وهول، دعني أقل لك بضع ملاحظات بشأنك.

1- Pap تقصد موسيقى البوب، وتلفظها حسب لهجتها - المترجم

بعد أن غادرتنا في الصيف الماضي عائداً إلى كاليفورنيا، لم أتوقف عن التفكير بك، والنظر إلى صورتك التي رسمتها لك - رسم هول واحدة تماثلها تقريباً - وأنت محاط بكل ما في العالم من جمال، بالأزهار والذرة واللبلاب والأشجار، في المنزل المريح ملاذ صديقيك العجوزين. صورتك وأنت نائم. أجل، كنت نائماً نوماً هانئاً؛ بالتالي، اتسمت لوحتانا بالواقعية والإخلاص. فيما كنت أمعن التفكير بك وبالفترة التي أمضيتها في منزل رافي وبرفقتنا، أخذت أفكر بمزيج مشاعرنا أنا وهول حيالك أثناء نومك.

يصعب على الناس تذكر أولئك المصابين بجراح مروعة عبر الحديث عنهم، خاصة إن كانوا يوماً جميلين وكاملين. هذا هو حالك بخصوص والدك. مشاركته في الحرب وضياع جوانب كثيرة من صميم ذاته وفقدانه لذراعه. وهذا حالك أيضاً بخصوص ضعف والدتك. ما أود أقوله يا سويلو، هو أنني وهول نشعر بالندم لأننا لم نفسح لك المجال ونشجعك على الحديث عن أبويك؛ نشعر بالندم لعدم إطلاعك على ذكرياتنا أيّاً تكن هذه الذكريات - وهي قليلة مع كل أسف - أو شيئاً مما سمعناه أو عرفناه. لم تتكلم عن والديك، عن الحادثة التي صيرتك يتيما في مقتبل العمر، حين نفكر فيها تبدو لنا حادثة في منتهى الغرابة. أعلم أنك محاصر هذه الأثناء في تشابك علاقتك المعقدة بفاني، وكلانا أنا وهول متفقان بوجوب أن يكون العمل على شخصيتها هي. لكن جزءاً من عملك على شخصية فاني ينبغي عليك تسويته في علاقتك بأبويك. لا بد لك من استحضارهما استحضاراً واعياً واستدعاءهما وتذكرهما. كيف عاشا؛ وأيضاً لماذا وكيف ماتا. لا بد لك أن تتذكر حتى طراز ونوع السيارة التي لقيا فيها حتفهما. نمط تسريحة شعر والدك ولون ثوب والدتك. وآخر مرة وقفت فيها أمامهما.

شعرنا أنا وهول أنك قد أوصدت الباب على الذاكرة والألم، وهو باب شديد الأهمية. إن مجرد تفوهك باسميهما، مارسيا ولويس، يجعلك تشعر كأنك تحمل مفتاحاً ثقيلاً في يدك. نناشدك فتح ذلك الباب، والنطق باسميهما. أخبر فاني بكل ما تذكره عنهما، بانفتاح ودون تلكؤ. نستحلفك

أن تقتفي أثر ما قد تتعرف عليه في ذاتك من خلال العودة إليهما؛ أن تعثر على الصلة القلبية والروحية التي تجمعك بهما، إذ أنهما يشكلان جبهتك الموحدة، في النهاية. في الحقيقة يا سويلو، إن لم يكن آباؤنا حاضرين فينا حضوراً واعياً، فلن نفلح أبداً في التعرف على مكنونات ذواتنا. كأن أبداننا معمية وبكماء، وأعجز من أن تشعر بنفسها. قلما يُصدَّق الحدس؛ الغريزة مرهوبة. عندما يتضح لنا بأن ذواتنا لا تعمل خارج أجسادنا، نفقد ثقتنا بكل شيء. هنا يكمن السبب الذي يجعل أطفال التبني يفعلون كل ما بوسعهم في سبيل العثور على أهلهم الحقيقيين. والأدهى أن الأبواب المؤدية إلى الماضي السحيق، والذات القديمة وسياق الحياة الموغل في القدم، تظل أبواباً مقفلة. عندما يحدث هذا، من المرجح أن تمسي مهارات طبيعية أساسية للمرء بعيدة المنال: كالقدرة على الابتسام بعفوية والمزاح والابتهاج، والقدرة على الجدية وعلى تعمقه في التفكير، وعلى تحريك أوصاله برشاقة.

حين يتعلق الأمر بكارلوتا، المهمة ليست عسيرة – ولربما يتبين أنها مهمة أكثر صعوبة – إذ أنها لا تزال حية. يجدر بك أن تفهم، وأعلم أنك قد فهمت الآن، أن تعاملك مع من تستغل جسدها وكأنها إنسان خال من المضمون يعد خطيئة. الخطيئة هي إنكار حقيقة الآخر، إنكار حقيقته أو حقيقتها الفعلية. لم يفت الأوان بعد لأن تذهب إليها، وأنت مضطر لهذا لمصلحتك، وتطلب منها مسامحتك. اشرح لها بعضاً من أوجاعك، والتي قد تكون جذورها في وجه والدتك المتألم والمنبوذ، والخوف الذي عايشته نتيجة فرط معرفتك بآلام النساء، وقل لها شيئاً عما قد تعلمته.

إنه السد الذي نقيمه بيننا وبين الآخرين – الأحياء منهم والأموات – وينَبغي علينا العمل لإزالته. من خلال صد ما يؤذينا، نتوهم أننا نصبنا جداراً حائلاً دون الألم. لكن هذا الجدار، الذي يحول دون نضجنا، يؤذينا على المدى البعيد أكثر من الألم، ولو تحملناه قانعين لمر علينا وانتهى سريعا. لغسلنا ومضى. سيمكث الألم في ذاكرتنا زمناً طويلاً، غير أن الألم بحد ذاته

وبالشدة التي كان عليها والتي جعلتنا نشعر أننا سنلقى حتفنا بسببه، يزول في نهاية المطاف. لا يبق منه في ذاكرتنا سوى الأثر. تنتصب الجدران في مكانها ثابتة وتنمو عليها الأشنيات. حواجزا يستعصي عبورها للوصول إلى الآخرين، لبلوغ الأجزاء المغلقة الدفينة في ذواتنا.

تنحنحت الآنسة ليزي.

أطلت الكلام في هذا الأمر، يا سويلو، لأنه موضوع مهم وصحيح، وأيضاً لأنني أخشى إطلاعك على مقدار معرفتي بكل هذا، إطلاعك على سيرتي أنا. التي هي... - وهنا أخذت نفساً عميقاً وبطيئاً - لقد كذبت عليك حين قلت إنني كنت امرأة سوداء على الدوام، وأن ذاكرتي تقتصر على بضعة آلاف من السنين الماضية.

لا شك أنني كنت من حين لآخر امرأة بيضاء، أو ببياض نصف البيضاوات تقريباً. لم أشأ أن أضجرك بحكايات عن قرون أمضيتها جالسة في حيرة من أمري لدى اختياري للمرأة الملونة التي سوف تنظف أرضية منزلي. كان معشر رجالنا يأتون بهن طوال الوقت. قد تخلد للنوم ذات ليلة دون أخيك أو زوجك أو أبيك، وفي الصباح يعود أكثر من واحد منهم على الأرجح. تراه يجر رتلاً من مخلوقات لن ترى عينك أشد من تعاسة مظهرها. سود وسمر وحمر. أحياناً كالمغول أو الصينيين. لن تعرف أبداً من أي بقعة من العالم ينحدرون. ولن يخبرك من يحضرهم أبداً بذلك. أحضرت لكِ من يعاونك، هذا أقصى ما يقوله، وهو يلقي بطرف السلسلة بجوار كلابه المربوطة.

قد يضع قطعة حلي جميلة وبدائية حول عنقي أو ذراعي، لا بد أن مشعوذا قد صاغها من الفضة أو الذهب على الأرجح حسب ظني، ثم يبدأ بالتلفت حوله طالباً الإفطار.

كنت أعرف المهمة الموكلة إلى السيدة. أمسك بمقدمة ملبسي وأضم طرفيه ثم أمضي لمعاينة أولئك الهمج. كنت أبعد أنفي دائماً وتصدر عني حركة إقياء نحو شعرهم القذر. كانوا يتعرضون لضرب وحشي يجعلهم لا يجرؤون على النظر إلي.

في حال لم يرهنه من أتاني به، سوف يبدأ هذا الشيء المعلق في عنقي أو ذراعي مع مرور الوقت بالتحدث إليَّ. تحديداً كلما نظر *أحد منهم* إليه. استغرقني سنيناً حتى فهمت أنني أحمل، على ذراعي السمينة أو الهزيلة البيضاء، تاريخ وفن وثقافة شعبهم بأكملها والتي لا هم ولا أولادهم سيرونها ثانية أبداً.

ساد توقف قصير عن الكلام. الذهب، استأنفت الآنسة ليزي وهي ساهمة في أفكارها، الرجل الأبيض يعبد الذهب، فالذهب يمثل بالنسبة له الشمس التي يفتقدها.

توقف قصير آخر، وهنا انحنى سويلو قليلاً وألقى نظرة على شريط الكاسيت الذي يدور بلا صوت. بعد قليل، أخذت الآنسة ليزي نفساً منهكاً وتابعت كلامها.

دعني أقص عليك حكاية، قالت. هي ذكرى حلم أيضاً، كتلك التي أخبرتك بها عن حياتي مع أولاد عمومتنا؛ لكنها أكثر ضعفاً من تلك وأكثر ضبابية. حكاية واهية. وهي متداولة. لقد كبتها قدر ما استطعت. بغض النظر، فهي لا تزال برفقتي لأنها كياني، شأنها شأن ذكرياتي الأخرى.

توقفت وسعلت ثم قالت، في الواقع حدث هذا منذ بعيد جدّاً.

عاد سويلو إلى الخلف وأسند ظهره على وسائد الأريكة، وضع قدميه على طاولة القهوة أمامه وشبك يديه خلف رأسه.

فكر أنه مستعد.

كنا نعيش على طرف غابات شاسعة، قالت الآنسة ليزي، في نمط من المنازل شيدها الناس من القش؛ مساكن صغيرة ضعيفة وواهية فعلياً، وهمية إلى حد ما، شبيهة بعش النمل أو شبكة العنكبوت، وتبنى في غضون ساعة باتجاه الشمس. كانت والدتي ملكة المجموعة؛ إذ كنا عشيرة صغيرة أو قبيلة. لا تتعدى مائتي شخص، وربما أقل. لم تكن ملكة من نمط ملكات هذه الأيام. أبداً، ولم تكن لتفهم ذلك النمط من الملكية، وستراه قبيحاً. أظن أنها كانت كما هنَّ الملكات بالأصل: امرأة حكيمة وشافية وتتمتع بخبرة

ورؤية كبيرتين، امرأة تدربت على يد والدتها تدريباً رائعاً. شخص صالح فعلاً، وكلامها مسموع باستمرار من أبناء عشيرتها.

أبقتني والدتي بقربها طيلة الوقت، وكانت تداعبني باستمرار وتفرك بشرتي بشتى أنواع المراهم التي تستخلصها من حبات التوت والجوز التي تعثر عليها. لم أكن أجد وأنا طفل أي عيب بقضائي وقتاً طويلاً بصحبة والدتي، ولا كان هذا مزعجاً لي أبداً. بل على النقيض تماماً، في الواقع. كان أليفها أسداً ضخماً وله حضوره المميز؛ يذهبان إلى جميع الأمكنة سوية. وكان لهذا الأسد أيضاً عائلة خاصة به. نتبادل معهم الكثير من الزيارات، وألقى ترحيباً كبيراً على الدوام من الأشبال وسط أسرة الأسد الصغيرة.

قد يبدو هذا غريباً بالنسبة لك، يا سويلو. أقصد بشأن الأسود. لكنها الحقيقة. حدث هذا في زمن موغل في القدم، من قبل أن تعرف الحيوانات أي مبرر للخوف منا وقبل أن يكون لديهم أي سبب لمحاولة التهامنا، الأمر الذي - فكرة التهامنا - أنا أكيدة من أنه سيصيبهم بالمرض. على مدى زمن طويل، كان معروفاً عن اللحم البشري بين الحيوانات أنه مادة سامة.

في أحد المواقع في الإنجيل ثمة فقرة تتحدث عن زمن قادم يعم السلام فيه وجه الأرض وتنام الأسود فيه إلى جانب الحملان. حسناً، لقد حدث بالفعل في الماضي، وتضرر الأسد منه في النهاية.

في تلك الأيام التي أتحدث عنها، كان البشر يقابلون الحيوانات بذات الطريقة التي يلتقون فيها مع بعضهم بعضاً. بالمحصلة، كنتم تتقاسمون المنطقة نفسها. شربتم من نفس النبع، وأكلتم ذات الطعام، وكنت تجد نفسك أحياناً تنظر نحو الخارج من نفس الكهف إلى أن يتوقف هطول الأمطار. أعتقد أن والدتي وأليفها عرفا بعضهما منذ الطفولة؛ إذ كانت هذه حالة الجميع تقريباً. أعني جميع النساء. فالنساء وحدهن، وقد يبدو هذا غريباً، من يرافقن أليفاً. لم تكن هذه الحالة موجودة في مجموعة أو قبيلة الرجال. تعلم الرجال فيما بعد، عبر تقليد علاقة النساء بأليفهن أو مرافقيهن أو صديقهن أو.. سمه ما شئت، تدجين كلاب الغابة المتوحشة وإفراد أحدها ثم تلقينه

تدريباً جيداً حتى يستكين ويبقى إلى جانبهم. لا أقصد الإيحاء بأن الكلاب كانت متوحشة بالصورة التي نصور فيها الحيوانات حالياً، أي أنها ذات أسنان ومخالب حمراء. لا، بل كانت متوحشة لأنها ببساطة تفتقد للحساسية التي تتمتع بها باقي الحيوانات – حساسية الأسود على وجه التحديد؛ ناهيك عن حساسية الفيلة والسلاحف والعقبان والشمبانزي والقردة والغوريلا وبقية القردة الضخمة. كانت مخلوقات صغيرة انتهازية، وكسولة بشكل أساسي وتفتقر بشدة للنزاهة واحترام الذات. إنها تفتقد للفكر أيضاً.

كان منظر والدتي برفقة هوسا، أعجز عن وصفه لك، يسيران جنباً إلى جنب على ضفاف النهر أو يسبحان فيه منظراً في غاية الروعة. كان عملاقاً وجميلاً. أتحدث الآن عن روحه، عن ذاته. مأساة كبيرة اليوم أن أحدا ما عاد يعرف شيئاً عن الأسد. يظنون أن الأسد حيوان مثير للفضول في حديقة الحيوان، أو مسخ برّي يتطلع إلى تذوق لحمهم المقزز إذا ما خرجوا من السيارة في إفريقيا.

كل هذا محض هراء وتعامي خطير؛ كمعظم تصورات خيال البشر. تماماً كما أصبحت والدتي ملكة بسبب حكمتها وخبرتها وقدرتها على التسكين والشفاء، وبسبب تعطشها الفطري للأفكار وحيطتها في العمل، وبسبب لطفها بالدرجة الأولى، كذلك كان هوسا في قبيلته. هم ملوك الخلق ليس بسبب قوتهم، بل بسبب قوتهم ولطفهم معاً. ما عدا ما يتعلق بإعدام المخلوقات المريضة أو الجريحة والتهامها، والذي هو دورهم في عملية الخلق تماماً كدور العقبان في أكل الجثث، لم يستعملوا قوتهم الرهيبة يوماً.

كنا نشعل النار آنذاك. أخبرك بهذا لأنها كانت اكتشافاً حديثاً في حينه؛ لم تكن موجودة في زمن جدتي لوالدتي. قد يأتي هوسا وأسرته لزيارتنا مساء؛ لقد أحبوا النار؛ فترانا جميعاً متمددين حولها نراقب تحولات الجمر ومعجبين بألسنة اللهب حتى وقت متأخر من الليل، حيث نغط في نوم سريع وعميق. ننام أنا ووالدتي بجوار هوسا، وفي برودة الصباح كانت حرارة جسده الوافرة تدفئنا.

لم أكن وحيداً، مع أنني رأيت بقية الأطفال ينظرون إلي بغرابة أحياناً. لكنهم يلعبون معي باستمرار، لأنهم أطفال بالطبع. راقني هذا. غالباً جدّاً ما كانت ألعابنا تتكون من العثور على مأكل جديد نتناوله. وقد نجول لأميال في بحثنا عما هو ناضج وفي متناولنا. كان يبدو لي أن كل ما يتخيله المرء من طعام موجود، وما يفوق حاجة عشرين قبيلة من البشر والحيوانات من أمثالنا. ليت عالم يوم يستطيع أن يرى كيف سارت حياتنا آنذاك. لسوف يرى جميع مخلوقات القبيلة تتسلق شجرة برقوق ضخمة. السمر والسود صغار الحجم، إذ لم أكن قد رأيت نفسي مختلفاً بعد؛ القردة والطيور وتلك التي انقرضت اليوم ذات لون أخضر غامق، حصيلة تزاوج من نوع ما بين الظربان والسنجاب. ترانا هناك، نحشو جوفنا بالبرقوق - حبات صغيرة وحلوة صفراء اللون ويانعة. قد يسمح لنا هوسا بالوقوف على ظهره كي نصل إلى الأغصان الداخلية المرتفعة. إذا ما أطلنا فترة الأكل، يضطجع هوسا على الأرض متثائباً، وعندما نشبع، تبدأ القردة بالذات لعبتها برمي حبات البرقوق في فم هوسا كلما تثاءب. الغريب في الأمر أنه وبغض النظر عن سرعتنا في رمي حبات البرقوق داخل فمه، فلم يبتلع هوسا ولا حبة ولا حتى اختنق بها. كان يرفع مؤخرة لسانه، فترى بابا سحرياً ترتد عنه جميع حبات البرقوق.

ما هو السرمدي يا سويلو؟ وحدها الحياة، حسب خبرتي. الأوقات الجميلة، المحدودة بالزمان والمكان، تنتهي دائماً. وهذا ما جرى لي. حان الموعد المنتظر لتزاوجي. ولم يكن هذا معناه في مجموعتنا بداية البلوغ وحسب، بل والانفصال عن قبيلة النساء - على الأقل عن الحياة اليومية للقبيلة الأمر الذي كان أمراً معروفاً لدى الجميع. بعد تزاوجه ووقوفه إلى جانب شريكته في فترة الحمل، يغادر الرجل ويمضي للعيش برفقة الرجال. لم يكن هذا أمراً شاقاً، طالما أن معسكر مخيم الرجال لم يكن أبعد من رحلة يوم عن مخيمنا، ولم تكن الزيارات تنقطع بين القبيلتين. لمَ لَم يعش الرجال والنساء سوية؟ هذا أمر ببساطة لم يكن التفكير فيه يخطر على البال. سوف يضحكون ممن قد يقترح هذا. ما كان لديهم من سبب يضطرهم للاندماج في العيش، طالما أن أفراد القبيلتين مرتاحين بأسلوب تنظيم قبيلتهم. ناهيك

أن الجميع - بشراً وحيوانات - كانوا يهوون كثيراً القيام بالزيارات. لأكن صادقة، أحببنا تبادل الزيارات. كانت هي تلفزيوننا. ولهذا يستحسن أن يكون لديك من *تزورهم* من أناس وحيوانات.

ومع ذلك فقد كرهت فكرة الابتعاد عن والدتي، كنت أعرف أني ما زلت قادراً على زيارتها متى شئت، وأعرف أيضاً استعداد كل رجل في قبيلة الرجال أن يصبح والدي. إذ لم يكن لأحد أب محدد. يستحيل تحديد الأب، وفقا للأسلوب الحر والمتنوع الذي تختار فيه النساء عشاقهن. بقدر ما كانت النساء تجده أمراً طبيعياً، لم يجد الرجال أيضاً أية غرابة فيه. ولماذا عليهم تحديد الأب؟ اعتبروا أن ممارسة الحب أرقى أفعال الرجال والنساء في الحياة؛ بالطبع كان لا بد له أن يكون مفتوحاً وحراً. هل فهمت ما رميت إليه في كلامي عن الأغاني؟ قهقهت الآنسة ليزي. أضف إلى هذا، بعد وصول الشاب اليافع إلى قبيلة الرجال، تتاح له الفرصة بعد طول انتظار - في وقت لاحق - أن يصبح أما، فالأبوة هي الأمومة كما تعلم.

كان ثمة فتاة أحببتها وبادلتني الحب. هذه معجزة. وفي الوقت المناسب، في اليوم الذي سبق شروق القمر المكتمل، أرسلونا لقطاف البرقوق معا. ما أزال أذكر ذلك اليوم بتفاصيله: دِفء حرارة الشمس على جسدينا العاريين، الغبار الناعم الذي غطى أقدامنا... وأليفها الصغير، ثعبان، ينسل زاحفاً بمحاذاتنا. كانت الأفاعي وقتها مختلفة عما هي اليوم، يا سويلو. بالطبع كل ما كان حرا ذات مرة حاله مختلفة تقريباً اليوم. أليفها، الذي تسميه با، كان تقريباً بثخانة ذراع شخص نحيل وله أقدام شبيهة بالعجلات تستطيل بحيث يمكنه بواسطتها رفع جسده ويطنّ أثناء حركته، كالمخلوقات التي تشاهدها في أفلام الكرتون؛ أو يسحبها فيتحرك مثلما تنتَقل الثعابين الحالية. لديه أجنحة أيضاً يتحكم بها فيفردها أو يخفيها، لأن جميع الأفاعي التي عرفناها كان بوسعها الطيران. كان مرافقاً أثيراً لها، وقد أحبته حباً جماً وكانت دائمة الحديث معه. أتذكر الأثر المتعرج والملتوي الذي يتركه با في إثره فوق التراب الناعم، في ترقبه الفرح لتناول حبات

البرقوق الطازجة...في وقت لاحق من ذلك اليوم، تلذذنا بنكهة حبات البرقوق التي أدفأتها الشمس في أفواهنا. كنا، نحن الثلاثة، نثرثر كل الوقت ونلتهم الحبات تغمرنا سعادة هائلة.

لم يقدر لي أن تطول سعادتي؛ لا أحد منا يظل سعيدا على الدوام. في النهاية، احتضنت صديقتي بين ذراعاي، وفي فمي حلمتها السوداء الصغيرة، الحلوة حلاوة حبة البرقوق والشبيهة شبهاً شديداً بحلمة والدتي، وأنا في داخلها. كان ذلك جل أحلامي، وأكبر من أكبر أمانيَّ. لكنه لم يكن شعورها على ما أظن. عندما صحوت، لاحظت أنها في ذروة يقظتها، تجلس صامتة وتداعب با، الذي راح يتمايل بكسل بكليته ويلتف حول ركبتيها الجميلتين. كانت الشمس لا تزال فوق قمم الأشجار، أتذكر أن نورها كان لا يزال ذهبياً، نور كامل مذهل، لكنها بدأت تغرب بسرعة وأنا أتابعها.

حين نظرت إلى نفسي، لاحظت أنها قد دلكت جسدي بأكمله أثناء نومي بمزيج من التوت الأحمر ودهن الجوز الذي كانت والدتي تستعمله دائماً، وأدركت أنه مخبئ تحت شجرة البرقوق. وللمرة الأولى أسأل أحداً غير والدتي عن الغاية منه. قالت لي والدتي أنه يمنح القوة لجلدي ويقيه أشعة الشمس. وهكذا، سألت صديقتي. فقالت لي أنه يزيدني شبهاً بالبقية.

تبدو كأنك بلا جلد، كما تعلم، قالت. لكن بلى، لديك جلد.

لقد صعقتني هذا الكلام تماماً، وأنا أسمعه بعد أول ممارسة للحب لنا. بدا هذا تلميحاً إلى عيب خلقي متواري لم أكن جاهزاً للسماع عنه وقتها، عشية تحولي إلى رجل في قبيلة الرجال. وخطر لي على الفور: هل سيرونني هكذا أيضاً؟

أخذتني من يدي بلطف وسرنا إلى بركة عاكسة ليست ببعيدة. كنا غالبا ما نستحم فيها. غرفت حفنة ماء ثم مسحت بها وجهي بقوة؛ انحنينا بعدها فوق الماء، شاهدت صورة صديقتي، وبدت شديدة الشبه بوالدتي ووالدتها والأخوات والأخوة والخالات في القرية - جميعهم سمر وسود، بعيونهم الكبيرة الداكنة. وشاهدت انعكاس صورتي - ما الفرق بيني وبين الشبح.

ما كنا نعلم شيئاً عن الأشباح، ولذا لم يكن لدي جملة مقارنة. كان مظهري وكأني بلا جلد.

تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها نفسي مختلفاً بحق. صرختُ في انعكاس وجهي. انتجبت، ثم استدرت وأخذت أجري. لحقت بي صديقتي جرياً. لم يكن في نيتها الأذى. تولت مهمة والدتي في تدليك بشرتي بالمرهم، وكانت تحاول فقط أن تكون صريحة معي فتساعدني على البدء بمواجهة الواقع.

أول ما خطر على بالي هو التواري عن الأنظار - شعري الغريب المسترسل والأصفر اللون كالعشب في أواخر الصيف، عيناي اللتان بلون الحصى، وبشرتي الخالية تماماً من اللون. جريت إلى كهف كنت أعرف بوجوده غير بعيد عن شجرة البرقوق. ورميت بنفسي على الأرض، وأنا أجهش بالبكاء.

لحقت بي حاملة عبوة من ساق البامبو تحتوي على تلك الخلطة من التوت ودهن الجوز. حاولت التحدث معي، بغية تهدئني، ودهن جسدي بتلك المادة. ضربت العلبة وأبعدتها عني؛ تدحرجت على الأرض الترابية. وقع بصري على عضوي في تلك اللحظة فاكتشفت أنه فقد لونه السابق بعد ملامستي لها. أخجلني هذا المنظر. جريت إلى خارج الكهف وأمسكت بأول ورقة شجر وقعت عليها ثم ألصقتها على جسدي.

أدركت لحظتها أنه لا بد من تغطية جسدي بأكمله، وليس قضيبي فقط. كانت صديقتي لا تزال تلاحقني في كل مكان، محاولة أن تهدئ من روعي. كانت تبكي بقدر بكائي، وتضرب على ثدييها. لقد تعلمنا النحيب من القرود الرئيسية، الذين علمونا أن نشعر بالحزن الذي يكابده كل من حولنا، وأن نعكَسه على صاحب المعاناة ونتمثله. بيد أن هذا السلوك جعلني مريضاً آنذاك. التقطت عصا ولحقت بها لتغرب عني. صعقت من رؤيتها لي أستعمل عصا بهذه الطريقة لدرجة بدت معها في غاية السعادة وهي تتخلى عن كل تعاطفها معي وتجري. لحظة التفتت كي تجري هرباً، لدى رؤيته

لجزعها وسبب هذا الجزع، فرد أليفها أقدامه ذات المخالب وجناحيه وطار محلقاً نحوي. لوحت بالعصا نحوه في ثورة غضبي فأصبته إصابة مباشرة، كانت ضربة قوية لدرجة دققت فيها عنقه، وسقط على الأرض جثة هامدة. لم أصدق ما اقترفته. ولا استطاعت صديقتي تصديق عينيها. عادت مهرولة، رغم خوفها الشديد، وغرفت جسد با المحطم عن الأرض وحملته بين ذراعيها. آخر ما رأيته منها كان ظهرها الأسمر العاري والصغير، وذيل با المتلوي المتهدل يتدلى على جنبها، وقد أخذ لونه بالتغير.

لم أذهب مطلقاً إلى قبيلة الرجال. ولم أعد أبداً إلى والدتي. الوحيد الذي قابلته مجدداً من معارف طفولتي كان هوساً. لعله جاء بحثاً عني من قبيل الاحترام لوالدتي. عثر علي متحصناً في كهف بعيد عن معسكرنا، وقد جدلت شعري الشبيهة بشعره بضفائر صفراء متماوجة؛ أصبحت عيناي الرماديتان كلون الحصى متوحشتان بفعل الألم. اقترب مني وأرخى كفه على كتفي وزفر زفرة حانية في وجهي. أوهنتني الرائحة وكدت أفقد وعيي حباً وحنيناً. شرع بعدها يلعق جسدي بالكامل بلسانه الدافئ الوردي، كما قد يغسل واحدا من أشباله. أدركت في تلك الليلة، وأنا مضطجع قرب هوسا، أنه الأب الوحيد الذي لم ولن أعرف سواه أبداً على الأرجح. وهكذا، انتابني إحساس بأنني رحلت عن والدتي لأنضم إلى الرجال في آخر الأمر.

بالطبع ما كان هوسا قادراً على البقاء إلى الأبد. لكنه بقي معي مدة كافية. مدة أتاحت له مرافقتي في مسيرات طويلة، كما كان يفعل مع والدتي. مدة أتاحت له مشاركتي النار - التي أعرف أنه مغرم بها، وأجبرت نفسي على إضرامها. مدة أتاحت له مشاركتي غروب الشمس وشروقها والإعجاب بالأشجار العملاقة والجنبات طيبة العبير. لأن هوسا كان يجل إجلالاً كبيراً المملكة التي أسسها هو بنفسه حتى أصغر جزء منها. علمني أن ثمة طريقة مغايرة للعيش في هذا العالم، بصرف النظر عن نوع المرء نفسه. في الواقع، هو من جعلني أتصالح مع احتمال ألا أعثر على نوعي الخاص. ومع أنني كنتْ بشوق رهيب لوالدتي، فقد أدركت أنني لن أعود أبداً. لقد جرحني

جرحاً عميقاً معرفتي أن جميع أفراد مجموعتنا كانوا يلاحظون على الدوام، منذ يوم مولدي، اختلافي الكبير عن البقية وعلى مدى التاريخ.

ذات يوم، أدخل هوسا بقايا ما اصطاده إلى المسكن، بقايا الجلد الممرغة بالوحل. قطعتها بواسطة حجر ثم شكلتها بطريقة أستطيع أن ألفها وأستر بها جسدي. عثرت على طاقم يرافقني ويدعمني في طريقي ويمثلون شعبي.

رحل هوسا.

توصلت في تلك الآونة تدريجياً إلى اكتشاف مخيب. الجلد الذي قدمه لي هوسا، والذي سترني بشكل أفضل بكثير من أوراق أو لحاء الأشجار وكان بمقدوري ربطه بطريقة يبقى فيها ثابتاً على جسدي، هذا الجلد كان يخيف جميع الحيوانات كلما اقتربت منها. عبثاً حاولت شرح دور هذا اللباس في تغيري، ومدى ضرورته لي. هو هدية وتذكار من هوسا الأسد، الذي لم يؤذي مخلوقاً قط، بل مجرد ملاك رحمة لتلك الكائنات التي توشك على الموت. لكن ما الذي يمكن لحيوان أن يستوعبه من هذا الكائن الجديد الذي تحولت إليه مخلوق ذو جلد كجلودهم - فعلى الرغم من أنني كنت أبدو مسلوخ الجلد، كانوا يتشممون رائحتي ويعرفون أن هذا غير صحيح - ومع ذلك أسير هنا وهناك متلفعاً بجلد من جلودهم؟ يفرون هاربين من أمامي كأنني طاعون. بقيت وحيداً تماماً على مدى سنوات عديدة، إلا أن قمت، بدافع اليأس، بشن غارة على وكر جراء الكلب الوحشي، فأوجدت لنفسي صحبة بتلك الطريقة.

***

تابع الشريط دورانه دون أن يظهر صوت الآنسة ليزي. نهض سويلو منَ استلقائه على الأريكة ونظر في الكاسيت الدائر. كان يهمُّ بإيقافه، ليرى إن كان يتوجب عكسه، حين عاد صوت الآنسة ليزي وتابع الكلام. بدت مرتاحة إلى حد ما، كأنها قد أخذت قيلولة لوقت طويل.

لعلك تتساءل، قالت. عن سبب كبتي لهذه الذاكرة. وعلى كل حال،

لست أدري ما حدث لي وللكلب من أمور أخرى. يصعب التصديق أن والدتي لم تبحث عني أبداً، ولم تعثر علي. أو أنني عشت بقية حياتي دون زوجة. ربما لم تأتي زوجتي إلي، ولعلها أنجبت طفلنا، الذي ولا بد سيكون غريب الهيئة؛ لأنها أحبتني، وليس لدي أدنى شك بهذا، أو لعلنا أنشأنا قبيلة جديدة تخصنا. على أية حال، هذا من مخيلتي. ضحكت. وهي أيضاً المخيلة التي يستند إليها العهد القديم، قالت، إنما بلا أي تلميح إلى علاقتنا الحميمة مع الحيوانات الأخرى أو مع بقية أقوامي ذوي البشرة السمراء أو السوداء اللون.

سأخبرك السبب في كبتي لهذه الذاكرة. قمعتها بسبب هول. إنما يا سويلو، هناك ما هو أدهى؛ لأن لم تكن الحياة الأخرى الوحيدة التي تخليت عنها، أو التي نزعتها من ذاتي عمداً، يتعين علي القول. كنت أشعر في كل حياة أخرى أنني مجبرة على إراقة المعرفة على وجودات أخرى، على حيوات أخرى. أزمنة الحاضر لا تعني شيئاً البتة، كما الأزمنة القديمة لا تعني شيئاً. عصر الكتابة يختلف كل الاختلاف عن العصر الطويل بلا الكتابة. ما عاد مرأى ومسمع البشر هو نفسه. عصر العيش منفصلين عن الأرض هو زمن شديد الاختلاف عن العصر الطويل للعيش معها، كما لو أنك على صدر أمك. هل يمكنك أن تتخيل زمنا لم يكن فيه ما هو قذر؟ من العسير على البشر أن يفهموا الأمور التي أتذكرها. حتى هول، وهو الأكثر تعاطفاً من بين الزملاء المرتحلين حتى هذه المرحلة، لم يكن قادرا على اللحاق ببعض من المسارات القديمة وما قبل القديمة التي عرفتها. ظللت أزدرد خبراتي الماضية طوال حياتي، وكنت أفشي تلك التي أظن أنها لها الفرصة، ليس لتصديقها - لأن أحداً لم يكن يصدقني بالفعل، وبشكل حقيقي؛ هذا شعوري على الأقل، شعور مرير أغلب الوقت - بل لتصورها وتخيلها.

سويلو، إضافة لكوني جئت رجلاً وأبيضَ، والذي كنته أكثر من مرة بعد تلك التي أخبرتك عنها، فقد كنت أيضاً أنا نفسي أسداً، ولأكثر من مرة. هذه إحدى ذكريات الأحلام المهترئة الأطراف لدرجة أنها تبدو كشال أكله العث.

بيد أنني ما زلت أشعر أحياناً بدفء الشمس على فروتي، والقراد في لبادتي، وبكامل الانتفاخ الدافئ للساني. يمكنني تشمم رائحة قريبي المجروح والمحتضر الذي ينتظر مني الإجهاز عليه. يمكنني أن أشعر بتوثب ساقاي وتمدد بطني، وأنا غاد نحوهم وأصعقهم بضربتي الرحيمة جدّاً. يمكنني أن أشعر بالدم الطازج فيما أسناني تخرم رقابهم المرتعشة، وتقضي عليهم على الفور، بلا ألم. كل هذه المعرفة ومكنونات الذاكرة هي في مؤخرة عقلي.

لكن التجارب التي أعرفها معرفة حقة حدثت في زمن تال للزمن الذي عرفت فيه هوسا. في الواقع، كان زمناً مرعباً وفوضوياً، مع أنه كان قد بدأ، كالأبدية التي يعرفها الجميع، وفيه ما يكفي من الأمان. كما هوسا، كنت صديقا لشابة وأولادها. كبرنا معاً وكنا باستمرار نتقاسم الفرجات المحببة في الغابة، ونجلس نحدق في النار مساء. لكن هذا الأسلوب من الحياة كان يتسارع نحو نهايته، وظهر المعسكر المختلط من الرجال والنساء لسبب أو لآخر في الوقت الذي اكتمل فيه نضجي، وأصبحت ضخماً ضخامة الأسود عادة. وعندها فقد كل منهما حريته بعلاقته مع الآخر. كان الرجال آنذاك هم من تولى أمر إباحة أو تحريم أفعال الآخرين، وهو ما كان يعني خسارتهم لحريتهم التي كانوا ينعمون بها في نهاراتهم الطويلة التأملية دون عائق في معسكر الرجال؛ عبر الامتثال لسيادة الرجال، إنما الأكثر لأنهن أصبحن يعتمدن عاطفياً على رجل واحد هو من أصدر قانون الرجل الذي ينص على وجوب أن يكون له أولاد من صلبه، فقدت النساء تلاصقهن بالطبيعة، تلك الميزة من التعايش الحميمي على الأرض التي كن يتقاسمنها مع باقي الحيوانات.

في ظل هذا التلازم، فرض الرجل نفسه أليفاً للمرأة، لوحده دون سواه. راح الرجال يسيرون بمرافقة الكلاب التي يأمرونها بمطاردتنا. إنه عصر الصدمة النفسية بالنسبة للنساء وباقي الحيوانات على حد سواء. من ذا بمقدوره أن يفهم حاجة الرجال إلى إرغامنا على الابتعاد عن نار النساء؟ هذا ما فعلوه على أية حال. أتذكر الرجل والكلب اللذان كانا يطارداني لأبتعد؛

حاملاً هراوة كبيرة بإحدى يديه، وبالأخرى عصا طويلة مدببة كالرمح. وكم شعرت بالحزن لرحيلي عن صديقتي وأولادها، التي بكت بكاء مريرا لهذا. أظن أنني عرفت أننا كنا نمر بأحد أعظم التحولات في تركيبة الحياة على وجه الأرض، وجعلني هذا في غاية الحزن، إنما أيضاً دفعني إلى التأمل العميق بالتفكير. لم أكن أعي في حينه أن الرجل سوف يبدأ، بسبب غضبه وغيرته منا، بملاحقتنا واصطيادنا، قتلنا ثم التهامنا، ويتزين من بعدها بجلودنا وأسناننا وعظامنا. لا، لم يكن حتى أكثر الحيوانات خباثة ليحلم بالقيام بهذا. سرعان ما سننسى ترحيب النار التي توقدها المرأة. سننسى لغتها وصداقتها المشاكسة. ننسى رائحة الخميرة التي تفوح منها وحضن أولادها الدافئ. لقد ضاع كل ما في هذه الصداقة، وتركت هي، هذا الكائن المسكين، وحيدة مع الرجل، يصرخ طلباً لوجبته ويفتك بأصدقائه إلى الأبد. برفقة أفضل صديق للإنسان، الحيوان المدلل الأليف، كلبه الأليف المزيف.

امرأة مسكينة!

لأكن صريحة معك، يا سويلو، لم أشعر بالندم على رحيلي. لأنني كنت أسداً، والوئام بالنسبة للأسد مقدس، قبل كل شيء. رأيت أن الرجل والمرأة أصبحا في نزاع دائم بعد تلازمهما، ولم أكن أرغب أن أكون جزءاً من هذا النزاع. عرفت بأن الرجل حتى ولو سمح لنا بالبقاء قرب نار المرأة فسوف يستخدم سطوته باستمرار، وسوف ترمي المرأة، لأنها امرأة، في كثير من الأحيان بالطناجر والمقالي فوق رؤوسنا؛ هذا سيحدث إلى الأبد. فكرة لا أستطيع تصديقها؛ بوصفي أسداً، ما كنت أطيق الضجيج المرتفع، وتقلبات السلوك الفجائية، وارتفاع حدة الأصوات الغاضبة. أي *الشر*. ما من أسد يمكنه تحمل أمور كهذه. من طبعنا أننا كنا لا عنفيين، مسالمين وهادئين. أننا أبداً منصفين في تعاملاتنا؛ أعلم استحالة هذا في الوقت الراهن، بما أن الحيوانات، عدا الكلاب الوحشية، تميل إلى النساء بشكل ظاهر وقد كانت تحاول الدفاع عنها على الدوام في الماضي. شعرت الأسود بوجوب أن يتحلى المرء بالكرامة، مهما تعرض للمتاعب. وجدت المرأة نفسها، من

خلال معاشرتها الإنسان[1]، كما أصبح يعرف، ملزمة بالتخلي عن كرامتها وأمنها. حالة مأساوية ومصير لم تكن الأسود مجهزة لمشاركتها إياه.

في مراحل تالية، انتقلت الأسود وابتعدت عن البشر شيئاً فشيئاً بحثا عن الأمان. ثمة قبائل حافظنا على الاحتكاك بها، وبهذا علمناهم وتعلموا منا. ما الذي تعلموه؟ لقد تعلموا أنه من الأجدى للمرء أن يحزم متاعه وينتقل من موقع النزاع عوضاً عن شن الحروب مع بني جنسه. ما دام ثمة مجال وجب اتباعه وفيه إمكانية لترسيخ سلام لا جدال فيه. في جنوب إفريقيا، تعيش في يومنا هذا قبائل لم تتنازع مع بعضها البعض مطلقا على مدى آلاف السنين. هذا نتيجة لما تعلموه من الأسود.

ظلت شخصيتنا معروفة من الجميع وتنال التقدير طوال عشرات القرون. على نحو ما، كنا أعماماً وخالات محبوبين - زوارا مسليين، وشركاء متساهلين في الألعاب، ومستمعين ممتازين، ومعلمين وقورين - للقبائل البشرية، التي لم تكن لحسن الحظ تفهم البتة، لم يدم هذا طويلاً على كل حال، المغزى من وجوب النظر إلينا ككائنات مختلفة وإبعادنا عنهم. تلاشينا تدريجياً وتحولنا إلى مجرد أسطورة - كل هذا عرف عنا فيما مضى، وهذا ما كان. انقرض آخر من فهم جوهرنا فهماً حقيقياً من البشر على وجه الأرض وتحولوا هم أنفسهم إلى أسطورة، إلا أنهم نصبوا تمثال أبو الهول على الأقل قبل اندثارهم نهائياً... هناك أيضاً... - قهقهت الآنسة ليزي - تلك الأقاويل التي يسمعها المرء عن أسود تتجول دائماً في قصر هيلاسي لاسي في إثيوبيا وتفزع زواره. لم يكن ليخطر على بال أحد من أسلافه القدماء أبداً أن تكون الأسود سوى كائنات حرة. إن شعوب الراستا ذوي الجدائل الذين يضعون تمثاله في الفناء الداخلي يخافون أحياناً خوفاً شديداً من مصادفة أحد تلك الأسود - طوطمهم القديم والتي تتجول حولهم باستمرار - لدرجة أن ضفائرهم تنتصب على آخرها حرفياً من شدة الفزع.

عرفت أيضاً أن ثمة الكثير... من الحكايات الوسيطة، تابعت الآنسة

1- Man وهنا تتخذ الكلمة معناها المزدوج رجل وإنسان - المترجم.

ليزي، أي التي وقعت بين الماضي السحيق والحاضر؛ قصص من أمثال أندروكيلز والأسد ودانييل في عرين الأسد، بيد أنك تدرك فور قراءتك لهذه القصص أن لا أحد يمكنه استيعاب ما يجري من وجهة نظر الأسد. من غير الوارد بالنسبة للأسد أن يتعرض بالأذى لصديقه أندروكيلز الذي أنتزع له الشوكة من كفه؛ لن يخطر على باله بتاتا أن يؤذيه، نقطة انتهى، سواء خلصه من تلك الشوكة اللعينة أم لا. الأمر ينطبق على دانييل. مع أن الرومان كانوا يعذبون الأسود، يعاملونها بوحشية هائلة ويجوعونها ويستفزون غضبها يتهاجم المسيحيين التعساء استدراراً لهتافات الحشود المحمومة، إلا أنها لم تكن تأتي بأي مما يدعى عنفاً كلما سنحت لها الفرصة للتعبير عن ذاتها وتذكر طبيعتها. مع أنها تتضور جوعاً، إذ عمل الرومان على تجويعها لدرجة الغياب عن الوعي، فقد كان دانييل ينعم بنوم ليلته في منتهى الأمان والراحة ملقياً رأسه على بطن أحدها. ويتحملون الرائحة الكريهة لسميّة دانييل أيضاً.

والآن، قالت الآنسة ليزي، وقد عاد صوتها ليبدو متعباً، هناك أمران فقط في الحياة يخشاهما هول بحق. يخشى البيض، الرجال بالذات، والقطط. يبدو خوفه من الرجل الأبيض منطقي أكثر من خوفه من القطط، إلا أن كليهما مبعث خوف حقيقي لدى هول. يمكنك أن تجعله يهرب عشرين ميلاً لمجرد أن تطلب منه الإمساك بقطة. رتب حياته بحيث لا يلتقي برجل أبيض إلا صدفة، بموقف بعيد جدّاً عن حياته الشخصية، وحادثة مفاجئة وغير مرحب بها. كيف لي إذن أن أخبره عمن أكون؟ هول بالنسبة لي الآن ولدي، ولا أحتمل أن يكرهني. درجة الخوف لدى هول وصلت إلى الحقد.

وهكذا، لم أخبره أبداً. كيف أقول له هذا؟ هل أقوله بهذا الشكل: هي! أنت يا هول، لقد كنت امرأة بيضاء؛ وفي أكثر من حياة؛ لعلها ما زالت تعيش في مكان ما بأعماقي. هي!، أنت يا هول، لقد كنت أيضاً، كان يا ما كان، قطة كبيرة جدّاً.

قهقهت الآنسة ليزي. ثم ضحكت وضحكت. وكذا فعل سويلو. كان صوت ضحكاتها آخر ما سمعه في هذه الجهة من الشريط.

إذا ما أحببت أحدهم، ترغب بتعريفه على ذاتك، أو ذواتك في حالتي أنا، قال الآنسة ليزي - تخيلها سويلو تفرك عينيها، ولا تزال تبتسم - بيد أنني كنت خائفة. قمت بتمزيق الصور التي أحضرها هنري لايترومو ظهرت فيها كأنني أتلاشى حتى كدت أغدو شبحاً، الصور التي أظهرت شعري باهت اللون وعيناي غائرتان؛ افترضتُ أنه استعمل فيلماً معطوباً. قمت بتمزيق صور أخرى أيضاً كنت أبدو فيها كقطة ماكرة، تماماً مثل مرافق دوروثي في فيلم *ساحر أوز*[1]. قد نخفي على الدوام جانباً من ذاتنا، ونأبى عن عمد التخلي عن هذا الجانب.

لكن آه، ما أعظم حبنا لمن يثبت لنا وجود حتى هذا الجانب المقيت فينا. ومن أجل توكيده على تلك الجوانب المنفصلة في ذاكرتي أحببت عمك رافي. ما كان الخوف يعرف طريقاً إلى قلب رافي، على عكس هول. كان يعتقد أن البيض من أكثر البشر جدارة بالرثاء على مر الأزمان. استبدادك بالآخرين يبعدك تلقائياً عن الحياة، حسب قوله. التحكم بالملونين الذين يمثلون الحياة نفسها، كما هو واضح للجميع! بالمقابل، تنتابه الحيرة أكثر من السخط حين يخاطبه البيض أصحاب المظهر الذكي والقوي بالـ الولد أو الزنجي. كان على الدوام يتمنى أن يعاملوه بطريقة أفضل بقليل من معاملتهم له. هذا لأنه كان يستطيع بمنتهى السهولة أن يرى فيهم جانباً من ذاته، ومع ذلك، كان البيض على ما يبدو يرون شيئاً عندما يلتفتون إليه خلف ظهرهم... لكنه ظل يتساءل دائماً *عما* يرونه فيه. ما الذي يجيزون لأنفسهم رؤيته. هل كانوا معميين عن *كينونته* العميقة، تماماً كما هو نفسه كان معمياً عن كينونة الذبابة؟ بالنسبة له، ينبع إلحاحهم المتواصل على تمديننا في الحقيقة من حاجتهم لإعمائنا وإماتتنا حتى نصبح على مقاسهم.

أَخبرت رافي بكل ما يخصني؛ أخذني شمالاً إلى كندا، في فصل الصيف،

1- The Wizard of Oz: عمل روائي للأطفال من تأليف لي فرانك بوم. وأنتجت فيلماً موسيقياً عام 1939، وأعيد صناعته من قبل شركة ورنر بروس. بطلته دوروثي وكلبها - المترجم

لنكون قريبين من البيض؛ وأخذني إلى حدائق حيوانات فيها من المخلوقات ما لا يطاوعني قلبي الحديث عنها. كان هذا جزءاً وتفصيلاً من تفاصيل طريقة ممارسته للحب معي، كما ترى، من خلال حملي إلى أماكن أتعرف فيها أنا نفسي على أقصى حالات الخوف. لن تخيل إحساسي يوم جلست لأول مرة في مطعم عجَّ ببيض ما كانوا يفعلون شيئاً سوى رمقنا بنظراتهم والتهامس فيما بينهم، لكنهم لم يسارعوا إلى طردنا خارج المطعم، أو ضربنا أو حتى إعدامنا إعداماً تعسفياً كما قد يفعلون لو أنهم من سكان الجنوب.

طلب رافي لحماً على ما أذكر. نوعاً من أنواع لحم البط، على ما أظن. حين جاءنا الطعام شاهد تلك التعابير على وجهي. كنت عاجزة تماماً عن تناول اللحم وسط البيض؛ أنا على يقين من هذا فقد تقلبت معدتي لمجرد التفكير فيه. أكلنا أنا ورافي بطاطا مهروسة وسلطة، وقال لي بصوته الزنجي *العذب* العميق والمداعب: حسناً يا ليزي، أمعني النظر فيهم.

وتكشف لي مدى انغلاقهم على أنفسهم وانعزالهم، هؤلاء الأسلاف، هناك في قمة الحضيض. يفتقرون للجموح افتقاراً تاماً، وقد نسوا الضحك. ولاحظت في ترحالنا، أنهم نسوا الرقص والغناء أيضاً. أقاموا في قاعات وكنائس السود، في سعيهم إلى القبض على ما احتجب في ذواتهم. أمر مؤسف. على كل حال، جانيس جوبلين هي من أحب الناس إلى قلبي في الستينات وأكثرهم احتراماً. عرفت أن والدتها هي بيسي سميث، وغنت بكل جوارحها في سعيها لتحطيم الباب الذي وقف حائلاً بينهما.

كنت أفضل زيارة حدائق الحيوانات إلى حد ما. مع أنني أمقتها من كل قلبي، بشكل عفوي. في حديقة الحيوانات، على الأقل لم يكن ثمة أوهام عمن هو حر ومن هو ليس كذلك. الأسود محشورة على الدوام في أقفاص ضيقة جدّاً عليها. ولم يخطر على بال أحد أبداً، بحرمانها من الحياة سنة إثر أخرى دون أن يكون لها ما تفعله، فإن أقل ما يمكن القيام به من أجلها هو إشعال نار لها. مشهد مفجع - متابعتها تتحرك حركة هوجاء، وتتشمم الرائحة العفنة الحامضة التي تفوح من فرائها ومسامها، وسماع زئيرها

الهيستيري، مراقبتها وهي تلتهم حيوانات كانت سليمة تماماً ربيت من أجل لحمها وذبحتها آلة في أحد المسالخ. مصير رهيب ما كان لأعتى الأسود العتيقة خيالاً وتشاؤماً أن يتصوره. أشعر الآن بالامتنان على شكل تجلي ذاتي في هذه المرحلة الزمنية الراهنة.

أشنع ما تراه هو وجوههم. تبدو هامدة وبليدة وبلهاء ***وبلا تفكير***. وجوه ذاهلة غباء بفعل السأم، ومقززة بفعل انحطاط التبعية. كنت أحمل إلى كل حديقة حيوان - بعد طول كفاح، سمح للملونين زيارة حديقة حيوان بالتيمور؛ إنما في يوم عطلة الخدم فقط، يوم الخميس - مرآة كبيرة. كل من يراني يظن أنه تصرف غريب. إلا رافي الذي كان يعينني في حملها ووضعها منتصبة أمام الأقفاص. يتمايل الأسد المضطرب ويقف مقترباً من القضبان ثم يلقي نظرة على نفسه. عادة ما تكون هي المرة الأولى والوحيدة التي نظر فيها إلى نفسه قط. كنت أحبس أنفاسي وأنا أراقبه.

هل سيتبدى له ولو بارقة من الإدراك، أو حتى الاهتمام؟ هل سيرى الأسد ذاته في داخل جسد الأسد؟ مع أنني أعيش في جسد امرأة، كنت لا أزال أرى الأسد في أعماقي. هل سيتكشف لتلك الأسود نبلها القديم، ونفاد صبرها القديم على الوضيعين؟ وسموها القديم؟

واحد أو اثنان منها كان لاحظ في المرآة شيئاً ما، بيد أن ما شاهده قد زاد في حزنه. تراها تنسحب إلى إحدى زوايا القفص وتخفض رؤوسها بين أكفها. بالطبع كنت أرغب بالقفز عبر القضبان لأخفف عنهم. كنت أرغب في تحطيم تلك القضبان.

كان رافي يعود بي إلى المنزل بعد تلك الرحلات، محطمة وفي غاية الأسى، ويضعني في السرير. قد يدخل مع هول ولولو كي يقبّلوني قبلة النومَ؛ سأمسك بيد رافي في اللحظة التي يبرم فيهاويهمّ بالانصراف - يد سمراء نظيفة وجميلة وقوية. يجلس عندها على السرير دون أن يتفوه بكلمة وينزع حذاءه.

كان عمك رافي عاشقاً لا مثيل له، يا سويلو. أفتقده بشدة وأحياناً أتوق

للقياه ثانية، الأمر الذي أعرف أنه مستبعد؛ يبدو أن لا ضرورة لعودته. لقد أحبني بكل حيواتي. ما كانت أيّاً من ذواتي مخبوءة عنه، ولا هو خشي أيّاً منها. عندما أصعد إلى برجي العاجي أحياناً، كما كان يسميه، حين كنت آمر جميع من حولي وأتذمر من أن أحداً لا يعرف أو يمكنه القيام بأي شيء بالشكل الصحيح سواي، سوف يتبسم ابتسامته العريضة قائلاً، يبدو أنك تظهرين بياضك هذه الليلة بلا شك! ولسوف أشعر كم كنت مضحكة، وأضحك.

أو قد أدرك أحياناً، في حفلة ما، أن الحضور عبارة عن حفنة من السفلة وأغادر المكان. أتمشى أمام باب الحفلة. قد يلحق بي رافي وينظر إلي أطوف على الرصيف موجوعة في توقي للبعيد، وللسلام والسكينة؛ اشمئزازي من الحضور لا يزال على وجهي، ويقول، حبيبتي، حتى الأسد في الشتاء لا يجرؤ على مواجهتك!

وبالطبع كان يعرف ويقدر جميع ذواتي الأخرى، وباستطاعته تسميتها باسمها أيضاً.

إذن، كان حبي لرافي وحبه لي تجربة حياة كاملة. وحالة مختلفة عن حب هول لي حتى عندما بلغ ولعنا ببعضنا أقصى حالاته، أحبني هول كأخت \ امرأة غامضة\ محاربة \ امرأة \ أم. وهذا أمر رائع. إلا أنهن جميعاً لسن سوى جزء ممن كنتهم. من جانب آخر، بعد معرفته أنني أحمل في داخلي جميع البشر والكائنات، أحبني رافي بمنتهى الإخلاص كأنني إلهة...الإلهة التي كنتها.

***

عندما رأيت سويلو على الدرج الخلفي لمنزل أرفيدا، لم أكن أعرف من يكون، اتصلت كارلوتا بفاني بفرح ذات يوم بعد أن أصبحتا صديقتين وقالت، كنت آتية من منزل الضيافة حيث أقيم، الذي يقع في أسفل الممر مقابل المنزل الرئيسي في الطرف الآخر من الوادي. سكن أرفيدا والأولاد في

المنزل الرئيسي؛ الاستديو في الطابق الأرضي؛ ولذا أدخل وأخرج من منزلهم بشكل مستمر. مع ذلك، كان لا بد لهم من استئذاني قبل دخول الحيز الذي أشغله. ثمة جسر صغير فوق الوادي العميق، قبل وصولك إلى منزلي الصغير وأنت تعبرين الجسر، ستجدين البوابة الأولى لدى مرورك فوق مجرى قنوات تتفجر شلالات خلال موسم الأمطار، فيها عدة أجراس صغيرة ينبغي قرعها. إن لم يحدث أي شيء بعد قرع هذه الأجراس الصغيرة - إن لم تقذفي بالحجارة أو الأحذية - فإن الزائر، عادة أرفيدا أو أحد أولادي، سوف يتابع طريقه نحو البوابة التالية. هذه فيها مظلات تكون مقفلة عادة، وإن لم تكن كذلك، ينقر الزائر عليها ويدخل عبر البوابة صاعداً الدرج المؤدي إلي. هناك مزيد من الأجراس والمظلات على بابي لن أرد سوى على صوتها، وليس على نداء أو كلام من أي نوع كان، أو طرق على الباب نفسه.

وهكذا، أنا في طريقي للعمل في الاستديو، بما أنني أصبحت موسيقية الآن، عازفة مظلة جرس. من تكون هذه العازفة يا ترى، يتساءل الجميع في هذه الأيام. ثمة رجل غريب في مؤخرة المنزل، يتدرب على موسيقاه. أقف ملتصقة بجدار المنزل حيث شجيرات الدافين في أوج إزهارها والعبير يملأ الأثير، وانتبهت إلى زهرة الكليماتيس الأرجوانية التي تكاد تصل بطريقة مشاغبة إلى زاوية المرأب في أعلى المنحدر وتتدلى فوق رأسي. أتوقف لأنني في لحظة تفكيري بالموسيقى لا أتحمل أي مضايقة - لا من قبل أرفيدا أو الأولاد، وبالتأكيد ليس من قبل مسوّق شركة تأمين الذي يبدو أنه قد فعلها - مسوق لشركة تأمين في بيركلي بالطبع. يرتدي مَلابِسَ عادية، سروال جينز قطني بني اللون وسترة جميلة خمرية اللون. يضع قرطاً وحول عنقه تتدلى قلادة من نوع ما.

التفت باتجاهي واكتشف وجودي بالضبط في اللحظة التي كنت فيها على وشك التواري عن الأنظار.

استهجنت في أعماقي. تبخرت النوتات الموسيقية الصغيرة التي أمضيت طوال الليل والصباح وأنا أخزنها.

مر – حبا قلت له عابسة الوجه. بماذا أخدمك؟

جفل الرجل. وجحظت عيناه – تلك العينان اللطيفتان الكبيرتان الواسعتان والحميميتان.

هل بدا مظهري صادماً إلى هذا الحد، تساءلت. أهو شعري الحليق حتى جلدة رأسي تقريباً والمنتصب كشعر ضحية معسكر اعتقال؟ أم هو لباس الجري الأسود الضيق وحذاء الريبوك السماوي؟ من يبالي؟ إنها بيركلي في النهاية.

لكنه واصل تحديقه فيَّ، وفمه فاغر وعيناه جاحظتان ذهولاً.

ثم نظرت إليه نظرة مباشرة لأول مرة، وبالتالي رأيته. أثناء عملي أو انشغال ذهني في العمل، أو حين أكون في حالة أسف على عمل أجهض للتو، لا أنظر إلى البشر لأراهم. أنظر إليهم بطريقة كافية فقط للتعاطي معهم وإخراجهم من حياتي، لكنني نظرت فجأة إلى هذا الطويل الأصلع والنحيف، ذو الشعر القصير. أواه، لا. غير معقول!

لكنها الحقيقة.

سويلو؟ تقدمت منه، كما لو أنه شبح.

كارلوتا؟ هتف لي، وهو يحرك أصابعه بحركة اهتزاز طريفة فوق رأسه الأقرع ملمحاً إلى خصلات شعري الغائبة.

لم نعرف ماذا نفعل بعدها. هو أيضاً تتلاطمه الأمواج وأكثر مني حتى.

اللعنة، فكرت.

ها نحن ذا هنا، أقول، دعنا ندخل.

هل هذا منزلك؟ يسألني. لا يمكنه أن يصدق أنه منزلي. ذهبت إلى بيتك السابق ولم يعرف أحد من الجوار شيئاً عنك. عدا أنك قد انتقلت.

أجل، انتقلت، أقول. إذ يرغب الأولاد في العيش برفقة والدهم.

أدفع الباب وأفتحه. لفحتنا رائحة الخبز الخارج من الفرن في الحال.

حبيبتي، هل هذا أنت؟ صوت أرفيدا الدافئ قادم من المطبخ.

أجل، هذه أنا، أجيبه.

يخرج من المطبخ ليرى بنفسه. مرتدياً مئزر برامز وقبعة الطاهي من نوع

ساتكمو أرمسترونغ. مغطى بالدقيق ويبدو راضياً كل الرضا. يلقي بنظرة على سويلو قبل أن ينحني ويقبلني. يقبلني دائماً كما لو أنه يتلذذ بطعام شهي.

يتحسن مزاجي بهذه القبلة، وصراحة أبتسم.

مرحباً أرفيدا. مرحباً سويلو، قلت له. وكذا فعلت مع...سويلو.

يتقافز سيدريكو، وقد بدا أطول مما كان عليه أول البارحة، مندفعاً في الغرفة وعبر الممر، وفي يده قطعة كبيرة من الخبز الطازج، وفمه ممتلئ بمضغة منها. لا أستوعب كيف أنه لم يختنق حتى الموت قبل اليوم. تظل أنجيليتا ملاصقة لنا وتبدو كأنها صورة مصغرة عن عاهرة، وهذه حال جميع الفتيات الصغيرات من أقرانها هذه الأيام.

هنا، هنا، على مهلك، يقول أرفيدا، وقد بدا متورطاً رغماً عن نفسه في متابعته لأصوات جر الكراسي وتحريك الأواني المنذرة بالسوء القادمة من المطبخ.

أرفع نظري إلى سويلو، وأفكر بالعار الذي يسببه لي ولداي قليلاً الأدب، فأرى أنه فغر فاهه أكثر.

هل هذا...؟ أليس هذا...؟

أجل، أقول. هذا هو.

أومئ له نحو غرفة الجلوس حيث يتسمر على الكرسي. لا أصدق، يقول. كنت متزوجة من *أرفيدا*.

ما زلت متزوجة من *أرفيدا*، أقول. لكن علاقتنا لم تعد قائمة على ذلك الرابط وحسب.

ينظر سويلو إلي نظرة متسائلة. ألم يكن حاجباه أشعثان على الدوام؟ أظن هذا. ألم يكن يضع نظارات؟

نحن نعمل سوية الآن.

رفع حاجبَيه المشذَّبَين الرفيعَين.

كعازفين.

ممتاز، يقول.

كنت في طريقي إلى العمل في الاستديو حين رأيتك على الباب.

أعتذر إن كنت ألهيتك، يقول.

أتود الدخول وإلقاء نظرة، أسأله. مع أنني تلهيت لفترة وجيزة، كنت ما أزال بحاجة لإلقاء نظرة خاطفة على آلاتي الموسيقية، رفاقي وأحبابي، لأضمن وجودها وحسب، وأنها لي، تنتظرني بصرف النظر عن مدة غيابي عنها.

ما ألذ هذه الرائحة، يعلق سويلو، وهو يتشمم بأنفه، أثناء نزولنا الأدراج.

يعد أرفيدا الخبز أيام السبت، أقول. في أيام السبت لا نكون في الطرقات على الأقل. يمنحه هذا شعوراً بالاسترخاء.

أمم، يهمهم سويلو. ما هي كمية الخبز التي يعدها؟

ما من كمية محددة، أجبته ونحن نمر بصورة كبيرة جميلة لجيمس بالدوين، يبدو فيها شبيهاً بملاك مغرم بالخبز الطازج، مبتسماً لكل من يدخل الصالة. يستيقظ في الصباح، ويضع أشرطة لمايلز ديفيز، أو روبيرتا فلاك، أو بوب مارلي، أو أريثا فرانكلين، ثم يبدأ العمل. قد يعد الخبز طيلة الصباح أو في معظم الوقت يوم العطلة. إنه على الدوام يخبز كمية وافية.

لكن، يقول سويلو متطلعاً بنظرة ارتيابية إلى نحافتي، لا يمكن لأربعة أشخاص تناول الكثير من الخبز!

يوجد في شوارع بيركلي أكثر من أربعة أشخاص، قلت. ليس هناك أدنى *مشكلة*.

كنا قد بلغنا الاستديو: قاعة كبيرة تحتوي على حجرة زجاجية بداخلها وهي الأحب إلى قلبي من أية غرفة أخرى في العالم. أحب جميع الآلات الموسيقية الموجودة فيها والأنوار وحجيرات التسجيل. أكن محبة خاصة لآلاتي الموسيقية، التي أشرت إلى سويلو كي ينظر إليها في الأعلى.

ظهرت عليه الدهشة والحيرة. نظر خارجاً إلى الإطلالة. ثم إلى حيث كنت واقفة.

عدد كبير من الأجراس! يقول متعجباً وهو يتفحصها بعينيه. عدد كبير من الشمسيات!

لم يكن يظن أن هذه الآلات هي التي جيء به للأسفل إلى الاستديو لمشاهدتها. نقل عينيه بين البيانو وآلة الاكسيليفون الخشبية، وآلات الغيتار الاثنتي عشر المعلقة على الجدار، إلى التشيلو والطبلات والفلوت وحتى آلات الرق! أفكر باعتزاز، لدينا كل شيء، لا بل فإن أرفيدا يعزف أحياناً الموسيقى الإنجيلية. لكنني في الواقع أوشك على البدء باعتبار الرق نوعاً من الأجراس.

لدينا معظم الآلات الموسيقية، قلت له وأنا أنقر على شميسة الرياح بعصاتها، شميسة الرياح المتدلية في صف من ست قطع مختلفة الأطوال. ثمة شميسات رياح من مختلف الأحجام والألوان والأشكال. بعضها صنع من خشب الصندل أو البالزا، وبعضها من الخيزران، والبعض من المعدن. كلها جميلة، تصدر أنغاماً عذبة صافية. من ثم أجراسي التي تعد بالمئات - أجراس لجام الرنة البقر، وأجراس المدرسة، شتى أنواع الأجراس. ومن جميع أنحاء العالم. رحت أهرول أمام عشرات الأجراس والشمسيات بسرعة، حاملة عصا من خشب صلب، فارتجت الصالة بأكملها بألحان جميلة وشجية وعذبة.

ها أنت تبتسمين، يقول سويلو. أنت سعيدة إذن!

أجل، أقول. لن أكف عن الابتسام أو السعادة لمجرد ملاحظته هذه. وجريت أمام المزيد من الشمسيات وبيدي عصا صغير أخرى، فاندفعت سعادتي بدرجة أقوى مع اللحن. اللعنة، أفكر بيني وبين نفسي، ***متى سيغادر!***

إلا أنه لا يغادر.

يخبرني أنه جاء ليسترضيني، ليستغفرني على الأسلوب الذي عاملني به.

أكاد لا أتذكر شيئاً عن الأسلوب الذي عاملني به. كانت مرحلة من حياتي وحسب. لكن كلامه صحيح، بعد تخليه عني - وقد تخلى عني بالفعل - كنت في غاية الدمار، وشعرت بغضب يؤهلني لارتكاب الجريمة.

* * *

ما السر في سحر مايلز ديفيس الهائل، مع أنه يبدو كالشيطان، يقول

أرفيدا، وهو يتناول ألبوماً غنائياً عليه صورة لمعبوده (من بين عازفين كثر معجب بهم) وهو يحدق بكآبة إلى المدى المفتوح. تصيبني الحيرة فعلا، يقول بصوت يكاد لا يسمع. لو أنه ضخم الجسم، وصادفته ليلاً في مكان ما، ثم حدق بك على هذا النحو - يرعش أرفيدا جسده - لسوف يرعبك.

تضحك كارلوتا. أمتأكد أنت؟ تسأله.

أنتهى أرفيدا من إعداد الخبز ذلك اليوم، وكوّم مئزره الوسخ وقبعة الطاهي على الأرض قرب الباب.

راح يقطع شرحات كبيرة من الخبز المعد بالكامل من القمح ثم حرك الزبدة والمربى إلى موقع قريب من مرفق سويلو.

تجاوز سويلو بسرعة حالة الافتتان بالنجم. عدا أن رائحة الخبز الرائعة جعلت لعابه يسيل فعلياً. أجال النظر في أرجاء المطبخ المفتوح على غرفتي الطعام والمعيشة وعلى السطح الخارجي. يستطيع من مكانه حيث يجلس رؤية معظم منطقة الخليج، وكامل المسافة حتى جسر غولدن غات؛ أعجب بالمشهد إعجاباً كبيراً فيما كان يتناول أول لقمة من الخبز اللذيذ وقد جاء طعمه مماثلاً لرائحته الذكية.

لقد سمعت... القليل عنك، يقول أرفيدا، إذ لا يذكر ما قد سمعه. تربطه بهذا الرجل علاقة تدليك - تعلمت كارلوتا تأدية التدليك، وكانت تجريه له بشكل متكرر. مهارة تعلمها هو نفسه، مستمتعاً بها، وإحدى الأساليب التي تتيح له ملامسة كارلوتا بحنان دون اضطراره للضغط عليها دائماً لممارسة الحب. لقد خفف هذا الكثير من التوتر الذي كان بينهما، إذ اكتشف أن العازف خلال انهماكه في العمل، يكون هو أو هي في حالة ممارسة للحب.

ينظر سويلو إلى كارلوتا في الطرف المقابل من الطاولة. لا يزال يشعر بحالة ذهول كبير بها. شعرها قصير لدرجة أن أطرافه تخز إذا ما لمس. أصبحت نحيفة جدّاً؛ حتى ثدياها أصبحا أصغر حجماً، غير أنها بدت سعيدة. أدهشته سعادتها هذه من بين جميع التغيرات الأخرى على شخصيتها.

كيف تبدد نواحها الذي يتذكره؟ وتقلقلها؟ وفركها الدائم ليديها، صلاتها واصطكاك أسنانها؟

أخرجت العلكة من فمها – فرقعتها مرتين قبل أن ترميها – وبدأت بوضع طبقة رقيقة من الزبدة على شريحة صغيرة جدّاً من الخبز.

كنا زملاء، يقول سويلو، في نفس المؤسسة الأكاديمية. بالمناسبة، ثم، متوجهاً بكلامه إلى كارلوتا، هل ما زلت تزاولين التدريس...أم أنك؟

لا، تقول، وهي تمضغ، توقفت عن العمل بالتدريس. عبست عبسة خفيفة. زاد إحباطي، وأصبحت سمينة. رمت برأسها بالطريقة التي كانت تفعلها عادة حين كان شعرها طويلاً. يفلح سويلو بالإمساك بلمحة خاطفة من ذاتها القديمة. بتابع كارلوتا. فات الأوان على تعليم الطلاب ما هم بحاجة لمعرفته عبر المناهج المعمول بها في الجامعات.

هذه ردة فعل مفاجئة من كارلوتا دفعت سويلو للضحك. حتى هي وجدت هذا الكلام طريفاً!

إلام ترمين؟ يسأل أرفيدا، وهو ينظر بانتباه تام إلى كارلوتا. لأنه لم يرتد جامعة يوماً، فهو يعتقد أنها مكان يحظى باحترام الجميع وتقديرهم. لن تعرف شيئاً بالفعل حتى تدخل الجامعة. لا تملك سوى خبرة حياتية وهي تفتقر للوقائع، يفكر بينه وبين نفسه. هذا معناه أن تتقلب أحشاءك وأنت جالس على المائدة بصحبة خريجي الجامعة.

أوه، تقول كارلوتا، ما الداعي إلى المزيد من صنف أولئك الذين تنتجهم الجامعات؟ الحقيقة أن جميعهم مستهلكين. لا ينجحون سوى في التسوق، بغض النظر عما يدرسونه.

ماذا عن مقرراتك التي كنت تدرسينها؟ يسألها سويلو.

صراحة، تقول، كنت أحبها. لقد أحببت تدريس أدب المرأة، إلا أنني أرهقت من تدريسه في الجامعة. كنت أرغب في تعليمه – لو أنني واصلت تدريسه – وأنا جالسة وسط حلقة طلاب فوق مرج، حيث يمكن للأبقار أن تقترب منا بشكل عفوي وتنظر إلينا. وحتى تنضم لنا.

أتعلم حرفة النجارة الآن من تلقاء نفسي، يقول سويلو. رغم القضية المتعلقة بمدى مساهمة النجار في استغلال وقتل وتخريب الأشجار.

ماذا تعني، تسأل كارلوتا.

حسناً، مصدر الخشب هو الأشجار. الأشجار كائنات حية. غايتها مستقلة عن أن تغدو بيوتاً عائمة، وحطب للنار وأسقف.

ما الذي تقوم بتدريسه؟ يسأله أرفيدا.

التاريخ الأمريكي، يقول سويلو. يضحك ضحكة خافتة. لكنني غير قادر على التفوه بتلك الترهات بدون مخدر أو كحول. موقف خاسر بالفعل.

بيد أنك باحث تاريخي في مجال حرب العصابات، تقول كارلوتا بمحاباة. كما كنت أنا مدرسة لأدب حرب العصابات. يتعذر تدريس الواقع البديل، بالذات حين يكون واقعك أنت.

لكنه منهك، يقول سويلو. وقد كنت على الدوام فاقداً صوابي. أفكر بكتب التاريخ التي قرأتها والتي تقول، بعدد هائل من الكلمات، أنه من أجل فهم أميركا لا بد من معرفة جميع هؤلاء الأقوام معرفة تامة؛ وجميعها لا صلة لها إطلاقاً بمعرفتك الشخصية للواقع.

كان طلابك الهنود يتسربون دائماً، تلمح كارلوتا. أعرف أن طلابي كذلك كانوا يفعلون. في النهاية، دأبت على القول، في أولى محاضراتي، أذهبوا وجدوا قصيدة لجوي هارجو أو ليزلي سيلكو. وبهذا، أضمن لك أن يقرأ الطلاب هؤلاء الكتاب من قبل أن نقرأهم نحن.

يضحك أرفيدا، معجباً بكارلوتا. يمد يده ويسحب قدمها ثم يرفعها ويضعها في حضنه؛ كان عليه أن يدفع بكرسيه نحوها ليفعل هذا.

ليس لدي معرفة كبيرة بالأدب أو التاريخ، يقول بنبرة اعتذارية، وقد بدا شبيهاً بأغنية سام كوك القديمة ما حدا بثلاثتهم الانفجار بالضحك. قرأت وقرأت لكنني قارئ بطيء! لن ألحق أبداً!

يفرك باطن ساق كارلوتا. وهي مذعنة كالقطة.

تبتسم كارلوتا. لا عليك يا فتاي، تقول. ما نكدُّ جميعاً لتعلمه تعرفه أنت مقدماً.

ينظر سويلو إليه، هذا الرجل المتواضع يمنح الفرح للكثيرين دون طلب، على عكسه وكارلوتا فقد ازداد وزنه بدلاً من أن يفقده. هذا الرجل المسترخي، القصير نوعاً ما، هو رجل يكاد يكون ضئيلاً. بعينيه اللطيفتين وشعره الأشيب المنفوش. يفكر سويلو، أجل هذا صحيح ربما.

***

ما هو بحق مدعاة للأسف ميلك أنت، كموسيقار، لخسارة الناس كيفما اتفق. ينتظرون منك مواصلة عزفك للموسيقى التي تولد لديهم شعوراً مميزاً على الفور، شعور يحسبون أن موسيقاك القديمة سوف تساعدهم على استرجاعه. لكنك فعلياً، إن كنت دائماً وأبداً تعيش كفنان، في مكان آخر بشكل دائم قريباً، غير الذي أنت فيه.

يرمي أرفيدا بكرة العجين بحماس مذهل أثناء حديثه. يتطاير الدقيق ويغبر لحيته. يرفع سويلو قبالته قطعة العجين ويسقطها بنفس القوة تماماً. يرتدي قميص تي شيرت بوغز بوني ويعصب رأسه بمنديل الجبهة الساندينية للتحرير الوطني ذو اللونين الأحمر والأسود. سرواله الجينز منزلق قليلاً ويعلق عند عظام حوضه تماماً. هو أيضاً مغطى بالدقيق وعلى وجهه ملامح العزم الجاد والشديد.

استرخي، يقول أرفيدا، وهو يرشف رشفة من عصير العنب الطبيعي. هذا عمل جاد وحقيقي، لكن أشد الأعمال جدية، كما تعلم، يمكن أن ينجز بمتعة.

يتذكر سويلو ممارسة الحب مع فاني. كيف أنها الآن تعيش مرحلة لديها على الدوام ما يضحكها.

يتنقل أرفيدا في أرجاء المطبخ الرطب، يلقي بقشور البيض في حوض تحضير السماد العضوي، يمسح البقع، وينظف حيزاً بجوار الفرن على الطاولة الطويلة، يدهن مقالي الخبز مواصلاً الغمغمة والصفير والكلام.

يضع شريطاً لموسيقى الأجراس والمظلات ويهمهم قليلاً وهو يستأنف

رق الرغيف. تنبعث رائحة خميرة قوية في الجو. وعندها، بغرابة تامة كما بدا لسويلو، يمط أرفيدا نفسه ويدخل يده في علبة ويخرج منها زبيباً وبندقاً ثم يضعها في العجينة.

حذا سويلو حذوه، وهو يشعر بالسرور لكونه متدرباً.

يقولون، ألا اللعنة عليك، لقد خنتنا! لم لا تعزف الموسيقى التي اعتدنا عليها ونترقبها منك؟ هذا الخراء الذي تعزفه الآن يبدو كأغاني إلتون جون! ماذا عن أصولك اللعينة؟

يفرد أرفيدا العجينة ويلقي نظرة إلى غرفة المعيشة. إنه نهار ضبابي ولم يعد بالإمكان رؤية مشهد الخليج الخلاب. يرهف سمعه بحثاً عن صوت الولدين، بيد أنهما كانا قد خرجا برفقة كارلوتا وفاني إلى السينما. يفكر بكارلوتا وفاني والولدين ويتخيل ما تقوله كارلوتا لفاني، لحظة يترك لهما الولدين شيئاً من الاسترخاء. حسناً، يتخيلها قائلة، في الفترة التي كنت أقابل فيها زوجك كنت حقيقة أمر بمرحلة من الصدمة النفسية كامرأة لدرجة أن السبيل الوحيد للخروج منها كان أن أتحول إلى شخص آخر لا يشبهني. أصبحت منتحلة للأنثى.

يمسك سويلو برقاقة العجين. ينتبه أرفيدا على توزيعه المتناسق للزبيب وحبات البندق، فيومئ برأسه استحساناً.

تحقق من هذا الأمر الآن. يقول، إذا ما كنت مؤلفاً للأغاني، فهم ينتظرون منك كتابة نفس الأغاني التي كنت تكتبها في العشرين وأنت في الخامسة والأربعين. إذ يفترض بك، قال ضاحكاً إعانة الكثير ممن هم في الخامسة والأربعين على البقاء في العشرين. والأدهى، ينتظر منك مساعدتهم على تبرير علاقاتهم الوضيعة التي يعيشونها مع النساء، التي هي من الفساد والاعتلال في حاضرهم كما كانت عليه يوم استمعوا إلى أولى أغانيك، مع فارق أنهم كانوا شباباً آنذاك، وحديثي العهد في اللعبة، وما كانوا يحسبون أن ما يقومون به وما يلهثون خلفه هو فساد وتشوه.

يسرح سويلو بالتفكير في هذه النقطة. يفكر كم مضى على زواجه وفاني.

هيبيان حتى العظم، تزوجا حافيان في فصل الربيع، وتحت أشجار التفاح المزهرة. كان لديهما موسيقيين - منتشين بهم - على قيد الحياة. لكن ما هي الأغنيات التي كانت أثيرة لديهما؟ أي الأغاني التي كانت تعزف وتغنى؟ اللعنة، لم تسعفه ذاكرته لتذكر هذا حتى. لكنهما كانا مولعين بألبوم أونو ولينون *(وهم مزدوج)* عندما تطلّقا. كانا يرددان أغانيه طيلة الوقت. امنحني شيئاً لا يكون *صعباً*، هيا، هيا... ستقلد فاني تكرار لازمة يوكو بصوت امرأة مطلعة، وبعد أن تدفعه في السرير، أو على ضفة نهر، أو شاطئ، أو أرض غابة، أو أرضية المنزل، سوف تشرع في تقبيله حتى انقطاع أنفاسهما.

ثمة أغاني يريد منك الناس تأديتها اليوم، يقول أرفيدا، متأملاً باستغراب في الدندنة المكرورة التي لا تطاق لسيناترا، وهو يضع رغيفه الأول وكذا رغيف سويلو في الفرن، لا تتناسب أبداً مع العصر. إذ إن الرجال والنساء، الذين لا يزال لديهم ذرة من حياة، هم ببساطة في مكان مغاير عن المكان الذي كانوا فيه وهم في العشرينات. حمداً لله. يضحك.

ينظر سويلو إليه نظرة تساؤل.

تذكرت على حين غرة، يقول أرفيدا، وهو لا يزال مبتسماً، تلك اللحظة الدقيقة التي عرفت فيها أنه قد آن أوان اعتزالي، لا بل حتى أوان اعتزال نسختي الخاصة من أغاني الحب الشعبية ذات الطراز القديم، حيث تجلس المرأة فيها بجوار النافذة تنتظر رجلها بلهفة أثناء تجواله في رحاب العالم، وكان ذلك في ختام حفلة، صارعت فيها إحدى الشابات كي تشق طريقها نحو الخشبة بهدف الحصول على توقيعي، وفيما كنت أوقع على ذراعها - كالعادة، لم تكن تحمل لا دفتراً ولا بطاقة، ولا حتى قصاصة ورق - نظرت إلى ثدييها وقرأت عن غير عمد ما كتب على قميصها: المرأة بلا رجل مثل سَمكة بلا دراجة هوائية[1].

***

1- عبارة تنسب لأكثر من شخصية، الأشهر بينها إيرينا دون (1948) وهي ناشطة سياسية واجتماعية وكاتبة أسترالية - المترجم

كنت منتحلة لصفة أنثى، تقول كارلوتا لفاني، فيما هي تقود السيارة نازلة هضبة سان فرانسيسكو الشاهقة. منحدرة بشدة لدرجة أن سيدريكو وأنجيليتا، اللذان كانا يتكلمان بسرعة ميل في الدقيقة في المقعد الخلفي، صمتا تماماً من هول الرعب.

هذا هو السبب في صعوبة تذكري لكل ما حدث، رغم تصوري أنني أحببت سويلو حسب ظني آنذاك. أعلم أنني كنت أود الزواج منه؛ وستمحو علاقتي به بلا شك علاقتي الزوجية السابقة. لكني لم أفعل سوى أنني تأنقت على نمط العاهرات وكشفت عن ثديي بشكل ناهد. كنت أعتقد أن كل رجل على مر التاريخ – ما عدا ليونارد وولف ربما – هو كائن أحمق، ومع ذلك أردتهم أن ينظروا إلي. هيا، تسوقوا، تبضعوا، اشتروا الخنزيرة السمينة، عادة ما كنت أهمهم بيني وبين نفسي، ولم أكلف نفسي يوماً عناء التفكير في مبعث هذه الفكرة.

كنت تبدين غافلة تماماً في الواقع، تقول فاني وقد تأهبت لمواجهة تلة أخرى. هذه شديدة الانحدار لدرجة أنهم استبدلوا الأرصفة المستوية بالأدراج. لم يكن السبب هو الهضاب بحد ذاتها، إنما الطريقة التي تقود فيها كارلوتا السيارة، كما لو أنها تهاجم الهضاب. تنظر فاني إليها. ترتدي كارلوتا طقماً موحداً بلون الفوشيا ويبدو عليها الاستمتاع بتحدي صعوبة السياقة. إنها تتعامل مع سيارة الجيب وكأنها مهرة.

تعجبني القيادة في سان فرانسيسكو، تقول. هضبة لاغونا ستريت – التي كانوا للتو هبطوا منها – أعتبرها قاتلاً بالإثارة.

كنتُ أراك فيما مضى وكأنك سلمت القيادة للطيار الآلي، تقول فاني، ممتنة أنها لم تعد تترك القيادة للطيار الآلي الآن. استغربت أحياناً وصولك إلى منزلي وعدم تجولك في الفناء المجاور. تقول فاني هذا بهدوء وامتنان أنهم قد بلغوا أخيراً منطقة يونيون ستريت، الشارع الجميل المستقيم.

جلسات التدليك تلك كانت ضرورية لي، تقول كارلوتا. وخففت عن نفسي كثيراً، فقد كنت أعجز من ألمس جسدي بنفسي أو أشعر بوجوده.

أحممه وحسب، وأضمخه بالعطر - بشكل صارخ، ومتعة بالغة - وألبسه. بالنسبة لي لم يعد حياً أبداً في حينها. ربما يفترض بالعطر أن يستعمل سائلاً للتحنيط.

ضحكت كلتاهما.

تتذكر فاني السنين التي انعدمت فيها رغبتها الجنسية، كيف أنها، في اللحظة التي وعت فيها لاضطهاد المرأة من قبل الرجل، وبغية أن تدع شعورها هذا يهيمن على حياتها الخاصة، توقفت عن الرغبة بالرجال وما عادوا يثيرونها، بالذات سويلو، المدمن على أفلام البورنو حينها. بعد ذلك، علّمتها النساء في تجمع رفع الوعي، الذي كانت عضوة فيه، طريقة الاستمناء. فجأة وجدت نفسها حرة. حرة جنسياً، ولأول مرة في حياتها تعلمت التأمل، وتخلصت من آخر بقايا الدين المنظم المتداخلة مع شخصيتها. تعلمت التأمل والاستمناء سريعاً فوجدت نفسها تتماهى في الكون بكلّيته. شعرت بحالة لذيذة.

لكن سويلو كان على وشك تحطيم تلك الحالة لدى محاولتها مشاركته تلك الرحابة الجديدة. كان دائم الصراخ فكري بي! أنا! بجسدي، بقضيبي! هذا ما أحست به على الأقل، حتى عندما لم يكن ينطق شيئاً. اتهمتْه وقتها بالسعي إلى استغلال أعضائها الجنسية.

ضحك وادعى أنه لا يفهم مقصدها.

حسب رأي فاني، فإن رغبته الجنسية التي كانت تستغلها الأفلام التي يتابعها والكتب التي يقرأها، والمجلات التي يتعثر بها على ناصية الشوارع.

لا أستوعب عدم شعورك بالغضب حيالي حين اكتشفتِ الأمر، تقول كارلوتا.

وصلوا هذه الأثناء إلى منزل ضيافتها المتواضع، الذي ذكر فاني بصالون التدليك. يعطي شعوراً بالرحابة على الرغم من صغره. قليل الأثاث: وسائد وحصائر على الأرض، وطاولتان مستديرتان من الخشب.

شموع. مباخر. أزهار يانعة في مزهريات معلقة على الجدران. كل حجرة فيه بلون مختلف: الأزرق والأخضر والزيتوني والذهبي. يعطي بطريقة ما إحساساً بتنوع ريش الطاووس.

اكتشف علاقتكما بعدما انتهت، تقول فاني. وعلمت أنه هجرك من أجلي. كنت أعرف أن ثمة نساء أخريات، غير أنني لم أعرفهن مطلقاً. لم يخبرني سويلو سوى عنك بسبب خشيته أن أكتشف العلاقة عن طريقك أو عن طريق إحدى زميلاتي في مجموعة رفع الوعي. أولئك العاهرات لا يخفى عنهن أي شيء! كان عادة ما يقول.

لقد بالغن جدّاً! تضحك فاني. أشعر بالأسف على كل امرأة فوتت مرحلة النهوض الجماعي للنساء تلك. هكذا كنا في نظر الجميع، معدات تنظير براقة وفؤوس مزدوجة[1] تتدلى من الأعناق، سحاقيات ضخمات يظهرن فجأة على الدراجات النارية، يتملصن في الشوارع ويهربن! سحقاً - تبتسم، وهي تتذكر - يا له من قلق كابده سويلو المسكين بسبب كل هذا!

شعرت بالنقمة، تقول كارلوتا، جراء شعوري بالهجران، حتى أنه لم يودعني. كف عن الظهور في حياتي وحسب. عدتما لبعضكما، وأصبحت أراكما سوية حيثما وجهت طرفي. كنت قادرة على قتله؛ حسب تعبير فريدا كاهلو على ما أظن، والتهامه بعدها. توقفت قليلاً عن الكلام. ظلت هذه الأفكار من نسج خيالي فقط طيلة الوقت. كي أصرف انتباهي عن بؤسي. كان سويلو مجرد شيء أتمسك به؛ شيء يراني الناس برفقته؛ أتعارك معه على أرض المطبخ.

أوه، أنا، تقول فاني، بصوت كالفحيح. تتذكر أن سويلو كان يعتقد أنه استغل كارلوتا وأن هذا ما كانت تظنه هي نفسها. كلاهما كان مخطئاً. ما كان هناك من ضحية ومضطهِد؛ إنهما ضحيتان فعلاً، كل منهما كان يتنقل وحيداً، جسدان متطلبان لدرجة لم يكونا سوى لحم أعمى بالأساس.

• لم يعد من السهل استفزازي هذه الأيام، تقول فاني، في طريقهم إلى منزل

1- labyrises: الفأس المزدوجة أحد رموز الإلهة مينوان في جزيرة كريت - المترجم

أرفيدا. أجهل السبب. انتظرت بجانب باب غرفة النوم فيما كانت كارلوتا تنهي وضع أنجليتا المتمايلة من النعس في السرير. بدت أنجليتا كمادونا صغيرة منهكة وبشرتها بلون الكهرمان، وشعرها المشاكس المقصوص مصبوغ، على الأرجح، ببويا سوداء لتلميع الأحذية، وتصارع وسادة وردية اللون تحت رأسها المتعب.

لعلي، تتابع كلامها، استنفدت غضبي بكامله. فحل الحزن محله.

بالطبع، تقول كارلوتا. كبت الغضب يقود مباشرة إلى الشعور بالاضطهاد. والاضطهاد يقود مباشرة إلى الانتحار. تطفئ النور عند أنجليتا وتغلق الباب برفق.

أبداً، تقول فاني. حزني لا ينبع من شعوري بالظلم. بل هو صنف مختلف من الحزن. شعور أقرب إلى... تفكر؛ تقلب الشعور في عقلها. أقرب إلى الأسى. يبدو لي البشر مجرد كائنات معتوهة، في المقام الأول. يبدو لي أن الجميع يتعذبون على يد العالم الذي نعيش فيه بحالة جنون صرف. ناهيك أنني لا أعتبر الغضب، الموجه ضد الناس بدلا من الظروف، هو بالضرورة أمر جيد. أخذت تفكر بمعارفها من الناشطات النسويات البيض اللاتي يشعرن بالسعادة لأنهن أخيراً قد نجحن في التعبير عن الغضب. أمر لم تفعله المرأة البيضاء قط، حسب وجهة نظرهن. يعتقدن أنه يتعين على النساء البيض استرداد قدرة التعبير عن الغضب. بيد أن هذا يبدو لفاني مجرد وهم. فهي تعلم أن البيضاء تجاهر بغضبها باستمرار، أو على الأقل تنفّس عنه، كما يحلو لبعض من صديقاتها القول - ويكون عادة موجهاً ضد البشر، الرجال غالباً، ولا سيما ضد النساء الملونات. إلى أين أودى بها هذا؟ حسناً، لقد أصبح من الصعب أن تتحدث السوداوات معها الآن، ليس لأنهن لا يتذكرن سوى قدرة البيضاء على التعبير عَن الغضب، وإنما لأنهن يتحضرن للرد على هذا الغضب في أية لحظة.

تزعم هؤلاء النساء أنفسهن، بطريقة مثيرة للدهشة برأي فاني، دائماً بخشيتهن من إثارة غضب المرأة السوداء، ولهذا السبب يقلن إنهن يتهيبن خوض معركة جدية معها.

ربما لن يثار غضبك إلا إذا تعرضت لمشكلة كبيرة، تقول كارلوتا. تقفان بين غرفة الطعام والمطبخ فوق رأسي أرفيدا وسويلو، ومن موقع تريان فيه على شاشة التلفزيون جندياً إسرائيلياً يقوم، بمساعدة مدني بدين اتضح أنه من بروكلين حالما فتح فمه، بتكبيل صبي عربي مرعوب ودامي الوجه بمنتهى القسوة وقد بدا شبيهاً بسيدريكو.

لقد خسروها، يقول أرفيدا متنهداً بحزن.

***

وجدت فاني الحديث مع أرفيدا مريحاً وسهلاً. كالحديث مع إحدى صديقاتها. حاضر أبداً، ويصغي كل الإصغاء، عاطفي وبالكاد يتلعثم أحياناً أو يغمغم ويتمتم بأفكاره أثناء الحديث؛ لكنه لا يوظف عقله وسيلة يتلطى خلفها. راقتها طريقته في ترديده الدائم لعبارة، أظن كذا... لكن من ناحية أخرى، ربما لا.

لسبب ما، انتقلت إليها حالة عدم اليقين والتردد البسيطة هذه.

اكتشفت أنه مغرم بالأموات القديمين، من الموسيقيين خاصة، مثلها هي بالضبط؛ يخبرها أن أحد هذه الأجساد القديمة، كما يدعوها، يساعده على تأليف أغنية جديدة يقول سطرها الأول الجنس هو اللغة التي لا تفصح عن الكثير. تعجبه العبارة ويدندن بها ثم يوضح لفاني توقعه لنغمة لحنها حين سيغنيها بمرافقة البيانو.

تجلس فاني قربه على مقعد البيانو وتشاركه حماسه. غمرته الغبطة لعثوره على هذه اللازمة القصيرة كبداية لأغنية جديدة لدرجة أنه وثب كالطفل. يخبرها أنه يحاول ضبط نفاد صبره (قاتل الفن) أثناء انتظاره إلهام تتمة الأغنية.

كانا على يقين من أن بقية الأغنية آتية؛ وتشاركا الإحساس بالالتحام مع العوالم الأخرى كأنه سر رائع بينهما.

تخبره فاني عن المسرحية التي تقوم بتأليفها مع أختها نزينغا. نزينغا، يقول، يا له من اسم *جميل*! تقول فاني إنه اسمها هي أيضاً. عندها وجدت

نفسها مضطرة أن تروي له كل ما يتعلق بآولا وزوجاته وصدفة أنها وأختها لهما الاسم ذاته. حسناً، تقول، هذا يثبت أن والداي لم يكونا متباعدين كثيراً، سواء من الناحية السياسية أو الثقافية.

لكن الاسم نفسه يتمتع بقوة خاصة، يقول أرفيدا، وقد ولّف عقله على الفور مع إمكانية تلحين الاسم.

طلب أرفيدا أن تخبره عن العمل المسرحي فتعرض عليه فاني صفحة منه. المسرحية معنونة مشروع والدنا، تظهر شخصية آولا في الصفحة، الذي تحول اسمه إلى واروما، مفترشاً حصيرة على أرض زنزانته ويخربش على هوامش صحيفة قديمة.

تخبر فاني أرفيدا عن مخططها وأختها لكيفية عرض هذ العمل في الذكرى السنوية القادمة لوفاته، التي تقترب بسرعة، والذي سيشمل مقاطعا من أكثر ثلاث مسرحيات مثيرة للجدل لوالدها.

شعر أرفيدا بالفضول حيال إفريقيا. موسيقاه معروفة جدّاً هناك. يقول لفاني إذا ما تعرضتا للاعتقال هي وأختها بسبب عرض هذه المسرحية، فسوف يذهب هو إلى أولينكا متشحاً بروح بوب مارليو ينشد لتهديم جدران زنزانتهما.

هناك احتمال كبير أن نعتقل، تقول فاني. لكن إذا لم تصبح إفريقيا ملكاً لأبنائها، نساءً ورجالاً على حد سواء... لم تكمل الجملة، وبدت حزينة.

يشعر أرفيدا أنه مغرق بأمريكيته. مفرط في الأمريكية إلى حد لن يخطر على باله أبداً التفكير بإفريقيا كقارة لا بد من استعادة الحصول عليها. في النهاية، هو ينحدر منها بجزء منه فقط.

يروي لفاني عن والدته، كاثرين ديغوس، وعن ضآلة ما عرفه عنها. وكيف أنَ هذا الجهل أودى به إلى التخبط في الحياة على غير هدى.

حتى اسمها الحقيقي ليس كاثرين ديغوس! قال، وهو لا يزال على طريقته الارتيابية في الحديث. ندوب جراحه القديمة الناتجة عن إهمالها له في طفولته، وإرباك عاطفي معين، لم يبرأ منها.

عدنا أنا وكارلوتا إلى هناك، إلى تيري هوتي، قال، وزرنا برفقة الخالة فروديير قبر والدتي. كتب اسمها كاثرين ديغوس على شاهدة القبر، بحروف نابضة بالحياة. أخبرتنا خالتي، مع زفرة من أنفها الكبير، أن اسمها الحقيقي هو جورجيا سميث.

جورجيا سميث!

شردت فانيفي والدتها، التي لم تكن على ما يرام هذه الأيام. فقد عادت إلى منزل الماما الكبيرة سيلي القديم في جورجيا. تقرأ، وتتابع التلفزيون، وتعمل بالبستنة وتتصلب فاني. ثمة جنتلمان أو أكثر يجيب على الهاتف، كما تعتقد فاني.

لم تعجبني يوماً، تقول خالتي، مع أنها أختي الصغرى. فتح أرفيدا عينيه على اتساعهما معبراً عن ذهوله مما يسمعه. أبداً، ولا حتى استطعت تحمل تصرفاتها الزائفة والقذرة.

يا للهول، تقول فاني. ألم تتمكن من أن تحفظ لسانها.

مهلا، يقول أرفيدا. قالت لها كارلوتا: خالة فروديير، لماذا لم تكن والدة أرفيدا تعجبك؟ سألتها بطريقة لبقة، كما لو أنك تطرحين سؤالاً على شخص مريض. كانت مزيفة، متصنعة، تقول خالتي. لم تقنع أبداً أن تكون على حقيقتها.

لدى عودتنا إلى منزل خالتي، عرضت علينا بعضاً من صور والدتي القديمة. نظرت كارلوتا إلى الصور أولاً، فلاحظت أن وجهها امتقع شحوباً. بعدها أحضرت الخالة فروديير صورة لوالدي ضمن إطار فضي قديم. فازداد شحوب كارلوتا وانغماساً في التفكير. بيد حانية على ذراعي، مررت الصور لي. صورة والدي التي ظلت على طاولة بجانب سريري لزمن طويل في صباي. إلا أنني نسيتها. نظرت لحظتها إلى وجه أبواي، ولا يمكنني أن أتخيل كيف بدت هيئتي أنا نفسي. إذ لم يكن والدي ووالدتي يشبهان خالتي فروديير البتة بأي شكل من الأشكال – امرأة في غاية البدانة ذات بشرة سمراء غامقة وملامح متجهمة – بالمقابل كانت تبدو كأنها أحد أفراد عائلة كارلوتا، بالطبع، إن كان لديها عائلة ما خلا والدتها.

انحدرت عائلتنا، تقول الخالة العجوز فروديير، من فرعين، الأول إفريقي/ اسكوتلندي والثاني من هنود البلاكفوت. تعود والدتك إلى فرع البلاكفوت. وكان والدك، الذي قدم للعمل ضمن ورشات شق الطرق، مكسيكياً أسوَدَ وخليطاً بين الفيلبيني والصيني. كان هذا الرجل إلى حد بعيد، قال أرفيدا بتعجب، صاحب أجمل محيا وقعت عليه عيناي يوماً. حتى ذلك الحين، تقول الخالة فروديير، كانت والدتك معروفة بجورجيا سميث فقط، فهو الاسم الذي أطلقه أهلي عليها. لكن هل ستتخذه اسماً لها؟ أبداً. تراها تقول، هذا الشيء اللعين لا يليق بذاك الخراء. مثلما تتحدث عن الرجال الملونين الذين كانوا يشنقون حولها باستمرار. أنهم يضجرونها كثيراً. بلا اندفاع ولا مفاجأة ولا مال أيضاً. في النهاية، أصبحت معروفة بكاثرين ديغوس من *سانتا في* Santa Fe، وهي في التاسعة عشر من عمرها وخصرها نحيل كخصر الدبور. ترتدي فساتينَ تكشف الكثير من ساقيها البرونزيَّتَين...

استشعرت خلال حديثها، يقول أرفيدا، بعد مرور كل هذه السنين على مراهقتهما، حقد خالتي فروديير الظاهر على والدتي. أقشعر بدني لدى تفكيري بوالدتي تحتضن شخصاً إلى هذه الدرجة من الازدراء. أوشكت على الغثيان.

لم أكن لأتحمل العودة إلى تيري هاوتي لولا دعم كارلوتا، وفيما كنا نستمع بصبر إلى الحسد والضغينة، والحقد المكبوت لما يربو على خمسين عاماً الذي تقيّأته علينا الخالة فروديير، كنت سعيداً بوقوفها إلى جانبي ومساندتي. مع أنني رجل ناضج ولدي أولاد من صلبي، فقد نزلت علي كل كلمة تلفظت بها عن والدتي كالصاعقة؛ كأنني لا زالت طفلا. الأمر المستغرب أنني شعرت، خلال حديثها المحموم، باقترابي أكثر فأكثر من والدتي.

تزوجت الخالة فروديير من سمكري؛ ولا يزال على قيد الحياة، يا للعجب! هنا يضحك أرفيدا بشكل مفاجئ، ضحكته العميقة المدوية؛ رافعا رأسه إلى الوراء ليدع صوته يخرج بلا عائق.

على قيد الحياة! راح يرددها بما يشبه الصراخ. الناجي العجوز، بارك الله

بروحه الجديرة بالرثاء! فالله وحده يعلم بسنوات معاناته من لسان الخالة فروديير الذي يقطر أسيداً.

تابع أرفيدا بنبرة متروية، عندما أعلنت الخالة فروديير أن الغداء جاهز كان جاثماً أقرب ما يمكن من التلفزيون، يتابع برنامج *قطار الروح* حسب ظني، ومرت ببساطة من أمامه ثم أغلقت التلفزيون.

شعرت فاني بالحزن من هذا التصوير لزوج الخالة فروديير.

تكلم عن ألبيرت زوج جدتها سيلي السابق، وكيف أن نشاطه المفضل، طوال الفترة التي عرفته فيها وهو أمام التلفزيون، كان التحديق في الفراغ. بمرور الزمن وتكثيف الحياة في مشهد ضيق ومباشر، ربما يجد هؤلاء الرجال العجائز أنفسهم مضطرين للجلوس وحسب.

حسناً، اسمعي هذه، يقول أرفيدا. تركا مقعد البيانو والاستديو، والمنزل وها هما يسيران الآن سيراً متهادياً على الدرب الصاعد من منزل أرفيدا إلى *موطن الإلهام*. اعتراني خجل شديد، كما يمكن لك أن تخمني، وتهيبت سماع المزيد من حديثها. لكن كارلوتا كانت عازمة على سماع كامل الحكاية، كي تقذف بنفسها في أتون حالة الاختلال. لقد سمعنا عن كنيستها، قالت لها، مثلما نردد نميمة حديثة سمعناها عرضا. كنا على الغداء آنذاك، وكانت الخالة فروديير تهم برمي قطعة كبيرة من لحم البقر المشوي في فمها الشاسع. ألقت بالشوكة وقطعة اللحم وكل شيء. أوففف، تأففت ونخرت قائلة، اللهم اجعلها كنيسة. نظرت إلي بذات التعبير الذي ولا بد أنها كانت تنظر فيه إلى والدتي: نظرة برود وقسوة وازدراء. لم ترضها بما يكفي الكنيسة التي كنا نؤمها نحن البقية. راحت تردد ما تسمعه، يتعين على الجميع الكف عن ارتياد الكنيسة فوراً واستغلال هذا الوقت بالمقابل في إسداء خدمة ما للفقراء. ظلت تجري على مدى بضع سنوات بعد ولادتك وهي تؤدي خدماتها للفقراء. رحل والدك أثناءها للعمل في شق طرق الولاية التالية، ولم يعد أبداً. سقط عن جسر كانت مجموعته تقوم بتشييده. لم نر جثته، ولا عرفنا أية معلومات عنه. سمعنا بمقتله صدفة.

يبدو أرفيدا مفجوعاً، وهو يتذكر تلك النهاية المأساوية لوالده الوسيم، لدرجة أن فاني مالت عليه، هناك في الدرب المكشوف - حيث كانت تحدث من حين لآخر جرائم اغتصاب وحتى قتل - ثم قبلته. بالنسبة لها، القبلة تمنح الراحة وطمأنينة العناق العفوي. لكنها أطالت تقبيله، وكانت تقبله بشكل رائع. حامت روحها وحلقت خارجة من فمها، ثم دخلت في فم أرفيدا. شعر بدفء هذه الروح بلسانه، كأنها حبة برقوق معتقة أينعتها الشمس، فارتبك فجأة. استدارت فاني وابتعدت عنه على الفور وبدأت تصعد الدرب.

تمايل أرفيدا في إثرها وانسجمت خطواته بعد قليل مع فشخاتها المتسلقة. لا يزال مأخوذاً بالقبلة، لكنه يقول بهدوء: لقد حظيت والدتي بمحبة الجميع، هذا ما تظنه الخالة فروديير، على كل حال. مع أنها مزيفة ومتصنعة ورافضة لأن تكون جورجيا سميث أو الزواج من رجل ملون عادي أو الذهاب إلى الكنيسة - وحتى مع أنها، يقول، مقهقهاً، سمتني *أرفيدا* على اسم ماركة لوح صابون من الهند أهداها إياه والدي، الذي يعني الصحة الجيدة، على ما أظن - فقد امتلكت إلى حد ما جميع الخصال الحسنة في الحياة على كل حال. ملامح جميلة، وقوام ممشوق، ومنزل مليء بالخاطبين المرتبكين... رجل في غاية الوسامة، لا يشبه أيّاً ممن عرفتهم سابقاً - ما عداها هي نفسها ربما - وقد أغرم بها. بذل جهوداً مميتة نفسه في سبيلها، قالت خالتي يملؤها الحسد وعاجزة عجزاً تاماً عن استيعابه. ثمة طفل في حياة والدتي. أي *عاطفة*. كانت خالتي تكرهها، يقول أرفيدا، لأنها تعرت أمام رغبتها وأوضحت لنفسها ما لم تكن ترغبه. خاضت المجازفات. قفزت نحو الشمس، على حد تعبير تلك الكاتبة التي كانت كارلوتا عادة تدرسها في أدب المرأة. توقف أرفيدا لبعض الوقت عن الكلام؛ كانا قد بلغا قمة الهضبة وانكشفت الرؤية على مدَى أميال بكل الاتجاهات.

هذه أهم الصفات، يقول، وفي صوته قلب يملؤه الامتنان، التي أحبها في والدتي. و... في والدي.

تجلس فاني وأرفيدا في قمة الهضبة، تحت المجاز مباشرة. لم يتلامسا

سوى روحياً. يفكران في هذين الاثنين، ولدَي أرفيدا، اللذَين اجتمع فيهما الأفارقة والأوروبيين والمكسيكيين والهنود والفليبينيين والصينيين (!). اجتمع فيهما جميع المغامرين وراكبي المخاطر.

يحمل أرفيدا معرفته بنقمة والدته على واقعها المقيد قرب قلبه؛ يشعر بالراحة على نحو مذهل بسبب هذا. أدرك فجأة أنه ممتن لكتيب فاني، *إنجيل شوغ*، والتي أطلعته عليه.

***

بقيت كارلوتا وسويلو في حوض الماء الحار بينما مضى أرفيدا وفاني إلى الساونا. بعد الساونا، وعدت فاني أرفيدا بتدليك لن يشهد له مثيلاً في حياته.

يقول أرفيدا إنه تواق لفرصة أن تلمسه يدا المحترفة، لعلها تشفيه!

تنظر فاني إلى كتلة كعكات شعره الصغيرة التي تتقافز أمامها وقاومت بشق النفس تكوير يدها والإمساك بإحداها.

إنها ليلة باردة في هضاب بيركلي، لكن درجة حرارة المياه في الحوض تبلغ مائة وثلاث درجات[1] درجة حرارة مثالية، جلس سويلو وكارلوتا على الدكة داخل المياه أو اتكأا على خراطيم الجاكوزي ثم رفعا أنظارهما نحو النجوم من خلال أوراق الشجر المتدلية فوقهما.

أصبح الثنائيان الآن أصدقاء مقربين. مع أن فاني وسويلو يعملان على تشييد منزل ويقطنان على بعد ساعة واحدة في مزرعة دجاج متهالكة خارج بيتالوما، فقد أصبحا يزوران أرفيدا وكارلوتا بشكل متكرر. بترحيب دائم؛ المنزل كبير ومريح؛ موسيقى رائعة تصدح وطعام وأحاسيس جميلة. إلى جانب هذا، أدركوا جميعاً على نحو غير مفهوم أن لدى كل منهم غاية في حياة الآخر. علاج جماعي يتسنى لكل منهم من خلاله أن يصل إلى نضجه. لا يناقشون هذا، لكنهم يتحسسونه بقوة. تسود بينهم ثقة لا لبس فيها.

1- درجة الحرارة بالفهرنهايت - المترجم.

يشعر فاني وسويلو، وهما بلا أولاد، بالسعادة لوجودهما مع سيدريكو وأنجليتا، لسوف يدعوانهما خالة وعم إذا لم يعتبرا هذه الألقاب عصرية معقدة. كلاهما مر بتجارب مآسي ما قبل المراهقة في أيامهما. تصحبهم فاني في نزهات مسير على الأقدام. وسويلو إلى السينما والسباحة. يطلبان منهما من حين لآخر المساعدة في دروس الأدب والتاريخ. أما في هذه الليلة، فينام الولدان خارج المنزل عند أصدقائهما.

يفكر سويلو في منزل العزبة الذي يشيده وفاني. على طراز بيت الاحتفالات في مرحلة ما قبل التاريخ الذي كان يقيم فيه شعب ماسوكتا، الأبابا - منزل صممته ذهنية أمومية قديمة وأول منزل معيشة بني على الإطلاق للتغاير الجنسي. يحوي جناحين، يلحق بكل منهما غرفة نومه وحمامه وغرفة الدراسة ومطبخ خاص به؛ وفي الوسط ثمة البدن - الحيز الشعائري أو المشترك، الذي يحتوي على غرفة معيشة كبيرة، وفي الأعلى شقة فيها فتحة سماوية ومطبخ صغير لإعداد الحساء أو الكاكاو الساخن أو الشاي. ثمة موقد أيضاً؛ وسيضعان فيه مقاعد وطاولات، ومكتبة جدارية. ستيريو وربما حتى تلفزيون؟

كثيراً ما يقرأ سويلو وفاني مقاطع من المجلدات الخمسة التي كتبتها إلينورا بورنهام وقدمتها السيدة بي لفاني. وقعا في هذه الكتب على حكاية مذهلة، حكاية روتها ماسوكتا نفسها لخالة خالة إلينورا بورنهام فيما مضى، عن أسلوب الحياة الوادع والقديم والمفعم بالمساواة الذي ينشدانه.

بعد أن عاش الرجال والنساء منفصلين على مدى آلاف مؤلفة من السنين، جرّب شعب الأبابا، بوجل كبير، العيش بقبيلتين معاً، أو زوجان يعيشان ضمن أسرة. كان لا بد من الحفاظ على حرية كل منهما، حسب رأَيهم. هذا في المقام الأول. ولذا فقد صمموا مسكناً شبيهاً بمسكن الطير.

انجرفت أفكارسويلو، مستمتعاً بإحساس هطول رذاذ الماء المتناوب على أعضائه التناسلية. كما لو أن مئات من أسماك المينوس تخرج من نهر

وتنهش جلده. يستمتع بقربه من كارلوتا؛ مع أنها، بسبب البخار الصاعد، لم تكن سوى هالة ضباب على طرف الحوض.

يقهقه سويلو.

ما الأمر؟ تسأله.

حين رأيت أرفيدا للمرة الأولى، يقول سويلو، انتابتني دهشة كبيرة، بصراحة شعرت بوهن في ركبتَي. لكن شعوري هذا لا يقارن بردة فعل فاني حين أخبرتها عمن رأيت.

حقّاً؟ تقول كارلوتا. لا عائلة لها لتشعر بالتأثر من زواجها بنجم كبير. أرفيدا نفسه يشبه إحدى تلك الحضارات القديمة التي يغني لها عنها: غافل تماماً عن كونه فنان عظيم. واع بشكل كبير لكونه حياً وحسب.

حسناً، فوجئت لدى معرفتي بمن هو زوجك. كنت أعلم أن زوجك موسيقاراً. لكن ما أدهش فاني أنه ليس ميتاً!

ماذا تقصد؟ تسأل كارلوتا، وهي تصارع الخمول الذي تهواه هي أيضاً.

تقع فاني، كما تعلمين، بحب الأرواح دائماً - تحديداً الأرواح ذات المائة عام. عشقت موسيقى أرفيدا منذ أن كانت في المرحلة الثانوية، لكنه لم يكن حقيقياً بالنسبة لها كشخص محسوس. أظن أنها كانت تزعم أن كل ما يحركها، كما تفعل موسيقى أرفيدا، لا بد أن يكون روحاً خالصة. أو شخص متوفي. خطر لسويلو وهو يتكلم أن سر وقوع فاني بهوى الأرواح بدلاً من الأحياء ربما يكون مرده لأنهم الوحيدين الذين يمكنها الاطمئنان إليهم. علاوة على أنه بالإمكان استدعاء الأرواح ولن ترفض طلبك على الأرجح، أما الأحياء فيرفضون وغالباً ما لا يلبون استدعاءك لهم.

دعينا نفكر في الأمر، يقول، كنا نمارس الحب عادة على وقع موسيقى أرفيدا. الموسيقى الوحيدة التي استطاعت فاني أن تمارس الحب معها. أية موسيقى أخرى كانت تحاصرها، كما تقول. كانت تعزف عادة مقطوعة *النشوة هي الشمس* وتعيدها مراراً وتكراراً. جعلت من ممارستنا للحب حالة أشبه بالتحليق، كما تصفها.

يضحك سويلو.

أجل، كنت أسألها، وهل أنا على نفس الطائرة؟ لم يقل لها ما كانت فاني ترد أحياناً. هل أجيبك بصراحة يا سويلو؟ تسأله بجدية، وتتابع، في الحقيقة، لا.

تبتسم كارلوتا. تفكر في سبب صعوبة تعلم لغة ممارسة الحب؟ السبب الذي يجعل الجسد كثيراً ما يخرس اللحم؟ لماذا يختار العقل الشرود بعيداً في اللحظة التي تكون فيها الكلمة التي انتظرها المرء طوال حياته على وشك أن تقال؟ وتتنهد.

اعتقدنا أن والدتي توفيت، تقول بهدوء، وهي تمرر يدها في الماء. بزغ القمر، وأصبح وجه سويلو شديد الوضوح لها. بعد أن أصبح يحلق حاجبيه ويشذبهما ليجعلهما أصغر، كما أخبرها. هذا أحد الأسباب التي جعلت وجهه مختلفاً. هو أيضاً صار يضع عدسات لاصقة. لقد سئمت من مظهري كالبومة، كما قال. سئمت من نقر فاني على رأسي قائلة مَن؟ مَننن؟

لا يعرف سويلو شيئاً بشأن والدة كارلوتا، ولسبب ما انقبضت أحشاؤه عند أول إشارة عنها. أخذ رشفة ماء من كأس على طرف الحوض. برقت والدته مارسيا في خياله. كأنها تجسدت على بوابة ذاكرته. فصفق الباب مغلقاً إياه. لا، لم يصفقه؛ هذا ما كان يفعله دائماً فيما مضى. أما الآن فقد استرق النظر إلى وجهها من خلف يديه ثم وارب الباب *بلطف* وأغلقه.

لقد ظننا، تقول كارلوتا، وهي تخرج من الحوض، أنها قتلت على يد الثوار المضادين في غواتوزوكان، حيث ترعرعت. مضت إلى الدوش ورشت جسدها بالماء البارد. هرعت بعدها إلى داخل المنزل. ظهرت بعد بضعِ دقائق وفي يدها غلاف ألبوم موسيقي. كانت قد وضعت الألبوم في ستيريو في الداخل، وللحال صدح صوت الأجراس والشمسيات، وأنغام الفلوت، وصيحات الطيور لتملأ الأجواء، إنما بشكل عذب وهادئ. كأنهما وسط أحراج خضراء كثيفة. سويلو مستلقياً بمحاذاة الحوض وتسلمه الغلاف.

والدتي، زيدي، تقول.

تغطي صورة متهتكة لشابة بملامح هلعة مع طفلتها الجانب الأمامي من غلاف الألبوم المعنون بـ Escuchen *(أنصت)*. وعلى الجانب الآخر، الصورة نفسها وقد أحاطت بها صورة أخرى لكارلوتا وأرفيدا والأولاد مجتمعين، على شكل صورة عائلية.

تقدمت الموسيقى الرقيقة بأنغام منتحبة وضاحكة.

حمل سويلو غلاف الألبوم وقربه من ضوء شمعة يخفق داخل قوقعة محارة عند مرفقه. يقرأ حكاية الرجوع إلى بلاد والدة كارلوتا، برفقة أرفيدا. ثمة تنويه إلى عمل زيدي مع شركة أفلام نورث أميركا. سرد لبحث زيدي عن والدتها. يقرأ سويلو عن حادثة مقتلها: وقعت في كمين نصبه الثوار المضادين في الجبال المؤدية إلى غواتوزوكان.

كانت والدتي وأرفيدا متحابان، تقول كارلوتا ببساطة. وقد تعلمت الكثير نتيجة علاقتهما. أمور ما كانت والدتي قادرة على البوح بها لي من تلقاء نفسها. أمور ترتبط، بمعنى أو بآخر، ارتباطاً وثيقاً بعارها.

عرفنا حزناً طويلاً وقاسياً على فقدانها أنا وأرفيدا، تقول. طلبت منه أن يكرر أمامي المرة تلو الأخرى كل كلمة تفوهت بها إليه. حتى أنني طلبت منه أن يخبرني كيف تتكلم أمي لغة الحب. اعتقدَ أن معرفتي لهذه الأمور سوف يفضي إلى نهايتي؛ لكنه لم يحدث. بل بدأت أرى زيدي كامرأة، كإنسان وكينونة. امرأة مقدسة. وبدأت أحبها أكثر مما أحببتها يوماً.

تأثر سويلو. يشعر أنه يغوص مع كارلوتا في حميمية لم يعرفها قط، حتى مع فاني. ظل صامتاً، وهو ينزل مجدداً في الحوض - ما عدا أن نزوله هذه المرة كان كالعمادة، غطس عمدا إلى قاع الحوض، وأبقى على رأسه عدة دقائق تحت الماء الدافئ.

كارلوتا أيضاً عادت إلى الحوض، كان جسدها النحيل وضامر الثديين واهياً كالزهرة، يفكر سويلو. أشواك شعرها القصير المبللة كبتلات فائقة الفتنة.

ما عدت تبدين كامرأة أبداً، يقول، بشكل متهور. مستغرباً من قوله هذا، خائفاً بعد أن نطق به.

تضحك كارلوتا وحسب. بطبيعة الحال، تقول، هكذا هو مظهر المرأة.

تابعت كلامها على كل حال، جزء واحد من الحكاية - تضحك - هو الذي قرع جرساً في داخلي. ألا وهو حكاية جدتي، زيدي العجوز، التي ابتدعت الأردية المزدانة بالريش التي يرتديها الرهبان؛ تلك المرأة التي علمت والدتي صناعة الأزياء الجميلة من الريش. كانت فنانة عظيمة، وكانت تعلق شميسة صغيرة على الجانب الخارجي من باب كوخها. كانت تنقر عليها، وترهف سمعها قريبة منها، وإذا ما توافق الصوت مع تناغمات روحها في تلك اللحظة، سوف تومئ برأسها استحساناً، وتبدأ الإبداع - هذا ما قالته زيدي لأرفيدا حسبما أخبرني -. اتكأت كارلوتا إلى الوراء على طرف الحوض.

هكذا أصبحتُ، تقول، عازفة شميسة إيقاعية.

شعر سويلو بطرقات مارسيا الخجولة على الباب. أخذت تطرق الباب عدة مرات. إنه يخشى أن يكون والده خلفها. فيتظاهر بعدم سماعه لطرقات يدها على الباب.

لم تمت، تقول كارلوتا بنبرة انتصارية. حتى والدتها على قيد الحياة. لقد هربتا من الثوار المضادين وتعيشان الآن في المكسيك. تزوجت والدتي من شامان[1]. وأصبحت جدتي شاماناً.

نهاية سعيدة! هتف سويلو، وهو يطوقها بذراعيه.

***

توفيت والدتي، يقول سويلو لكارلوتا. كأنه أقرّ أخيراً بهذه الحقيقة أمام نفسه. ها هو يرى مارسيا تقترب ثانية من الباب باستحياء. تتوقف وترهف سمعها، ويدها مرفوعة لتطرق الباب. تعتريها دهشة هائلة لدى سماعه

1 - shaman: كاهن ساحر - المترجم

يتحدث معها! أدخلي ماما، يقول. إلا أنها تقف متسمرة وقبضة يدها عالقة في الهواء. ثم تلتفت إلى الوراء، تماماً كما كان يخشى.

قتلت... مع والدي، في شيء يدعى حادث تحطم سيارة. كان ذلك فعيا، يقول سويلو، تدمير شعب بأكمله. كانا يستقلان السيارة في الطريق، والدي هو من كان يتولى القيادة بسرعة كبيرة. لسبب غير معروف، كما وصفه العديد فيما بعد، جنحت السيارة عن الطريق واصطدمت بالساتر بسرعة تسعين ميلاً في الساعة، فلقيا مصرعهما على الفور.

تتناهيسويلو كلمات الآنسة ليزي في الشريط. تذكر آخر مرة وقفت فيها أمامهما، قالت.

سيحاول.

كان يستقل الحافلة في طريقه إلى المنزل قادماً من الجامعة، على بعد ساعة، واصطحبه أحد الأقارب بالسيارة إلى دار الجنازات. كانت جثتا أبويه في نفس الغرفة، كما في لحظة إدخالهما إليها. على جبين كل منهما كدمات وانتباجات سوداء وأرجوانية اللون، وجروح عميقة نتيجة الاصطدام بالبلور الأمامي للسيارة. تعرضت والدته للارتطام بالزجاج بشكل كامل؛ أما والده فقد أعاق المقود، الذي هشم قفصه الصدري، اندفاع جسده. كانا يرتديان ملابس الكنيسة. ارتدت والدته ثوباً باللونين الأحمر والأبيض، مزركش بالأزهار كان يروق لسويلو دائماً إذ تبدو فيه كالبنات، ورباط خفها بلون أخضر ليموني. كان والده مرتدياً طقمه الأزرق الداكن الوحيد.

عاش والداي حياة مزرية جدّاً، يقول سويلو، لدرجة لم أكن قادراً على التفكير فيها. يشعر بـشاكرا الطاقة تتفتح في أسفل عموده الفقري. طاقة تبدأ بالانتشار، كراية صغيرة أو أفعى هاجعة. تطرق والدته على الباب بإصرار أكبر. ينتبه أن العجوز الذي يمقته واقف خلفها، أجل بالفعل إنه السيد لويس. يقف سويلو عند الجانب الداخلي للعتبة ويستند على الباب. يداه عاجزتان عن الحركة.

تشق مارسيا طريقها وتدخل.

راح الجميع يصفون لي تفاصيل مصرعهما، يقول سويلو. جميع الجيران والأصدقاء والحاضرين في دار الجنازات. قال شرطي الولاية الذي كان أول الواصلين إلى موقع الحادث أن والدي كان ثملاً، ومسرعاً. عرفت أن هذا صحيح بلا شك. لقد رأيته عشرات المرات يقود السيارة بسرعة وهو ثمل، منذ أن كنت ولداً صغيراً. كانت والدتي ترجوه قائلة، خفف السرعة، يجب عليك تخفيف السرعة. أحياناً يخفف السرعة وأحياًنا لا يفعل، تبعاً للشياطين التي تهمس في أذنه.

لم أستوعب حقيقة ما جرى إلا بعد مغادرة الجميع وبقيت لوحدي مع الجثتين. اقتربت إلى حيث كان جسديهما ونظرت في وجهيهما. لقد علت الطمأنينة وجه أبي أخيراً. وهذا ما خفف من مصابي حقيقة. أما *وجهها* فقد تجمد على تكشيرة هي صورة متضخمة عن سحنة قنوطها الدائم. حتى أسنانها مكشوفة، كأنها تشد على نفسها في الولادة. لقد صدمني أن أفكر أن هذه الهيئة هي حقيقتها. رفعت الشرشف، ورأيت يديها....

يبدأ سويلو بالبكاء. يشعر بذراعي كارلوتا تضمانه، بقبلاتها ترشف الدمع عن وجنتيه. يبكي طويلاً. لكن مارسيا أصبحت الآن في الداخل وتقف بجواره، أما السيد لويس فلا يزال على المدخل.

تهشمت جميع أظافرها؛ أطراف أصابعها مدماة، يقول. أدركت لحظتها ما جرى، وسبب موتهما. كانت والدتي تحاول الخروج من السيارة.

ينهار تماماً. خرج كالأعمى، إذ لم يكن يرغب بسيلان مخاطه في الحوض، تلحق به كارلوتا، وتلف منشفة بيضاء كبيرة على جسده وأخرى على جسدها.

شاهدت حالة القنوط تلك على وجه والدتي طوال حياتي. لم أكن أفهم دواَعيها أبداً. خاض والدي، كما تعلمين، الحرب العالمية الثانية وخسر فيها نصف ذراع وعقله بالكامل. لكنه ظل رجلاً عسكرياً محارباً. كان يضغط علي للتطوع حتى بعدما غادرت المنزل والتحقت بالجامعة. خلال دراستي الجامعية وحرب فيتنام على أشدها، رفضت طلب التطوع. كنت على يقين

من أن تعفني في السجن أفضل من أن يحدث لي ما جرى له. لقد أبى استيعاب هذا. لا أظن أنه كف يوماً عن إكالة اللعنات علي جراء موقفي هذا. ما كنت قادراً أن أستوعب مبرر رغبته بإرسالي كي أتعرض للتشويه أو القتل. هل يكرهني إلى ذلك الحد؟ يلف سويلو نفسه بالمنشفة بإحكام أكثر، وهو يشعر أن جسده المتقد أخذ يفقد حرارته.

انقطع الكلام بيننا. كرهت والدتي لأنها بقيت معه. لكنها كانت محتجزة كعصفور في قفص. ما عاد الرجل الذي تزوجته، وإنما نموذج رجل وطني ممسوس ومجروح. لا يصحو من سكره إلا قليلاً. متعسف دائماً. أمسك بوالدتي، بذراعه السليمة التي بقيت له، يقول سويلو بطريقة قاطعة، فيما كانت تصارع للخروج من السيارة المسرعة.

استطاع الآن بالفعل سماع صوت مارسيا تقول، إن كنت تريد القيادة بهذه الطريقة الجنونية، دعني فقط أخرج منها أنا و*لويس جي آر*. يتذكر أن والده مد يده أمامها، ثم إلى الخلف حيث يجلس سويلو، يقفل أبواب السيارة، ويشتمهما، ويزيد من سرعتها أكثر.

كيف كظم رعباً كبيراً كهذا؟ يتساءل سويلو شاعراً أنه يتخفف منه. رعبا حاضراً طيلة تلك السنوات وفي كل مرة يركب معه السيارة. حين كان صغيراً، وبعد أن كبر قليلاً. لماذا ركب ووالدته السيارة أصلاً؟هذا ما لا يزال عاجزاً عن فهمه. لكنه على الأقل تفهم عزم والدته على الخروج منها في آخر المطاف.

لم يكن والده الواقف على الباب عجوزاً وثملاً، إنما شاب ووسيم. لديه ذراعان. اسمي أيضاً كان سويلو ذات مرة، يقول بنبرة عميقة قلقة فارداً ذراعيه. يشعر سويلو فجأة بإعياء شديد أقعده عن مواصلة حراسة بوابة قلبه. ها هي تتأرجح وتنفتح من تلقاء نفسه، فيسير والده، الذي لم يره سويلو قط والذي يدرك أنه يشبهه شبهاً كبيراً، داخلاً عبر الباب.

***

كانت فاني وأرفيدا عاريان. تركا نسائم الليل تجفف جسديهما بعد خروجهما من حوض الدوش الحار. ضمخت فاني جسدها بسرعة بزيت اللوز الخفيف، حتى بين ساقيها وأصابع قدميها، ثم انحنت في هذه الأثناء على أرفيدا، الذي كان منبطحاً على بطنه فوق حصيرة التدليك الفوتون. قررا مغادرة غرفة الساونا واتجها إلى حجيرة داخلية هادئة بجانبها لا تحوي على الكثير عدا حصيرة التدليك، ورف متخم بعبوات زيوت التدليك، وأكداس من مناديل التنظيف البيضاء، ومجموعة من الأحذية مصنوعة من الخيوط ونعلها من القش في ركن قرب باب الساونا.

تضع يديها الحارتين أولا على ظهره؛ إحداهما بين لوحي كتفيه تماماً، والأخرى على خصره. أبقت على يديها ثابتتين في مكانهما وهي تستلهم توجيه هذا العمل التي هي مقدمة على تأديته لأرفيدا في سبيل شفائه. شعرت بضرورة استشعاره الإرشادات. روح أرفيدا، جنباً إلى جنب مع إرشاداتها. أخذت تضغط أسفل ظهره بلطف وتؤرجح جسده بخفة من خلال ضغط يديها المتناوب. مددت له جسده بعد ذلك وبدأت بعجن ظهره ورقبته وكتفيه.

فاني صبورة، مستفيضة ومتأنية جدّاً. تنصت إلى جسد أرفيدا وهي تدلكه. تجوس أصابعها حيثما وجد أدنى وجع، تتلقف أناته وتشد عضلاته نحو الأسفل. ذهل أرفيدا. بدا أن كل ما في جسده من ألم تواق للتجلي أمام لفاني التي لم تنقطع عن الضغط في أنحاء جسده لدرجة جعلته يصرخ ألما، ألم جسده الذي كان يبدو على أحسن حال قبل أن تلمسه. بعد أن فككت التوتر في تلك المواضع - التوتر الذي كان غافلاً عنه - بدأ يشعر مجدداً بتدفق الطاقة الحر في خلايا جسده. لقد نسي تقريباً شعور تشي[1] الرحب.

جو الغرفة دافئ، ولا شيء سوى ضوء القمر يتغلغل عبر زجاج النافذة الصغيرة، وخفقات الشمعة على الأرض.

هبط أرفيدا مباشرة تقريباً إلى المستوى التالي، مستوى حسي للوعي، متيقناً من أن لمسات فاني، التي لا تفارق جسده، سوف تحمله إلى الأمان.

---

1 - chi: طاقة الروح التي تميز الجثة عن الجسد الحي - المترجم

جعله دفء الغرفة يسرح بعقله إلى المكسيك، حيث يسافر وكارلوتا برفقة الولدين في شهر كانون الثاني من كل عام لزيارة زيدي. يستحضر شعوره وهو مستلقٍ على الرمل الساخن في قرية ييلابا الصغيرة، حيث يجتمعون جميعاً، عشيرتهم في العصر الحديث، وكيف أنه وأنجليتا وسيدريكو يدهنون بالزيت على كل منهم الآخر فيما النسوة الثلاث - كارلوتا والاثنتان زيدي - يمشين بهدوء، وأذرعهن حول كل منهن الأخرى بطلاقة، جيئة وذهاباً على طول الشاطئ الهلالي الشكل. يتحدثن بلا انقطاع ويستمعن إلى بعضهن البعض باستفاضة عميقة، كأن سحر العوالم بأسرها معلقة في كلماتهن. وكن هن الثلاث في غاية الجمال. زيدي العجوز، الربة الأم، سمراء محنية الظهر، بشعرها الأشيب الرمادي الطويل وقد ربطته إلى الخلف بعيداً عن وجهها بشريطة قرمزية اللون؛ تقبل زيدي الصغرى، المفعمة بالحيوية والمرح، والروح المشرقة حتى النهاية، كارلوتا مراراً وتكراراً؛ وكارلوتا، الأجمل من بينهن بشعرها القصير ولباسها البكيني الشريطي تركل الهواء من حين لآخر بساقيها النحيلتين ركلات قوية، كأنها لعوب في فيلم لشارلي شابلن.

أرفيدا راقد فوق حصيرة التدليك لكنه أحس فعلياً بأنه مستلق على الرمل. يراقب النسوة الثلاث ويفكر بالمعاناة التي كابدتها كل منهن. يفكر بالألم الذي عرفه هو نفسه، وبأسبابه... يبدو قلبه، الممتلئ في أغلب الأوقات، طافحاً بمزيج غريب من مشاعره المتضاربة. تتفتق مخيلته عن كلمات لبداية، أو وسط، أو نهاية، أغنية جديدة: أوليس هذا الكرب بجزء من السعادة؟

تضرب فاني على جسده على إيقاع إحدى أغانيه الشعبية التي تعزف على الغيتار والفلوت، من ألبوم صدر منذ خمسة عشر عاماً بعنوان ***حجرة النشوة***. تتردد الموسيقى في عقلها، النشوة هي البحر، وتتخيل يداها أمواج المحيط المتلاطمة في قاعه، وكثبان الشاطئ الرملية والأصداف البحرية المتناهية في الصغر.

بشيء من عدم التصديق، تفكر أيضاً أن إحدى الأرواح التي أحبتها

حباً كبيراً هي في هذه اللحظة تحتها، ويدها تطوق عنقه بأكمله. مضت في عملها رويداً رويداً على جسد أرفيدا، تتأمل بإعجاب جمال بشرته السمراء الوافر؛ ناعمة وملتمعة بفعل الزيت. راحت تضغط نقاطاً معينة في فروة رأسه مما جعله يتلوى، ثم نزلت إلى فخذيه وساقيه غزيرتا الشعر. تأخذ وقتها على قدميه فتمرر أصابعها بين أصابع قدميه، وتضغط ببراجمها على انحناءات وتكويرات قدميه. تأوه أرفيدا بمزيج من الألم واللذة.

لقد سلم نفسه لفاني، كما لو أن ذاته بكاملها تسترخي بين ذراعيها. يشعر أنها تمتلك في صميمها شيئاً خاصاً، شفاه تلقائياً وأعاد وصله مع ذاته. شعر به حتى من قبل أن تقبله قبلة متهورة خلال التدليك. تخيل أنه يمارس الحب معها عندما شعر بيديها تصعدان على باطن فخذيه. تخيل أنه إذا ما توحّد بها في ممارسة الحب لسوف يشعر حرفياً أنه ظفر بالخلود.

يهمهم بتنهيدة سرية عميقة جراء هذه الفكرة.

تفكر فاني بدأبها على الوقوع في حب أناس لن تقابلهم والذي رافقها طيلة حياتها. أهي الطريقة التي يخلق بها البشر الآلهة، ساءلت نفسها. تفكر أنها ظلت تسير على الدوام (أوه، منذ مائة إلى ألف سنة خلت) مباشرة خلف من شعرت أنها تحبهم، وأنها كانت تحرص حرصاً شديداً على أن تكون ظهورهم لها.

ما الذي كان يمكن أن تفعله لو استدار أحدهم والتفت نحوها؟

تشعر فاني برجفة خفيفة في أحشائها، تشعر بالجزع للحظة كأنها على وشك مواجهة ذاتها وجها لوجه.

أخذت نفساً عميقاً. لحسن الحظ، يبدو لها أن هذه الروح بعينها قد استسلمت للنوم. تضربه بلطف، على مؤخرة عنقه. حان الوقت لتستدير، تهمِس له.

بيد أن أرفيدا لم يكن نائماً. لا بل أبعد ما يكون عن النوم. يفكر بفاني وقبلتها. بألم لمساتها ولذتها، والتي يبدو أنها تعثر بمنتهى السهولة على العقد المدفونة في داخله. لسوف تتكشف لها حصيلة أفكاره إذا ما استدار.

تنتظر فاني بصبر جاثية على ركبتيها بجوار الحصيرة. تتساءل فيما يستدير

على ظهره، هل هذه هي الروح التي تتعقبها؟ تتساءل صادقة، كأن أرفيدا روح حقيقية قد يختفي ببساطة من خلال التلاشي في الأرضية الخشبية الصلبة.

شعرت فاني بإثارة شديدة وهي تتأمل ظهر أرفيدا الناعم والأعزل، عنقه المتواضع ويداه الجميلتان، منحتها أطراف أصابعه الرشيقة رعشة هائلة على الفور لدى تخيلها وهي تداعب آلاته الموسيقية.

أدارت الروح نفسها مع تنهيدة إذعان جريء. شعر بالإحراج، وأخذ ينظر أسفل جسده. يتأوه قائلاً، أخشى أنك أوقدتِ شمعة صغيرة.

تمسك فاني، لدى رؤيتها انتصابه وبحماس تشوبه الفكاهة، شمعة أرفيدا في يدها الدافئة على الفور.

حين جلست عليه، شعرت بمدى تناسبه مع جسدها بشكل مريح، كأنه عثر على موضعه الأصلي. ثم نظرت في وجه أرفيدا، وفي عينيه المفعمتان بالإنسانية. مغرورقتان بالدمع كما عينيها. يبدآن بالحركة الجنسية، يستديران معا ويستلقيان متقابلين، يضم كل منهما الآخر بشكل متعادل. كانا يبكيان أثناء القبل.

تشعر فاني كأن وهج شمعة تدفئ ولا تحرق أبداً قد أذابها، تتقطر سوائلها على جسد أرفيدا.

يشعر أرفيدا كأنه يندفع لملاقاة جميع أسلافه وهم يرحبون بسرور.

أذهلتهما السرعة - مثل قبلة طويلة - التي بلغا فيها الرعشة معاً.

تتهيب سؤاله ما يتوجب عليها أن تفعل. تقول بحياء: هل رأيت أنت أيضاً شجرة البرقوق الصفراء وعلى أغصانها جميع الكائنات الصغيرة حتى الأسماك؟ هل رأيت وشعرت بالمحيط والشمس؟

أجابها أرفيدا بهدوء، أجل. والقمر سابح في السماء فوق المحيط، أزهار الليلك، وسلاسل الجبال وجميع ألوان الوديان. لكن أجملها، قال وهو يقبلها، هي شجرة البرقوق وكل ما عليها من بشر ومخلوقات، دفء أنفاسك ومذاق شفتيك كمذاق حبات البرقوق الصفراء الحلوة.

يستلقيان متعانقين في ذهول تام.

رو...حي، تقول فاني، في النهاية، ووجها على صدره.

جسـ...دي، يقول أرفيدا، وشفتاه على شعرها.

* * *

قبل سنوات، راود سويلو حلم متكرر. عادة ما ينسى أحلامه، بيد أن هذا الحلم لم يفارقه. كان حلماً وجيزاً. يرى فيه نفسه جالساً بجوار سرير رجل عجوز، ويتبادلان الكثير من الأخبار، رغم أنه لم يكن يبدو على أي منهما أنه يتكلم. لا، ليس تبادلاً للخبرات، إذ حتى في الحلم ما كان لدى سويلو الكثير ليقوله. كان موجوداً فقط كي يستمع إلى صوت خبرة الشيوخ، كيما يستفيد منها في حياته الراهنة المزرية.

يتذكر سويلو حلمه أثناء صعوده لدرج دار ماري ماك ليود بيثون للعجزة الذي يقع في شارع تحده الأشجار على جانبيه في ضواحي بالتيمور. ألقى تحية الصباح على العجائز المجتمعين في كراس هزازة وحول طاولات الداما الصينية على الشرفة. ها قد اجتمع البيض والسود ***في نهاية المطاف***، يفكر سويلو. أصبحوا كباراً لدرجة أن اللون ما عاد بذي أهمية وهم يتنقلون للجلوس على الطاولات، أو في كراسيهم الهزازة أو ببساطة إلى مواضع تحت ضوء الشمس. كذلك يبدو أن سمع معظمهم ضعيف. تتمشى الممرضة بينهم غادية وذاهبة، تقوم بتوجيه عيون معتمة وأقدام متعثرة في هذا الاتجاه أو ذاك، وتتلو عليهم تعليمات مرحة بصوتها الأجش المتفائل.

تحرك إلى هنا قليلاً بعد، القليل بعد وحسب. يمكنك هذا يا سيد بيتي!

يقف العجوز متسمراً في مكانه، يبدو عليه التساؤل عن مصدر الصوت.

هل تحتاج إلى الووكر؟ تسأله الممرضة.

يغمغم السيد بيتي بكلام غير مفهوم.

يدخل سويلو من الباب.

حتى في الداخل شعر بالصدمة من الاندماج الشامل فيما بينهم، ليس اندماج المرضى وحسب وإنما طاقم العمل أيضاً. على طاولة المكتب

الأمامية ثمة ثلاث نساء، اثنتان سوداوان والثالثة بيضاء؛ يثرثرن بطريقة مرحة عن حفلة موسيقية قد حضرنها في عطلة نهاية الأسبوع، ومن الواضح أنهن استمتعن بها.

أرشدوه إلى الاتجاه دون الالتفات له مكانه في...تابع طريقك، إنه في نهاية... إحدى القاعات المتفرعة عن بهو الاستقبال. رائحة ملفوف خفيفة تعم المكان.

لدى بلوغه مكان السيد هول والآنسة روز، يتعرف سويلو عليه من قبل أن يراهما. على النقيض من الجدران العارية لبقية دار العجزة، يعج الجدار خلف سريريهما باللوحات. سرعان ما يلاحظ أن ثمة أيضاً جهاز تلفزيون، معلق من السقف فوق سرير السيد هول، كأنه تهديد.

انتظر السيد هول والآنسة روز زيارة سويلو. لا يرانه وهو يقف على طرف مهجعهما ناظراً إليهما. كانا ينتظران زيارته بذلك التعبير المتأهب للأطفال في عيادة الطبيب. تنتشر على جانبي القاعة أسرّة ومهاجع أخرى. عجائز راقدين في أسرتهم أو جالسين على الكراسي قربها، يتكلمون تارةً وطوراً أنظارهم شاخصة في الفراغات ويتابعون التلفزيون فقط.

كانا متألقان بالنظافة، وقد رتبا مساحتهما الصغيرة التي تحوي سريرين توأمين ومنضدتين وكرسيين ترتيباً دقيقاً. عدل سرير السيد هول كي يجلس عليه باستقامة، وجلست الآنسة روز تحيك بالإبرة على كرسي بجواره. لم يلتق سويلو بالآنسة روز سوى بضع مرات فقط، حين كانت تمر بمنزل العم رافي حاملة له الطعام. كانت في حينها على الدوام برفقة الآنسة ليزي.

عجوز تبدو أشبه بفطيرة، أو بتفاحة ذابلة حقيقة بعينيها الصغيرتين الغائرتين وشعرها الأبيض الخفيف. تلاحظ أخيراً وجود سويلو فترفع نفسها عن الكرسي بتؤدة مع آهة ناعمة. غريب أن يشعر سويلو الآن أنه تناول كمية كبيرة من طبخها ومع ذلك لم يكن يعرف عنها سوى القليل جدّاً.

سار نحوهما وهو يبتسم. أحضر لهما نبتة وضعتها الآنسة روز على المنضدة، وقد أبدت عيناها الضيقتان وضعيفتا البصر أعجابهما بها. عانقها سويلو، وشعر بجسدها الضعيف، وعظامها الطرية، والتقوس الحاد في

عمودها الفقري الذي جعل قامتها قصيرة ومحدودبة. لكنها لا زالت قادرة على العناق القوي. شعر أنها تهصره تماماً.

التفت بعدها باتجاه السرير الذي يتمدد عليه السيد هول مبتسماً ابتسامة الصبر الجميل على العمى على ما يبدو. جلس سويلو على السرير ومال نحوه بحذر شديد؛ غمر السيد هول بذراعيه بحركة هادئة في منتهى الحذر.

اضطررنا للزواج! تقول الآنسة روز، وهي تقدم الشاي لسويلو. ونحن في هذه السن!

ولماذا؟ يسأل سويلو.

هو السبيل الوحيد الذي يمكننا من خلاله العيش سوية في هذا المنزل.

لا يريدون ممن يقيمون هنا ارتكاب الخطايا، قال السيد هول هازئاً.

كما تعلم، سبقني هول إلى هذه الدار، تقول الآنسة روز، التي سحبت لنفسها كرسياً إلى جوار كرسي سويلو تماماً وأصبح كلاهما مواجه الهول. من بين جميع أعضائه الأخرى التي لم تعد تعمل بشكل جيد، انطفأ نور عينيه تماماً.

إنها الحقيقة، يقول السيد هول. توقفت عن الرسم بعد وفاة ليزي. بسبب عجزي وحسب. بدا الأمر وكأن ستارة قد أسدلت، هذا ما فهمته فيما بعد.

بدأت أزوره كي أتفقد حاله، قالت الآنسة روز، فيما سويلو يحتسي الشاي. كنت أحضر له المأكولات اللذيذة. نجلس هنا ونؤنس بعضنا. نتكلم عن الطقس؛ عن معشر البيض وقدرتهم التدميرية، وعن السود وحماقتهم. نتكلم عن ليزي طوال الوقت. إننا بالتأكيد مشتاقان لها.

ظلتا صديقتان على مدى – ما هي المدة يا روزي؟ – ستون عاماً.

لا، ليست بهذا الطول، تقول الآنسة روز. إنما مدة كافية. أعرف أنها كانت ستتمنى أن أعتني بك.

مهلاً، يقول السيد هول، بجاذبيته الكبيرة التي لا تزال على حالها، لا تجعلي سويلو يظن أن هذا هو دافعك الوحيد.

تحمر الآنسة روز خجلاً. هي بلا شك تحمر. يضع سويلو فنجانه الفارغ ويحك ذقنه. همممم، يفكر. اعتذرت الآنسة روز وانسحبت لزيارة

صديقة لها في مكان آخر من القاعة. تتفهم أن سويلو وهول يريدان التحدث لوحدهما.

أشكرك ثانية على إرسال أشرطة الكاسيت التي تركتها لي الآنسة ليزي، يقول سويلو. وعلى الشرائح التي تصور أعمالها التي رسمتها قبل وفاتها.

حقّاً، أعمالها الأخيرة تبعث على الحيرة بالفعل، يقول السيد هول. لم أفلح في فهم رموزها وألونها. تلك الشجرة الضخمة وعلى أغصانها السود وجميع المخلوقات ذات المظاهر المضحكة، والأفاعي وكل شيء... لا بل وعليها أحد الرفاق البيض. إضافة إلى الأسود....

يتوقف السيد هول ليلتقط أنفاسه.

سيد هول، همس سويلو بصوت منخفض، كانت الآنسة ليزي تصور نفسها في آخر لوحاتها.

بالتأكيد كانت تفعل هذا، يقول السيد هول ضاحكاً إلى حد ما. لا تنس عدد التحولات التي شهدتُ مرور ليزي فيها. لكنني لم أر إشارة لها في أي من اللوحات. يتوقف قليلاً عن الكلام. ليس فيها ولو غصن فيربينا واحد أو قصبة ذرة من فناء منزلنا... بدا أنه يشعر بشيء من المرارة. كما لو أن الآنسة ليزي حلقت بمعزل عنه في لوحاتها الأخيرة. تركته وحيداً في المنزل الصغير المفعم بأزهار نجمة الصباح حتى من قبلِ مفارقتها الحياة. وهو ما لم تكن قد فعلته يوماً. السيد هول مجنون بها تماماً.

فشلت في تبيان أي معنى في اللوحات، قال بصوت جاف.

يدرك سويلو في هذه اللحظة أحد مبررات ولادته؛ إحدى مهماته هي المساعدة على الخلق في هذه الحياة. يدرك أيضاً أنه بحاجة لسلطة أقوى من سلطته كي يقنع السيد هول بالنظر إلى علاقته بالآنسة ليزي بشكل مختلف. قلب السيد هول مجروح، وبالتالي عقله موصد.

يخرج سويلو المسجلة من جيبه، والتي بات يحملها معه كلما كان ثمة احتمال لمقابلة كبار السن. كان شريط تسجيل الآنسة ليزي في الجهاز. كل ما عليه القيام به هو وضع السماعات على أذني السيد هول وتشغيل الآلة.

توجس السيد هول في البداية وأظهر تبرما بسبب الأسلاك. قام سويلو أكثر من مرة بتعديل وتحريك الجهاز إلى أن ارتاح السيد هول في الاستماع. استكان السيد هول لدى سماعه صوت الآنسة ليزي.

جلسا معا، رجل في منتصف العمر وآخر طاعن في السن، وفيما كان الشريط يدور، تفرس كل منهما في وجه الآخر من حين لآخر، وأحياناً لم ينظرا إلى بعضهما. أحس سويلو بشعور مميز نتيجة نور الشمس الذي دخل عبر النافذة وأضاء السرير، وعلى النبتة الصغيرة التي أحضرها كأنه ابتهال. نهض وسار في القاعة، ثم عاد حاملاً كأساً من الماء روى النبتة به. توقف وراح يراقب كيف يغور الماء في التراب. قولي: آح، يا للروعة، يهمس للنبتة الصغيرة. ويتخيل أنها تفعل هذا.

بعد نصف ساعة، وبعد أن قلب الشريط للسيد هول، سمع سويلو صوت *خطوات بطيئة، خطوات* أقدام مسنة ومترددة تدخل الغرفة بين صفي الأسرة. بعد لحظات، مط السيد بيتي العجوز، الذي رآه مسبقاً على الشرفة الأمامية، رقبته الحمراء المشعرة إلى داخل مهجع السيد هول. وسأل بصوت نشاز مذعور وهائج، أين هول[1]؟ كان ينظر صوب هول مباشرةً، إنما بسبب استغراق هول في الاستماع، والأدهى إغماضه لعينيه، لم يتمكن العجوز من رؤيته. هذا ما بدا لسويلو على الأقل، الذي كان مستمتعاً بالحالة.

ظهرت الآنسة روز من حيث لا يدري أحد فسحبت السيد بيتي وأبعدته. نهض سويلو عن كرسيه وسار على رؤوس أصابعه في الممشى في إثرهما. السيد بيتي واحد من أولئك البيض المسنين طوال القامة ذوي العيون الزرقاء والعظام الثخينة الذين يبدو عليهم وكأنهم عاشوا حياتهم بجريمة كاملة. استند بوزنه على كتف الآنسة روز، وهي تثرثر قائلة له. هول مشغول جدّاً الآن.

ماذا تقولين؟ يقول بيتي العجوز.

لديه رفقة! تصرخ في أذنه.

ماذا لديه؟ يقول. ليس لديه برد، أليس كذلك؟

---

1 – whar's Hol: يلفظها بشكل خاطئ – المترجم

لا، تصيح قائلة، *رفقة*.

ماذا لديه؟

تقول الآنسة روز، لديه كو كولا[1] وقد طلب مني إعطاءها لك. ها هي - تأخذ زجاجة كولا من الآلة أمامهما وتقدمها له - هاك مشروب بارد.

يضحك سويلو ملء قلبه. يقول لنفسه، ما الذي تدعي أنك تعرفه، حتى في دار المسنين ثمة حياة!

حين عاد إلى سرير السيد هول، بعد أن تمشى في الدار وشاهد المزيد من تفاصيلِ الحياة فيها، وجد السيد هول غارقا بالدموع.

أواه، راح ينتحب وقال حين جلس سويلو قربه على السرير. أحبت رافي أكثر بكثير من حبها لي!

يأخذ سويلو يده العجوز الناعمة في يده. شعر بإغراء لتقبيلها. بحق السماء، يفكر في دخيلته. لا معنى لرجولتك إن لم تمتلك الجرأة على التقبيل ساعة ترغب فيه؟ يرفع يد السيد هول إلى شفتيه ويقبلها، كما قد يقبل إصبع طفل تعرضت للرض.

كانت تحبك حباً كبيراً، يقول. وأنت من سترجع إليه.

لم المكابرة والخداع؟ يقول السيد هول. غلطتي هي التي حرمتني من عاطفة ليزي. تقبلها رافي وسمح لها أن تكون على حقيقتها وسجيتها. أما أنا فلم أستطع.

وما أدراكما بحقيقتها؟ يقول سويلو، وقد شعر بالارتياح. هل أخبرتك يوماً؟

لا داعي أن يخبرك الناس بأدق تفاصيل حياتهم، يقول. إنك تقسو عليهم حين تطالبهم بإطلاعك على أصغر الأمور.

لا بأس، قال سويلو، وهو يشد على يده، حاولت أن تخبرك في أواخر أيامها.

أجل، يقول السيد هول. لقد حاولت. أجهش في البكاء مجدداً. أتدري

---

1 - co'cola: هكذا تلفظها الآنسة روز - المترجم

ما كانت ردة فعلي؟ سأله وأجاب نفسه. سخرتُ من عملها. وضحكتُ. نظرتُ إلى ذلك الفتى الأبيض الضئيل الذي رسمته على الشجرة وقلت، الظاهر أنك نسيتي تلوين هذا الشخص. نظرت ليزي إلي ببرود وقالت، لا، هذا لونه. بيد أنني رأيت حزناً شديداً يرتسم على وجهها. وهل استفسرتُ منها عن مبعث حزنها؟، نهائياً.

مخط السيد هول أنفه بمنديل كلينيكس سحبه من علبة فوق المنضدة.

لا بل فقد كان موقفي أسوأ بشأن الأسود. قلت لها أن مجرد التفكير بقطة بهذا الحجم يجعلني أرتعد ذعراً.

توقف عن الكلام لبعض الوقت، ثم أردف متسائلاً.

ضحكت وحسب بعد سماعها تعليقاتي. أنت تعلم مدى قدرة ليزي على الضحك أحياناً، مما يضعك في موقف تشعر فيه بنفسك أنك في منتهى الهبل، وسوف يختلط عليك الأمر ولن تعرف دوافع ضحكاتها مطلقاً بسبب طبعها المرح جدّاً.

وتفكر... غص السيد هول بكلماته. وها أنا ذا، بعيد عن منزلي في هذا المكان، وتعلمت الكثير جراء هذا البعد. لماذا، قال وهو يحاول الجلوس وتقويم جسده فيرهق عنقه، كما لو أنه ينصت إلى صوت ما، صديقي المفضل عجوز متبجح يدعى بيتي. لا بد وأنه سيأتي مجرجراً نفسه من هذه الناحية في أية لحظة. نتناول طعامنا سوية من حين لآخر.

يخبره سويلو أن بيتي جاء ثم ذهب.

عاش وغدا طيلة حياته، كما تعلم، يقول السيد هول. وحدهما الرب وأمين سجلاته يعرفان حجم ما سببه للبشر من معاناة. لكنه انتهى مرعوباً في هذا المكان. أصم وعجوز.

ومع ذلك فهو شخص ظريف، يقول سويلو.

هذا الرجل يقطع القلب، يقول السيد هول. ناهيك أنني عاجز عن رؤيته.

أوه صحيح، يقول سويلو، إنه رجل خالص البياض، ولا لبس في بياضه.

ما زلت أخشى القطط، مع ذلك. يتنهد السيد هول. لكنني عازم على حل هذا الأمر.

ينظر سويلو إلى اللوحات المثبتة على الجدار. أخبره السيد هول أن بإمكانه أخذ أياً منها أو كلها إذا شاء. ثمة عشرات منها أيضاً مكدسة على الأرض فوقع بصره على آخر لوحتين رسمتهما الآنسة ليزي بينها. اللوحة التي ظن أنها تمثل شجرة الحياة، وقد رسمت على أغصانها جميع الكائنات، بما فيها الفتى الأبيض الهزيل. الثانية عبارة عن سلسلة من خمس مقاطع رسمتها للأسود.

جلس على طرف سرير السيد هول وراح يستقرئ محتوى هاتين اللوحتَين. فيهما ألوان وافرة ونقية، شبيهتان بجمالية الحلم، وتذكرانه بروسو.

كنت أستطيع رؤية ليزي دائماً، يقول السيد هول بصوت مضطرب وابتسامة محتشمة، مادا يده ليأخذ إحدى اللوحتين من يد سويلو.

شعر سويلو ببارقة إلهام لحظة سلم اللوحة للسيد هول. هل فرويد هو من قال إننا لا نرى ما لا نرغب في رؤيته أخذ يراقب السيد هول وهو يزم عينيه كأنهما عضلات، في محاولته مشاهدة اللوحة في يده. لوحة شجرة الحياة. ألقاها على الأرض يائساً وهو يئن من الإحباط.

ومع هذا، بدأ شعور الأمل يتغلغل في سويلو. وضع اللوحة الثانية، التي تحمل صورة غضنفر ضخم، بين يدي السيد هول. لم ينتبه أنه سلمها له مقلوبة رأساً على عقب.

همممم...: يقول السيد هول، بعد بضع دقائق، ما هي هذه اللطخة المحمرة في الزاوية؟

يحرك السيد هول اللوحة مقرباً ومبعداً إياها أمام عينيه، محاولاً أن يجعل البقعة الحمراء تقع تحت الضوء القادم من النافذة من خلف رأسه.

جلس سويلو جامدا تماماً، كما يجدر بالمرء أن يفعل في حضرة المعجزات.

بدا واضحاً أن البقعة المحمرة هي كل ما استطاع السيد هول رؤيته في اللوحة. ألقى بهذه أيضاً على السرير بعبوس متجهم.

رفع سويلو اللوحة، الأثيرة لديه، وقلبها إلى الوضع الصحيح، أمعن النظر مباشرة في عيني أسد الآنسة ليزي الجسورتان على كل شيء. هو يعلم، وهي تعلم، أن السيد هول سيغدو قادراً على رؤية كل ما فيها ذات يوم، ولهذا ينبغي عليها وسويلو عدم الاستعجال والانتظار وحسب، وفي غضون ذلك - إن كانت هذه من بين اللوحات التي سيحملها سويلو إلى المنزل - سوف يمضي الوقت برفقة ليزي، وهما خارج الزمن، يطيلان التفكير باللطخة الحمراء التي تعد مؤشرا على عودة بصر السيد هول الضائع. إذ تنتعل الآنسة ليزي في كفها الخلفي اليساري، المتواري تقريباً تحت ذيلها الأملس أصفر الشعر، خفاً أحمراً بكعب عال، لامعاً وأنيقاً وشديد الشبه بأحذية اللوطيين.

***

نهاية الرواية

كلمة شكر

أشكر كل من ابنتي **ريبيكاووكر**، وصديقي **روبرت ألين** على دعمهما المتفائل وموقفهما الحيادي إنجاز كتابة هذا العمل. أتوجه بالشكر ***لجون فيرون*** على تحريره لهذا الكتاب بحرفية وإتقان. لأنها كانت أولى القراء - إلى جانب **ريبيكا وروبرت** - أشكر **غلوريا ستينيم**. أشكر **كيم تشيرمين** و***رينات*** **ستيندهال** على حساسيتهما النقدية للمخطوط. أشكر وكيلة أعمالي **ويندي ويل** على المثال الملهم في جرأة شخصيتها وبرودة أعصابها لدى اقتفاءئنا لمصالحنا المشتركة. أشكر **إيستر هيرنانديز** على تصحيحها للكلمات الإسبانية.

أشكر الكون على إتاحة الفرصة لي للمشاركة في الوجود. إنه لأمر ممتع أنني موجودة على الدوام.

* * *

تحتل ووكر موقعا استثنائيا في تاريخ الكاتبات الأمريكيات المنحدرات من أصول إفريقية... إن معبد تابعتي عمل مذهل.

- مجلة Essence

بعد ظهورها الأول عام 1990. ظلت معبد تابعتي، رواية أليس ووكر التي هي تكملة لأيقونتها اللون أرجواني، على مدى ما يربو أربعة أشهر على قائمة أفضل المبيعات في نيويورك تايمز وساهمت في توطيد مكانتها وسط أهم الكتاب في أمريكا.

يتماوج القالب الرؤيوي للشخصيات بين الماضي والحاضر في آن معا، في نسيج معقد بأسلوب رائع من سرد الحكايات. يحكي التركيب الناتج قصة المعدمين والمشردين، بشر تاريخهم موغل في القدم ومستقبلهم مجهول. من بينهم ليزي، امرأة ذات ماض متعدد؛ أرفيدا، عازف الغيتار الشهير، وزوجته الأمريكية اللاتينية التي أرغمت على الهروب من موطنها؛ سويلو، مدرس التاريخ الذي يدرك إهمال أبناء جيله من الرجال للمرأة، وزوجته السابقة فاني، الواقعة بحب الأرواح. تجوس السيدة سيلي وشوغ فوق حكاياتهم عن قرب، الشخصيتان المحبوبتان من رواية اللون أرجواني.



على حد وصف المؤلفة رومانسية آخر خمسمائة ألف عام، تلاحق معبد تابعتي هذه الشخصيات متشابكة العلاقات، معظمهم ينحدر من أصول إفريقية ويمثل كل منهم سلالة عرقية مختلفة - من القبائل الإفريقية المتنوعة إلى ذوي الدم المختلط من سكان أمريكا اللاتينية - تساهم في تجربة السود في أمريكا.

أليس ووكر، الكاتبة الأكثر مبيعا، لها سبع أعمال روائية، وثلاث مجموعات في القصة القصيرة، وثلاث مجموعات في المقالة، وستة مجلدات شعرية إضافة إلى عدة كتب للأطفال. ترجمت أعمالها إلى أكثر من عشرين لغة. ولدت في إيتونتون، في جورجيا. وهي تعيش الآن في شمالي كاليفورنيا.


ISBN 978-2843-0917-2-8
9 782843 091728